

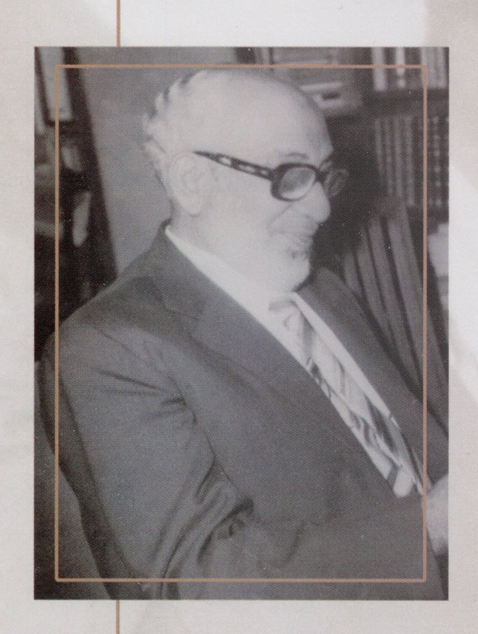






رسيس الهوى

بقية تراث شيخ العربية محمود محمد شاكر



د. عبد الرحمن بن حسن قائد

رَسِيسُ الهَوَى

بَقِيَّةُ تُرَاثِ شَيْخِ العَرَبِيَّةِ مَحْمُود مُحَمَّد شَاكِر

مُقَدِّمَات، مَقَالَات، مُتَرْجَمَات، مُلَخَّصَات، حِوَارَات، رِسَالَات، تَصْحِيحَات

د. عَبْدُ الرَّحْمَن بن حَسَن قَائِد

رَسِيسُ الهَوَى

بَقِيَّةُ تُرَاثِ شَيْخِ العَرَبِيَّةِ مَحْمُود مُحَمَّد شَاكِر

ح شركة آفاق المعرفة للنشر والتوزيع، ١٤٤٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

قائد، عبد الرحمن بن حسن

رسيس الهوى .. بقية تراث شيخ العربية محمود محمد شاكر - مقدمات، مقالات، مترجمات، حوارات، رسالات، تصحيحات./ عبد الرحمن بن حسن قائد - الرياض، ١٤٤٢هـ.

٤١٦ص؛ ١٧× ٢٤ سم

ردمك: ٨-١-٩١٥٣٨-٦٠٣-٩٧٨

١- الأدب العربي - مجموعات أ. العنوان

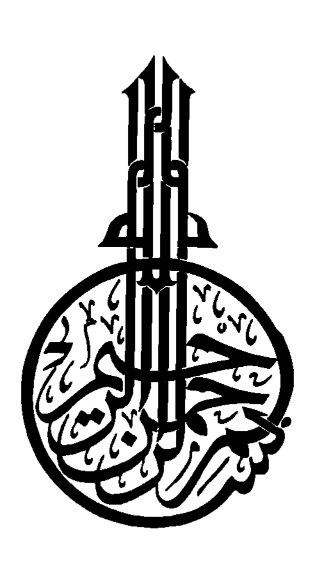
ديوي ٨١٠,٨ ١٤٤٢/٣٠٨٢

رقم الإيداع: ١٤٤٢/٣٠٨٢

ردمك: ٨-١-٩١٥٣٨-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الثانية

١٤٤٣هـ - ٢٠٢١م



الفهرس

مُقَدِّمَات

مَقَالَات

مُتَرْجَمَات

مُلَخَّصَات

حِوَارَات

رِسَالَات

تَصْحِيحَات

مقدمة الطبعة الثانية

حمدًا لك اللهمَّ وثناءً عليك ولا حول ولا قوة إلا بك.

وبعد، فقد قال بعض من تقدَّمنا: «الكتاب كالمكلَّف لا يسلم من المؤاخذة ولا يرتفع عنه القلم»[1]، وقال بعض من عاصرنا: «وفي رأيي أنه لا يجمل بالمتخصِّص في مادته، العاكف علىٰ دراستها، أن تكون طبعات كتابه صورة واحدة لا أثر فيها لتهذيب أو قراءات جديدة؛ فإن القعود عن القراءة سمةٌ من سمات الهمود، ولونٌ من ألوان الجمود»[2].

ولئن كان ذلك حقًّا وصوابًا فيما سبيله الدراسة والتدبر والنظر فإنه أحقُّ وأصوبُ فيما طريقه الجمعُ وبابه التتبُّع ودهليزه التقصِّي؛ إذ العجز شأن ابن آدم وإن سعىٰ، والنقص سبيله ولو اجتهد، فليستعن عليه إن شاء بدوام البحث، وكثرة السؤال، وليحشد له ما استطاع من جنود الصبر والدأب، والهمِّ والشغف، والرغبة والنهمة، والسَّهر والبكور، وليسأل الله التوفيق والعون، فإن مقاليد كل شيء بيده، سبحانه وبحمده.

ولو بقي المرء ينتظر بلوغ الكمال لما أنجز عملًا، ولا وصل إلىٰ غاية، وكم صرع تطلُّب الكمال من عقول رحلت قبل أن تُخْرِج ما تمنَّت، وماتت دون أن تنبس ببنت شفة، رغبةً منها في أن تحقق هذه الصيغة المستحيلة، كما صُرِع مجموعةٌ من أعز أصدقاء المسيري أمام ناظريه[3].

---

(١) حكاه القلقشندي في «صبح الأعشى» (١/ ٣٦).

(٢) مقدمة الطبعة الثالثة لكتاب «المغني في تصريف الأفعال» للشيخ محمد عبد الخالق عضيمة.

(٣) «رحلتي الفكرية» (١٣٣).

وإنما شأن العاقل أن يجتهد في تجويد عمله، وتقديم خير ما يقدر عليه في وقته؛ فإن «الإتقان لا حدَّ له، والأغلاط تُصَحَّحُ مع الزمن»، كما يقول العلامة الشيخ طاهر الجزائري[1].

هذه توطئةٌ وتمهيدٌ للاعتذار عمَّا أضفته لهذه الطبعة من نصوص جديدة وقفتُ عليها بعد صدور طبعة الكتاب الأولىٰ، منها خمسُ مقالات أفادنيها الأخ الكريم الأستاذ ياسر سعيد أحمد بارك الله فيه وجزاه خيرًا.

والنصوص الجديدة هي:

مقالة «الإصلاح الإسلامي» في «صحيفة الفتح».

مقالة «كيف ينبغي أن نعمل؟ موقف رجل» في «جريدة الدستور».

مقالتان في التعريف بكتاب «وحي الرسالة» للزيات، وكتاب «عمر بن أبي ربيعة» لجبرائيل جبور، في «مجلة المقتطف».

كلمة في الجود، كتبها أبو فهر في صدر نشرته لكتاب «فضل العطاء علىٰ العسر» لأبي هلال العسكري، وهي مقالة مفردة قائمة برأسها.

بحثٌ صغير في شواهد تقدير «أن» في بعض الأساليب، شارك به في الدورة الخمسين لمجمع اللغة العربية بالقاهرة.

ثم تصحيحاته وتعليقاته علىٰ «لباب الآداب» لأسامة بن منقذ، و«فصل المقال في شرح كتاب الأمثال» لأبي عبيد البكري، و«الطبقات» لابن سعد، وقد كنت تركتُ إلحاقها في الطبعة الأولىٰ لما قدَّرتُ من شهرتها عند طلبة العلم والباحثين، ثم بدا لي أن من سداد الرأي ضمَّها إلىٰ الكتاب ليكون مشتملًا علىٰ بقية تراث شيخ العربية رحمه الله،

---

(١) «كنوز الأجداد» لمحمد كرد علي (١١).

ولينتفع بها دارسو أدبه ومن عسىٰ أن ينهض لإعادة بناء معجمه اللغوي مستقصًىٰ مع عزو كل نصٍّ إلىٰ موضعه من كتبه، وإن فيها لعلمًا نافعًا وتنبيهاتٍ محرَّرة، وفي طليعتها تعليقاته العالية علىٰ كتاب «لباب الآداب» وما صحَّحه من نصوصه وشرحه من أشعاره.

ونسأل الله سداد العمل وهداية الطريق.

وكتب

د. عبد الرحمن بن حسن قائد

الرياض ١٤ ذو الحجة ١٤٤٢

فاتحة

إذا غيَّر النَّأيُ المُحِبِّينَ لم يَكَدْ ... رَسِيسُ الهوىٰ مِن حُبِّ مَيَّة يَبْرَحُ

ذو الرُّمة

وإذا صدع البينُ شملَ المحبِّين، فنأيُ أبي فهرٍ وشغلي بغيره لا يذهبان بما له في القلب من ودٍّ قديم وهوًىٰ لا يبلىٰ.

وقد قالوا إن «الرَّسِيسَ» أصلُ الحب، وقالوا هو ابتداء الهوىٰ وآخره، وهو بقيته في القلب ودفينُه، وهو مسُّه وحنينُه[1]، ولعمري إن لي ولهذا الكتاب من كل أولئك نسبًا عند أبي فهرٍ وصهرًا، فلقد نشأتُ أول ما نشأت مفتونًا ببيانه، مستهامًا بإبائه، مستغرقًا في شهود مجالي فضله، ولقد فتحتُ عينيَّ الصغيرتين حين فتحتهما علىٰ كتبه، فقرأت له وأنا غلامٌ حدثُ السنِّ في المرحلة المتوسطة (الإعدادية) كتابيه «المتنبي» و«أباطيل وأسمار»، وكَلِفتُ بهما كلفَ الصبيِّ، ولزمتهما لزوم الغريم، وما بك حاجةٌ لتسأل عن مبلغ ما فهمتُ منهما وما جهلت، فما هو إلا ما ظننتَ، ولئن فاتني أن أظهر يومئذ علىٰ جميع مقاصده، وأحيط بقريب مراده وبعيده، فحسبه أن ترك في نفسي من حبِّ العربية، وتعظيم الشريعة، وإجلال الصواب، واستبشاع الخطأ، والأنفة من التقليد، والرغبة إلىٰ التحقيق، والميل عن سبيل المتعالمين وأدعياء الثقافة، والنفور من الباطل وإن أقبل في طيلسان الشُّهرة، والصدِّ عنه وإن

---

(١) انظر لمعنى «الرسيس» وما قيل فيه إن شئت «ديوان ذي الرمة» بشرح أبي نصر الباهلي (١٠١٥، ١١٩٣، ١٢٢٩)، و«العين» (٧/ ١٩١)، و«الجمهرة» (١/ ١٢٠)، و«تهذيب اللغة» (١٢/ ٢٩٠)، و«بقية الأشياء» لأبي هلال (٩٢)، و«المخصص» (٤/ ٣٤٦)، و«النظام» لابن المستوفي (٢/ ١٩٣)، و«روضة المحبين» لابن القيم (٧٣).

هملجت به براذينُ الألقاب = ما لا أزال أتلمَّظ طعم العزَّة به، وأستسقي غيث المروءة منه، وألتمس أثر الإحسان فيه.

ووقر في قلبي الغضِّ من حبِّ أبي فهر، والثقة بعلمه، والإعجاب بمضائه وقوة عارضته، والحماسة لحماسته للإسلام ونفرته من المستشرقين وأدعياء العلم وأذناب الاستعمار ما وقر، ولقد تعلمُ أثر ذلك في القلب الغض!

ومضيتُ علىٰ ذلك العهد، محمود المذهب، شاكريَّ الهوىٰ، لا أقبل فيه نقدًا، ولا أبغي عنه حِوَلًا، كبعض من تعرف، ولم يزل يقوِّمني العلم، وتهذِّبني التجربة، وتثقِّفني ملاقاة الرجال، حتىٰ أنزلته حيث أقامه العدل ورضيه الإنصاف، شيخًا للعربية، وإمامًا في الأدب، ورأسًا من رؤوس البيان، وشارحًا بارعًا للتراث، ومشاركًا في علوم الشريعة مشاركة بحث واطلاع، غير معصوم من الخطأ ولا منزَّه عن الزلل فيما يكتب أو ينقد أو يحقق.

ورأيتُ أبا فهرٍ مظلومًا من رجلين: رجل أسرف في محبَّته، وبالغ في تعظيمه، وتوهَّم فيه الإحاطة بالعلم، والإشرافَ علىٰ اليقين، وظنَّه قولًا لا يسهو، ونظرًا لا يكلُّ، وميزانًا لا يجور. ورجل غضب من تعصُّب طائفة من أشياعه له، واستفزَّه غلوُّ بعض أنصاره فيه، فاجتهد في تتبُّع عثاره، وتقصِّي عيوبه، حتىٰ أدَّاه ذلك إلىٰ جحد حقِّه، وغمطِ صوابه. وكلاهما مجانفٌ لسبيل الإنصاف، مخالفٌ عن أمر العدل، متبعٌ حظَّ نفسه، مستجيبٌ لداعي هواه، وقد جعل الله لكل شيء قدرًا.

هذا ما كان من أمري وأمر «رَسِيس الهوىٰ» الشاكريِّ.

ولهذا الكتاب حظٌّ آخر من الرَّسِيس؛ فإنه بقية ما لم يُنْشَر من تراث أبي فهر مجموعًا مِن قبلُ في كتاب، كمقدماته لتآليف غيره، ومقالاته ومترجماته الأدبية التي خلت منها «جمهرة مقالاته» التي قام علىٰ نشرها تلميذه وصاحبه الوفي الدكتور عادل سليمان جمال، وكذا ما لخَّصه أيام دراسته بالجامعة من دروس أستاذه المستشرق الإيطالي نلِّينو، والحوار الوحيد الذي لم يتيسر للأخ العزيز وجدان العلي نشره

ضمن الحوارات واللقاءات التي جمعها في كتابه الجميل «ظل النديم»، ونخبة من رسائله الخاصة إلىٰ بعض شيوخه وأصحابه، ثم تصحيحاته لبعض الكتب التراثية المطبوعة مما يغفل عنه كثيرٌ من القراء وطلاب العلم والباحثين.

* * *

فأما مقدماته، فثمان مقدمات، بعضها طويلٌ مبسوط، كمقدمته الشهيرة لكتاب «الظاهرة القرآنية» لصديقه مالك بن نبي سنة ١٩٥٨، وإن كانت قد نُشِرت أخيرًا ضمن كتاب «مداخل إعجاز القرآن» الذي صدر بعد وفاته، إلا أني آثرتُ جمعها هنا مع سائر مقدماته الأخرىٰ لتكون في صعيد واحد علىٰ سنن المقدمات المجموعة.

وكذلك مقدمته الطويلة لكتاب «شرح الأشموني علىٰ ألفية ابن مالك» بتحقيق صديقه أيضًا الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد، وهي من بواكير كتاباته البحثية المطولة، كتبها سنة ١٩٣٣ وعمره يومئذ أربع وعشرون سنة.



عزيزي محمود أفندي شاكر
تذكار للأبد
محمد محيي الدين



القاهرة منزل أبناء أخوالي بالعباسية صورتها في يوم الثلاثاء ٢٠ جمادى الآخرة سنة ١٣٤٩ - ١١ نوفمبر سنة ١٩٣٠ تصوير وإخراج الأخ الشيخ أحمد الطاهر هارون القاضي الشرعي.
محمود محمد شاكر

قال الشيخ محمد محيي الدين في مقدمته: «وقد رغب صديقي الأديب الفاضل محمود أفندي محمد شاكر أن يكتب فصولًا يتكلم فيها عن نشأة اللغة وعلم النحو والطبقات الأولىٰ من نحاة البصريين والكوفيين، ليكون ذلك كمقدمة لهذا الكتاب، فرحبت بهذه الفكرة، وسررت لها، وأثبتُّها له شاكرًا».

ويلاحَظ أن أبا فهرٍ هو من طلب كتابة هذه المقدمة، علىٰ خلاف المألوف في كتابة المقدمات؛ ذلك أنه لم يُرِدها مقدمة تقليدية تثني علىٰ المؤلف أو المحقق وتعرِّف بكتابه، وإنما أراد بها تحرير القول في مسائل من نشأة اللغة وعلم النحو تحريرًا موجزًا يلخص ما انتهت إليه دراسته لهذه المسائل، ثقةً بامتلاء إنائه وأوان فيضِه.

وهو يشير إلىٰ بعض ما بعثه علىٰ كتابتها في قوله: «وقد كتبنا هذه الكلمة علىٰ قِصَرها واتساع ميدان الكلام في أغراضها لنتقدَّم بالكلام عن نشأة النحو في العربية، **فلو أتاحت لنا الأيام بعدُ استيفاء الكلام كله في هذا الأصل أصدرنا بعون الله كتابًا مستقلًّا بنفسه** لا ندع فيه كلمة للرأي إلا قلناها، **وعرَّفنا المبتدعة** مكان النحو والاشتقاق والبيان من اللغات، وفتحنا طريقًا لمعرفة سرِّ الإعراب في العربية، وأبنَّا عن معاني الحركات الأربعة في مواقعها من الكلام العربي».

وما يلبث أن تغلبه الحماسة فيعد القراء بتأليف ذلك الكتاب، فيقول: «وهذا بابٌ من القول لم نستوفه لضيق الوقت والتزامه إخراج هذا الجزء من «الأشموني» في ميعاده الذي ضُرِب له، ونحن لا نفتات علىٰ اللغة بما لا ترضاه ولا تقرُّه، ولا نذهب بها مذهبًا هي إلىٰ غيره أميل، ولا نضعها موضعًا هي في غيره أشرف وأنبل، **فلذلك نَعِد القراء بأن نوافيهم قريبًا بكتاب واسع المضطرَب، نزيد فيه الرأي وضوحًا**، ونقف عند كل كَلمة منه مع القارئ نبيِّن له ونوضِّح حتىٰ نقرِّر المذهب الذي نذهب إليه، فإن ارتضاه اعتقده وإن أباه ردَّ علينا فساده ونبَذه». ولا أعلم من أمر هذا الكتاب شيئًا ولا رأيت من ذكره.

وفي هذه المقدمة على تقدُّم زمان كتابتها فوائد وتحريراتٌ نافعة.

ثم تليهما في الطول مقدمة كتاب «حياة الرافعي» لصديقه كذلك محمد سعيد العريان سنة ١٩٣٩، وهي مقدمة أدبية فنية عالية الأسلوب فيها قبسٌ من روح الرافعي وبيانه.

وباقي مقدماته مختصرةٌ موجزة، وآخرها مقدمته لكتاب صاحبه الشيخ محمد عبد الخالق عضيمة «دراسات لأسلوب القرآن الكريم» سنة ١٩٧٢.

وقد أدرج الدكتور عادل سليمان جمال هاتين المقدمتين الأخيرتين (مقدمة كتاب حياة الرافعي ومقدمة كتاب دراسات لأساليب القرآن) وحدهما في «جمهرة مقالات محمود شاكر»[١].

ومن المقدمات المغمورة التي يضمُّها كتابنا مقدمة رسالة الصلاة للإمام أحمد بن حنبل التي نشرها أبو فهر في «لجنة الشباب المسلم» بالقاهرة إبَّان نشاطها في خمسينيات القرن الميلادي المنصرم، وكان هو الموجِّه الفكريَّ لها كما يقول الطناحي[٢].

وقد غابت هذه الرسالة ومقدمتها عن عامة القوائم الببليوغرافية المنشورة لأعمال محمود شاكر[٣].

---

(١) (٢/ ١٢١٨- ١٢٢٦).

(٢) «مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي» (١٥١).

(٣) كمسرد الأعمال المنشور في مقدمة «الدراسات العربية والإسلامية المهداة إليه» وقد أعدَّه بإشراف أبي فهر ودلالته صاحبه جمعة ياسين، والقوائم التي ضمتها الكتب التالية له، ككتاب «من أعلام العصر» لأسامة بن أحمد شاكر (٨٣- ١٠٠)، و«أبو فهر محمود محمد شاكر بين الدرس الأدبي والتحقيق» لمحمود إبراهيم الرضواني (٤٧٩- ٤٩٩)، وغيرهما من الكتب المفردة في دراسة سيرته وأدبه.

وفي قلة ما كتبه محمود شاكر من المقدمات لكتب غيره علىٰ طول عمره وكثرة المؤلفين من أصحابه المتصلين به وجلالته في أنفسهم غرابة، ولعل مردَّ ذلك إلىٰ شخصيته التي لا تحفل بهذه الرسوم ولا تلقي لها بالًا، ومن تأمل فيما كتبه منها وجد أنه لم يكتبه إلا لحاجة دعت إليه مبتدئًا أو مجيبًا.

* * *

وأما **مقالاته** فسبع عشرة مقالة خلت منها «جمهرة مقالاته» المطبوعة، وتُنشر اليوم للناس أول مرة في كتاب، وكانت من قبلُ مطوية في زوايا المجلات والصحف نائيةً عن أبصار القراء والدارسين.

وقد رتَّبتها علىٰ تواريخ نشرها، ليقف القارئ علىٰ تطوُّر قلم محمود شاكر وارتقاء أسلوبه طورًا بعد طور، ويشهد المرحلة الأولىٰ من مراحل حياته الكتابية، إذ تشتمل علىٰ أقدم ما وصلنا من بواكير مقالاته التي نشرها ولمَّا يبلغ العشرين من عمره، وهي نصوصٌ في غاية الأهمية لدارسي أدبه، ومتتبعي تطوُّر بيانه، وراصدي وثبات قلمه، نرىٰ فيها هذا القلم إذ ذاك متقارب الخطو، ضيِّق المضطرب، ثم نشهده بعد ذلك بسنواتٍ قليلة حين اعتزل الناس، وانصرف إلىٰ دراسة الشعر الجاهلي ما بين سنتي (١٩٢٩- ١٩٣٦)، وخرج علىٰ الدنيا بكتابه الباذخ عن المتنبي سنة ١٩٣٦، وقد استمسك قلمه في يده، واستحكمت قوَّته، واستوىٰ علىٰ سوقه، وجرىٰ علىٰ سننه الذي نعرف.

كما تظهر في مقالاته الأولىٰ حماسته الفتيَّة للإسلام، وغيرتُه علىٰ حدود الدين، وحِملُه همَّ نصرته، واستشعارُه واجبه في الذود عنه، واستقلاله في النظر لمنهج إصلاحه، كما في مقاله الذي عنونه بـ«الإصلاح الإسلامي» في شهر رجب سنة ١٣٤٥- يناير ١٩٢٧، وهو في الثامنة عشرة من عمره في سنته الثانية بالجامعة المصرية، وهو أقدم ما وصلنا من مقالاته، وقد وقَّعه بحروف اسمه (م. م. ش)، وستأتي رسالته التي كتبها إلىٰ شيخه الرافعي موقَّعةً بتلك الحروف.

وفي مقاله الآخر الذي وسمه بـ«معجزة الدهر.. الدولة الإسلامية الكبرىٰ في ثمانين عامًا»، ونشره في شهر ذي الحجة من السنة نفسها، ومن هذا المقال ابتدأ كتابة اسمه الصريح في مقالاته.

ثم في مقالَيه في شهر ربيع الأول من السنة التي تليها ١٣٤٦ - سبتمبر ١٩٢٧ في الرد علىٰ الشيخ علي عبد الرازق الذي كتب في مطلع ذلك الشهر بمناسبة ذكرىٰ المولد النبوي مقالًا في جريدة «السياسة الأسبوعية» نفىٰ فيه أن يكون للنبي ﷺ عظمةٌ غير عظمة كلمة التوحيد، فأثار مقاله غضب كثير من أهل العلم، وتناولوه بالردِّ والتعقيب، ومنهم شيخ الأزهر العلامة محمد الخضر حسين، كما بيَّنت في حاشية المقال هناك.

ومما قاله محمود شاكر في صدر مقاله الأول: «نشر علي عبد الرازق في جريدة السياسة مقالًا تحت عنوان «محمد» يوم الخميس ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٤٦، فما كنَّا نودُّ أن نتحرَّكَ للرَّدِّ بعد ما قام إخواننا المخلصون بواجبهم في الردِّ، وفيهم الكفاية التامَّة، مع عجزنا وضعفنا. كلنا يعلم أن المقال لم يكن موضوعًا علميًّا حتىٰ تنبري له كلُّ هذه النفوس لتردَّه مذمومًا مدحورًا، **ولكن خشية أن تغرَّ أمثال هذه الألفاظ الجوفاء شبابنا الناهض قام المخلصون بواجبهم في ردِّ مثل هذه الأقوال، ونِعمَّا هذه الردود، فالوقت الذي نحن فيه طورٌ عنيفٌ من أطوار حياتنا انتابت عقول الكثيرين الشكوك، وما أسرع ما يلقط عقلُ الشَّاكِّ أمثال هذه الأقوال المرذولة**»، وهو شاهدٌ قريب الدلالة لما قدَّمناه من غيرته علىٰ حدود الشريعة وحماسته للدفاع عنها.

وفي مقاله الذي جعل عنوانه «تحت راية الشبان المسلمين.. بين رجل وامرأة»، المنشور في رمضان ١٣٤٦ - فبراير ١٩٢٨، وأداره علىٰ المقارنة بين وضع المرأة في الإسلام ووضعها اليوم، من خلال قصة زيارته لإحدىٰ الأسر الإنجليزية بالقاهرة وما دار بينه وبين سيدة البيت من حوار، تتبدَّىٰ لنا مرة أخرىٰ حماسته المضطرمة،

وعاطفته المتلهِّبة، وضيقه بمظاهر الحياة الفكرية والاجتماعية يومئذ، ممَّا نلمح ظلاله فيما حكاه صاحبه محمد سعيد العريان من شأن صلته بشيخه الرافعي تلك الأيام(١).

---

(١) «حياة الرافعي» (٢١٢، ٢٨١- ٢٨٢).

وتأمل رسالته التي بعثها إلى الرافعي يستحثُّه للردِّ على من زعم أن عبارة «القتل أنفى للقتل» أبلغ من الآية القرآنية، قال فيها: «**أكتبُ إليك متعجلًا بعد أن قرأتُ كلمةً كافرةً في** «كوكب الشرق» الصادر مساء الجمعة ٢٧ من أكتوبر، كتبها متصدِّرٌ من نوع قولهم: حبذا الإمارة ولو على الحجارة. وسمى نفسه «السيد»، فإن صدَق فيما كتب صدَق في هذه التسمية. طعن القرآنَ وكفر بفصاحته، وفضَّل على آية من كلام الله جملةً من أوضاع العرب، فعقد فصله بعنوان «العثرات» على ذلك التفضيل، كأنَّ الآية عثرة من عثرات الكتَّاب يصححها ويقول فيها قوله في غلط الجرائد والناشئين في الكتابة، وبرقع وجهَه وجبن أن يستعلن، فأعلن بزندقته أنه حديثٌ في الضلالة. **غلى الدمُ في رأسي حين رأيت الكاتب يلجُّ في تفضيل قول العرب**: «**القتل أنفى للقتل**» **على قول الله تعالى** في كتابه الحكيم: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ [البقرة:١٧٩]، فذكرتُ هذه الآية القائلة: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ ﴾ [الأنعام:١٢١]، وهذه الآية: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [الأنعام:١١٢]، ثم هممتُ بالكتابة، فاعترضني ذكرُك، فألقيتُ القلم؛ لأتناوله بعد ذلك وأكتب به إليك. ففي عنقك أمانة المسلمين جميعًا لتكتبنَّ في الرد على هذه الكلمة الكافرة لإظهار وجه الإعجاز في الآية الكريمة، وأين يكون موقع الكلمة الجاهلية منها؛ **فإن هذه زندقةٌ إن تُركَت تأخذ مأخذَها في الناس جعَلت البرَّ فاجرًا، وزادت الفاجر فجورًا**، ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الأنفال:٢٥]. **واعلم أنه لا عذر لك، أقولها مخلصًا، يمليها عليَّ الحقُّ الذي أعلم إيمانك به، وتفانيك في إقراره والمدافعة عنه والذود عن آياته. ثم اعلم أنك ملجأٌ يعتصم به المؤمنون حين تناوشهم ذئابُ الزندقة الأدبية التي جعلت همَّها أن تلغ ولوغها في البيان القرآني**. ولست أزيدك؛ فإن موقفي هذا موقف المطالب بحقه وحقِّ أصحابه من المؤمنين. واذكرْ حديث رسول الله ﷺ: «من سئل علمًا عَلِمَه، فكتمه، جاء يوم القيامة ملجمًا بلجام من نار» أو كما قال. والسلام عليكم ورحمة الله. م. م. ش». «وحي القلم» (٣/ ٢٦٣)، و«رسائل الرافعي إلى أبِي رية» (٢٦٧).

واقرأ كذلك فيما سيأتي قوله في رسالته إلى الشيخ عبد الحي الكتاني سنة ١٩٣٣: «أرجو أن لا تنسوني من الدعاء لي بالتوفيق والهدى والرحمة، **ولو كنتَ تعلم سرَّ قلبي وما انطوى عليه من القلق إلى الخروج من هذا البلد الممتلئ بالمآثم والمخازي لجهدتَ في دغائك لي**، واجتهدتَ اجتهاد من لا غاية له إلا ما يدعو وما يسأل».

ونرىٰ كذلك هذه الروح الوطنية المتوثبة، التوَّاقة إلىٰ العدل، المبغضة للظلم، المنابذة للفساد، في مقالته المنشورة في رجب ١٣٤٦ - ٥ يناير ١٩٢٨ في رثاء الزعيم الوطني والكاتب الكبير أمين الرافعي، بعنوان «صريعٌ تحت لواء الجهاد».

ففي هذه المقالات كما ترىٰ توثيقٌ لأولىٰ مدارج محمود شاكر في الفكر والمنهج ومواقفه من السياسة والحياة والناس.

وعلىٰ ذكر جمعية «الشبان المسلمين» التي أشار إليها أبو فهر في عنوان المقال المتقدم، فإن التاريخ قد حفظ لنا أن محمود شاكر كان صاحبَ فكرة إنشاء هذه الجمعية مع ابن خالته الأستاذ عبد السلام هارون سنة ١٩٢٨، بمعونة الأساتذة الكبار: محب الدين الخطيب، وأحمد تيمور باشا، ومحمد الخضر حسين، وكان غرض الجمعية نشر العلم عبر جماعة من العلماء المؤهلين في مختلف العلوم، ولا يدخلها إلا من توفرت فيه شروط العالم، وفي ذلك كتب محمود شاكر مقالته عن الجمعية ونشأتها وتاريخها[١]، قبل أن يتركها لتغيُّر الغرض الذي أنشئت من أجله كما ذكر لبعض أصحابه[٢].

وفي سنة ١٩٣٥ ينهض أبو فهر لإعادة نشر كتاب «فضل العطاء علىٰ اليسر» في المطبعة السلفية، استجابة لرجاء صديقه الأستاذ الكبير محب الدين الخطيب، ويثبت علىٰ لوحة عنوانه: «صححه وحققه وعلق عليه محمود محمد شاكر»، ويكتب في صدر الكتاب كلمة بليغة ناصحة في فضل الجود والحث علىٰ البذل وفلسفة العطاء ونقد ما آلت إليه المدنية المعاصرة من العدول عن الفطرة الأولىٰ.

---

(١) صحيفة الفتح، العدد ١٦، ربيع الأول ١٣٥٣ - يونيو ١٩٣٤، وفي «جمهرة المقالات» (٢/ ٧٧١- ٧٧٧).

(٢) «أبو فهر محمود محمد شاكر بين الدرس الأدبي والتحقيق» للرضواني (٢٤).

ثم تمرُّ الأيام إلىٰ سنة ١٩٤٠ لنجدنا أمام مقالة فاخرة في التأصيل لعلم التاريخ ونشأته وتدوينه ومنهج كتابته بعنوان «كلمة في التاريخ»، كتبها ردًّا علىٰ مقال لمحمد حسين هيكل عن «بيعة أبي بكر الصديق»، وذلك بعد صدور كتابه المشهور «حياة محمد ﷺ».

وبعد هذه المقالة بشهرين يعود أبو فهر للتعريف بالكتب الصادرة حديثًا في «مجلة المقتطف» بعد أن انقطع عن ذلك بضع سنين، فيكتب تعريفًا بكتاب «وحي الرسالة» للزيات، ومعه تعريفٌ بالجزء الثاني من كتاب «عمر بن أبي ربيعة» لجبرائيل جبور، دون أن يوقعهما باسمه، لكن الزيات صرَّح بنسبته إليه عندما نشر طائفة من «آراء صفوة الكتَّاب» في «وحي الرسالة» آخر الجزء الأول (ص ٤٩٥) من طبعته التي أصدرها بعد ثورة ١٩٥٢ وحذف منها الفصول التي جرىٰ فيها لفاروق وأبيه ذكرٌ وجعل عوضها تلك «الآراء»، وبيانُ أبي فهر توقيعٌ وإمضاء.

وبعدها بنحو ثلاثة أشهر نجد مقالة من مقالاته التي يمتزج فيها الأدب بالسياسة والشأن العام، تتصل بموقف رئيس وزراء مصر حينئذ علي ماهر من الحرب العالمية الثانية، وانتهاجه سياسة «تجنيب مصر ويلات الحرب» علىٰ خلاف هوىٰ الإنجليز[1]، يقول فيها: «لا أحبُّ أن أتناول في هذه الكلمة سياسةً أنقدها أو أحبِّذها، وإنما أحبُّ أن أبين عن روح القوَّة الأدبية الهائلة التي تدفع الرجلَ أن يعلن رجولته في الموقف المتضايق، حيث تفقد أكثر النفوس ضياءها ونورها»، ثم يجيب عن سؤال متوقَّع من قرائه الذين عرفوه أديبًا مشتغلًا بالأدب وعلوم العربية، فيقول: «وأنت تسألني: وأين هذا من الأدب الذي قد نصبتَ له نفسك، وعقدتَ علىٰ أسبابه عزمك، وعكفتَ عليه لا تحاول غيره؟! وأنا لا أستطيع أن أجيب من يسأل، ولكني أعرف أن الأدب إذا لم يكن هو الذي ينشئ الرجال للشعب، وإذا لم تكن غايته أن يجري في دم الشعب

---

(١) كتب عنه الأستاذ محمود شاكر وعن الحرب بضع مقالات (قبل هذا المقال وبعده) في «جريدة الدستور» نشرت في جمهرة مقالاته (٢/ ٨٣٣- ٨٥٢).

ليحشد من مجموع الوراثات المصرية السابحة في الدم المصري جيشًا يستطيع أن يدافع عن مصر دفاعًا لا يكلُّ ولا يفتر، وأن يكون لهذا الجيش قائدٌ وحكيمٌ يستطيع أن يمسك الجيش أو يرسله علىٰ تدبيرٍ وسياسة وإحكام = فإن هذا الأدب الذي نعكف عليه وثنٌ باطل الصُّورة والمعنىٰ».

وبعدها بسبع سنين نقف علىٰ مقالة كريمة العلم والخلق، في مجلة «الرسالة» في شهر يناير سنة ١٩٤٧ بعنوان «كلمة في بيت»، جوابًا عن تعليق قصير كتبه أحد الأدباء المغمورين مستدركًا علىٰ أبي فهر قراءته بيتًا من الشعر في مقالته النبيلة عن شيخه المرصفي، فلم يجد حرجًا من الاعتراف بصواب النقد، وشكر الناقد المغمور، ولم يتلجلج قلمه عن العودة إلىٰ الحق، والإقرار بالخطأ، وإن كان قد ذكر وجهًا آخر يمكن به تصحيح قراءته الأولىٰ لو أراد الإصرار علىٰ ما تقدَّم منه، لكنها أخلاق الكبار وشمائل الفرسان. وقد دلني علىٰ هذا المقال ورسالة الشيخ أبي الحسن الندوي الآتية وتصحيح البيت الأخير الأخ الكريم عمرو حمدي شكر الله له وجزاه خيرًا.

وفي العام نفسه عثرت علىٰ مقالة يتيمة له في مجلة «المختار من ريدرز دايجست»، عدد مايو ١٩٤٧ التي تولىٰ إدارة تحريرها من يوليو ١٩٤٦ إلىٰ نوفمبر ١٩٤٧ بدعوة من صديقه فؤاد صرُّوف صاحب مجلة «المقتطف»، فشارك في اختيار وترجمة موادها، واستطاع كما قالوا «أن يقدِّم مستوًىٰ للترجمة الصحفية لم يُعْرَف من قبل» كما ذكرت في حاشية المقالة هناك، وكانت بعنوان «إياكَ والقناعة.. حَذَارِ من الحسرة»، وهو نداء الحياة لكل حيٍّ يريد أن يستوعب ما فيها من العلوم والمعارف، وأشاد في مقالته بدور مجلة «المختار» في تحقيق هذا الهدف.

وقد تصفَّحتُ الأعداد الصادرة في زمن تولي محمود شاكر إدارة تحرير هذه المجلة، فوقفتُ علىٰ طائفة من المقالات المترجمة تبرق منها أساريرُ قلمه وتنمُّ حروفها علىٰ صنعته مترجمًا أو مراجعًا محررًا، ولولا أنها لم توسم باسمه كما هو

منهج المجلة لأدرجتها في هذا المجموع، لكني التزمتُ ألا أورد لك إلا ما صحَّ سنده وثبتت نسبته بالنصِّ لا بالاجتهاد.

ثم تطوىٰ السنين طيًّا لنصل إلىٰ شهر أكتوبر سنة ١٩٧٣ حين عادت مجلة «الثقافة» للظهور مرة أخرىٰ برئاسة تحرير الدكتور عبد العزيز الدسوقي، فنشر محمود شاكر في العدد الأول منها قصيدة لابن المعتز، اختارها وشرحها شرحًا موجزًا. ولأبي فهر اختياراتٌ شعرية رائقة، وقفنا علىٰ بعضها فيما نشره تلميذه الدكتور يعقوب الغنيم في كتابه «قراءة في دفتر قديم» مما كان يقرؤه عليهم ويمليه من كريم شعر العرب ومختاره.

ومن جريدة «الأهرام» سنتي ١٩٧٨ و١٩٨٢ مقالان صحفيَّان يناقش الأول منهما وضع الكتاب المطبوع في العالم العربي وما يمرُّ به من ضوائق ومشكلات، ويحرر الثاني موقف المستشرقين الكبار من قضية الشعر الجاهلي وأنهم ليسوا علىٰ رأي مرجليوث في التشكيك في صحة نسبة ذلك الشعر، بل إن منهم من ردَّ عليه وسفَّه قوله، ثم يحرر أيضًا موقف محمد بن سلَّام صاحب «طبقات فحول الشعراء» من الشعر المصنوع، وكيف ضلَّ بكلامه من لم يفهمه علىٰ وجهه.

وآخر هذه المقالات: «شواهد التوضيح لتقدير «أن» في بعض الأساليب»، وهو بحثٌ لغويٌّ مختصر قيَّد فيه محمود شاكر وهو في نحو الخامسة والسبعين من خريف عمره بعض شواهد النصوص لهذه المسألة اللغوية، مشاركًا به في أعمال «الدورة الخمسون» (١٩٨٣ - ١٩٨٤) لمجمع اللغة العربية بالقاهرة الذي كان من أعضائه.

هذه هي مقالاته السَّبع عشرة التي ضمَّها كتابنا وخلت منها «جمهرة المقالات» المنشورة، وهي ما صحَّ عندي نسبته لأبي فهر بالنصِّ لا بالاجتهاد، ولو فتحتُ الباب لإيراد محتمل النسبة ومظنونها لدخل منها غيرُ قليل، كما قدَّمتُ في مقالة مجلة

«المختار من ريدرز دايجست»، لكني اقتصرتُ علىٰ اليقين، وانتهيتُ إلىٰ ما علمت، وقد أحسن من انتهىٰ إلىٰ ما عَلِم.

ومن تلك المقالات التي للظن والاجتهاد فيها مسرحٌ ومجال بعض ما نشرته مجلة «المقتطف» في التعريف بالكتب ونقدها في بابها المشهور «مكتبة المقتطف» دون توقيع صريح باسم الكاتب، وذلك إبَّان نشاط محمود شاكر في تحرير ذلك الباب، كما تراه فيما نُشِر في جمهرة مقالاته[1].

ومن قرائن الظن أن يوقِّع الكاتب مقالاته بنجوم ثلاث (***)، كما كان يوقِّع محمود شاكر بعض مقالاته هناك، كما في تعريفه بكتاب «ملوك الطوائف» لدوزي الذي أحال فيه علىٰ ما كتبه في مقال آخر ثابت النسبة له، وكلاهما ضمن جمهرة مقالاته[2].

ومن المقالات المحتملة: التعريف بكتاب «مفتاح كنوز السنة» لمحمد فؤاد عبد الباقي الذي ورد قبل مقال دوزي السابق دون توقيع[3]، ولم تثبته الجمهرة.

ومن قرائن الظن إحالته فيما ورد غفلًا من التوقيع علىٰ ما يحتمل أنه كاتبه في موضع آخر من «المقتطف»، كقوله في مقالة التعريف بكتاب «الجاحظ معلم العقل والأدب» لشفيق جبري: «أحسن الأستاذ شفيق جبري في **كتابه المتنبي الذي عرضنا له بالنقد والتحليل في مقتطف العام الماضي**»[4]، وهذه المقالة والمقالة التعريفية بكتاب «المتنبي» التي يشير إليها[5] كلاهما لم توقَّعا باسم كاتبهما ولم تثبتا في «جمهرة المقالات»، وإن كانت الأولىٰ وقِّعت بثلاث نجوم (***)، وقد قال في مقالة التعريف بكتاب «أدب الجاحظ» للسندوبي: «وقد اطلعنا في خلال الشهرين

(١) (٢/ ٦١٤- ٧٠٧).

(٢) (٢/ ٦٩٥، ٦٢٣).

(٣) مجلة «المقتطف»، الجزء ٢، المجلد ٨٥، أكتوبر ١٩٣٤، ص ٢٥٠.

(٤) مجلة «المقتطف»، الجزء ٣، المجلد ٨١، أكتوبر ١٩٣٢، ص ٣٦٧.

(٥) مجلة «المقتطف»، الجزء ٤، المجلد ٧٧، نوفمبر ١٩٣٠، ص ٤٦٦.

الماضيين على كتابين من الكتب الحديثة في الجاحظ، الأول: كتاب **شفيق جبري، وقد ذكرناه في مقتطف أكتوبر الماضي**، والثاني: الكتاب الذي بين أيدينا الآن»، وهذه المقالة وإن لم توقَّع باسم أحد، لكنها وردت قبل مقالة التعريف بكتاب «الصاحب بن عباد» الموقَّع باسمه، وأُثبتتا جميعًا في «جمهرة المقالات»[1]، وموضعُ الظن فيما تقدم أنه يَرِد على قوله «عرضنا» و«ذكرنا» احتمال أن يكون أراد بـ(نا) إدارة تحرير «المقتطف»، فإن كان أراد نفسه[2] فهي من فوات المقالات.

وثمَّة مقالةٌ أخرى ذُكِرت في بعض القوائم الببليوغرافية المنشورة لأعمال محمود شاكر بعنوان «كتاب الأم للإمام الشافعي، البلاغ ١٩٣٠»، كذا أوردها جمعة الياسين في قائمته الأولى[3]، وتبعه من تبعه[4]، ولم أقف عليها، وذكر لي أخي الأستاذ محمد بن سعود الحمد أنه بحث عنها في أعداد تلك السنة من مجلة «البلاغ» والتي قبلها والتي بعدها فلم يجدها.

ومن المقالات المنشورة لأبي فهر في المجلات والصحف ما قد يشتبه أمره على غير المتثبت، فيظنه من فوات «الرسيس» أو «الجمهرة»، ولا يعلم أنه منشورٌ فيهما بعنوان مختلف! ذلك أن بعض المجلات تعيد أحيانًا نشر مقالاتٍ نُشِرت من قبل في مجلاتٍ أخرى، وتضع لها عناوين جديدة، كما في مقالة «شعب واحد وقضية واحدة» المنشورة أولًا في مجلة «الرسالة»، ثم أعادت مجلة «الفتح» نشر فقراتٍ منها بعنوان «نحن العرب» في العدد ٨٤٥، ٣ رجب ١٣٦٦، وعن مجلة «الرسالة» نُشِرت

---

(١) (٢/ ٦١٤، ٦١٨).

(٢) وهو ما رآه الدكتور إبراهيم الكوفحي في كتابه «محمود محمد شاكر سيرته الأدبية ومنهجه النقديّ» (٥٦).

(٣) «دراسات عربية وإسلامية مهداة إلى أديب العربية الكبير أبي فهر محمود محمد شاكر بمناسبة بلوغه السبعين» (٢٠- المقدمة).

(٤) «من أعلام العصر» لأسامة بن أحمد شاكر (٨٣)، و«أبو فهر محمود محمد شاكر بين الدرس الأدبي والتحقيق» لمحمود الرضواني (٤٨٥).

المقالة في «جمهرة المقالات»[1].

وقد كنت أثبتُّ من المقالات مقالًا بعنوان «من التحقيقات اللغوية»، وهو بحثٌ لغويٌّ محرر كتبه محمود شاكر في السابعة والسبعين من خريف عمره، بمجلة «مجمع اللغة العربية» بالقاهرة في ربيع الأول ١٤٠٧- نوفمبر ١٩٨٦، وهو عضوٌ بالمجمع، أجاب فيه علىٰ ما أحاله عليه الدكتور مهدي علام بصدد بعض مشكلات اللغة في «المعجم الكبير» الذي يُعِدُّه المجمع، ثم نبَّهني بعض الإخوة إلىٰ أنه مما استدرك في آخر الطبعة الثالثة من «جمهرة المقالات»، والتي بين يديَّ الطبعة الأولىٰ منها، فرأيتُ حذفه من الكتاب؛ لتبقىٰ مقالات «رسيس الهوىٰ» خالية من الشركاء، ومتىٰ كان الهوىٰ يقبل الشركة؟!

* * *

ثم تأتي من بعد ذلك نصوصه الأدبية التي ترجمها -أو «أفرغها في القالب العربي» كما هي عبارته الطريفة التي أثبتها في توقيعه آخر ترجمته- سنة ١٩٣٤ عن الإنجليزية لثلاثة من كبار الأدباء العالميين، وننشرها اليوم أول مرة بعد أن بقيت حبيسة مجلة «المقتطف» نحو ستة وثمانين عامًا، وقد خلت منها «جمهرة مقالاته» ومجموع شعره «اعصفي يا رياح وقصائد أخرىٰ».

النص الأول «الإنذار المثلث» لأرثر شنتزلر، **والثاني** «جَنَّة العاملين» لطاغور، **والثالث** «القارئ يناجي شاعره» لرتشرد لا غالين.

وهي نصوصٌ أدبية عالية الأسلوب، فيها ألوانٌ من الصنعة البيانية، وفنونٌ من التعبير الدقيق عن المعاني، وقد افتتح النص الأول بقوله تعالىٰ: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ

---

(١) (١/ ٤١٠).

﴿إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [الأنعام:٥٩] تحرُّجًا مما قد يوهمه النصُّ من علم غير الله بالغيب.

وقد ترجم محمود شاكر سنة ١٩٣٤ بضع قصائد عن الإنجليزية في مجلة «المقتطف»، ونشرها ابنه فهر فيما جمعه من شعره.

* * *

ومن مواد هذه المجموعة التي تُنْشَر أيضًا أول مرة في كتاب: ملخَّصات محمود شاكر لبعض محاضرات أستاذه المستشرق الإيطالي كارلو نلِّينو (ت: ١٩٣٨) التي ألقاها عليهم بكلية الآداب بالجامعة المصرية سنة ١٩٢٧ عن تاريخ اليمن قبل الإسلام وجهود المستشرقين الأوروبيين في دراسته، وهي محاضراتٌ محرَّرة غزيرة الفائدة، نشر أبو فهر ما لخَّصه منها في أربع مقالات بمجلة «الزهراء» ذلك العام[1]، ولم يكملها.

وقدَّم لها الأستاذ محب الدين الخطيب بقوله: «العلامة المحقق الأستاذ نالينو C. A. Nallino الإيطالي في الطبقة الأولىٰ من علماء المشرقيات لهذا العهد، تولىٰ تدريس العربية في كلية بالرمة، ثم في جامعة رومة، وهو صاحب محاضرات «تاريخ علم الفلك عند العرب في القرون الوسطىٰ» في الجامعة المصرية القديمة، وناشر «زيج البتاني» سنة ١٩٠٣.

وقد بدأ في هذا الشهر بإلقاء محاضرات في الجامعة المصرية عن تاريخ اليمن القديم، وقدَّم بين يدي البحث خلاصة في أسماء الأوروبيين الذين ارتادوا تلك الديار باحثين عن ماضيها وحاضرها، **ونحن ننشر ذلك ملخصًا مما كتبه صديقنا**

---

(١) المجلد ٣، الجزء ٨ و٩ و١٠، والمجلد ٤، الجزء ١و٢. **والمقالة الرابعة لم تذكر في شيء من القوائم البيليوغرافية المنشورة لأعمال الأستاذ محمود شاكر**. وقد وعد محبُّ الدين الخطيب في الجزء ٤ من المجلد ٤ ص ٢٠٥ بنشر مقالة أخرى من هذه الملخصات، لكن لم أجدها.

السيد محمود شاكر الذي أخذ علىٰ نفسه كتابة هذه المحاضرات سماعًا من الأستاذ نالينو»[١].

ولم يكن نلِّينو يطلع علىٰ هذه الملخصات قبل نشرها في المجلة، ولذلك وقع في المقالة الأولىٰ بعض السَّهو في مواضع يسيرة، فأرسل لهم استدراكًا نشرته المجلة في آخر المقالة الثانية، وصدَّره الخطيب بقوله: «بدأنا في الجزء الماضي بنشر المعلومات القيمة التي يلقيها العلامة المحقق الأستاذ كارلو نالينو C. A. Nallino علىٰ طلبة الجامعة، **واعتمدنا في نشرها علىٰ المذكرات التي يكتبها صديقنا السيد محمود محمد شاكر سماعًا من الأستاذ**، ولما اطلع الأستاذ علىٰ ما نُشِر من محاضراته في الزهراء وقع ذلك منه موقع الرضا، وكلَّف نفسه مهمَّة الاطلاع علىٰ ما سننشره قبل نشره تفاديًا من وقوع الخطأ في الأعلام وغيرها، وكتب لنا بخطه استدراكًا لما وقع من ذلك فيما نُشِر في الجزء الماضي، ولم يطلع عليه قبل نشره»، ثم أصبح نلِّينو ينظر فيها قبل أن تنشر كما ذكر الخطيب في مطلع المقال الرابع.

وكانت الصِّلة بين نلِّينو ومحمود شاكر يومئذ موثقة العرىٰ، قوية الأسباب، وكان من أوائل من صارحهم وأفضىٰ إليهم بسخطه من سطو طه حسين علىٰ مقالة مرجليوث في قضية الشعر الجاهلي، وكان نلِّينو يعرف ولكنه يُدَاوِر، كما يقول أبو فهر[٢]، ثم حين قرَّر ترك الجامعة بعد أن سقطت هيبتها من نفسه، طالبًا للعزلة حتىٰ يستبين وجه الحق في هذه القضية، كان نلِّينو علىٰ رأس من حاولوا ثنيه عن قراره وإقناعه بالرجوع، وزاره في بيته وكلَّم والده واجتهد في إقناعه بكل سبيل، وكان يؤمِّل فيه آمالًا عريضة ويتابع ما يكتبه في الصحف باهتمام وإعجاب[٣].

---

(١) مجلة الزهراء، شعبان ١٣٤٥، المجلد ٣، الجزء ٨، ص ٥٠٢.

(٢) «المتنبي» (١٧، ١٩).

(٣) «جمهرة المقالات» (٢/ ١١٠٧- ١١١٢).

وقد وصفه محمود شاكر فقال: «شيخٌ مهيب الطَّلعة، كثُّ اللحية، واسع العلم، فصيح اللسان بالعربية»[1]، وعدَّه من كبار المستشرقين[2].

* * *

وينفرد «رسيس الهوىٰ» بحوار صحفيٍّ لمحمود شاكر لم يسبق نشره من قبل في كتاب، وهو الحوار الذي أجرته معه مجلة «الفيصل» في شوال ١٣٩٩ - سبتمبر ١٩٧٩، وفيه آراء صريحة لأبي فهر حول اطراحه لمصطلح «التحقيق»، وموقفه من التراث، والمستشرقين، وترجمة القرآن، وغير ذلك. وقد نقل منه الدكتور عبد العظيم الديب فقراتٍ في محاضرة له بعنوان «نحو خطة واعية لإحياء التراث الإسلامي» نُشِر مجملها في «مجلة الأمة»، العدد الثالث والأربعون، السنة الرابعة، رجب ١٤٠٤، إبريل ١٩٨٤.

فبذلك يكون هذا الحوار خامس ما ينشر للناس من حوارات محمود شاكر ولقاءاته، وقد نُشِرت الأربعة الأولىٰ في كتاب «ظل النديم» للصديق العزيز وجدان العلي، وهي:

١. حوار إذاعة الكويت، في عيد الأضحىٰ سنة ١٣٩٠ - ١٩٧١، حاوره الدكتور نجم عبد الكريم، وهو أهمُّ حوارات محمود شاكر وأوعبها، وقد أحسن الأستاذ وجدان أيما إحسان حين نشره بحروفه تامًّا غير منقوص، وكانت مجلة «الأدب الإسلامي» قد نشرته في العدد التذكاري الخاص برحيل فارس التراث محمود شاكر، العدد السادس عشر سنة ١٤١٨ - ١٩٩٧، ثم نشره الدكتور نجم عبد الكريم في الجزء الثاني من كتابه «شخصيات عرفتها وحاورتها» سنة ٢٠١٢، وفيما نشره هو والمجلة اختصارٌ وتصرُّفٌ كثير!

٢. حوار المجلة العربية، سنة ١٩٨٥، حاوره محمد الشاذلي شحاتة.

---

(١) «المتنبي» (١٨).

(٢) «جمهرة المقالات» (١/ ١٢١).

٣. لقاء كلية الآداب بجامعة الإسكندرية، سنة ١٩٨٠.

٤. حوار مجلة العربي، حاورته سعدية مفرح سنة ١٩٨٩، وتأخر نشره إلىٰ سنة ٢٠٠٧.

* * *

ويزدان الرسيسُ بنصوص شاكرية دافئة هي بعض رسائله الخاصة التي بعثها إلىٰ شيوخه وإخوانه، تراه فيها علىٰ سجيته في حديثه وكتابته ودعابته وتعبيره عن ذاته ومشاعره ومواقفه من الناس وشؤون الفكر وشجون الحياة، لا موضع فيها لتكلُّف، ولا أثر لاختلافٍ بين خاصَّة أمره وجليَّة حاله، ما هو إلا العفو محضًا والصدق خالصًا غير ممزوج.

أولها رسالةٌ عتيقة أرسلها في الرابعة والعشرين من عمره للمحدِّث الكبير الشيخ عبد الحي الكتاني بتاريخ ٢٩ مارس ١٩٣٣، وبقيت محفوظة بمكتبة الكتاني في الخزانة العامة بالرباط سنواتٍ طوالًا حتىٰ نشرها الدكتور إبراهيم الكوفحي سنة ١٩٩٩، وكان الشيخ عبد الحي الكتاني قد زار مصر سنة ١٩٣٣، والتقاه يومئذ محمود شاكر وأعجب به ولازمه وصحبه في سفره إلىٰ طنطا للقاء الرافعيِّ، كما فصَّلتُ في حاشية الرسالة هناك، وكان له في نفسه أثرٌ عظيمٌ أبان عنه فيما كتبه في مجلة «المقتطف»[(١)]، ثم فيما بثَّه في رسالته هذه، أصدق بيانٍ وأبلغه.

وثاني رسالات الرسيس: رسالة نقية اللفظ صادقة اللهجة بعثها إلىٰ الشيخ الجليل أبي الحسن الندوي حين زار مصر سنة ١٩٥١، وقد لقيه أول مرة في حفلة جمعية الشبان المسلمين يوم الاثنين ٢٧ جمادىٰ الأولىٰ ١٣٧٠ - ٥ مارس ١٩٥١، ثم دعاه إلىٰ بيته فأجاب، وقصَّ الندوي خبره معه في كتابه «مذكرات سائح في الشرق العربي»، وفي هذه الرسالة ثناءٌ جميلٌ علىٰ الشاعر الكبير محمد إقبال، ووصفه

---

(١) الجزء الرابع، المجلد الثاني والثمانين، ٦ ذي الحجة ١٣٥١ - ١ إبريل ١٩٣٣، وضمن «جمهرة مقالات محمود شاكر» (٢/ ٦٣٠ - ٦٣٤).

بـ«شاعرنا العبقري»، وإعجابٌ ودهشة بمقولته حين رفض أن يدخل مسجد باريس: إن هذا المسجد ثمنٌ رخيصٌ لتدمير دمشق!

وثالث الرسالات ورابعها بعثهما أبو فهر بعد خروجه من السجن سنة ١٩٥٩ إلىٰ صديق من أصدقاء عمره الذين لم تبلَ مودَّتهم، وهو الدكتور ناصر الدين الأسد[1]، وفيهما ألوانٌ شتىٰ من الأدب الرفيع، والبيان العالي، والبوح الصادق، والجدِّ والهزل، والتباريح والهموم، لمن أحبَّ معرفة محمود شاكر من قريب.

والرسالة الخامسة أرسلها أبو فهر للدكتور شاكر الفحام سنة ١٩٦٠، وفيها إشارة إلىٰ جفوة طارئة وقعت حينئذ بينه وبين أخيه وصاحبه العلامة أحمد راتب النفاخ، وفوائد أخرىٰ مطرَّزة ببيان أبي فهر وظرفه تتصل بمسائل من العلم وأخبار الكتب والمستشرقين.

(١) أهدى محمود شاكر في آخر عمره نسخة من كتابه الذي صدر قبل سنة من وفاته «نمط صعب ونمط مخيف» إلى ناصر الدين الأسد، وكتب في إهدائه بقلم مرتعش: «إلى صداقة عمرٍ لم تتغيَّر ولم تتبدَّل.. ومحبَّة لا تبلى». انظر: «محمود محمد شاكر سيرته الأدبية ومنهجه النقدي» لإبراهيم الكوفحي (٧٢).

وخاتمة رسالات الكتاب: رسالة تاريخية مهمة إلىٰ وجيه الحجاز الشيخ محمد حسين نصيف مؤرخة في يوم الثلاثاء ٢٣ من شوال سنة ١٣٨٢ الموافق ١٩ مارس ١٩٦٣، عثرتُ عليها في وثائق الشيخ نصيف المصوَّرة، وهي بخط محمود شاكر المعروف، وسقطت من النسخة المصورة المتداولة للوثائق الورقة الأخيرة من الرسالة، ويدور موضوعها حول طلب الشيخ نصيف من أبي فهر تحقيق كتاب «دُرَر الفوائد المنظَّمة في أخبار الحاجِّ وطريق مكة المعظَّمة» لعبد القادر بن محمد الجزيري، واعتذار أبي فهر عن ذلك، واقتراحه طريقة مثلىٰ لتحقيق الكتاب ونشره، ولم تخل الرسالة من صراحته المعهودة في الحق، كما في قوله: « ورأيت أيضًا في مواضع ضربًا شديدًا علىٰ أسطر متتابعة من كلام المؤلف، لا أعلم لحذفها حكمة، **ولا أرىٰ لأحدٍ حقًّا في نفي شيء من كلام مؤلِّفٍ في كتابه مهما كان الأمر الداعي إلىٰ حذفه»**، كما أن فيها طرفًا من ذوقه في طباعة الكتب وشؤونها.

الثلاثاء ٢٣ من شوال ١٣٨٢هـ — مصر الجديدة

١٩ مارس ١٩٦٣م — ٣ ش ع الشيخ حسين المرصفي

إلى السيد الوالد الأجل

السلام عليكم ورحمة الله، وعلى كل من يلوذ بجنابكم من شيوخنا وأصحابنا وأحبابنا سلامًا محفوفًا بالشوق إليكم وإليهم، فإذا بنا انفردنا فيه كما تنفرد القاصية. وبعد فقد وافاني الأخ الفاضل السيد علي المدني، بكتاب «درر الفوائد المنظمة»، وكنتم قد بعثتم قبلُ إلى الأخ إسماعيل تقترحون أن أتولى تصحيح الكتاب وتحقيقه، وأنا لا أكاد أملك لأمركم إلا الطاعة والاستجابة الحاضرة، بيد أني لما أخذت الكتاب وتصفحته، وجدته سوف يعوقني عن عملين جليلين لا أستطيع التخلي عنهما، وهما تفسير الطبري، وجمهرة نسب قريش للزبير بن بكار، وبخاصة في هذا الوقت، فإني قد تأخرت في إصدار الجزء السادس عشر، من جراء اشتغالي نحوًا من سنة كاملة ببحث الأحرف السبعة التي نزل عليها القرآن، وكتابة المصحف على عهد أبي بكر وعمر، ثم على عهد عثمان رضي الله عنهم، فتعطل العمل في التفسير، وفي جمهرة النسب، ولا بد لي من العودة إليهما معًا في وقت واحد، بعد الفراغ من كتابة هذا البحث، فبيِّنٌ، كما ترون، أني لا أستطيع أن أجمع بين ثلاثة كتب كبار، هذا فضلًا عن أني التزمت منذ قديم أن لا أخلط عملًا بعمل،

وباب الرسائل الخاصة كما قد علمتَ لا ينتهي بمن استفتحه إلىٰ غاية، ولا أمل لأحدٍ في استقصاء ما بأيدي الناس منه، وإنما اخترتُ من الرسائل في الكتاب ما ظننتُ فيه إمتاعًا وتاريخًا وفائدة، وهي هذه الرسائل الست، وأعرضتُ عن رسائل أخرىٰ من جنس الماجريات ومعتاد الحديث الذي لا غناء فيه لغير صاحبه في أوانه.

* * *

وآخر أبواب الكتاب وخاتمته تصحيحاتٌ واستدراكاتٌ كتب جلَّها شيخ العربية أبو فهر في صدر شبابه لبعض الكتب التي كان ينشرها صديقه الكتبيُّ الكبير محمد أمين الخانجي، وكان به حفيًّا، وبموضعه عارفًا، فهو يقول في مقدمة كتاب «جمع الجواهر في الملح والنوادر» للحُصْرِي الذي نشره سنة ١٩٣٥: «**وكان صديقي الأديب الفاضل البحاثة الأستاذ محمود محمد شاكر يودُّ أن يُعنىٰ بما أنشره من الكتب الممتعة، فسألته قراءة الكتاب بعد طبعه، فتفضَّل بذلك، وأرسل إليَّ المستدرك الذي يهمُّ كل أديب استدراكُه، فجعلته تتمة للأصل**»، ويقول في آخر كتاب «سر الفصاحة» لابن سنان الخفاجي الذي نشره سنة ١٩٣٢: «**عرضتُ النسخة قبل تسليمها إلىٰ القراء الكرام علىٰ صديقي الفاضل المحترم الأستاذ محمود محمد شاكر، فقرأها قراءة إمعان، وكتب ما عنَّ له من الاستدراك وصواب ما وجده من الأخطاء ...**».

وعمرُ محمود شاكر يومئذ بين الثالثة والعشرين والخامسة والعشرين، وقد قصَّ علينا وهو في عشر التسعين من أخباره مع أمين الخانجي وذكرياته معه وفضلِه عليه قَصصَ المحبِّ الحافظ للعهد[1].

وقد انتفع بهذه التصحيحات طابعو الكتابين من بعده، وإن كان أحدهم وهو الشيخ عبد المتعال الصعيدي لم يحسن صنعًا حين كان يذكر في بعض هوامش نشرته لكتاب «سر الفصاحة»: «وصححه بعضهم»! وكان عليه أن يذكر أن هذا التصحيح

---

(١) «جمهرة المقالات» (٢/ ١٢٢٨- ١٢٣٠).

من عمل الأستاذ محمود شاكر، كما يقول الدكتور النبوي شعلان في مقدمة تحقيقه للكتاب، كما انتفع بكثير من تصحيحات أبي فهر لكتاب «جمع الجواهر» الأستاذ علي البجاوي في طبعته للكتاب دون أن يشير إلىٰ ذلك!

وفي تلك الأيام أعان أخاه الشيخ أحمد شاكر في تصحيح وشرح طائفة من أبيات كتاب «لباب الآداب» للأمير أسامة بن منقذ الذي ظهرت طبعته الأولىٰ بتحقيقه سنة ١٩٣٥، وقد نسب إليه عمله في مواضعه، وقال في مقدمته للكتاب (ص ٥): «وأعانني في تصحيحه شقيقي الأصغر السيد محمود محمد شاكر، وكثيرًا ما سهر الليالي في تحقيق بيت شعر أو تصويب جملة»، وعمر أبي فهر يومئذ نحو ست وعشرين سنة.

ثم في سنة ١٩٥٨ يصدر صديقه وتلميذه الدكتور إحسان عباس مع زميله في جامعة الخرطوم الدكتور عبد المجيد عابدين كتاب «فصل المقال في شرح كتاب الأمثال» لأبي عبيد البكري، فيقرؤه محمود شاكر ويدفع إلىٰ الدكتور إحسان بملحوظاته وتعليقاته، فينتفع بها عند إعادة طبع الكتاب، ويشكره في مقدمة طبعته الثانية شكر المحبِّ المعترف بالفضل الحافظ للمعروف.

وكذلك صنع بعد سنوات مع «رسائل ابن حزم» التي نشرها الدكتور إحسان عباس أيضًا، فقد قرأها أبو فهر في طبعتها الأولىٰ وقيَّد بعض ما رآه علىٰ طرر نسخته، وزوَّدها أخاه الدكتور إحسان الذي انتفع بها وأثبتها شاكرًا لصاحبها، فقال: «تفضل أخي وأستاذي العلامة الكبير محمود محمد شاكر، فزوَّدني بهذه القراءات لنصِّ الجزء الأول من رسائل ابن حزم (وبخاصة طوق الحمامة)، فأنا أثبتها لفائدة القراء، واعترافًا بفضل الأستاذ الكريم»[1].

---

(١) «رسائل ابن حزم» (٢/ ٢٤٥)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٨٧.

والكتاب الأخير الذي أوردنا تصحيحات شيخ العربية له هو كتاب «الطبقات» لابن سعد، فقد نقل محققه الأستاذ علي محمد عمر في طبعته للكتاب بعض تعليقات أبي فهر علىٰ الجزء الأول منه، ولعله قرأه بطلب من صديقه وابن صديقه الخانجي ناشر الكتاب.

وألحقتُ بهذا القسم جوابًا محرَّرًا لأبي فهر عن سؤالٍ للشيخ عبد الفتاح أبو غدة حول بيتٍ ورد في حديث مرويٍّ في «مسند الإمام أحمد» وغيره، ساقه الشيخ عبد الفتاح في تعليقه علىٰ كتاب «المنار المنيف» للإمام ابن القيم المطبوع سنة ١٣٩٠- ١٩٧٠، وقال: «ووقع في البيت المذكور تحريفٌ في «مجمع الزوائد» و«اللآلئ المصنوعة»، **فكتبتُ به إلىٰ الصَّديق العلامة المحقق الأديب الأستاذ محمود شاكر، فتفضَّل فكتب إليَّ بتصويب البيت وضبطه وشرحه مشكورًا**، كما تراه في «الاستدراك» في آخر الكتاب». وذكره هناك.

* * *

وكان من **منهجي في إعداد الكتاب**:

١. ترتيب مقدمات أبي فهر ومقالاته ومترجماته وسائر الموادِّ الأخرىٰ بحسب تواريخ نشرها، ليتبيَّن القارئ تسلسلها الزمني، وموضعها من تراث شيخ العربية، وليلتمس منها ما يلتمس من الوقوف علىٰ تطوُّر فكره وبيانه، وينتفع بها في معرفة المتقدم والمتأخر منها عند الاستشكال والترجيح.

٢. لم أقصد إلىٰ التعليق علىٰ ما للمناقشة والاعتراض فيه مجالٌ من نصوص الكتاب؛ إذ ليس ذلك من شأني وشأن ما أردتُ من جمعه، وإنما اجتهدتُ في قراءته وأدائه إلىٰ القارئ كما كتبه صاحبه إن شاء الله، وهو وما كتبَ بعد ذلك، وإن كان في بعض ما ذكره ما يغري بالتعليق، كقوله

عن المستشرقين في حوار مجلة «الفيصل» معه: «المستشرق إنسانٌ فَشِل في أن يكون شيئًا ظاهرًا في أمته! إنسانٌ يئس من أن يكون أديبًا»؛ فإن هذا ليس من العدل والنَّصَفة، ولئن صحَّ ذلك في بعض أغمارهم وضعفائهم فما هو بالحقِّ في كبارهم، كنولدكه، ونلينو، وبروكلمان، وغيرهم ممن هو غير مدفوع عن ذكاء وسعة اطلاع وغزارة إنتاج، وإن اختلفنا معهم قليلًا أو كثيرًا، ودراسة موقف أبي فهر من المستشرقين لا يغني فيها تعليق.

٣. حافظتُ في مواضع كثيرة علىٰ علامات الترقيم التي وضعها الأستاذ محمود شاكر، كالفواصل التي يضعها موضع الشرطتين الاعتراضية مثلًا، خاصة مقالته «من التراث» التي اختار فيها قصيدة ابن المعتز وشرحها، فقد التزمتُ ضبطه للأبيات وترقيمه للنص وطريقة كتابته، فلم أتصرَّف فيه ولم أجعل الأبيات في عمودين؛ لأن في وصلِه لما وصله ووضعِه للفواصل حيث وضعها إبانةً عن فهمه للأبيات وما يراه من مواضع السَّكت والتغنِّي فيها، وأثبتُّ لذلك ما أثبته من النجوم الفاصلة في مواضعها بين الأبيات؛ لأن فيها كذلك تنبيهًا علىٰ ما يذهب إليه من أمر تشعيث الأزمنة ووحدة الأبيات، وأخشىٰ أني لم ألتزم ذلك في غيرها في كل موضع، وأبو فهر كما رأيت يسرف كثيرًا في استخدام الفواصل.

٤. عزوتُ الآيات، وخرَّجتُ الأحاديث، ونسبتُ الأشعار، ووثقتُ النقول من مصادرها التي سمَّاها أبو فهر أو غلب علىٰ ظني أنها مصادره.

٥. أثبتُّ تعليقات أبي فهر وختمتها حيث وردت باسم جدِّه «شاكر»، إلا تعليقاته الشارحة لقصيدة ابن المعتز فلم أثبت اسمه في نهاية كل تعليق

منها اختصارًا، وما سوىٰ ذلك من التعليق في عامة الكتاب فممَّا جنته يداي.

* * *

وبعد، فهذا عملٌ غرسَه الحبُّ، وروَّاه رسيسُه التالدُ في القلب، ورعاه الوفاء المستحقُّ، والبرُّ الواجب، والاعترافُ بالفضل لعلم من أعلام هذه الأمة الكبار، وحارس من حَرَس لغتها الأمناء، وشهاب من شُهُبها الثواقب، ليبقىٰ من بعدُ كما قال هو في شيخه من قبلُ «ميراثًا نتوارثُه، وأدبًا نتدارسُه، وحنانًا نأوي إليه»، وتلك الأيام نداولها بين الناس.

وكتب

د. عبد الرحمن بن حسن قائد

الرياض ٢٩ ربيع الأول ١٤٤٢

مُقَدِّمَات

شرح الأشموني على ألفية ابن مالك[1]

مقدمة في نشأة اللغة والنحو والطبقات الأولى من النحاة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصَّلاة والسَّلام علىٰ رسول الله.

أترىٰ لو أن أحدنا التمس من هرَّته الإفصاح عن العلة في إصاختها حين تسمع صوت صاحبها إذ يناديها باسمها الذي اجتباه لها، فما يكون جوابها؟!

لا يداخلنَّك شكٌّ في أن الهرَّة لم تفهم من نداء صاحبها ما يفهم هو من معاني النداء، بل كلُّ شأنها حين تُصِيخ في دربة أعصاب أذنها، وتعوُّدها حركة خاصَّة درِّبت بها علىٰ التكرار والإعادة والمراجعة، وذلك أن مسامع الهرَّة كمسامع كل حيٍّ تُصِيخ للصَّوت والنَّبأة حين تلقفهما الأذن، فإذا ما التفتت رأت في حركة وجه المنادي ونظرته وإشارته ما تفهم به غريزةً أن هذه كلها من معاني النداء الذي يطلب به الإجابة، فهي في المرة الأولىٰ والثانية تعيره سمعها وتمنحه بصرها وتكاد تفقه معنىٰ إشارته لها بالمجيء إليه، فلا يزال هو يلحُّ عليها، ولا تزال هي تطمئنُّ إلىٰ إشارته، وتتدرَّب علىٰ ندائه، حتىٰ تنقاد لذلك أعصاب السَّمع، ويهديها المقدار المشترك من الفهم في الحيوان كله إلىٰ الحركة نحوه، فما يناديها بعد ما تعوَّدت عليه أذناها من النداء إلا أجابته سمعًا وطاعة.

---

(١) المطبعة المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى ١٣٥٢- ١٩٣٣، حققه وشرح شواهده محمد محيي الدين عبد الحميد، وقال في مقدمته (١/ ٤): «وقد رغب صديقي الأديب الفاضل محمود أفندي محمد شاكر أن يكتب فصولًا يتكلم فيها عن نشأة اللغة وعلم النحو والطبقات الأولى من نحاة البصريين والكوفيين، ليكون ذلك كمقدمة لهذا الكتاب، فرحبت بهذه الفكرة، وسررت لها، وأثبتُّها له شاكرًا». وكان الأستاذ محمود شاكر يومئذ في الرابعة والعشرين من عمره.

وكذلك الطفل حين ينمو علىٰ الأيام، فهو لا يزال يسمع الكلمة إثر الكلمة من أمه وأبيه وعشيرته التي تؤويه لا يفهم لها معنىٰ، وليست عنده إلا أصواتًا مبهمة لا يفرِّق بين صوتٍ منها وصوت، حتىٰ إذا بلغ مبلغًا يظنُّ أهله أنه بدأ انتباهه إلىٰ الألفاظ والأشياء والمعاني أخذوا ينطقون له اللفظ مشيرين إلىٰ الشيء الذي تقع عليه عيناه مرَّة بعد مرَّة، فبذلك تبدأ أذنه في التدرُّب علىٰ هذه الأصوات، وتشترك العين مع الأذن في إدراك الشيء المشار إليه والتنبُّه له حين حدوث هذا الصوت بعينه، فالطفل لا يكاد يعرف هذه الألفاظ ومعانيها بديئًا إلا مقرونة في ذهنه بالإشارة إلىٰ الشيء الذي تدلُّ عليه الكلمة أو المعنىٰ الذي يراد له اللفظ.

ولا يزال يتربىٰ علىٰ ذلك حتىٰ يبلغ درجة من العلم بمنطق الحروف، ثم لا يفتأ يقلِّد صوابًا وخطًا حتىٰ ينقاد له علىٰ الزمن ما تعاصىٰ عليه أولًا، ولا يكاد يفهم من الكلمات التي درِّبت بها أذناه إلا ما أرسلت عليه من الأشياء أو المعاني الأولىٰ التي اقترنت في سمعه بصورة ما أشير إليه في عينيه، ويبقىٰ الطفل كذلك إلىٰ مدىٰ قبل أن تتنبَّه فيه القوة الإنسانية العالية: قوة إدراك ما لا يحسُّ وما لا يسمع وما لا يرىٰ، فإذا ما تنبَّهت فيه هذه القوة بدأ يغنىٰ عن اقتران الإشارة بالأصوات المسموعة من مخارج الكلام، وبدأ يراقب فيما يرىٰ وما يسمع وما يحسُّ خصائص يهتدي إليها بفكره وعقله تقوم لديه مقام الإشارة في فهمه الأول.

ثم لو أنك تركت جماعةً من النشأ الصِّغار وحدهم وأمهلتهم زمنًا يطول أو يقصر، ومنعتَ تسرُّب أحاديث الناس إلىٰ آذانهم، لرجعتَ إليهم وقد أحدثوا لما تقع عليه أبصارهم من شيء ألفاظًا يعبِّرون بكل واحدٍ منها عن شيء بعينه، وهذه الألفاظ إما أن تكون حكاية صوت أو تمثيل شكل أو تقليد حركة، إلىٰ غير ذلك من أساليب التعبير.

ولو أنك انتزعت الهمَّة لمراقبة هؤلاء الصغار في وطنهم هذا لرأيت أن ما يحدثونه من الألفاظ يجري اللفظ منها علىٰ لسان أحدهم مرة وأخرىٰ ولا يزال

يبديه ويعيده علىٰ أسماع أترابه وهم يقلدونه ويحاكونه حتىٰ تنذلق بهم ألسنتهم وتلين له حناجرهم، فمِن ثَمَّ يجري هذا بينهم لفظًا موضوعًا لمعنًىٰ خاصٍّ أو شيء بعينه، ولا شكَّ عندنا أن هذا النوع من التعبير مما يهدىٰ إليه الطفل إلهامًا وتوقيفًا لا اجتهادًا ولا مواضعة.

فدربة أعصاب السَّمع علىٰ أصواتٍ بعينها تشير إلىٰ أشياء أو تدلُّ علىٰ معان، ولزوم الحاجة إلىٰ الإشارة إلىٰ هذه الأشياء أو الدلالة علىٰ هذه المعاني، هي الدرجة الأولىٰ في نشأة اللغة علىٰ ألسنة البشر؛ فعلىٰ هذا الأساس نرىٰ أن اللغة الأولىٰ للإنسان كانت قليلة الحروف بسيطة التركيب، مصحوبةً بالإشارة للدلالة علىٰ الشيء الذي أرسل عليه اللفظ، فلمَّا أرادت حاجة الاجتماع أن تمدَّ من هذه اللغة وتبسط انتقصت من الحاجة إلىٰ الإشارة، واستبدلت مكانها تَخَالُف الأصوات علىٰ الحرف الواحد بانفراج الفم وزمِّ الشفتين وفتحهما ومدِّهما وتحريك اللسان وتقليبه وموقعه من الأسنان، فلمَّا أحدث الاجتماع حاجةً إلىٰ المدِّ والبسط أكثر من ذي قبل كانت قد نشأت في الألسنة مرونةٌ تأتَّت لها من كثرة تقليبها وتحريكها في الفم، فساعدت هذه المرونة علىٰ إنشاء حروفٍ كثيرة متقاربة المخارج لا يميِّز بعضها من بعض إلا الجرس في خفائه ووضوحه وموقع اللسان من الثنايا والأسنان وغار الفم.

ولعل هذه الحروف الأولىٰ التي لا نعرفها ولا نعرف عددها[(١)] كانت هي الألفاظ التي يدلُّون بها علىٰ المعاني ويومئون بها إلىٰ الأشياء، ثم تدرَّج ذلك علىٰ الأيام حتىٰ ركِّب الحرفان والثلاثة لأشياء حدثت ومعانٍ وقفوا عليها وأرادوا التعبير عنها.

---

(١) ولا تزال الدلالة على شيء أو معنى بالصوت أو الحركة أو الحرف الواحد مستعملة معروفة في لغات القبائل من همج أفريقيا وغيرها، ومن هذا الباب انتهى الإمام أبو الفتح عثمان بن جني إلى القول بأن الحروف تدل على المعاني، وقد عقد لذلك فصولًا في كتابيه «الخصائص» و«سر العربية» [كذا في الأصل، ولعله يريد كتاب «سر صناعة الإعراب»]، ونقل عنه من ذلك الباب كثير. (شاكر)

وهنا اختلف العلماء اختلافًا كبيرًا في نشأة اللغة علىٰ الألسنة الإنسانية، فرموا الحجة بالحجة، واستفتحوا أبوابًا من الجدل في أمرها، توقيفٌ هي أم اصطلاح؟ فذهبت بهم ألسنتهم مذاهب تستقيم تارة وتلتوي أخرىٰ، وانتهوا إلىٰ مجاهل من القول لا يهتدي فيها دليل، وما خرجوا منها إلا بالقوة علىٰ الجدل، والقدرة علىٰ تشقيق الكلام وترقيعه وتلفيقه.

والرأي عندنا أن نشأة اللغة لا بدَّ أن تردَّ إلىٰ ما تردُّ إليه أصول العلوم الإنسانية كلها من طبيعة النبوغ في فردٍ من الأفراد أو أفراد من الجماعة. ولا يفوتنَّك هنا أن النبوغ إلهامٌ ولا شك، وأن هناك معاني تتساقط علىٰ عقلٍ يشرق في ظلام زمنه بما سوغ من دقَّة في التركيب ورقَّة في الإحساس وقدرة علىٰ التعبير، وأن هذه المعاني لا يجدي في إيجادها استجلابٌ ولا تحصيلٌ ولا حشد.

ولا تحسبنَّ أن النبوغ هذا لا يكون إلا في معاني الشعر أو آراء الفلسفة أو أحكام العلوم، بل النبوغ إشراقٌ في الإنسانية يوضِّح لها ما لم يكن واضحًا، ويهديها إلىٰ ما كانت عنه في ضلال مبين، فالاهتداء إلىٰ لفظٍ واحد جديد للتعبير عن شيء كان مهملًا لا لفظ له في طفولة الإنسانية كالاهتداء إلىٰ سرِّ سقوط الأشياء من أعلىٰ إلىٰ أسفل بالجاذبية في عصر شباب العلم.

فآدم النوابغ حين كان في الأرض ورأىٰ وأحسَّ وفكَّر أشرقت عليه معانٍ بقدرها، وألهِم التعبير عنها بما يسِّر له، فنطق باللفظ المبتدأ المرتجل الذي ألقي إليه إلهامًا لا اجتهادًا واعتمالًا، وحمل هذا اللفظ قوَّة مستبدَّة من روح النابغة إلىٰ من سمع منه، وأشرق نبوغه علىٰ الشيء الذي يبتغون التعبير عنه، فلزمهم تقليده، وانصاعوا فنطقوا بَما نطق به محاكاةً لا إرادة فيها إلا قليلًا.

فاللغة علىٰ ذلك إلهامُ فردٍ مرهف الحسِّ مشرق العقل دقيق التركيب قويِّ الروح مهيَّأ للتأثير في غيره تأثيرًا كبيرًا، وكأن هذا النابغة حين ينطق بما ألقي في روعه

من اللفظ المعبِّر عن الشيء أو عن المعنىٰ المقصود يوحي إلىٰ سامعيه استعمال هذا اللفظ، فينقادون غريزةً وضرورةً إلىٰ مجاراته ومحاكاته طائعين[1].

وأنت ترىٰ الشاعر الكبير حين يعبِّر عن شيءٍ الناسُ يحتاجون إلىٰ التعبير عنه، ويكون تعبيره هذا قويًّا جذَّابًا مستحكمًا، لا يلبث أن يعلَق هذا التعبير بذهن كلِّ من قرأه، ثم يجري علىٰ الألسنة اقتدارًا حتىٰ يذيع ويصبح بمكان من اللغة مشرفًا واضحًا زمنًا يطول أو يقصر، ولا يجد أهل العصر علىٰ ذلك مندوحةً من إرساله في كلامهم وكتبهم ورسائلهم وما يمسُّه من شؤون حياتهم واجتماعهم، فهذا هذا كما ترىٰ.

ولا يذهبنَّ عنك بعد ما رأيت أن اللغة إنما هي أداة للتعبير التي يتخذها كائنٌ حيٌّ في الإشارة إلىٰ شيء أو الإفصاح عن غرض أو الدعاء في طلب أو الإعراب عن ضمير نفسه بما يجول فيها، فهي علىٰ ذلك تجمع الإشارة بالجوارح أو الأعضاء من تلويح بيدٍ أو إيماء برأس أو تقطيب أو اهتزاز أو تصويت أو منطق.

هذا عندنا هو الأصل في المعنىٰ الذي تراد له «اللغة»، ثم قام هذا اللفظ أعني «اللغة» للكلام المنطوق المركَّب من أحرفٍ علىٰ هيئة بعينها، وتتألف من هذه

---

(١) واعلم أن النابغة يملك قوة مدبرة مصرفة لا يقاومها شيء، تغلب الناس من أهل عصره أو بعد عصره على هواهم، وتجري بهم في مذاهب المعاني والألفاظ والأساليب والعلوم بتصريف عجيب وتدبير غريب حتى تصل بهم إلى غاية منصوبة، ولا يملك أحدٌ عن ذلك معدلًا ولا محيصًا، فكأن عقل النابغة من هؤلاء بمنزلة الموحى إليهم يلهمهم بما يسِّر له فلا يجدون بدًّا من التصرف معه إلى غاية لم يكونوا انتهضوا لها ولا أرادوها، وتلك هي العلة في أن الناس يعتنون برجل منهم كبير العقل صافي النفس قوي الأثر حتى يصبح خطؤه الكبير فوق صواب الناس، فيأخذون به مسلِّمًا، ثم إذا عوتبوا فيه أخذوا يولِّدون له كل علة من كل شيء، ولا يرون في كل علة إلا صوابًا فوق الصواب، وحقًّا يعلو على كل حق، حتى يأتي العصر الذي يشرق فيه عقلٌ آخر يزيف ما صحَّحوا فيصرفهم عما كانوا فيه من عماية وضلال، وهذا مرض قديم في العقل الإنساني لم يبرأ منه مرة واحدة على مدارج التاريخ كلها. (شاكر)

الأحرف كلماتٌ علىٰ أوضاع تخصُّ بها تدلُّ علىٰ معانٍ تختلف باختلاف التركيب والوضع.

قلنا: إن أداة التعبير الأولىٰ إنما هي من آثار النبوغ في فردٍ من الأفراد، وتساوق النبوغ بعدُ في إحداث ما يعبِّر به عمَّا يرىٰ وما يسمع وما يحسُّ، فتكاثرت «الكلمات» التي يعبر بها عن الأشياء والمعاني، وتصرَّمت الأجيال علىٰ نماء أدوات التعبير وزيادتها، ثم تصرَّمت الأجيال ورأينا لغاتٍ متقاربة أو متباينة، ثم تصرَّمت الأجيال وقيِّدت هذه اللغات، ووضِعت لها ضوابط وقواعد، واختصَّت كلُّ لغة في جيل من الناس وأمة من الأمم بقواعد وأصول تختلف اختلافًا جليلًا أو دقيقًا عن سائر اللغات التي تعاصرها أو تجاورها.

ونحن لا نشكُّ في أن اللغة من هذه اللغات نمت في أحقاب متطاولة إلىٰ أن كانت لها قواعد وضوابط وأصول يرجع إليها، فلو رجعنا هنا إلىٰ القول الذي قلنا به في نشأة اللغة من طبيعة النبوغ في فردٍ من الأفراد، أو أفراد من الجماعات، لاعترضنا معترضٌ بالشبهة في هذا القول والشكِّ في أمره، إذ كيف يتفق طبيعة النبوغ في أفراد من أمة علىٰ تطاول الأحقاب اتفاقًا مصمتًا يكون من أثره أن تقع أنواع الكلمات في هذه القواعد والضوابط ولا تتعدَّاها؟ ويلزمنا لذلك أن نقول بأن القواعد قد تواضع الناس عليها أولًا ثم صاغوا لها الكلمات والأساليب، أما تواضعُ الناس علىٰ القواعد والأصول قبل أن تكون لهم لغةٌ يتفاهمون بها فهذا محالٌ لا يقول به أحد، فلم يبق أمامنا إلا أن نعرف كيف اتفق هذا في اللغات التي درَست ولم يبق منها إلا آثارٌ وأطلال، وأيضًا في هذه اللغات التي تحيىٰ إلىٰ اليوم متخذة أداةً للتفاهم والتراسل والتعليم والتعلُّم.

لا شكَّ أن الكلمات الأولىٰ التي ألقيت علىٰ لسان فردٍ من الجماعة، ودعت الناس إلىٰ تقليدها ومحاكاتها بالنطق قد جعلت في ألسنتهم مرونةً وليانًا ومطاوعة، فلما اشتدَّت الحاجة بالناس إلىٰ التعبير أو الإشارة لم يجد بعضهم محيصًا عن

تقليب الأحرف التي عرفوها علىٰ ألسنتهم بالتقديم والتأخير، فأحدثوا ألفاظًا مشابهةً للأولىٰ في بنائها، ولم تواتهم الألسنة والطبائع الناشئة منهم بالاعتياد والتكرار علىٰ مخالفة الأوزان والصيغ الأولىٰ التي طال عهدهم بها، فمرنوا عليها، فلما ظهر بينهم العقل المشرق الجديد كان قد تلقَّن في نشأته أصول لغته أيًّا كانت بالعادة والمِرَان، واستقام لسانه عليها، فلما أشرقت عليه أنوار النبوغ اعتمد نبوغه علىٰ التوليد من الأصول التي استوضحها عقله الرَّحب، وأدركها حسُّه المرهف، ووزنها وميَّزها بعضها من بعض تركيبُه الدقيق، فكان يكثر منه اتفاق ما يحدث من الأبنية والصيغ مع ما نشأ فيه ودرج عليه، وجاء من بعده أتباعه يزيدون علىٰ أصوله وفروعه لا يكادون يخرجون عليها حتىٰ يأتيهم من يلقون إليه بالمقادة في أمر لسانهم وتفكيرهم، فمِن هذا ترىٰ أن الاتفاق شيءٌ غير بِدْعٍ في أمر الألسنة الإنسانية.

ولا يفوتك أن هذا هو الشأن من بعد تفرُّق الجماعات في الأرض علىٰ اختلاف طبائعها وأجوائها وتغيُّر طبائع الناس وعاداتهم وحاجاتهم تبعًا لتغيُّر أرضهم ومنازلهم، استمرَّت الحال علىٰ ذلك حتىٰ استقرَّت بعض اللغات علىٰ طرازٍ خاصٍّ، إذ ضبطت بالقواعد والأصول التي نسميها: علم النحو، وعلم الاشتقاق، والصَّرف، وعلم البيان.

ولعلك تعرف ممَّا مضىٰ أن النحو والاشتقاق والبيان هي من اللغة بمنزلة مفرداتها[1]؛ إذ كانت مرتبطة بها في تدرُّجها وارتقائها أو ضعفها وانحطاطها، فلو أنك أردت أن تستغني مثلًا عن الحركات التي سمِّيت فيما بعد حركات الإعراب في لغة من اللغات لكان لزامًا عليك أن تدخل التغيير والتبديل في مفردات اللغة نفسها

(١) أول من نظر في العربية هذا النظر، وشرع في تفصيله والكلام عنه، هو الإمام الجليل أبو الفتح عثمان بن جني، ولكنه أدمج القول فيه إدماجًا يتعذر معه لطالب هذا العلم أن يدرك مبهماته وخوافيه، وأن يلقي الشبهات التي تكتنف تفكيره جانبًا، ومع هذا فهو أشتات في كتبه لم يجمعها باب قائم بنفسه يكون أهدى للقارئ وأقوم عليه. (شاكر)

وفي اشتقاقها وصرفها وأساليب بيانها، أما أن تتخذ مفردات لغة من اللغات وتزوي وجهك عن حركات إعرابها وأساليب بيانها وطرق اشتقاقها وصرفها استجلابًا لسهولة استعمالها وسرعة ذيوعها فهذا قتلٌ لكلتيهما، وإفسادٌ في طبيعة الأشياء، لا يقرُّه عقلٌ ولا يجاريه منطق.

وقد كتبنا هذه الكلمة علىٰ قِصَرها واتساع ميدان الكلام في أغراضها لنتقدَّم بالكلام عن نشأة النحو في العربية، فلو أتاحت لنا الأيام بعدُ استيفاء الكلام كله في هذا الأصل أصدرنا بعون الله كتابًا مستقلًّا بنفسه لا ندع فيه كلمة للرأي إلا قلناها، وعرَّفنا المبتدعة مكان النحو والاشتقاق والبيان من اللغات، وفتحنا طريقًا لمعرفة سرِّ الإعراب في العربية، وأبنَّا عن معاني الحركات الأربعة في مواقعها من الكلام العربي، والله المستعان.

اللغة والإعراب وعلم النحو:

قال شيخنا أبو الفتح عثمان بن جني: حضرني قديمًا بالموصل أعرابيٌّ عقيلي جُوثيٌّ تميمي يقال له محمد بن العساف الشجري، وقلما رأيت بدويًّا أفصح منه، فقلت له شغفًا بفصاحته، والتذاذًا بمطاولته، وجريًا علىٰ العادة معه في إيقاظ طبعه واقتداح زند فطنته: كيف تقول «أكرم أخوك أباك»؟ فقال: كذاك، فقلت له: أفتقول: «أخوك أبوك»؟ فقال: لا أقول «أبوك» أبدًا. قلت: فكيف تقول: «أكرمني أبوك»؟ فقال: كذاك، قلت: أفلست تزعم أنك لا تقول أبوك أبدًا؟! فقال: أيش هذا! اختلفت جهتا الكلام.

فهل قوله: «اختلفت جهتا الكلام» إلا كقولنا نحن: «هو الآن فاعلٌ وكان في الأول مفعولًا»، فانظر إلىٰ قيام معاني هذا الأمر في أنفسهم وإن لم تطع به عبارتهم[1].

---

(١) «إرشاد الأريب» (٤/ ١٥٩٥)، وأصله في «الخصائص» (١/ ٧٧، ٢٥١).

وقال شيخنا رحمه الله: وسألت الشجريَّ صاحبنا هذا الذي قد مضىٰ ذكره قلت له: كيف يا أبا عبد الله تقول: «اليوم كان زيد قائمًا»؟ فقال: كذلك. فقلت: فكيف تقول: «اليوم إن زيدًا قائمٌ»، فأباها البتة. وذلك أن ما بعد «إنَّ» لا يعمل فيما قبلها؛ لأنها إنما تأتي أبدًا مستقبلة قاطعة لما قبلها عما بعدها وما بعدها عما قبلها.

وقلت له يومًا ولابن عمٍّ له يقال له «غصن» وكان أصغر منه سنًّا وألين لسانًا: كيف تحقران «حمراء»؟ فقالا: «حُمَيراء». قلت: «فصفراء»؟ قالا: «صُفَيراء»، قلت: «فسوداء»؟ قالا: «سُوَيداء»، واستمررت بهما في نحو هذا، فلما استويا عليه دسستُ بين ذلك «عِلْباء»؛ فقلت: «فعِلْباء»؟ فأسرع ابن عمِّه علىٰ طريقته فقال: «عُلَيباء»، وكاد الشجريُّ يقولها معه، فلما همَّ بفتح الباء استرجع مستنكرًا فقال: «آه، عُلَيْبِي» وأشمَّ الضمة رائمًا للحركة في الوقف، وتلك عادةٌ له[1].

قال ابن جني: وسألته يومًا: يا أبا عبد الله، كيف تجمع محرنجمًا؟ وكان غرضي من ذلك أن أعلم ما يقوله، أيكسر فيقول «حراجم» أم يصحِّح فيقول «محرنجمات»؟ فذهب هو مذهبًا غير ذين، فقال: وأيش فرَّقه حتىٰ أجمعه؟! وصدق؛ وذلك أن المحرنجم هو المجتمع، يقولها مارًّا علىٰ شكيمته غير محسٍّ لما أريده منه، والجماعة معي علىٰ غاية الاستغراب لفصاحته. قلت له: فدع هذا، إذا أنت مررتَ بإبلٍ محرنجمة وأخرىٰ محرنجمة وأخرىٰ محرنجمة، تقول: مررتُ بإبلٍ ماذا؟ فقال -وقد أحسَّ الموضع-: يا هذا، هكذا أقول: «مررتُ بإبلٍ محرنجمات» وأقام علىٰ الصحيح البتة؛ استيحاشًا من تكسير ذوات الأربع لمصاقبتها ذوات الخمسة التي لا سبيل إلىٰ تكسيرها، لاسيما إذا كان فيها زيادة، والزيادة قد تعتدُّ في كثير من المواضع اعتداد الأصول، حتىٰ إنها لتلزم لزومها نحو: كوكب، وحوشب، وضَيْوَن، وهَزَنْبَران، ودَوْدَرىٰ، وقَرَنْفُل، وهذا موضعٌ يحتاج إلىٰ إصغاءٍ إليه، وإرعاءٍ عليه،

---

(١) «إرشاد الأريب» (٤/ ١٥٩٦)، وأصله في «الخصائص» (٢/ ٢٨).

والوقتُ لتلاحمه وتقارب أجزائه مانعٌ منه، ويعين الله فيما يليه علىٰ المعتقد المنويِّ فيه بقدرته[1].

قال شيخنا: وسألته يومًا: كيف تجمع «سرحانًا»؟ فقال: «سَراحِين»، قلت: فدكَّانًا؟ قال: «دكاكين»، قلت: «فقُرطانًا»؟ قال: «قَراطِين»، قلت: «فعثمان»؟ قال: «عثمانون»، قلت: هلَّا قلت: «عَثامِين» كما قلت: «سراحين» و«قراطين»؟ فأباها البتة، وقال: أيش ذا! أرأيت إنسانًا يتكلَّم بما ليس من لغته؟! والله لا أقولها أبدًا. استوحش من تكسير العلم إكبارًا له، لاسيما ومنه الألف والنون اللتان بابهما فعْلان الذي لا يجوز فيه فعَالِين نحو سكران وغضبان[2].

قد عرضنا لسان هذا الأعرابي ولسان ابن عمه لنردَّك إليهما في سياق كلامنا هذا عن اللغة والإعراب وعلم النحو، لئلا نقطع عليك سبيل الكلام حين لا بدَّ لك من الاستمرار.

قلنا: إن حركات الإعراب من اللغة بمنزلة مفرداتها، وذلك أنهما درجا معًا علىٰ الألسنة وتوافقا علىٰ أمرٍ من الزيادة والنقصان والإبقاء والحذف، وعملا في الألسنة حتىٰ مرنت واستقامت، وعملت فيهما الألسنة حتىٰ تهذب منهما ما جفا وما انتشر وما غلظ؛ لما في طبيعة الإنسانية من مداورة ما يجري معها حتىٰ يخف بعد ثقل، ويلين بعد صلابة، ويتشابه بعد تنافر، ويستقر بعد اضطراب، فلما تمَّ ذلك لم يكن هناك محيصٌ من أن تقوم ألسنة القوم ولغتهم علىٰ أمر جامع لا يتفرَّق بها، فترتد إلىٰ الضعف والانحلال وتباعد الأطراف والفساد واستحالة النماء، فكان ما نسميه نحن الآن من الإعراب والنحو والبيان بأسماء اتخذناها أداة للتعبير عن سرٍّ معانيها في الكلام، قائمًا في ألسنة القوم مقام القانون الطبيعي الراسخ الذي لا يتحوَّل، فكان

---

(١) «إرشاد الأريب» (٤/ ١٥٩٧)، وأصله في «الخصائص» (٢/ ٤٦٨).

(٢) «إرشاد الأريب» (٤/ ١٥٩٧)، وأصله في «الخصائص» (٢/ ٢٤٣).

رفع الفاعل ونصب المفعول عندهم كمخرج الحروف عن اللسان والشفتين واللهاة ولا فرق.

ولو أردت أن تقرِّب هذا المعنىٰ إلىٰ فهمك وتوضحه لنفسك فاضرب المثل بالحمار والفرس والبغل، فهذه الثلاثة علىٰ تقارب شِيَتها وتشابه أعضائها وتناظر بدنها وتركيبها مميَّزة في بصر الإنسان، مفرَّق بين كلٍّ منها بخصائص لا تخطئها الطبيعة الإنسانية من طفولتها إلىٰ صباها إلىٰ شبابها إلىٰ فتوتها إلىٰ هرمها حتىٰ تصل إلىٰ قبر الأبد، ولا يزال الحمار حمارًا والفرس فرسًا والبغل بغلًا مهما اختلفت الألوان أو تغيَّرت البلدان، ولا تزال الخصائص المميزة قائمة فيها علىٰ هذا الاختلاف والتغيُّر، فكذلك كانت حركات الإعراب والنحو علىٰ الكلمة الواحدة علىٰ اختلاف مواقعها من الكلام كالشِّيَة لها تميِّزها عن أختها التي هي مثلها في حروفها وباقي حركاتها حتىٰ أصبحت قائمة في ألسنة كل قوم علىٰ أصول لغتهم متميِّزة بفطرة الألسنة أو ما صار لها بالتكرار والعادة، كالفطرة المرهفة الدقيقة التي لا يختلُّ تمييزها ولا يضعف إحساسها بالخصائص الملازمة لشيء بعينه من بين الأشياء المتشابهة.

فلا يجولنَّ بخاطرك أن الفتحة والكسرة والضمَّة والسكون دخيلاتٌ علىٰ الحروف التي تقع عليها في أول الكلام وأوسطه وطرفه، فجعلت بالوضع للتمييز بين أبنية الكلام أو معانيه التي يدور عليها.

واعلم أن هذه المعاني لا تلمُّ بقلب ناطق بلغة ولا تتعلَّق بفهمه، أولا ترىٰ إلىٰ صاحبنا الشجري حين سأله شيخنا وأراده علىٰ أن ينطق «أكرم أخوك أبوك» بالرفع، فأباها واستوحش، وقال: «لا أقول أبوك أبدًا»، فلما سأله أن يقول: «أكرمني أبوك» قال: «أبوك»، وذكر العلة التي يعرفها والتي هي الحقيقة الأولىٰ في اللغة قبل أن يوضع الاصطلاح النحوي المعقَّد، فقال: «اختلفت جهتا الكلام»، فالحركات عند هذا الأعرابي وغيره ممن كان ينطق اللغة سليقةً لا اكتسابًا وتعمُّلًا تقع علىٰ معاني

الكلام وتصرُّفه ووجوهه دون كدٍّ للذهن أو تصريفٍ للِّسان بعنانٍ من الفكر، فكأن الكلمة الواحدة عندنا هي عنده أربع كلمات أو ثلاث، وفقًا للحركات التي تكون عليها، ولكل واحدة في حالتها معنًىٰ أو معانٍ لا يتجاوزها استعماله، ولا يطيع بغيرها في موقعها لسانه ولا فكره ولا فطرته، وهذا غير بِدْعٍ في أمر الألسنة، فأنت ترىٰ لكلمة «العين» مثلًا عند العربي المبرأ معاني متباعدة وأخرىٰ متقاربة وهو يميز بينها ويفصل بين وجوهها من حقيقة ومجاز، ولا يكاد يخطئ موضعها من الكلام حين تكون الضرورة لاستعمال هذا اللفظ.

وكذلك القول في بقية أبواب النحو والصرف والاشتقاق والبيان، فهذه كلها كانت جارية في ألسنة القوم مجرىٰ قوانين الجاذبية، فما تشذُّ كلمةٌ عن بابها الذي وضعت بعدُ فيه من علم النحو أو غيره؛ لأن قانون الألفاظ الذي يضبط ألسنة كل قوم علىٰ سنَّة لغتهم لا يدع الكلمة تخرج من دائرة تأثيره أبدًا مهما كان التشابه قريبًا بين الكلمتين اللتين يسوغ العقل إلىٰ مدىٰ اختلاط إحداهما بالأخرىٰ في تصريفها أو وضعها أو تقليبها علىٰ وجوه الجمع والتحقير وغير ذلك.

ألا ترىٰ إلىٰ صاحبنا الشجري كيف جمع سرحانًا وأشباهها علىٰ سراحين، فلما دسَّ له شيخنا أبو الفتح «عثمان» بين هذه المتشابهات لم يقل إلا «عثمانون» وأبىٰ «عثامين»، فلما سئل عن العلة لم يكن جوابه إلا تعجبًا من أمر سائله وشكًّا في علمه ومعرفته، فقال: أيش ذا! أرأيت إنسانًا يتكلم بغير لغته؟!

فهذا الأعرابي لا يعرف قياسًا ولا علمًا ولا ألفًا ونونًا، بل كل ما يعرفه أنه إذا رأىٰ سرحانًا وسرحانًا وسرحانًا قال: «هذه سراحين»، وذلك لأن الفرد في طبيعة الإنسان ونظره وفكره غير الجماعة، فهو محتاجٌ إلىٰ لفظ غير لفظ الشيء المفرد ليعبر عن عدَّة أفراد من هذا الشيء نفسه، فاختار له بالطبيعة لفظًا آخر يقارب اللفظ الذي يدلُّ به علىٰ المفرد، وهذا ما نسميه نحن بالجمع، وهذا المفرد وجمعه يضمَّان

بين أحرفهما تاريخ نشأة هذه الكلمة وتاريخ تدرُّجها في اللسان، والذي نسميه نحن بالاشتقاق والأصل، وعثمان وعثمانون مفردٌ وجمعٌ فيهما تاريخ نشأتهما وتدرجهما في اللسان، فلما اختلف تاريخ نشأة هذين اللفظين المفردين «عثمان» و«سرحان» وتدرجهما في اللسان خالفت فطرة اللسان بين جمعيهما مخالفة ظاهرة.

فاعلم من ذلك أن الحرفين إذا اتفق تاريخ نشأتهما وتدرجهما في اللسان كان القانون الذي يجريان عليه واحدًا في لسان أهل اللغة، دون أن يعرفوا لذلك علة مقررة، وما العلة عندهم إلا أن هذه لغتهم وحسب.

وهذا بابٌ من القول لم نستوفه لضيق الوقت والتزامنا إخراج هذا الجزء من «الأشموني» في ميعاده الذي ضُرِب له، ونحن لا نفتات علىٰ اللغة بما لا ترضاه ولا تقرُّه، ولا نذهب بها مذهبًا هي إلىٰ غيره أميل، ولا نضعها موضعًا هي في غيره أشرف وأنبل، **فلذلك نَعِد القراء بأن نوافيهم قريبًا بكتاب واسع المضطرَب، نزيد فيه الرأي وضوحًا**، ونقف عند كل كلمة منه مع القارئ نبيِّن له ونوضِّح حتىٰ نقرِّر المذهب الذي نذهب إليه، فإن ارتضاه اعتقده وإن أباه ردَّ علينا فساده ونبَذه، والله المستعان.

سبب وضع العربية:

رأينا قبل أن اللغات نشأت مضطربة علىٰ الألسنة، وعملت في الألسنة عملها، وعملت فيها الألسن والعقول والحاجات عملها أيضًا، وكان عمل الألسنة تهذيبًا وإدارة وتنقية وجمعًا لما في طبيعة الإنسانية من مداورة ما يجري معها حتىٰ يخفَّ بعد ثِقَل، ويلين بعد صلابة، ويتشابه بعد تنافر، ويستقرَّ بعد اضطراب؛ ليكفل ذلك كله للُّغة النماء والقوة والاستحكام لئلا تضعف وتنحلَّ وتسقط وينتشر ما اجتمع من أمرها، واستمرَّ هذا التدرُّج في الألسنة حتىٰ وصلت إلىٰ حالة من الاستقرار وفقًا لتدرُّج التمدُّن في الارتقاء والنموِّ إلىٰ درجة من الاستقرار والثبات.

* * *

هذا وقد كنت أودُّ أن أسير بالقارئ في الجزيرة العربية من أول عهود التاريخ التي وصلتنا إلىٰ العهد الذي احتفت فيه بنور إسماعيل عليه الصلاة والسلام، وما كان من أمر هذه الجزيرة بعد ذلك إلىٰ أن استقرَّ اللسان العربي علىٰ حالة بينَ بينَ في القرنين السابقين لإشراق نور النبوة فيها وهبوط الوحي بالمعجزة الباقية يدَ الدَّهر[1] علىٰ محمد رسول الله وخاتم النبيين ﷺ، ولكني أفضل الآن لهذه الكلمة الموجزة أن يكون بدء القول في أمر لغة العرب من العهد القريب السابق لرسالة رسولنا ﷺ.

قال التاريخ: إن هذه الجزيرة العربية التي تحدُّها من الشرق بلاد فارس، ومن الغرب بحر القلزم ومشارف الشام وأطراف مصر، ومن الشمال أرض الشام وفيها غسان والروم، ومن الجنوب بحر الهند.

قال: كانت هذه الجزيرة منزلًا لقبائل تفرَّقت في أوديتها وحُزونها وأباطحها وبيدائها، وكان جلُّ اعتماد أهلها علىٰ الرحلة من مكان إلىٰ مكان في طلب الغيث وانتجاع المرتع والتصرُّف في وجوه التجارة ما بين جوانبها وبين مصر والشام وبلاد الروم وأرض الحبش وديار فارس، وتصرَّمت علىٰ أمرها هذا الحِجَج الطِّوال، فكانت هذه القبائل تتكلم عدَّة لهجاتٍ منها العربية التي وصلتنا، والتي يسمُّونها «لغة قريش».

ولا شكَّ في أن هذه القبائل التي تسكن جزيرة العرب وتعمرها كانت تتلاقىٰ بالجوار والترحال والتجارة، فكان الرجل من قبيلة إذا نزل بأرض قبيلة أخرىٰ لم يعسر عليه أن يكون بينهم كأحدهم منطقًا وإفهامًا وتفهُّمًا، وإلا لتدابرت هذه القبائل وتقطَّعت الصِّلة بينها، ولكان التاريخ قد قذف بها جميعًا من سجلِّه، ولم يصلنا من شعرها ولا أخبارها ولا لهجاتها شيء أبدًا؛ فهذا دليلٌ علىٰ أن هذه اللهجات التي اتخذتها القبائل كانت قليلة التخالف كثيرة التشابه متدانية الأصول.

---

(١) أي أبدًا. «اللسان» (سند، جدا، يدي).

فلذلك قام أمر العرب قبل الإسلام علىٰ الاجتماع في أسواقٍ ذكرها التاريخ ووصلنا شيءٌ لا بأس به من أخبارها، فكانت العرب تلتقي فيها للتجارة وإنشاد الشعر والتفاخر والتحاكم والتحالف وغير ذلك من شؤونها ومصالحها، وحدثنا التاريخ أن اللهجة التي كان يرجع إليها العرب في أمر لسانهم هي لهجة قريش التي نزل بها الوحي علىٰ أمين الله في أرضه والشاهد علىٰ الناس رسول الله ﷺ، فكان ذلك مبدأ اتفاق اللهجات المختلفة علىٰ أمرٍ جامع لا يتفرق بها إلىٰ مذاهب الضعف والانحلال، وبهذه الأسواق الجامعة لأشتات القبائل ونزَّاعها وأشرافها وصميمها وفصحائها وشعرائها بدأت لهجات اللسان العربي تخفُّ بعد ثِقَل، وتلين بعد صلابة، وتتشابه بعد تنافر، وتستقرَّ بعد اضطراب، حتىٰ جاءتهم المعجزة التي ألقوا إليها بالمَقادة، واتبعوها كارهين وطائعين، وتوافدوا إليها وهم من كلِّ حدبٍ ينسلون.

وقام القرآن علىٰ ألسنتهم فضبطها وألَّف بينها كما ألَّف بين قلوب أهلها بعد الشقاق والتناحر والعداوة والبغضاء، فلانت بالقرآن ألسنة القبائل، وزادت مطاوعةً وليانًا باجتماع رجالها في الجهاد وهم علىٰ قلب رجل واحد أحبَّاء لا يتنابذون ولا يتدابرون.

وكانت هذه الأسواق تجمع أفذاذ العرب ونوابغها، وتوقظ فيهم القوىٰ الإنسانية كلها خيرها وشرَّها، ومن تلك القوىٰ التي تنبهت في أفراد من العرب قوة الإدراك اللغوي، فكان يقوم هؤلاء الأفراد مقام القضاة علىٰ قضايا اللسان العربي، فمن هؤلاء: النابغة الذبياني وغيره، فكان يُعْرَض عليهم شعر القبائل، فيزيِّفون منه زيفَه، ويردُّون ساقطه، ويُعْلُون عاليَه، ويشهدون لجيِّده.

ولعل نظرة هؤلاء القضاة كانت نظرة شاملة في المعاني والألفاظ، ومواقعها، وقوَّتها واختلالها، وكانوا قد عرفوا بما ركِّب فيهم من أسباب النبوغ أحكامًا

صحيحة عن أساليب البيان وأنواع الخطأ الذي يدرك اللسان علىٰ قلَّته وخفائه، وكانت أحكامهم هذه لا تعرف الاصطلاح والوضع، ولكنها كانت أحكامًا فطرية، كما رأيت من قول صاحبنا الشجري: «اختلفت جهتا الكلام»، وقوله في المرة الأخرىٰ: «أرأيت إنسانًا يتكلم بما ليس من لغته»، وغير هذا من الأمثلة الكثيرة التي لم يسعفنا الوقت بلمِّ شعثها وتقييد نصوصها في هذا المكان، فكان تنبُّه هذه القوة في هؤلاء الأفراد وسيرورة ما يحكمون به علىٰ الشعر والخطابة هو بدء وضع علم العربية الذي سموه فيما بعد نحوًا وبيانًا واشتقاقًا وتصريفًا.

فلما ظهر الإسلام علىٰ الوثنية، وغلب الروم والفرس علىٰ أمرهم، واستفاض الفتح وتدفقت العرب في بلاد الله، وأسلمت الأعاجم أو جلُّها، فاستقبلت الجزيرة العربية للحج والتكسُّب، وتزاوج العرب من الأمم الأخرىٰ، واختلطت الألسنة الفصيحة بألسنة العجم والروم والنبط = تغيَّرت حاجة العربية بعد استقرار لسانها، فبعد أن كانت الأسواق التي تجمع العرب هي الحاجة وهي الضرورة لتهذيب اللسان العربي صارت الضرورة في أمر آخر يكون حاكمًا للسان العربي لئلا ينزلق إلىٰ مهوًىٰ من الضعف، ويكون سورًا منيعًا ليردَّ الدخلاء، ويكون منارًا ليهدي من ضلَّ عن سبيله.

واعلم أن هذه الحاجة لم تشتدَّ إلا بعد اتساع الفتوح الإسلامية وتوافد الأعاجم علىٰ البلاد العربية مسلمين، وذلك في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ومن تلاه من الخلفاء الراشدين، ثم استمر الأمر علىٰ ذلك إلىٰ أن ظهر رجالٌ ضبطوا اللسان بأحكام وأصول سموها «النحو».

قالوا[1]: إن أول من وضع هذه الأحكام والأصول علي بن أبي طالب كرَّم الله وجهه، وذلك لما روي عن أبي الأسود الدؤلي رحمه الله أنه قال: دخلت علىٰ أمير المؤمنين

(١) انظر للروايات الآتية في وضع النحو: «إيضاح الوقف والابتداء» لأبي بكر الأنباري (١/ ٣٧- ٤٣)، و«نزهة الألباء في طبقات الأدباء» لأبي البركات الأنباري (١٨-٢١)، و«إرشاد الأريب» لياقوت (٤/ ١٤٦٦).

علي عليه السلام فوجدت في يده رقعة، فقلت: ما هذه يا أمير المؤمنين؟ فقال: إني تأملت كلام العرب فوجدته قد فسد بمخالطة هذه الحمراء -يعني الأعاجم-، فأردت أن أضع شيئًا يرجعون إليه ويعتمدون عليه. وفيها مكتوب: «الكلام كله اسمٌ وفعلٌ وحرف، فالاسم ما أنبأ عن المسمىٰ، والفعل ما أُنبِئ به، والحرف ما أفاد معنًىٰ غير هذين»، وقال لي: انحُ هذا النحو، وأضف إليه ما وقع إليك، واعلم يا أبا الأسود أن الأسماء ثلاثة: ظاهر، ومضمر، واسم لا ظاهر ولا مضمر، وإنما يتفاضل الناس يا أبا الأسود فيما ليس بظاهر ولا مضمر، وأراد بذلك الاسم المبهم.

قال: ثم وضعتُ بابي العطف والنعت، ثم بابي التعجب والاستفهام، إلىٰ أن وصلت إلىٰ باب «إن وأخواتها» ما خلا «لكن»، فلما عرضتها علىٰ علي عليه السلام أمرني بضمِّ «لكن» إليها، وكنت كلما وضعت بابًا من أبواب النحو عرضته عليه رضي الله عنه إلىٰ أن حصلت ما فيه الكفاية، فقال: ما أحسن هذا النحو الذي قد نحوت! فلذلك سمي «النحو».

وروي أن سبب وضع علي رضي الله عنه لهذا العلم أنه سمع أعرابيًّا يقرأ: (لا يأكله إلا الخاطئين)[١]، فوضع النحو.

هذا وقد كثرت الروايات في سبب وضع هذا العلم وأول من وضعه، وأكثر هذه الروايات باطلٌ لا يقوم بحجَّة ولا يقعد، وهذه الكلمة لا تكفي لذكر كل رواية وعلَّتنا في تزييفها وردِّها، وإقامة الحجة علىٰ صواب ما نذهب إليه من أن أول من اهتدىٰ إلىٰ وضع ضابط لبعض وجوه هذا اللسان العربي هو أبو الأسود الدؤلي رضي الله عنه.

وكذلك اختلفت الرواية في أول باب وضعه أبو الأسود من علم العربية، والذي نذهب إليه -علىٰ ضلال المذهب وتعقُّده وانتشار أمره- أن أول ما وفِّق إلىٰ التنبه له

---

(١) والآية في سورة الحاقة: ﴿لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾ [الحاقة:٣٧].

أبو الأسود هو باب الفاعل، وذلك لكثرة دوران الجملة الفعلية علىٰ لسانهم وظهور الرفع علىٰ طرف الكلمة ظهورًا بينًا؛ لأن الضمة هي أثقل الحركات علىٰ اللسان العربي.

واعلم أن هناك مذهبين للرأي في أول ما وضع من علم النحو:

أحدهما: أن أول ما وضع أبو الأسود من أبواب النحو ما وقع فيه اللحن، وهذا ما ذهب إليه جمهور النحويين أصحاب كتب التراجم الذين ترجموا للغويين والنحاة.

والآخر: أن علم النحو وضع علىٰ أساسٍ من التفكير في استنباط قواعد للعربية تضبطها وأصولٍ يبنىٰ عليها، فأول ما يوضع من القواعد ما يكون أقرب إلىٰ متناول الفكر في الاستنباط.

ونحن لا نستطيع أن نزيِّف الرأي الأول؛ إذ كان هو الذي وردت به الرواية الصحيحة مهما اختلف في الذي وقع فيه اللحن من أبواب العربية، فقد رأيت قبلُ أن سبب وضع العربية أن عليًّا رضي الله عنه سمع أعرابيًّا يقرأ (لا يأكله إلا الخاطئين).

وقالوا: إن أعرابيًّا قدم المدينة في زمان عمر رضي الله عنه، فقال: من يقرئني ممَّا أنزل الله، فأقرأه رجل (براءة) فقرأ: (أن الله بريءٌ من المشركين ورسوله) بكسر اللام من (رسوله)، فقال الأعرابي: أوَقد برئ الله من رسوله؟! إن يكن الله قد برئ من رسوله فأنا منه أبرأ، فبلغت مقالة الأعرابي عمر، فاستوثق عمر من الخبر، فلما عرفه أمر أن لا يقرئ القرآن إلا عالمٌ باللغة، ودعا أبا الأسود فأمره فوضع النحو.

وقالوا: إن سبب الوضع أن ابنة أبي الأسود قالت له يومًا: يا أبة، ما أحسنُ السَّماء! فقال: أي بنيَّة، نجومُها. قالت: إني لم أرد أيَّ شيء منها أحسن، إنما تعجَّبتُ من حسنها، قال: إذن فقولي: ما أحسنَ السَّماء! فحينئذ وضع كتابًا.

إلىٰ غير ذلك من الروايات.

ولا شكَّ أن همَّة أبي الأسود لم تنهض إلىٰ الفكر في وضع أصول تُضبط بها العربية أو أبواب منها إلا بعد أن بدَر اللحن علىٰ لسان المسلمين من الأعاجم ومن كَثُر اتصاله بالأعاجم ولغاتها من العرب حتىٰ دخل الضَّيم علىٰ لسانه فأفلتت منه فطرته الفصيحة، وهذا نادرٌ لا تكاد تجده في الزمن الأول أبدًا.

غير أننا لا نقول بأن أول ما وضع من أبواب العربية هو ما وقع فيه اللحن، بل نقول: إن ما وقع فيه اللحن هو الذي دفع أبا الأسود إلىٰ التفكير في وضع ضوابط للعربية.

وقد جاء في الرواية عن ابن الأنباري قال: حدثنا يموت -يعني ابن المزرَّع-، حدثنا أبو حاتم السجستاني، سمعت محمد بن عباد المهلبي، عن أبيه قال: سمع أبو الأسود الدؤلي رضي الله عنه (أن الله بريء من المشركين ورسوله) بالجرِّ، فقال: لا تطمئن نفسي إلا أن أضع شيئًا أصلح به لحن هذا، أو كلامًا هذا معناه.

ونحن نرجِّح أن أبا الأسود إنما عنىٰ بكلمته هذه ما أشاروا إليه في روايتهم من أن أبا الأسود أتىٰ بالمصحف واختار من عقلاء الرجال رجلًا من عبد القيس، فقال له: خذ المصحف وصبغًا يخالف لون المداد الذي كُتِب به، فإذا أنا فتحتُ شفتيَّ فانقط واحدةً فوق الحرف، وإن ضممتهما فاجعل النقطة إلىٰ جانب الحرف، وإذا كسرتهما فاجعل النقطة في أسفله، فإن أتبعتُ شيئًا من هذه الحركات غنَّة فانقط نقطتين. فابتدأ بالمصحف حتىٰ أتىٰ علىٰ آخره. ثم إن أبا الأسود بدأ يفكِّر في وضع قواعد لضبط الكلام.

فالرأي عندنا أن يكون ما وقع فيه اللحن هو الذي استنهض أبا الأسود لوضع العربية، ولا يلزمنا أن نقول: إن أول ما وضع من أبواب العربية هو الباب الذي وقع فيه اللحن، ومن هنا تمهَّد سبيلنا للمذهب الآخر الذي قلنا به من أن أبا الأسود اجتهد في استنباط القواعد فوقعت له أبوابٌ وضع لها قاعدة تلمُّ ببعض ما فيه.

وقد قلنا قبل: إننا نذهب إلىٰ القول بأن أول باب وضعه أبو الأسود هو باب الفاعل، وقد روىٰ الشيخ الجليل الإمام السيرافي[١] أن السبب في وضع العربية أنه مر بباب أبي الأسود سعد الفارسي (هو سعد بن بالويه الفارسي، شهد الردَّة وأبلىٰ بلاء حسنًا) وهو يقود فرسه، فقال له: ما لك يا سعد لا تركب؟ فقال: إن فرسي ضالع (أراد: ظالعًا)[٢]، فضحك به بعض من حضره، فقال أبو الأسود: هؤلاء الموالي قد رغبوا في الإسلام ودخلوا فيه فصاروا لنا إخوة، فلو علَّمناهم الكلام، فوضع باب الفاعل والمفعول به، ولم يزد عليه.

وذكر مثله ابن حجر في «الإصابة»[٣] عن ابن أبي سعد.

وهذه الروايات وإن كانت لا تقوم دليلًا علىٰ مذهب بعينه؛ لكثرة اختلافها وتباعد ما بين أطرافها، إلا أنها تجنح بنا إلىٰ الاطمئنان إلىٰ الرأي الذي نذهب إليه[٤]، وذلك أننا نظرنا فوجدنا أن أبا الأسود حين خلا يفكِّر في ضبط الكلام أخذ

---

(١) في «أخبار النحويين البصريين» (١٥).

(٢) وأنت ترى هنا أن الخطأ لم يكن في وضع حركة من حركات الإعراب في غير موضعها بأن نصب ما يستحق رفعًا أو رفع ما أمره الكسر، بل أخطأ سعد بن بالويه في منطق حرف من حروف العربية خلط بينه وبين حرف آخر يشبهه، فانظر إلى قول أبي الأسود بعد «فلو علمناهم الكلام»، ثم التعليق على ذلك بقول الراوي: «فوضع باب الفاعل والمفعول»؛ فإن سعدًا لم يلحن في إعراب، ولكنه لحن في مخرج حرف من الحروف، وذلك لا يكون من جرائه أن يضع أبو الأسود باب الفاعل والمفعول به، إلا أن يكون هذا الخطأ من أخطاء كثيرة قبله في أبواب من النحو كانت دواعي في صدر أبي الأسود تحفزه للتفكير في وضع ضابط للسان قومه يقيهم مزلَّة اللحن، ويتعلم به الغريب عن لسانهم كيف ينطق الصواب أو كيف يتقي الخطأ إذا أوشك أن يقع فيه. (شاكر)

(٣) (٥/ ٤٧١).

(٤) روى ابن النديم صاحب «الفهرست» عن محمد بن إسحاق أن رجلاً بمدينة الحديثة اسمه محمد بن الحسين، ويعرف بابن أبي بعرة، قد آلت إليه خزانة صديق له كان مشتهرًا بجمع الخطوط القديمة، قال ابن إسحاق: «فرأيتها وقلبتها فرأيت عجبًا إلا أن الزمان قد أخلقها وعمل فيها عملًا أدرسها...»، ثم قال: «ورأيت (عنده) ما يدل على أن النحو عن أبي الأسود=

يعرض علىٰ فكره صور الكلام العربي، فأول ما يعرض من ذلك أكثر الصيغ دورانًا علىٰ اللسان، كقولهم: ركب سعد الفرس، وكذا وكذا من الجمل الفعلية، فلما وجد أن الذي يخبر عنه بأنه قد ركب أو فعل شيئًا ما يقع من الكلام أبدًا مضمومًا وقع له الرأي بأن من فعل الركوب أو غيره يجب أن يقع في مثل هذه الصيغة مرفوعًا أبدًا، ثم بدا له باب المفعول به، وهو الذي وقع عليه فعل هذا الفاعل، فرآه منصوبًا أبدًا، فأمرَّه علىٰ ذلك، ويلي هذين باب المبتدأ والخبر؛ لتداني الشبه بينه وبين هذين البابين، ولعل أبا الأسود وقف عند هذه الأبواب الثلاثة ولم يزد عليها[1].

ثم تلقىٰ هذا عن أبي الأسود رجالٌ من العرب، فأخفق كثيرٌ منهم في زيادة شيء علىٰ ما تلقَّوه منه، فقد ذكر السيرافي أن أبا الأسود لما وضع باب الفاعل والمفعول به زاد في ذلك الكتاب رجلٌ من بني ليث أبوابًا، ثم نظر فإذا في كلام العرب ما لا يدخل فيه فأقصر عنه، قال السيرافي: ولعل هذا الرجل هو يحيىٰ بن يعمر[2].

وكانت الطبقة الأولىٰ التي أخذت القراءة - قراءة القرآن - عن أبي الأسود وتلقَّت منه الكلام عن الأبواب التي وضعها من النحو، وسمت سمته في تتبُّع الكلام العربي جهد الطاقة لوضع القواعد التي بني عليها = نفرٌ يُعَدُّون، نترجم لكلٍّ منهم باختصار بعد الكلام عن أبي الأسود رحمه الله.

=ما هذه حكايته، وهي أربعة أوراق أحسبها من ورق الصين ترجمتها: هذه فيها كلامٌ في الفاعل والمفعول من أبي الأسود رحمة الله عليه بخط يحيى بن يعمر، وتحت هذا الخط بخطٍّ عتيق: هذا خطُّ علان النحوي، وتحته: هذا خطُّ النضر بن شميل». (شاكر)

(١) قدَّم سيبويه في كتابه باب المبتدأ والخبر (وهو المسند والمسند إليه) على باب الفاعل والمفعول به، وهذا عندنا لعلة لم نجد أحدًا ذكرها ممَّن تقدمنا في هذا العلم، وذلك أن سيبويه لما رأى اتفاق حالي المسند والمسند إليه في الرفع والاسمية واختلاف حالي الفعل مع الفاعل والمفعول به بين الرفع والنصب والفعلية والاسمية، قدَّم ما اتفق على ما اختلف، وهذا صنعٌ جيدٌ ونظرٌ دقيقٌ من الإمام الكبير سيبويه. (شاكر)

(٢) «أخبار النحويين البصريين» (١٨).

أبو الأسود الدؤلي:

لم يذكر أصحاب التاريخ والتراجم مولد أبي الأسود، ولكن أكثرهم قال: إنه مات في الطاعون الجارف الذي وقع بالبصرة، فأهلك أهلها إلا قليلًا، وذلك سنة ٦٩ من الهجرة، وكانت سنُّه خمسًا وثمانين سنة، غير أن المدائني قال: «إنه مات قبل ذلك، وهذا أشبه القولين بالصواب؛ لأنَّا لم نسمع له في فتنة مسعود وأمر المختار بذكر»، قال أبو الفرج في ترجمة أبي الأسود (ج١١ ص١١٩): «وذُكِر مثلُ هذا القول بعينه والشكُّ فيه هل أدرك الطاعون الجارف أو لا عن يحيىٰ بن معين، أخبرني به[١] الحسن بن علي، عن أحمد بن زهير، عن المدائني ويحيىٰ بن معين»، فلعل ميلاد أبي الأسود كان قبل الهجرة بنحو عشرين سنة، فهو علىٰ ذلك مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام، ولكنه علىٰ التحقيق لم يحظ برؤية الرسول ﷺ، وقد عدُّوه في عداد كبار التابعين رضوان الله عليهم.

ولم يصل إلينا كثيرٌ من أخبار أبي الأسود قبل زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأول ما عُرِف من أمر أبي الأسود أن عمر استعمله علىٰ البصرة خلافة لابن عباس، ثم استعمله عثمان بن عفان وعلي ، وكان كلُّ أمره مع علي، فشهد معه المشاهد، وكان من وجوه شيعته، فلما نقل معاوية أمر المسلمين من الخلافة السَّمحة إلىٰ الملك العضوض، وقام بأمر الدولة رجالٌ من شيعته لقي أبو الأسود عنتًا كثيرًا من عمَّاله علىٰ البصرة والسَّواد، والأخبار في ذلك كثيرةٌ لا نطيل بذكرها؛ إذ كان الغرض من هذه الترجمة التعريف بأبي الأسود تعريفًا موجزًا.

وكان أبو الأسود من الشعراء المجيدين، وله شعرٌ كثيرٌ جيد، وكان من محدِّثي التابعين يحدِّث عن عمر وعلي وعثمان وابن عباس ومعاذ وأبي ذر وابن مسعود

---

(١) في الأصل: بن. والتصويب من «الأغاني».

وغيرهم، وكان من أوائل القرَّاء الذين أخِذت عنهم القراءة وضوابطها، روىٰ عنه[1] ابنه أبو حرب.

قال الجاحظ: «أبو الأسود معدودٌ في طبقات من الناس، وهو في كلها مقدَّم مأثورٌ عنه الفضل في جميعها، كان معدودًا في التابعين، والفقهاء، والشعراء، والمحدِّثين، والأشراف، والفرسان، والأمراء، والدُّهاة، والنحويين، والحاضري الجواب، والشيعة، والبخلاء، والصُّلع الأشراف، والبُخْر الأشراف»[2].

وأنت إذا قرأت ما ذُكِر في كتب التراجم والأدب عن أبي الأسود لتمثَّلت رجلًا حكيمًا فصيحا ذكيًّا نابغة موفَّق الرأي، وهذه هي الصفات العالية التي سمَت به إلىٰ أن يكون الواضع الأول لأجلِّ العلوم العربية التي ضبطت اللسان وأبقته حيًّا إلىٰ يوم الناس هذا، وحفظت القرآن من لحن اللاحنين، ونفت عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين.

الطبقة الأولىٰ[3]:

حمل علمَ النحو عن أبي الأسود جماعةٌ يُعَدُّون في الطبقة الأولىٰ من طبقات النحاة واللغويين، وسنذكر أشهرهم ونترجم لهم تراجم مختصرة.

(١) عنبسة بن مَعْدان.

كان أبوه مَعْدان رجلًا من أهل ميسان، قدم البصرة وأقام بها، واستعمله عبد الله بن عامر علىٰ فيلٍ كان له، فسمِّي «مَعْدان الفيل»، ولما نشأ عنبسة لزم أبا الأسود وعَلِم من علمه، وروىٰ الشعر، واجتهد فبرع.

---

(١) في الأصل: عن. وهو خطأ.
(٢) «الأغاني» (١٢/ ٢٩٩).
(٣) في الأصل: الطبقة الرابعة. وهو سهو.

قال أبو عبيدة معمر بن المثنىٰ: اختلف الناس إلىٰ أبي الأسود يتعلمون منه العربية، فكان أبرع أصحابه عنبسة بن معدان المهري، واختلف الناس إلىٰ عنبسة فكان أبرع أصحابه ميمون الأقرن[1].

ولم نصل إلىٰ تاريخ مولد عنبسة هذا ولا وفاته، ولكنه لقي الفرزدق وجريرًا، فلعل وفاته كانت في حدود المئة الأولىٰ من الهجرة قبلها بقليل أو بعدها.

(٢) ميمون الأقرن.

لم نظفر له بعدُ بترجمة يصحُّ الاعتماد عليها، مع أنهم زعموه أول من وضع علم النحو.

(٣) نصر بن عاصم.

قال السيوطي: إنه أخذ النحو عن يحيىٰ بن يعمر[2].

وقال ابن الأنباري: «قرأ القرآن علي أبي الأسود، وقرأ أبو الأسود علىٰ علي رضي الله عنه، فكان أستاذه (يعني أبا الأسود) في القراءة والنحو»[3]، وهذا هو الأرجح؛ إذ إن نصرًا هذا معدودٌ فيمن روىٰ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأخذُه النحو عن أبي الأسود أشبه من أخذه النحو عن يحيىٰ بن يعمر.

وذكروا أن وفاته كانت في زمن الوليد بن عبد الملك، واختلفوا ما بين تسع وثمانين وتسعين.

وكان نصر فقيهًا، وقارئًا مجيدًا، عالمًا بالعربية، فصيح اللسان، واضح البيان. قال عمرو بن دينار: اجتمعت والزهري ونصر بن عاصم، فتكلم نصر، فقال الزهري:

---

(١) «نزهة الألباء» (٢٣).

(٢) قال في «بغية الوعاة» (٢/ ٣١٤): «وقيل: أخذ النحو عن يحيى بن يعمر».

(٣) «نزهة الألباء» (٢٤).

«إنه ليقلع العربية تقليعًا»[1]، وكان محدِّثًا ثقة جيد الرأي.

(٤) عبد الرحمن بن هرمز.

ليس فيما بين أيدينا من ترجمة أبي داود عبد الرحمن بن هرمز الأعرج ما يبيِّن سنَّه أو مولده، وكان عبد الرحمن مولىٰ لمحمد بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب.

يعدُّ من الطبقة الثانية من التابعين المدنيين، قال ابن سعد: «ثقة كثير الحديث»[2].

ويعدُّ فيمن أخذ القراءة عن أبي هريرة وابن عباس وعبد الله[3] بن عياش بن أبي ربيعة.

وكان عالمًا بالعربية، ومن أعلم الناس بأنساب العرب، يظنُّون أن مالك بن أنس أخذ علم الأنساب عنه.

ورحل الأعرج إلىٰ الإسكندرية، ومات بها سنة ١١٧ في أيام هشام بن عبد الملك.

قال الزبيدي: كان من أول من وضع العربية[4].

(٥) يحيىٰ بن يعمر.

هو يحيىٰ بن يعمر الليثي، وكان من أهل البصرة، تابعي.

قال الحاكم: «فقيه أديب، نحوي مبرز، سمع ابن عمر وجابرًا وأبا هريرة وأخذ النحو عن أبي الأسود»[5].

---

(١) «العلل ومعرفة الرجال» لأحمد (٢/ ٤٤٥)، وتاريخ أبي زرعة الدمشقي (٥٣٣).
(٢) «الطبقات» (٧/ ٢٩٧).
(٣) في الأصل: وعبد البر.
(٤) «طبقات النحويين واللغويين» (٢٦) من قول أبي النضر.
(٥) «بغية الوعاة» (٢/ ٣٤٥).

وكان من الفصحاء، عالمًا بالعربية والحديث.

وكان رجلًا شديدًا لا يبالي، كره الحجَّاجُ أن يساكنه ببلد (وكان الحجاج إذ ذاك بواسط) فنفاه إلىٰ خراسان، فلما حضرها ولَّاه قتيبة بن مسلم القضاء بها، فقضىٰ في كثير من بلادها، كنيسابور ومرو وهراة.

وكان يطلب الغريب في كلامه، قال محمد بن سلام: أخبرني أبي أن يزيد بن المهلب كتب إلىٰ الحجَّاج: إنا لقينا العدو ففعلنا وفعلنا، واضطررنا إلىٰ عرعرة الجبل. فقال الحجَّاج: ما لابن المهلب وهذا الكلام؟ فقيل له: إن يحيىٰ بن يعمر عنده. فقال: ذاك إذن[1].

ومات يحيىٰ بخراسان في أيام مروان بن محمد سنة ١٢٩.

هذا ولعل يحيىٰ بن يعمر كما ذكرنا قبلُ قد هجر النحو آخر أيامه ولم يأخذه عنه أحدٌ من أهل خراسان؛ لأننا لم نجد في الطبقة الثانية من النحاة من كان من أهل خراسان.

(٦) عبد الله بن أبي إسحاق.

هو عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي البصري، يُعَدُّ من القراء، أخذ القراءة عن يحيىٰ بن يعمر ونصر بن عاصم.

وقد عدَّه بعض الكتَّاب من الطبقة التي أخذت عن أبي الأسود، إلا أن هذا لم يصح، ولكنه أخذ عن يحيىٰ بن يعمر أيام مقامه بالبصرة، فلما نفي يحيىٰ إلىٰ خراسان وخفي علمه ظهر ابن أبي إسحاق وعلا أمره في أيام أهل الطبقة الأولىٰ من النحاة، وأعانه علىٰ ذلك علوُّ سنِّه؛ فإنه مات ابن ثمان وثمانين سنة ١١٧ -أي في السنةَ التي مات فيها الأعرج-، ولكننا نعدُّه من كبار شيوخ الطبقة الثانية من النحاة، وهو أول من مات من أهل هذه الطبقة من النحاة.

---

(١) «وفيات الأعيان» (٦/ ١٧٥).

الطبقة الثانية من النحاة:

شيوخ هذه الطبقة ثلاثة مبرزون: عبد الله بن أبي إسحاق وقد مضت ترجمته، وأبو عمرو بن العلاء، وعيسىٰ بن عمر الثقفي، ونكتفي بالترجمة لهذين العلمين دون غيرهما ممَّن أخذ النحو ولم يبرز فيه ولم يعلُ.

(١) أبو عمرو بن العلاء المازني التميمي.

اسمه زبان بن عمار بن عبد الله من بني مازن بن عمر بن تميم، ولد بمكة سنة ٥٥ أو ٥٨، وسكن البصرة.

وكان رفيق عبد الله بن أبي إسحاق، فتلقىٰ النحو والقراءة معه عن يحيىٰ بن يعمر ونصر بن عاصم، وعلا كعبه في القراءة والنحو، وعُدَّ من القراء السبعة.

وكان كثير الرحلة، فاستكثر من الشيوخ، أخذ عن شيوخ مكة والمدينة والكوفة والبصرة، وأعانه علىٰ البراعة فيما سلك سبيله من العلم رحلته وذكاؤه وطول عمره؛ فإنه عمِّر نحوًا من مئة سنة، مات سنة ١٥٤ في خلافة المنصور.

قال يونس بن حبيب أبرع تلامذته: لو كان أحدٌ ينبغي أن يؤخذ بقوله في كل شيء كان ينبغي أن يؤخذ بقول أبي عمرو بن العلاء كله في العربية، ولكن ليس من أحد إلا وأنت آخذ من قوله وتارك إلا النبي ﷺ[١].

وقال أبو عبيدة: أبو عمرو أعلم الناس بالقراءات والعربية وأيام العرب والشعر[٢].

وكان محدثًا ثقة، وثقه يحيىٰ بن معين وغيره، قالوا: صدوق حجة في القراءة.

---

(١) «طبقات النحويين واللغويين» (٣٥)، وهو فيه وفي غيره من المصادر دون الاستثناء آخره فلعله من أبي فهر.

(٢) «إرشاد الأريب» (٣/ ١٣٢١).

وقال إبراهيم الحربي: كان أهل العربية كلهم أصحاب أهواء إلا أربعة فإنهم كانوا أصحاب سنَّة: أبو عمرو بن العلاء، والخليل بن أحمد، ويونس بن حبيب البصري، والأصمعي[1].

قالوا: وكانت دفاتر أبي عمرو ملء بيته إلىٰ السَّقف، ثم تنسَّك فأحرقها[2].

وأخذ النحو عن أبي عمرو: الخليل بن أحمد، ويونس بن حبيب البصري، وأبو محمد اليزيدي، ومعاذ بن مسلم الهرَّاء، وروىٰ عنه الحروف سيبويه.

(٣) عيسىٰ بن عمر الثقفي.

هو مولىٰ من موالي خالد بن الوليد، نزل في ثقيف فنُسِب إليهم، وكان أحد المحققين لعلم العربية، اكتسب الفصاحة من ثقيف، ثم نزل البصرة فأخذ النحو عن عبد الله بن أبي إسحاق، ولم نجده أخذ النحو عن أحدٍ من نحاة الطبقة الأولىٰ، ولكنه برع وبرز في عهد أبي عمرو، ومات قبله بخمس سنوات -أي سنة ١٤٩ في خلافة المنصور-.

وعنه وعن أبي عمرو صدرت الطبقة الثالثة من أهل العربية، وذكر المبرد أن عيسىٰ أخذ النحو عن أبي عمرو بن العلاء أيضًا.

قال ابن الأنباري: كان ثقة عالمًا بالعربية والنحو والقراءة[3].

وقراءته مشهورة، قال أبو عبيد القاسم بن سلام: كان من قرَّاء البصرة، وكان عالـمًا بالنحو، غير أنه كان له اختيارٌ في القراءة علىٰ مذاهب العربية، يفارق قراءة العامةِ، ويستنكره الناس، وكان الغالب عليه حبُّ النصب إذا وجد لذلك سبيلًا،

---

(١) «نزهة الألباء» (٣٤).

(٢) «إرشاد الأريب» (٣/ ١٣٢١).

(٣) «نزهة الألباء» (٢٨).

منه: (حمالة الحطب)، (الزانية والزاني)، (والسارق والسارقة)، (هن أطهر لكم)[1].

أقول: وهذا عجيبٌ من عيسىٰ بن عمر، ولكنه كان يتقعر في كلامه علىٰ فصاحته، فلا عجب، ونوادره في ذلك كثيرة، كقوله لما ضربه يوسف بن عمر بن هبيرة في طلب ثياب استودعها عنده خالد بن عبد الله حين إمارته علىٰ العراق: «إن كانت إلا أثيابًا في أُسَيْفَاطٍ قبضها عشَّاروك»[2].

وكان عيسىٰ ضريرًا.

وأخذ النحو عن عيسىٰ بن عمر: الخليل بن أحمد، ولعل سيبويه لقيه وأخذ عنه أيضًا.

الطبقة الثالثة:

أجلُّ شيوخ هذه الطبقة رجلان:

أحدهما حفظ علم الأوائل من النحاة، وأخذه الناس عنه، وهو يونس بن حبيب البصري.

والآخر حفظ علم الأوائل، وبرع في العربية، وجدَّد علم النحو بما أوتي من قوة العقل وعلوِّ الذكاء، ومنه نبع سيبويه فسقىٰ النحو حتىٰ أخصبت أرضه ونما نباته، وهو الخليل بن أحمد شيخ الشيوخ جميعًا.

(١) يونس بن حبيب البصري.

ولد يونس سنة تسعين، وأخذ النحو عن شيوخ الطبقة الثانية، فبرع وتفرَّد بمذاهب في النحو والقياس، وعقد حلقة بالمسجد الجامع بالبصرة ينتابها أهل العلم والأدب وفصحاء الأعراب والبادية.

---

(١) «غاية النهاية» لابن الجزري (١/ ٦١٣).

(٢) «نزهة الألباء» (٢٨).

وأكثر سيبويه في كتابه من الرواية عن يونس.

وكان من عقلاء الرجال.

تخرَّج عليه كثيرٌ من اللغويين والنحاة، كالأصمعي، وعلي بن حمزة الكسائي، وأبي زكريا الفراء، وكثير من أهل العلم في عصر الرشيد.

وعمِّر يونس ومات في خلافة هارون الرشيد سنة ١٨٣.

(٢) الخليل بن أحمد الفراهيدي البصري.

قال النضر بن شميل: «أقام الخليل في خصٍّ بالبصرة لا يقدر علىٰ فلسين، وتلامذته يكسبون بعلمه الأموال»[١]، وهذه حاله في العلم أيضًا، فلولا الخليل لم يكن سيبويه، فلما كان الخليل وكان سيبويه وأخذ علمه عنه وحشا به كتابه الجليل طار اسم سيبويه في كل مكان، وملأ الدنيا، وانزوىٰ ذكر الخليل إلا قليلًا، وأهمِلت كتبه وضاع أكثرها.

وقد كان الخليل من نوابغ الرجال وأفذاذ العرب، شهد له معاصروه بأنه كان آية في الذكاء، وكانوا يقولون: «لم يكن في العرب بعد الصحابة أذكىٰ منه»[٢].

اجتمع الخليل وعبد الله بن المقفع ليلة يتحدَّثان إلىٰ الغداة، فلما تفرَّقا قيل للخليل: كيف رأيت ابن المقفع؟ فقال: رجلًا علمُه أكثر من عقله، وقيل لابن المقفع: كيف رأيت الخليل؟ قال: رأيت رجلًا عقلُه أكثر من علمه[٣].

هذا مع ما شهد به له الأوائل من سعة العلم والتبحر فيه.

---

(١) «بغية الوعاة» (١/ ٥٥٨).

(٢) «إرشاد الأريب» (٣/ ١٢٦٣).

(٣) «وفيات الأعيان» (٢/ ٢٤٦).

وليس أدل علىٰ نبوغ الخليل وعبقريته وتفرده من استخراجه العروض، وحصره في خمسة دوائر[1] استخرج منها الخمسة عشر بحرًا المعروفة، وكان الخليل قد تعلم الإيقاع والنغم، فمنهما أحدث علم العروض بما أوتي من صفاء النفس وسرعة الخاطر ودقة الفهم وقوة الضبط، ولم يستطع أحدٌ إلىٰ يوم الناس هذا أن يزيد علىٰ ما أتىٰ به الخليل بحرًا واحدًا إلا الأخفش فإنه اهتدىٰ إلىٰ بحر واحد هو الذي يسمُّونه «الخبب».

ولولا ما ضاع من كتب الخليل لعرفنا كيف نردُّ كتاب سيبويه إلىٰ الأصل الذي أخذ عنه من الخليل، ونحن لا نشكُّ في أن أول كتاب وخيرَه وصل إلينا من كتب المتقدمين في النحو هو كتاب سيبويه؛ إذ هو الكتاب الذي وُضِع علىٰ قواعد معقودة للكتاب كله، وأرجح الرأي عندنا أن الذي عقد النحو هذا العقد الذي نراه في «الكتاب» ليس هو سيبويه، بل هو الخليل بن أحمد الذي عقد علم العروض هذا العقد الذي لم يُنْقَض، وقد رأىٰ الخليل في سيبويه رجلًا محكَم العقل فاستصفاه بعلمه وأدبه، ومنحه وقته وراحته، فكان الخليل يقول له حين يزوره: «مرحبًا بزائر لا يُمَلّ»، قال أبو عمرو المخزومي -وكان كثير المجالسة للخليل-: «ما سمعت الخليل يقولها لأحد إلا لسيبويه»[2].

ولا شك أن سيبويه كان في ذلك الوقت شابًّا لم تنهكه الأيام والمصائب، وكان الخليل قد أسنَّ، فأراد أن يلقي علمه إلىٰ من يزكو عنده وينمو، فألقاه إلىٰ سيبويه،

---

(١) الدائرة في علم العروض هي التي حصر الخليل بها الشطور؛ لأنه وضعها على شكل الدائرة التي هي الحلقة، وهي خمس دوائر: الأولى، فيها ثلاثة أبواب: الطويل، والمديد، والبسيط. والثانية فيها بابان: الوافر، والكامل. والثالثة فيها ثلاثة أبواب: الهزج، والرجز، والرمل. والرابعة فيها ستة أبواب: السريع، والمنسرح، والخفيف، والمضارع، والمقتضب، والمجتث. والدائرة الخامسة فيها المتقارب حسبُ. (شاكر)

(٢) «طبقات النحويين واللغويين» (٦٧).

فأخرج منه «الكتاب»[1].

وهذه الكلمة لا تكفي لتحقيق القول في أمر الخليل وكتاب سيبويه، فنؤجِّلها إلىٰ أوسع من هذه وأبرح.

ونحن لا نعلم كثيرًا عن منشأ الخليل إلا أنه ولد بالبصرة سنة مئة من الهجرة، وعمِّر فبلغ أربعًا وسبعين سنة، والذي يُفْهَم من تراجم هذا الإمام أنه تلقىٰ العلم صغيرًا وانقطع له وعُنِيَ به فلم يبالِ بغيره، ولم يطلب الرزق بعلمه؛ لما كان من

---

(١) وقد روى ياقوت في معجمه قال: «قيل ليونس بن حبيب: إن سيبويه قد ألف كتابًا في ألف ورقة من علم الخليل، قال يونس: ومتى سمع سيبويه هذا كله من الخليل؟ جيئوني بكتابه، فلما نظر فيه رأى كل ما حكى عنه (يعني ما حكى سيبويه عن يونس) فقال: يجب أن يكون هذا الرجل قد صدق عن الخليل في جميع ما حكاه كما صدق فيما حكاه عني»، فهنا ترى الدليل على أن أكثر كتاب سيبويه من علم الخليل وأدبه، وهذا هو المعقول؛ لأن سيبويه لم يعمَّر أكثر من أربعين سنة، وقد جمع في كتابه هذا أصول النحو كلها إلا ما ندر من شيء، وهذا عملٌ لا يكاد يوفق إليه رجلٌ وحده إلا مستعينًا برجل قد امتلأ علمًا أو جماعة قد أفرغوا أنفسهم لهذا وحده.

والذي يدل على أن هذا الكتاب من علم الخليل لا من عمل جماعة أن الخليل كان إذا تكلم في شيء من النحو مما استنبطه هو لم يفهم ما يقول أحدٌ من نحاة عصره، وهذا الأخفش النحوي الجليل البارع يحدِّث فيقول: «حضرت مجلس الخليل، فجاءه سيبويه فسأله مسألة وفسَّرها له الخليل، فلم أفهم ما قالا، فقمت وجلست له في الطريق، فقلت: جعلني الله فداءك! سألتَ الخليل عن مسألة، فلم أفهم ما ردَّ عليك، ففهِّمنيه، فأخبرني بها، فلم تقع لي ولا فهمتها، فقلت له: لا تتوهَّم أني أسألك إعناتًا، فإني لم أفهمها ولم تقع لي، فقال لي: ويلك! ومتى توهمتَ أني أتوهم أنك تعنتني؟ ثم زجرني وتركني ومضى».

فالخليل كما ترى هو الذي وضع للنحو أبوابه وأقسامه واصطلاحه الذي نراه في كتاب سيبويه؛ فإن سيبويه تلميذ الخليل لم يأخذ النحو إلا عنه، وزاد على ذلك أن الخليل منحه ما وضع للنحو من أبواب وأقسام واصطلاح، حتى إن معاصريه الذين أخذوا النحو عن الخليل لم يفهموا ما كان يدور بينه وبين الخليل من الكلام في النحو.

وهذا بابٌ عظيم في تحقيق كتاب سيبويه نستوفيه بعدُ في كتابنا عن العربية إن شاء الله تعالى. (شاكر)

ورعه وطول صبره علىٰ المكاره وشدَّة إبائه وتعفُّفه، فكان يمتنع علىٰ الأمراء والحكام ولا يبتذل نفسه بالتردُّد عليهم[1]، فكان ذلك سببًا في انقطاعه للعلم والتبحر فيه والتوسع في فروعه مدة طويلة من حياته حتىٰ نبغ وفاق أهل عصره علمًا وأدبًا وورعًا وخلقًا.

وصفه من رآه فقال: «كان الخليل رجلًا صالحًا عاقلًا حليمًا وقورًا»[2]، وقال النضر بن شميل: سمعت الخليل يقول: «إني لأغلق عليَّ بابي فما يجاوزه همي»[3]، وهذا هو خلق العلم، فتدبَّر هذه الكلمة تعرفْ كيف نبغ الخليل وبرع، ثم تدبَّر هذه الكلمة الحكيمة، قال: «لا يعلم الإنسان خطأ معلِّمه حتىٰ يجالس غيره»[4].

الطبقة الرابعة:

لفَّ هذه الطبقة كلَّها تحت جناحيه «النَّسْر النحوي» سيبويه شيخ النحاة في عصره وما بعد عصره، والبحر الذي أمدَّ علوم العربية حتىٰ زخرت وتلاطمت.

---

(١) كان للخليل رَحِمَهُ ٱللَّهُ راتبٌ على سليمان بن حبيب بن المهلب بن أبي صفرة، وكان والي فارس والأهواز، فكتب سليمان إلى الخليل يستدعيه فأجابه الخليل.

أبلغ سليمان أني عنه في سعة ... وفي غنًىٰ غير أني لست ذا مالِ

شحًّا بنفسي إني لا أرىٰ أحدًا ... يموتُ هزلًا ولا يبقىٰ علىٰ حالِ

الرزق عن قدَرٍ لا الضعفُ يُنْقِصُه ... ولا يزيدك فيه حولُ محتالِ

والفقر في النفس لا في المال نعرفه ... ومثل ذاك الغنىٰ في النفس لا المالِ

فقطع عنه سليمان راتبه، فقال الخليل:

إن الـذي شـقَّ فمـي ضامـنٌ ... للـرزق حتـىٰ يتوفـاني

حرمتنـي مـالًا قليـلًا فمـا ... زادك في مالـك حرمـاني

فبلغت الأبيات سليمان، فكتب إلى الخليل يعتذر إليه وأضعف له راتبه. (شاكر)

(٢) هذه عبارة ابن خلكان في «وفيات الأعيان» (٢/ ٢٤٥).

(٣) «وفيات الأعيان» (٢/ ٢٤٥).

(٤) «وفيات الأعيان» (٢/ ٢٤٥).

قال الجاحظ: «لم يكتب الناسُ في النحو كتابًا مثله، وجميع كتب الناس في النحو عيالٌ عليه»[1].

كان أول أمر سيبويه في طلب العلم أنه كان يطلب علم الآثار والفقه، ولم تكن له عنايةٌ بالنحو، ولعل ذلك كان وسنُّه إذا ذاك ما بين العشرين إلىٰ الثلاثين، وكان يطلب الحديث من حماد بن سلمة بن دينار البصري المحدث الفقيه النحوي، فقال حماد: قال رسول الله ﷺ: «ما من أحدٍ من أصحابي إلا من لو شئت لأخذت عليه عيبًا[2] ليس أبا الدرداء»، فقال سيبويه: «ليس أبو الدرداء»، فقال له حماد: «لحنتَ يا سيبويه، ليس أبا الدرداء»، فقال: «لا جرم، لأطلبنَّ علمًا لا تلحِّنني فيه أبدًا»، فطلب النحو ولزم الخليل بن أحمد[3].

وكانت في لسان سيبويه لُكْنَة، وذلك لأن أصله من البيضاء بأرض فارس، ونشأ بالبصرة ولم يعمَّر أكثر من أربعين، وانتقل في آخر أيامه إلىٰ الكوفة لمناظرة الكسائي -وأمرها مشهور-، ثم رحل إلىٰ شيراز ومات بها سنة ١٨٠ تقريبًا.

---

(١) «وفيات الأعيان» (٣/ ٤٦٣).

(٢) في «معجم الأدباء»: «لأخذت عنه علمًا»، ومعنى الحديث على هذه الصورة فاسدٌ باطل، وقد بحثنا عن هذا الحديث فلم نجده، وتوهَّمنا أن الصواب «لأخذت عليه عيبًا»؛ ليستقيم المعنى، وقد ورد مثل هذا الحديث في المعنى بشأن أبي عبيدة بن الجراح، وفيه هذا اللفظ. (شاكر)

قلت: حديث أبي عبيدة أخرجه يعقوب بن سفيان في «المعرفة والتاريخ» (١/ ٤٨٨)، وعبد الله بن الإمام أحمد في زياداته على «فضائل الصحابة» (١٢٨٣)، وأبو بكر الخلال في «السنة» (١/ ٢٧٩) وغيرهم عن الحسن أن النبي ﷺ قال: «ما من أحد من أصحابي إلا لو شئت آخذ عليه في خلقه ليس أبا عبيدة بن الجراح»، وهو مرسل، ورجاله ثقات كما قال ابن حجر في «الإصابة» (٥/ ٥١٢).

(٣) «إرشاد الأريب» (٣/ ١١٩٩). وأخرج القصة الخطيب البغدادي في «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (٢/ ٦٧) بإسناده من طريق الأخفش عن المبرد.

ونقتصر علىٰ هذا من ترجمة هذا الإمام الجليل؛ فقد مضىٰ ذكره في ترجمة الخليل، وليس في الوقت سعة.

النحو في الكوفة:

رأيت فيما مضىٰ أن النحاة جميعًا إنما نشأوا بالبصرة وكثروا فيها وكانوا أئمة العربية في زمانهم، وما نشأ النحو في الكوفة وكان مذهبًا ضعيفًا إلا في أيام الخليل بن أحمد، وذلك لأن البصرة أقدم بناءً من الكوفة، وكان بها من صفوة الناس وأذكيائهم وعلمائهم من لم يكن مثلهم بالكوفة، ولذلك تأخر ظهور علم النحو بها مدَّة طويلة.

واعلم أن الخلاف المشهور بين الكوفيين والبصريين لم يحقَّق بعد تحقيقًا وافيًا شافيًا، وليس يمكن أن يحدَّد في كلمة قصيرة موجزة كهذه، فنكتفي بالإشارة إلىٰ وجود هذا الخلاف ونشأته، وننتقل إلىٰ ذكر الطبقة الأولىٰ والثانية من علماء الكوفة، ونختم الكلام بهذا، والله المستعان.

الطبقة الأولىٰ من الكوفيين:

شيخ هذه الطبقة من أهل الكوفة هو محمد بن الحسن بن أبي سارة الملقب بالرؤاسي؛ لعظم رأسه.

كان في زمن الخليل بن أحمد، وزعموا أنه أول من وضع من الكوفيين كتابًا في النحو، وزعموا أنه قال: «بعث إليَّ الخليل يطلب كتابي، فبعثت به إليه، فقرأه ووضع كتابه»، وزعموا أن كل ما في كتاب سيبويه من قوله: «قال الكوفي» فإنما يعني به الرؤاسي[١].

(١) «إرشاد الأريب» (٦/ ٢٤٨٦).

ولكن ممَّا لا شك فيه أن الرؤاسي كان إمام أهل الكوفة في النحو، وعلىٰ يديه نشأ الكسائي والفراء شيخا نحاة الكوفة بعده، ولا شكَّ أيضًا في أن الرؤاسي كان ضعيفًا لا خطر له في النحو، ولولا أن الكسائي والفراء انتسبا إليه لما عُرِف ولا أُبِهَ به، وستعلم بعد أن الكسائي هو الذي جعل للكوفة نحوًا امتازت به عن أختها البصرة.

الطبقة الثانية:

إمام هذه الطبقة الكسائي، وتلاه الفراء تلميذه ورفيقه.

والكسائي هو أبو الحسن علي بن حمزة بن عبد الله بن عثمان، من أصل فارسيٍّ، وكان ولاؤه في بني أسد.

وتعلَّم الكسائيُّ النحو وقد أسنَّ، وكان أحد القرَّاء الذين عُدُّوا بعدُ في القراء السَّبعة.

وأخذ الكسائي النحو واللغة عن معاذ الهرَّاء والرؤاسي، ثم نهضت همَّته به إلىٰ الرحلة، فنزل البصرة ولقي الخليل بن أحمد وجلس في حلقته ولزمه مدة، ثم سأل الخليل: من أين أخذ علمه؟ فقال له: من بوادي الحجاز ونجد وتهامة -وهم أهل الفصاحة والبيان-، فخرج وأخذ من الأعراب علمًا كثيرًا، ثم عاد إلىٰ البصرة ليرىٰ الخليل والنحاة بها، فوجد الخليل قد مات رَحِمَهُ اللَّهُ وجلس مجلسه يونس بن حبيب، فجرت بينهما مسائل أقرَّ له يونس فيها وصدَّره في موضعه[1]، فكان هذا ابتداء ذيوع أمره في النحو، ثم رجع إلىٰ الكوفة ولقي بها رفقاءه فتتلمذوا له.

واعتنىٰ الكسائي بكتاب سيبويه، فقرأه وصحَّحه علىٰ أصله واستفاد منه، وخالف سيبويه في مسائل كانت هي السبب في الخلاف الكبير الذي وقع بين البصريين والكوفيين في تلك العداوة الشديدة التي حملها الكوفيون للبصريين. ولولا رحلة الكسائي بإرشاد الخليل بن أحمد وكتاب سيبويه لبقي النحو في الكوفة رؤاسيًّا ضعيفًا لا قِبَل له بالبقاء مع نحو البصرة.

---

(١) «نزهة الألباء» (٥٩).

ومات الكسائي سنة ١٩٧ بالريِّ في عهد هارون الرشيد، وكان يعوده في مرضه؛ لأنه كان مؤدِّب ولديه الأمين والمأمون.

* * *

هذا وكنَّا نودُّ أن نستقصي بقية الطبقات من علماء الكوفة النحويين، ثم نتبع ذلك بالكلام عن أسباب الخلاف بين المذهبين، وكيف اختلط المذهبان بعد ذلك، ومن أول من جمع بين المذهبين، لكنَّا نعتذر عن هذا، وعن الإيجاز الذي اضطررنا إليه في الكتابة عن أهل الطبقات، والله الموفق لإتمام ذلك وإخراجه علىٰ أكمل وجه في كتابنا عن العربية إن شاء، وله الأمر من قبل ومن بعد.

حياة الرافعي[1]

لمحمد سعيد العريان

فاتحة الكتاب

إن كنتَ لست معي، فالذِّكرُ منك معي
يراك قلبي وإن غُيِّبْتَ عن بصري
العيــنُ تُبْصِــرُ مـن تهـوىٰ وتَفْقِـدُه
وناظرُ القلب لا يخلـو من النَّظـرِ

رحمك الله «أبا السَّامي»[2]، ورضي عنك، وغفر لك ما تقدَّم من ذنبك، وجزاك خيرًا عن جهادك ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الحديد: ١٢].

كتب «سعيدٌ» -لا أخلىٰ الله مكانَه، وخُطِّئ عنه السُّوء- هذا الكتاب الذي يسعىٰ بين يديه، يردُّ به إلىٰ الحياة حياةً استدبرت الدُّنيا وأقبلت علىٰ الآخرة بما قدَّمت من عمل؛ وثَمَّ الميزان الذي لا يخطئ، والناقد الذي لا يَجُوزُ عليه الزَّيف، والحاكم الذي لا يقدح في عدله ظلمٌ ولا جور، والبصير الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، قد استوت عنده دُجُنَّة السِّرِّ ونهار العلانية.

وقد فرغ الرافعي -رحمه الله- من أمر الناس إلىٰ خاصَّة نفسه، ولكن الناس لا يفرغون من أمر موتاهم، ولو فرغوا لكان التاريخ أكفانًا تُطوىٰ علىٰ الرِّمَم، لا أثوابًا

---

(١) مطبعة الرسالة، القاهرة، الطبعة الأولى ١٣٥٨ - ١٩٣٩.

(٢) كذلك كانت كنيته. واسم ابنه البكر: محمود سامي الرافعي، وإنما سمَّاه كذلك تشبيهًا له باسم الشاعر محمود سامي البارودي، وإليه كان ينظر في صدر أيامه. (شاكر)

تلقىٰ علىٰ الميت لتنشره مرة أخرىٰ حديثًا يُؤْثَر، وخبرًا يروىٰ، وعملًا يتمثَّل، وكأنْ قد كان بعد إذ لم يكن.

وهذا كتابٌ يقدِّمه «سعيدٌ» إلىٰ العربية وقرائها، يجعله كالمقدِّمة التي لا بدَّ منها لمن أراد أن يعرف أمر الرافعي من قريب.

لقد عاش الرافعيُّ دهرًا يتصرَّف فيما يتصرَّف فيه الناس علىٰ عاداتهم، وتصرِّفه أعمال الحياة علىٰ نهجها الذي اقتسرته عليه أو مهدته له أو وطَّأت به لتكوين المزاج الأدبي الذي لا يعدمه حيٌّ ولا يخلو من مسِّه بشر.

وأنا -ممَّا عرفتُ الرافعيَّ رَحِمَهُ اللهُ ودنوتُ إليه ووصلتُ سببًا مني بأسباب منه- أشهد لهذا الكتاب بأنه قد استقصىٰ من أخبار الرافعي كثيرًا إلىٰ قليل ممَّا عُرِف عن غيره ممَّن فَرَط من شيوخنا وكتَّابنا وأدبائنا وشعرائنا، وتلك يدٌ لسعيد علىٰ الأدب العربي، وهي أخرىٰ علىٰ التاريخ، ولو قد يسَّر الله لكل شاعر أو كاتب أو عالم صديقًا وفيًّا ينقله إلىٰ الناس أحاديث وأخبارًا وأعمالًا كما يسَّر الله للرافعيِّ لما أضلَّت العربية مجد أدبائها وعلمائها، ولما تفلَّت من أدبها علمُ أسرار الأساليب وعلمُ وجوه المعاني التي تعتلج في النفوس وترتكض في القلوب، حتىٰ يؤذن لها أن تكون أدبًا يُصطفىٰ، وعلمًا يُتوارَث، وفنًّا يتبلَّج علىٰ سواد الحياة، فتُسْفِر عن مكنونها متكشِّفةً بارزةً تتأنق للنفس حتىٰ تستوي بمعانيها وأسرارها علىٰ أسباب الفرح ودواعي السُّرور وما قبلُ وما بعد.

والتاريخ ضربان يترادفان علىٰ معناه، ولكلٍّ فضل:

فأوله رواية الخبر والقصَّة والعمل، وما كان كيف كان، وإلىٰ أين انتهىٰ. وهذا هو الذي انتهىٰ إلينا من علم التاريخ العربي في جملته، وعمود هذا الباب صدقُ الحديث، وطولُ التحرِّي والاستقصاء والتتبُّع وتسقُّط الأخبار من مواقعها، وتوخِّي الحقيقة في الطلب حتىٰ لا يختلط باطلٌ بحق.

وأما التاريخ الثاني فإيجاد حياة قد خرجت من الحياة، وردُّ ميتٍ من قبر مغلق إلىٰ كتاب مفتوح، وضمُّ متفرِّق يتبعثر في الألسنة حتىٰ يتمثَّل صورة تَلُوحُ للمتأمل.

وهذا الثاني هو الذي عليه العمل في الإدراك البياني لحقائق الشعراء والكتَّاب ومن إليهم، ومع ذلك فهو لا يكاد يكون شيئًا إلا بالأول، وإلا بقي اجتهادًا محضًا تموت الحقائق فيه أو تحيا علىٰ قدر حظِّ المؤرِّخ والناقد من حسن النظر ونفاذ البصيرة، ومَسَاغه في أسرار البيان متوجهًا مع الدلالة مقبلًا مدبرًا، متوقِّيًا عثرةً تكبُّه علىٰ وجهه، متابعًا مَدْرجة الطبائع الإنسانية علىٰ تباينها واختلافها، حتىٰ يُشْرِف علىٰ حيث يملك البصر والتمييز ورؤية الخافي وتوهُّم البعيد، ويكون عمل المؤرِّخ يومئذ نكسةً يعود بها إلىٰ توهُّم أخبار كانت وأحداثٍ يخالها وقعت، ويجهد في ذلك جهدًا لقد غَنِي عنه لو قد تساوقت إليه أخبار حياة الشاعر أو الكاتب واجتمعت لديه وألقيت إليه كما كانت أو كما شاهدها من صَحِبه واتصل به ونفذ إلىٰ بعض ما ينفذ إليه الإنسان من حال أخيه الإنسان.

وبعد، فإن أكثر ما نعرفه من أدبٍ وشعرٍ في عصور الانحدار التي مُنِيَت بها العربية يكاد يكون تلفيقًا ظاهرًا علىٰ البيان والتاريخ معًا، حتىٰ ليضلَّ الناقد ضلال السَّالك في نفقٍ ممتدٍّ قد ذهب شعابًا متعانقة متنافرة في جوف الأرض.

ثم جاء العصر الذي نحن فيه، فأبطلت عاميتُه البيان في الأدب والشعر من ناحية، ودلسهما ما أغري به الكثرة من استعارة العاطفة واقتراض الإحساس من ناحية أخرىٰ؛ فإني لأقرأ للكاتب أو الشاعر وأتدبَّر وأترفَّق وأترقَّىٰ، وإذا هو عَيبةٌ ممتلئةٌ قد أُشرِجت علىٰ المعاني والعواطف، فلو قُطِع الخيط الذي يشدُّها لانقطعت كلُّ شاردة نافرة إلىٰ وطنها هاربة تشتدُّ. وبمثل هذا يخوض المؤرِّخ في رَدَغة مستوحِلة يتزلَّق فيها هاهنا وثَمَّ، ويتقطَّع في الرأي وتتهالك الحقائق بين يديه، حتىٰ يصير الشاعر وشعرُه والأديب وأدبُه أسمالًا متخرِّقةً باليةً يمسَح بها المؤرخ عن نفسه آثار ما وحِل فيه!

وقد ابتلي الأدب العربي في هذا العصر بهؤلاء الذين أوجَفت بهم مطايا الغرور في طلب الشهرة والصِّيت والسَّماع، فخبَطوا وتورَّطوا ظلماءَ سالكُها مغترٌّ، وقد كان احتباسهم وإمساكهم عما نصَبوا وجوههم له، واصطبارهم علىٰ ذلِّ الطلب، وممارستهم معضِل ما أرادوه، وتأنِّيهم في النية والبصر والعزم، عسىٰ أن يحملهم علىٰ استثارة ما ركبه الإهمال من العواطف التي تعمل وحدها إذا تنسَّمت رَوح الحياة، واستنباط النبع القديم الذي ورثته الإنسانية من حياتها الطبيعية الأولىٰ ثم طمت عليه أدران المدنيَّات المتعاقبة.

والشعر والأدب كلاهما عاطفةٌ وإحساسٌ ينبعان من أصل القلب الإنساني، هذا القلب الذي أُثبِت من داخل بين الحنايا والضلوع ليكون أصفىٰ شيء وأطهر شيء وأخفىٰ شيء، وليمسَّ كلَّ عمل من قريب ليصفِّيه ويطهِّره ويسدل عليه من روحه شفًّا رقيقًا لا يستُر بل يَصِفُ ما رواءه صفةً باقيةً بقاء الروح، ويبرئها من دنس الوحشية التي تطويها في كفنٍ من بضائع الموتىٰ؛ فأيما شاعر أو أديب قال فإنما بقلبه وجب أن يقول، ومن داخله كُتِب عليه أن يتكلَّم، وإنما اللسان آلةٌ تنقل ما في داخل إلىٰ خارج حسب، فإن كلَّفها أحدٌ أن تنقل علىٰ غير طبيعتها في الأداء -وهي الصِّلة التي انعقدت بينها وبين القلب علىٰ هذا القانون- فقد أوقع الخلل فيها، ووقع الفساد والتخالف والإحالة والبطلان فيما تؤدِّيه أو تنقله.

وقد نشأ الرافعيُّ من أوَّليَّته أديبًا يريد أن يشعر ويكتب ويتأدَّب، وسلَخ شبابه يعمل حتىٰ أمكنته اللغة من قيادها، وألقت إليه بأسرارها، فكان عالمًا في العربية يقول الشعر.

ولو وقف الرافعيُّ عند ذلك لدرَج فيمن درَج من الشعراء والكتاب والعلماء الذين عاصروه، ولو أنه استنام إلىٰ بعض الصِّيت الذي أدركه وحازه واحتمله في أمره الغرور لخفَّ من بعدُ في ميزان الأدب حتىٰ يرجُح به مِن بعدُ من عسىٰ أن يكون أخفَّ منه.

ولكن الرافعي خرج من هذه الفتن -التي لفَّت كثرة الشعراء والأدباء والتقمتهم فمضغتهم فطحنتهم ثم لفظتهم- وقد وجد نفسه واهتدىٰ إليها، وعرف حقيقة أدبه وما ينبغي له وما يجب عليه، فأمرَّ ما أفاد من علم وأدب علىٰ قلبه ليؤدِّي عنه، وبرئ أن يكون كبعض مشاهير الكتَّاب والشعراء ممَّن يطيح بالقول من أعلىٰ رأسه إلىٰ أسفل القرطاس، وللقارئ من قنابله بعد ذلك ما يتشظَّىٰ في وجهه وما يتطاير.

لهذا كان الرافعيُّ من الكتَّاب والأدباء والشعراء الذين تتَّخذ حياتهم ميزانًا لأعمالهم وآثارهم، ولذلك كان كتاب «سعيد» عن حياته من الجلالة بالموضع الذي يسمو إليه كلُّ مبصر، ومن الضرورة بالمكان الذي يلجأ إليه كل طالب.

عرفتُ الرافعيَّ معرفة الرأي أول ما عرفته، ثم عرفته معرفة الصحبة فيما بعد، وعرضتُ هذا علىٰ ذاك فيما بيني وبين نفسي فلم أجد إلا خيرًا مما كنت أرىٰ، وتبدَّت لي إنسانية هذا الرجل كأنها نغمةٌ تجاوب أختها في ذلك الأديب الكاتب الشاعر، وظفرت بحبيب يحبُّني وأحبُّه؛ لأن القلب هو الذي كان يعمل بيني وبينه، وكان في أدبه مسُّ هذا القلب؛ فمن هنا كنت أتلقىٰ كلامه فأفهم عنه ما يكاد يخفىٰ علىٰ من هو أمثل مني بالأدب وأقوم علىٰ العلم وأبصر بمواضع الرأي.

وامتياز الرافعي بقلبه هو سرُّ البيان فيما تداوله من معاني الشعر والأدب، وهو سرُّ حفاوته بالخواطر ومذاهب الآراء، وسرُّ إحسانه في مهنتها وتدبيرها وسياستها كما يحسن أحدهم مهنة المال ورَبَّه والقيام عليه، وهو سرُّ علوِّه علىٰ من ينخشُّ في الأدب كالعظمة الجاسية تنشبُ في حلق متعاطيه، لا يبقي عليه من هوادة ولا رفق، وبخاصة حين يكون هذا الناشب ممَّن تسامىٰ علىٰ حين غفلة يوم مَرِج أمر الناس واختلط، أو كان مرهَّقًا في إيمانه متَّهمًا في دينه؛ إذ كان الإيمان في قلب الرافعي دمًا يجري في دمه، ونورًا يضيء له في مجاهل الفكر والعاطفة، ويسنِّي له ما أعسَر إذا تعاندت الآراء واختلفت وتعارضت وأكذب بعضها بعضًا.

هذا، وقد أرخيت للقول حتىٰ بلغ، وكنتُ حقيقًا أن أغور إلىٰ سرِّ البيان واعتلاقه من العاطفة والهوىٰ في قول الشاعر والكاتب والأديب؛ لأسدِّد الرأي إلىٰ مرماه، وقد يطول ذلك حتىٰ لا تكفي له فاتحة كتاب أو كتابٌ مفرد؛ فإن البيان هو سرُّ النفس الشاعرة مكفوفًا وراء لفظٍ، وما كان ذلك سبيله لا يتأتىٰ إلا بالتفصيل والتمييز والشرح ولا تغني فيه جملة القول شيئًا من غناء.

وحقيقٌ بمن يقرأ هذا الكتاب أن يعود إلىٰ كتب الرافعي بالمراجعة، فيستنبئها التفصيل والشرح، وبذلك يقع علىٰ مادَّة تمدُّه في دراسة فنون الأسلوب، وكيف يتوجَّه بفنِّ الكاتب، وكيف يتصرَّف فيه الكاتب بحسٍّ من قلبه لا يخطئ أن يجعل المعنىٰ واللفظ سابقَين إلىٰ غرضٍ متواطئَين علىٰ معنًىٰ لا يجوران فيجاوزانه أو يقعان دونه.

رحمة الله عليه، لقد شارك الأوائل عقولهم بفكره، ونزع إليهم بحنينه، وفَلَجَ أهلَ عصره بالبيان حين استعجمَت قلوبهم وارتضخَت عربيَّتُهم لكنةً غير عربية، ثم صار إلىٰ أن أصبح ميراثًا نتوارثه، وأدبًا نتدارسه، وحنانًا نأوي إليه.

رحمة الله عليه!

محمود محمد شاكر

رسالة «الصلاة»[1]

للإمام أحمد بن حنبل

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدىٰ ودين الحقِّ، يدعو الناسَ أن يعبدوا الله مخلصين له الدِّين حنفاء، ويقيموا الصَّلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيِّمة، فصلىٰ الله علىٰ محمدٍ أزكىٰ ما صلىٰ علىٰ أحدٍ من خلقه، والسَّلام عليه ورحمة الله وبركاته.

* * *

(١) لجنة الشباب المسلم، القاهرة، راجعها الأستاذ محمود محمد شاكر. وقد أنشئت هذه اللجنة سنة ١٩٥١، وكان من أعضائها د. محمد رشاد سالم وعبد الحليم محمد أحمد وأحمد البساطي وغيرهم، وكان يوجهها فكريًّا محمود شاكر كما يقول الطناحي في «مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي» (١٥١).
وتسمى هذه الرسالة «رسالة في المسيء صلاته»، وفي نسبتها للإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلام، فأبطلها الذهبي في «السير» (١١/ ٢٨٧) وحكم بوضعها (١١/ ٣٣٠)، وقال كما في طرة نسخة العمرية الآتية: «هذه الرسالة في إسنادها إلى الإمام أحمد مجاهيل، وفي أحاديثها مناكير، وأخشى أن تكون موضوعة». وأثبتها أصحاب مذهبه واعتمدوها ونقلوا عنها: القاضي أبو يعلى وابن قدامة وابن مفلح وابن تيمية وابن القيم وغيرهم، وساقها بتمامها ابن أبي يعلى في «طبقات الحنابلة» (٢/ ٤٣٧- ٤٧٥)، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية فيما نقله عن خطه ابن المحب: «هذه الرسالة معروفة عن أحمد عند أصحابه، حتى أخذوا منها مذهبه في مواضع وقالوا: في رواية مهنا كذا، يعنون هذه الرسالة، كما يذكر ذلك القاضي أبو يعلى وأبو محمد المقدسي وغيرهما. ولفظ الحديث يتناول في اصطلاحه كل ما روي بإسنادٍ سواء كان عن الصحابة أو التابعين، وسواء كان مسندًا أو مرسلًا أو كان من الإسرائيليات، وإذا لم يكن في هذه الآثار ما يخالف الأصول ولا يُعْلَم أنه كذب، ومعناه يوافق الأصول، جازت روايته. والحديث يذكره المفتي تارة بلفظه وتارة بمعناه ليفهم المخاطبين» من طرة نسخة عالية للرسالة (مجموع ٦١- مجاميع العمرية، ق ٦٤/ ظ). وانظر: «التنبيهات على رسالة الألباني في الصلاة» لحمود التويجري (٥٤- ٥٧)، و«المدخل المفصل لمذهب الإمام أحمد» لبكر أبو زيد (٢/ ٦١٧، ٨٣٣).

كتب أحمد بن محمد بن حنبل هذه الرسالة إلىٰ قومٍ صلَّىٰ معهم، فرآهم يسيئون في صلاتهم، فقام بما فُرِض علىٰ العالم من تعليم الجاهل، ومن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن التعاون علىٰ البر والتقوىٰ، فجزاه الله عنَّا وعنهم خيرًا، وقال في آخرها: «رحم الله امرءًا احتسب الأجر والثواب، فبثَّ هذا الكتاب في أقطار الأرض؛ فإن أهل الإسلام محتاجون إليه، لما قد شملهم من الاستخفاف في صلاتهم والاستهانة بها».

فإذا كان هذا علىٰ عهده رضي الله عنه فإننا في زماننا هذا إليها أحوج، والناس إلىٰ الاستخفاف والاستهانة في زماننا أقرب من الذين كتب إليهم وأنكر عليهم، فبثُّ هذه الرسالة وأمثالها في الأرض فريضةٌ علىٰ من أطاق أن يفعلها بماله أو بيده أو بلسانه.

والصَّلاة حقُّ الله علىٰ عباده، فمن أقام ما بينه وبين ربه علىٰ وجهه الذي أمر به فهو علىٰ إقامة ما بينه وبين الناس أقدر، ومن استخفَّ به أو استهان فهو بما بينه وبين الناس أشدُّ استخفافًا واستهانة، ونحن في معرفة حقِّ الله علينا متَّبعون لما جاء من فعل نبيه، وما أمر به أصحابه، وليس لأحدٍ أن يبتدع فيه أو يخالف عنه، فمن زاد أو نقص فقد أخلَّ بحقِّ ربه، وضيَّع ما أمر بالمحافظة عليه، وابتدع فيه ما ليس منه، والله سبحانه لا يقبل إلا حقَّه علىٰ ما أمَر به أن يؤدَّىٰ كما أدَّاه رسوله ﷺ إلىٰ ربه عز وجل.

وقد رأيتُ الناس في زماننا كما رآهم أحمد رضي الله عنه، يتابع عالمهم جاهلهم في إساءة الصَّلاة بمسابقة الإمام، ورأيتهم يدخل أحدهم الصَّلاة وهو علىٰ الفراغِ منها أحرص منه علىٰ أداء حقِّ ربه بالوقوف بين يديه خاشعًا قانتًا يحذَر الآخرة ويرجو رحمة ربه، ورأيت كثيرًا منهم يشتدُّ علىٰ من خالف في أداء شأنٍ من شؤون حياتهم الدنيا، فإذا قاموا إلىٰ الصَّلاة لم أر أحدًا ينكر علىٰ أحدٍ مخالفتَه في أداء حقِّ الله عليه، ورأيتهم إذا سمعوا منكِرًا عليهم ما استهانوا فيه أصغوا إليه أدبًا ثم يعودون لما نُهوا عنه.

فرأيت أن أنشر هذه الرسالة؛ لتكون لأهل هذا الدين داعيةً إلىٰ أداء الحقِّ علىٰ وجهه، فمن قرأها فليقرأها للعمل بها، ولتعليم من يراه مخالفًا لما أمرنا به رسول الله ﷺ، وليعلم امرؤٌ أن صلاته إذا بطلت بطل عمله كلُّه، وأنه إذا استهان بشيء مما فيها استهان الله به، وإن إقامة الصلاة علىٰ وجهها أصلٌ في إقامة الدين كلِّه علىٰ وجهه.

محمود محمد شاكر

الظاهرة القرآنية[1]

لمالك بن نبي

فصلٌ في إعجاز القرآن

الحمد لله وحده لا شريك له، حمدًا يقرِّبنا إلىٰ رضوانه، وصلاة الله وسلامه علىٰ نبيه المصطفىٰ من أبناء الرسولين الكريمين إبراهيم وإسماعيل، صلاةً تزلِفنا إلىٰ جنَّته.

* * *

هذا كتاب «الظاهرة القرآنية» وكفىٰ، فليس عدلًا أن أقدِّم كتابًا هو يقدِّم نفسه إلىٰ قارئه. وبحسب أخي الأستاذ مالك بن نبي وبحسب كتابه أن يشار إليه، وإنه لعسيرٌ أن أقدِّم كتابًا هو نهجٌ مستقلٌّ، أحسبه لم يسبقه كتابٌ مثله من قبل. وهو منهجٌ متكاملٌ يفسِّره تطبيق أصوله، كما يفسِّره حرص قارئه علىٰ تأمُّل مناحيه، ولا أقول هذا ثناءً، فأنا أعلم أن رجلًا أثنىٰ علىٰ رجل عند النبي ﷺ فقال له: «ويلك! قطعتَ عنقَ صاحبك»[2] قالها ثلاثًا، ومالكٌ أعزُّ عليَّ من أن أقطع عنقه بثنائي أو أهلكه بإطرائي.

ولكن أحسبني من أعرف الناس بخطر هذا الكتاب؛ فإن صاحبه قد كتبه لغاية بيَّنها، ولأسباب فصَّلها، وقد صهرتني المحن دهرًا طويلًا، فاصطليتُ بالأسباب التي دعته إلىٰ اتخاذ منهجه في تأليف هذا الكتاب، ثم أفضيتُ إلىٰ الغاية التي أرادها، بعد أن سلكتُ إليها طرقًا موحشة مَخُوفة، وقد قرأتُ الكتاب وصاحبَه، فكنت كلما

---

(١) مكتبة دار العروبة، القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٥٨، ترجمة عبد الصبور شاهين.

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٦٢) ومسلم (٣٠٠٠).

قرأتُ منه فصلًا أجدني كالسَّائر في دروب قد طال عهدي بها، وخيِّل إليَّ أن مالكًا لم يؤلف هذا الكتاب إلا بعد أن سقط في مثل الفتن التي سقطتُ فيها من قبل، ثم أقال الله عثرته بالهداية، فكان طريقه إلىٰ المذهب الصَّحيح هو ما ضمَّنه كتابه من بعض دلائل إثبات إعجاز القرآن، وأنه كتابٌ منزَّل، أنزله الذي يعلم الخَبء في السموات والأرض، وأن مبلِّغه إلىٰ الناس ﷺ رسولٌ صادقٌ قد بلَّغ عن ربه ما أمره بتبليغه، وأن بين هذا الرسول الصَّادق وبين الكلام الذي بلَّغه حجازًا فاصلًا، وأن هذا الحجاز الفاصل بين القرآن وبين مبلِّغه حقيقةٌ ظاهرةٌ لا يخطئها من درس سيرة رسول الله فاحصًا متأملًا، ثم درس كتاب الله بعقلٍ يقظٍ غير غافل.

وهذا المنهج الذي سلكه مالك منهجٌ يستمدُّ أصوله من تأمُّلٍ طويلٍ في طبيعة النفس الإنسانية، وفي غريزة التديُّن في فطرة البشر، وفي تاريخ المذاهب والعقائد التي توسَم بالتناقض أحيانًا، ولكنها تكشف عن مستور التديُّن في كل إنسان، ثم هو يستمدُّ أصوله من الفحص الدَّائب في تاريخ النبوَّة وخصائصها، ثم في سيرة رسول الله -بأبي هو وأمي- منذ نشأته إلىٰ أن لحق بالرفيق الأعلىٰ، ثم في هذا البلاغ الذي جاء ليكون بنفسه دليلًا علىٰ صدق نفسه أنه كلام الله المفارق لكلام البشر من جميع نواحيه.

وفي خلال هذا المنهج تستعلنُ لك المحنة التي عاناها مالك، كما عانيتها أنا، وكما عاناها جيلٌ من المسلمين في هذا القرن، بل إنك لتجد المحنة ماثلةً في (مدخل الدراسة) وهو الفصل الذي استفتح به كتابه، حيث صوَّر لك مشكلة الشباب المسلم المتعلِّم في هذا العصر، وما كان قاساه وما يزال يقاسيه من العنت في إدراك إعجاز القرَآن إدراكًا يرضاه ويطمئنُّ إليه.

وهذا (العقل) الحديث الذي يفكِّر به شبابُ العالم الإسلامي، والذي يريد أن يدرك ما يرضيه ويطمئنُّ إليه من دلائل إعجاز القرآن، هو لبُّ المشكلة؛ فإن (العقل)

هبة الله لكلِّ حيٍّ، ولكن أساليب تفكيره كسبٌ يكتسبه من معالجة النظر ومن التربية ومن التعليم ومن الثقافة ومن آلاف التجارب التي يحياها المرء في هذه الحياة، فينبغي قبل كل شيء أن نتدبَّر أمر هذا (العقل) الحديث في العالم الإسلامي؛ لأن فهم هذا (العقل) هو الذي يحدِّد لنا طريقنا ومنهجنا في كل دراسة صحيحة نحبُّ أن نقدِّمها إليه حتىٰ يطمئنَّ ويرضىٰ.

فمنذ أول الإسلام خاضت الجيوش الإسلامية معارك الحرب في جميع أنحاء الدنيا، وخاض معها العقل الإسلامي معارك أشدَّ هولًا حيث نزل الإنسان المسلم، وتقوَّضت أركان الدول تحت وطأة الجند المظفَّر، وتقوَّضت معها أركان الثقافات المتباينة تحت نور العقل المسلم المنصور، وظلَّت الملاحم دائرة الرحىٰ قرونًا متطاولة في ميادين الحرب وميادين الثقافة حتىٰ كان هذا العصر الأخير.

انبعثت الحضارة الأوربية، ثم انطلقت بكل سلاحها لتخوض في قلب العالم الإسلامي أكبر معركة في تاريخنا وتاريخهم، وهي معركةٌ لم يُحِط بأساليبها وميادينها أحدٌ بعدُ في هذا العالم الإسلامي، ولم يتقصَّ أحدٌ آثارها فينا، ولم يتكفَّل بدراستها من جميع نواحيها من يطيق أن يَدْرُس، ولست أزعم أني سأدرسها في هذا الموضع، ولكن سأدلُّ علىٰ طرفٍ منها ينفع قارئ هذا الكتاب إذا صحَّ عزمه علىٰ معاناة دراسته دراسة الحريص المتغلغل.

لم تكن المعركة الجديدة بين العالم الأوروبي المسيحي وبين العالم الإسلامي معركةً في ميدانٍ واحد، بل كانت معركة في ميدانين: ميدان الحرب، وميدان الثقافة، ولم يلبث العالم الإسلامي أن ألقىٰ السِّلاح في ميدان الحرب لأسبابٍ معروفة.

أما ميدان الثقافة، فقد بقيت المعارك فيه متتابعة جيلًا بعد جيل، بل عامًا بعد عام، بل يومًا بعد يوم، وكانت هذه المعركة أخطر المعركتين، وأبعدهما أثرًا، وأشدَّهما تقويضًا للحياة الإسلامية والعقل الإسلامي، وكان عدوُّنا يعلم ما لا نعلم،

كان يعلم أن هذه هي معركته الفاصلة بيننا وبينه، وكان يعلم من خباياها ما لا نعلم، ويدرك من أسرارها ووسائلها ما لا ندرك، ويعرف من ميادينها ما لا نعرف، ويصطنع لها من الأسلحة ما لا نصطنع، ويتحرَّىٰ لها من الأسباب المفضية إلىٰ هلاكنا ما لا نتحرَّىٰ أو نلقي إليه بالًا، وأعانه وأيده أن سقطت الدول الإسلامية جميعًا هزيمةً في ميدان الحرب، فسقطت في يده مقاليد أمورها في كل ميدان من ميادين الحياة، وصار مهيمنًا علىٰ سياستها واقتصادها وصحافتها، أي سقطت في يده مقاليد التوجيه الكامل للحياة الإسلامية والعقل الإسلامي.

وميادين معركة الثقافة والعقل ميادين لا تُعَدُّ، بل تشمل المجتمع كله في حياته وفي تربيته وفي معايشه وفي تفكيره وفي عقائده وفي آدابه وفي فنونه وفي سياسته، بل كل ما تصبح به الحياة حياةً إنسانية، كما عرفها الإنسان منذ كان علىٰ الأرض، والأساليب التي يتخذها العدوُّ للقتال في معركة الثقافة أساليب لا تعدُّ ولا تحصىٰ؛ لأنها تتغيَّر وتتبدَّل وتتجدَّد علىٰ اختلاف الميادين وتراحبها وكثرتها، وأسلحة القتال فيها أخفىٰ الأسلحة؛ لأن عقل المثقف يتكوَّن يومًا بعد يوم، بل ساعة بعد ساعة، وهو يتقبَّل بالتربية والتعليم والاجتماع أشياء يسلِّمها بالإلف الطويل، وبالعرض المتواصل، وبالمكر الخفيِّ، وبالجدل المضلِّل، وبالمراء المتلوِّن، وبالهوىٰ المتغلِّب، وبضروب مختلفة من الكيد الذي يعمل في تحطيم البناء القائم، لكي يقيم العدوُّ علىٰ أنقاضه بناءً كالذي يريد ويرجو.

وقد كان ما أراد الله أن يكون، وتتابعت هزائم العالم الإسلامي في ميدان الثقافة جيلًا بعد جيل، وكما بقيت معارك الحرب متتابعة سرًّا مكتومًا لا يتدارسه قادة الجيوش الإسلامية وجندها حتىٰ هذا اليوم، بقيت أيضًا معارك الثقافة علىٰ تطاولها سرًّا خافيًا لا يتدارسه قادة الثقافة الإسلامية وجندها، بل أكبر من ذلك، فقد أصبح أكثر قادة الثقافة في العالم الإسلامي وأصبح جنودها أيضًا تبعًا يأتمرون بأمر القادة

من أعدائهم، عارفين أو جاهلين أنهم هم أنفسهم قد انقلبوا عدوًّا للعقل الإسلامي الذي ينتسبون إليه، بل الذين يدافعون عنه أحيانًا دفاع غيرةٍ وإخلاص.

لم يكن غرض العدو أن يقارع ثقافةً بثقافة، أو أن ينازل ضلالًا بهدًىٰ، أو أن يصارع باطلًا بحقٍّ، أو أن يمحو أسباب ضعفٍ بأسباب قوة، بل كان غرضه الأول والأخير أن يترك في ميدان الثقافة في العالم الإسلامي جرحىٰ وصرعىٰ لا تقوم لهم قائمة، وينصب في أرجائه عقولًا لا تدرك إلا ما يريد لها هو أن تعرف، فكانت جرائمه في تحطيم أعظم ثقافة إنسانية عُرِفت إلىٰ هذا اليوم كجرائمه في تحطيم الدول وإعجازها مثلًا بمثل، وقد كان ما أراد الله أن يكون، وظفر العدوُّ فينا بما كان يبغي ويريد.

وقد فصَّل مالك في (مدخل الدراسة) محنة (العقل) الحديث في العالم الإسلامي علىٰ يد أمضىٰ أسلحة العدوِّ في تهديم بعض جوانب الثقافة، بل أهمِّ جوانبها، وهو سلاح (الاستشراق)، سلاحٌ لم يدرسه المسلمون بعد، ولم يتتبَّعوا تاريخه، ولم يكشفوا عن مكايده وأضاليله، ولم يقفوا علىٰ الخفيِّ من أسرار مكره، ولم يستقصوا أثره في نواحي حياتهم الثقافية، بل في أكثر نواحي حياتهم الإنسانية، كيف؟ بل كان الأمر عكس ما كان ينبغي أن يكون، فهم يتدارسون ما يلقيه إليهم علىٰ أنه علمٌ يتزوَّده المتعلِّم، وثقافةٌ تتشرَّبها النفوس، ونظرٌ تقتفيه العقول، حتىٰ كان كما قال مالك: «إن الأعمال الأدبية لهؤلاء المستشرقين قد بلغت درجةً خطيرةً من الإشعاع لا نكاد نتصورها»، وتفصيل أثر هذا الإشعاع في تاريخنا الحديث، وفي سياستنا، وفي عقائدنا، وفي كتبنا، وفي أدياننا، وفي أخلاقنا، وفي مدارسنا، وفي صحافتنا، وفي كل أقوالنا وأعمالنا، شيءٌ لا يكاد يحيط به أحد.

وهذا الإشعاع كما سمَّاه مالك كان من أعظم الأسباب وأبعدها خطرًا في (العقل) الحديث الذي يريد أن يدرك دلائل إعجاز القرآن إدراكًا يرضىٰ عنه ويطمئنُّ

إليه، وهو الذي أوقع الشكَّ في الأصول القديمة التي قامت عليها أدلة إعجاز القرآن، بل أكبر من ذلك، فإنه قد أتىٰ أساليب غايةً في الدَّهاء والخفاء، أفضت إلىٰ تدمير الوسائل الصحيحة التي ينبغي أن يتذرَّع بها كل من درس نصًّا أدبيًّا حتىٰ يتاح له أن يحكم علىٰ جودته أو رداءته، فضلًا عن بلاغته أو إعجازه.

وقد ذكر مالك في (مدخل الدراسة) تلك القضية الغريبة التي عُرِفت بقضية (الشعر الجاهلي)، والتي أثارها المستشرق (مرجليوث) في بعض مجلات المستشرقين، ثم تولىٰ كِبرها (طه حسين) في كتابه (في الشعر الجاهلي) يوم كان أستاذًا للأدب العربي بالجامعة المصرية.

ولن أذكر هنا تلك المعارك التي أثارها كتاب (في الشعر الجاهلي)، ولكني أذكر، كما ذكر مالك، أن هذه القضية بأدلتها ومناهجها قد تركت في (العقل) الحديث في العالم الإسلامي أثرًا لا يمحىٰ إلا بعد جهدٍ جهيد.

والعجب أن (مرجليوث) قد أتىٰ في بحثه بزيفٍ كثير كان هو الأساس الذي بُنِي عليه هذا (العقل)، وقد حاول مئاتٌ من رجال الفكر أن يزيِّفوا الأدلة والمناهج، ولكن هذا الزَّيف بقي بعد ذلك طابعًا مميزًا لأكثر ما ينشره الطلبة والأساتذة إلىٰ يومنا هذا.

ولا تحاكم مرجليوث وأشياعه إلىٰ رأيك ونظرك، بل دع محاكمته إلىٰ مستشرق مثله، هو (آربري)، يقول في خاتمة كتابه (المعلقات السبع) وقد ذكر أقوال مرجليوث وفنَّدها: «إن السَّفسطة -وأخشىٰ أن أقول: الغشّ- في بعض الأدلة التي ساقها الأستاذ (مرجليوث) أمرٌ بيِّن جدًّا، ولا تليق البتة برجل كان ولا ريب من أعظَم أئمة العلم في عصره».

وهذا حكمٌ شنيع، لا علىٰ (مرجليوث) وحده، بل علىٰ كل أشياعه وكهنته وعلىٰ ما جاؤوا به من حطام الفكر.

ولكن العجب عندي بعد ذلك أن مالكًا ارتكز علىٰ ذكر هذه القضية، وعلىٰ أثرها في العقل الحديث، ثم انطلق منها إلىٰ نتيجة أخرىٰ، فقال: «وعلىٰ هذا فالمشكلة بوضعها الراهن تتجاوز في مداها نطاق الأدب والتاريخ، وتهمُّ مباشرةً منهج التفسير القديم كله، ذلك التفسير القائم علىٰ المقارنة الأسلوبية، معتمدًا علىٰ الشعر الجاهلي كحقيقة لا تقبل الجدل. وعلىٰ أية حال فقد كان من الممكن أن تثور هذه المشكلة تبعًا للتطور الجديد في الفكر الإسلامي، وإنما بصورة أقلَّ ثورية، فمنهج التفسير القديم يجب أن يتعدل في حكمة ورويَّة لكي يتفق مع مقتضيات الفكر الحديث».

ثم قال: «لقد قام إعجاز القرآن حتىٰ الآن علىٰ البرهان الظاهر علىٰ سموِّ كلام الله فوق البشر، وكان لجوء التفسير إلىٰ الدراسة الأسلوبية لكي يضع لإعجاز القرآن أساسًا عقليًّا، فلو أننا طبقنا نتائج فرض (مرجليوث) لانهار ذلك الأساس، ومن هنا توضع مشكلة التفسير علىٰ أساس هامٍّ بالنسبة لعقيدة المسلم، أعني: برهان إعجاز القرآن في نظره».

ثم أفضىٰ إلىٰ هذا الحكم: «والحقُّ أنه لا يوجد مسلمٌ -وبخاصَّة في البلاد غير العربية- يمكنه أن يقارن موضوعيًّا بين آية قرآنية وفقرةٍ موزونة أو مقفَّاة من أدب العصر الجاهلي، فمنذ وقتٍ طويل لم نعد نملك في أذواقنا عبقرية اللغة العربية، ليمكننا أن نستنبط من مقارنة أدبية نتيجةً عادلة حكيمة».

وأنا أحبُّ أن أناقش هذه المقالة حتىٰ أعين القارئ علىٰ أن يضع كتاب (الظاهرة القرآنية) في مكانه الذي ينبغي له، وحتىٰ تتبيَّن له معالم الطريق الذي يسير فيه وهو يقرأ هذا الكتاب، وحتىٰ يستفيد من أدلته وبراهينه قوَّةً تعينه علىٰ أن يضع أساسًا يقيم عليه عقيدته وإيمانه.

ولا أدري ما الذي ألجأ أخي مالكًا إلىٰ ذكر (تفسير القرآن) ومنهجه القديم في هذا الموضع؟ إنه إقحامٌ لبابٍ من علوم الإسلام قائمٍ برأسه لا يمسُّه فرض

(مرجليوث) من قريب أو بعيد، وعلمُ تفسير القرآن كما أسَّسه القدماء لا يقوم علىٰ مقارنة الأساليب اعتمادًا علىٰ شعر الجاهلية أو شعر غير الجاهلية.

وإذا اقتضتنا الحاجة أن ندخل تعديلًا علىٰ منهج التفسير القديم فإنه عندئذ تعديلٌ لا علاقة له البتة بالشعر الجاهلي، لا من قِبل الشكِّ في صحته، ولا من قِبل مقارنة الأساليب الجاهلية بأسلوب القرآن، وكل ما عند القدماء من ذكر الشعر الجاهلي في تفسيرهم فهو أنهم يستدلون به علىٰ معنىٰ حرفٍ في القرآن، أو بيان خاصَّة من خصائص التعبير العربي، كالتقديم والتأخير والحذف وما إلىٰ ذلك، وهذا أمرٌ يصلح له شعر الجاهلية، كما يصلح له شعر الإسلام. وغاية علم تفسير القرآن -كما ينبغي أن يُعْلَم- إنما هي بيان معاني ألفاظه مفردةً وجملِه مجتمعةً، ودلالة هذه الألفاظ والجمل علىٰ المباني، سواء في ذلك آيات الخبر والقصص، وآيات الأدب، وآيات الأحكام، وسائر ما اشتملت عليه معاني القرآن، وهو أمرٌ عن (إعجاز القرآن) بمعزل.

أما الأمر المرتبط بالشعر الجاهلي، أو بقضايا الشعر جميعًا، والمتصل بأساليب الجاهلية وغير الجاهلية، وأساليب العربية وغير العربية ومقارنتها بأسلوب القرآن، فهو علم (إعجاز القرآن)، ثم (علم البلاغة).

ولا مناص لمتكلِّم في (إعجاز القرآن) من أن يتبيَّن حقيقتين عظيمتين قبل النظر في هذه المسألة، وأن يفصل بينهما فصلًا ظاهرًا لا يلتبس، وأن يميِّز أوضح التمييز بين الوجوه المشتركة التي تكون بينهما:

- أولاهما: أن (إعجاز القرآن) كما يدلُّ عليه لفظه وتاريخه، وهو دليل النبي ﷺ علىٰ صدق نبوته، وعلىٰ أنه رسول الله يوحىٰ إليه هذا القرآن، وأن النبي ﷺ كان يعرف (إعجاز القرآن) من الوجه الذي عرفه منه سائر من آمن به من قومه العرب،

وأن التحدي الذي تضمَّنته آيات التحدِّي من نحو قوله تعالىٰ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [سورة هود:١٣-١٤]، وقوله: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء:٨٨]، إنما هو تحدٍّ بلفظ القرآن ونظمه وبيانه لا بشيء خارج عن ذلك، فما هو بتحدٍّ بالإخبار بالغيب المكنون، ولا بالغيب الذي يأتي تصديقه بعد دهرٍ من تنزيله، ولا بعلم ما لا يدركه علمُ المخاطبين به من العرب، ولا بشيء من المعاني مما لا يتصل بالنظم والبيان.

ثانيهما: أن إثبات دليل النبوة، وتصديق دليل الوحي، وأن القرآن تنزيلٌ من عند الله، كما نزلت التوراة والإنجيل والزبور وغيرها من كتب الله سبحانه، لا يكون منها شيءٌ يدلُّ علىٰ أن القرآن معجز، ولا أظنُّ أن قائلًا يستطيع أن يقول: إن التوراة والإنجيل والزبور كتبٌ معجزةٌ بالمعنىٰ المعروف في شأن إعجاز القرآن من أجل أنها كتبٌ منزلة من عند الله.

ومن البيِّن أن العرب قد طولبوا بأن يعرفوا دليل نبوة رسول الله، ودليل صدق الوحي الذي يأتيه، بمجرَّد سماع القرآن نفسه، لا بما يجادلهم به حتىٰ يلزمهم الحجَّة في توحيد الله، أو تصديق نبوَّته، ولا بمعجزة كمعجزات إخوانه من الأنبياء مما آمن علىٰ مثله البشر، وقد بيَّن الله في غير آية من كتابه أن سماع القرآن يقتضيهم إدراك مباينته لكلامهم، وأنه ليس من كلام بشر، بل هو كلام رب العالمين، وبهذا جاء الأمر في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة:٦].

فالقرآن المعجز هو البرهان القاطع علىٰ صحة النبوة، أما صحة النبوة فليست برهانًا علىٰ إعجاز القرآن.

والخلط بين هاتين الحقيقتين، وإهمال الفصل بينهما في التطبيق والنظر، وفي دراسة (إعجاز القرآن)، قد أفضىٰ إلىٰ تخليطٍ شديد في الدراسة قديمًا وحديثًا، بل أدىٰ هذا الخلط إلىٰ تأخير علم (إعجاز القرآن) و(علم البلاغة) عن الغاية التي كان ينبغي أن ينتهيا إليها.

وحسنٌ أن أزيل الآن لبسًا قد يقع فيه الدارس لكتاب (الظاهرة القرآنية)، ففي (مدخل الدراسة) وفي بعض فصول الكتاب ما يوهم أن من مقاصده تثبيت قواعد في (علم إعجاز القرآن) من الوجه الذي يسمَّىٰ به القرآن معجزًا، وهو خطأ؛ فإن منهج مالك في تأليفه دالٌّ أوضح الدلالة علىٰ أنه إنما عُنِي بإثبات صحَّة دليل النبوة، وبصدق دليل الوحي، وأن القرآن تنزيلٌ من عند الله، وأنه كلام الله لا كلام بشر، وليس هذا هو (إعجاز القرآن) كما أسلفت، بل هو أقرب إلىٰ أن يكون بابًا من (علم التوحيد) استطاع مالك أن يبلغ فيه غاياتٍ بعيدة قصَّر عنها أكثر من كتب من المُحْدَثين وغير المُحْدَثين؛ فجزاه الله عن كتابه ونبيه أحسن الجزاء.

أما مسألة (إعجاز القرآن) فقد بقيت خارج هذا الكتاب، وهي عندي أعقد مشكلة يمكن أن يعانيها (العقل) الحديث كما يسمُّونه، حتىٰ بعد أن يتمكن من إرساء كل دعامة يقوم عليها إيمانه بصدق نبوة رسول الله ﷺ، وبصدق الوحي، وبصدق التنزيل.

وأيضًا، فهي المسألة التي ترتبط ارتباطًا وثيقًا بقضية الشعر الجاهلي، وبالكيد الخفيِّ الذي اشتملت عليه هذه القضية، بل إنها لترتبط ارتباطًا لا فكاك له بثقافتنا كلها، وبما ابتلي به العرب في جميع دور العلم من فرض منهاجٍ خالٍ من كل فضيلة في تدريس اللغة وآدابها، بل إنها لتشمل ما هو أرحب من ذلك، تشمل بناء الإنسان

العربي أو المسلم من حيث هو إنسانٌ قادر علىٰ تذوُّق الجمال في الصورة والفكر جميعًا.

ومعرفة معنىٰ (إعجاز القرآن)، وما هو، وكيف كان، أمرٌ لا غنىٰ عنه لمسلم ولا لدارس، وشأنه أعظم من أن يتكلم فيه امرؤ بغير تثبت من معناه، وتمكُّن من تاريخه، وتتبُّع للآيات الدالة علىٰ حقيقته، وأنا لا أزعم أني مستقصيه في هذا الموضع، ولكني مستعينٌ بالله، فذاكرٌ طرفًا مما يعين المرء علىٰ معرفته.

وذلك أن رسول الله ﷺ، بأبي هو وأمي، حين فجَأه الوحي في غار حراء، وقال له: «اقرأ»، فقال: «ما أنا بقارئ»، ثم لم يزل حتىٰ قرأ ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [سورة العلق:١-٥] رجع بها وهو يرجف فؤاده، فدخل علىٰ خديجة فقال: «زمِّلوني زمِّلوني»[(١)]، فزمَّلوه حتىٰ ذهب عنه الرَّوع، وذلك أنه قد أتاه أمرٌ لا قِبل له به، وسمع مقالًا لا عهد له بمثله، وكان رجلًا من العرب، يعرف من كلامها ما تعرف، وينكِر منه ما تنكِر، كان هذا الروع الذي أخذه، بأبي هو وأمي، أول إحساس في تاريخ البشر بمباينة هذا الذي سمع للذي كان يسمع من كلام قومه، وللذي كان يعرف من كلام نفسه، ثم حَمِي الوحي وتتابع، وأمره ربه أن يقرأ ما أنزل عليه علىٰ الناس علىٰ مكثٍ، فتتبَّع الأفراد من عشيرته وقومه يقرأ عليهم هذا الذي نزل إليه، ولم يكن من برهانه ولا مما أُمِر به أن يلزمهم الحجَّة بالجدال حتىٰ يؤمنوا أنما هو إلهٌ واحد، وأنه هو نبيُّ الله، بل طالبهم بأن يؤمنوا بما دعاهم إليه، ويقرُّوا له بصدق نبوَّته بدليلٍ واحدٍ هو هذا الذي يتلوه عليهم من قرآن يقرؤه. ولا معنىٰ لمثل هذه المطالبة بالإقرار لمجرد التلاوة، إلا أن هذا المقروء عليهم كان هو في نفسه آيةً فيها أوضح الدليل علىٰ أنه ليس من كلامه هو، ولا من كلام بشر مثله، ثم أيضًا لا معنىٰ لها البتة إلا أن يكون

---

(١) أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠).

كان في طاقة هؤلاء السامعين أن يميِّزوا تمييزًا واضحًا بين الكلام الذي هو من نحو كلام البشر والكلام الذي ليس من نحو كلامهم.

وكان هذا القرآن ينزل عليه منجَّمًا، وكان الذي نزل عليه يومئذ قليلًا كما تعلم، فكان هذا القليل من التنزيل هو برهانه الفرد علىٰ نبوَّته. وإذن، فقليلُ ما أوحي إليه من الآيات يومئذ، وهو علىٰ قلَّته وقلَّة ما فيه من المعاني التي تتامَّت وتجمَّعت في القرآن جملةً كما نقرؤه اليوم، منطوٍ علىٰ دليل مستبين قاهر يحكم له بأنه ليس من كلام البشر، وبذلك يكون دليلًا علىٰ أن تاليه عليهم وهو بشرٌ مثلهم نبيٌّ من عند الله مرسل.

فإذا صحَّ هذا، وهو صحيحٌ لا ريب فيه، ثبت ما قلناه أولًا من أن الآيات القليلة من القرآن، ثم الآيات الكثيرة، ثم القرآن كله، أيَّ ذلك كان، في تلاوته علىٰ سامعه من العرب الدليلُ الذي يطالبه بأن يقطع بأن هذا الكلام مفارقٌ لجنس كلام البشر، وذلك من وجهٍ واحدٍ هو وجه البيان والنظم.

وإذا صحَّ أن قليل القرآن وكثيره سواءٌ من هذا الوجه ثبت أن ما في القرآن جملةً -من حقائق الأخبار عن الأمم السالفة، ومن أنباء الغيب، ومن دقائق التشريع، ومن عجائب الدلالات علىٰ ما لم يعرفه البشر من أسرار الكون إلا بعد القرون المتطاولة من تنزيله- كلُّ ذلك بمعزلٍ عن الذي طولب به العرب، وهو أن يستبينوا في نظمه وبيانه انفكاكه من نظم البشر وبيانهم من وجه يحسم القضاء بأنه كلام رب العالمين.

وهاهنا معنًىٰ زائد، فإنهم إذا أقروا أنه كلام رب العالمين بهذا الدليل، كانوا مطالبين بأن يؤمنوا بأن ما جاء فيه من أخبار الأمم وأنباء الغيب ودقائق التشريع وعجِائب الدلالات علىٰ أسرار الكون هو كله حقٌّ لا ريب فيه، وإنْ ناقض ما يعرفون، وإنْ باين ما اتفقوا علىٰ أنه عندهم أو عند غيرهم حقٌّ لا يشكُّون فيه. وإذن، فإقرارهم من وجه النظم والبيان أن هذا القرآن كلام رب العالمين دليلٌ يطالبهم بالإقرار بصحة ما جاء فيه من كل ذلك، أما صحة ما جاء فيه فليست هي الدليل الذي

يطالبهم بالإقرار بأن نظم القرآن وبيانه مباينٌ لنظم البشر وبيانهم، وأنه بهذا من كلام رب العالمين. وهذا أمرٌ في غاية الوضوح.

فمن هذا الوجه كما ترىٰ طولب العرب بالإقرار والتسليم، ومن هذا الوجه تحيَّرت العرب فيما تسمع من كلام يتلوه عليهم رجلٌ منهم، تجده من جنس كلامها؛ لأنه نزل بلسانهم، لسان عربي مبين، ثم تجده مباينًا لكلامها، فما تدري ما تقول فيه من طغيان اللَّدد والخصومة.

وإنه لخبرٌ مشهور، خبر تحيُّر النفر من قريش وعلىٰ رأسهم (الوليد بن المغيرة)، لقد ائتمرت قريشٌ يومئذ حين حضر الموسم لكي يقولوا في هذا الذي يتلىٰ عليهم وعلىٰ الناس قولًا واحدًا لا يختلفون فيه، وأداروا الرأي بينهم في تاليه علىٰ أهل المواسم، وتشاوروا أن يقولوا: كاهن، أو مجنون، أو شاعر، أو ساحر، فلما آلت المشورة إلىٰ ذي رأيهم وسنِّهم وهو (الوليد بن المغيرة) ردَّ كلَّ ذلك بالحجَّة عليهم، ثم قال: «والله إن لقوله لحلاوة، وإن أصله لعَذْق، وإن فرعه لجَنَاة، وما أنتم بقائلين من هذا شيئًا إلا عُرِف أنه باطل، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا: ساحرٌ جاء بقولٍ يفرِّق بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجه، وبين المرء وعشيرته»[1].

فهذا التحيُّر المظلم الذي غشَّاهم وأخذ منهم بالكَظْم، والذي نعته الوليد فاستجاد النعت، كان تحيُّرًا لما يسمعون من نظمه وبيانه، لا لما يدركون من دقائق التشريع وخفيِّ الدلالات، وما لا يؤمنون به من الغيب، وما لا يعرفون من أنباء القرون التي خلت من قبل.

وحَمِي الوحي وتتابع عامًا بعد عام، وأقبل ﷺ يلحُّ جهرةً، فيقرأ القرآن عليهم وعلىٰ من طاف بهم من العرب في بطن مكة، وفي مواسم الحج والأسواق، وهبَّت

---

(١) «السيرة» لابن هشام (١/ ٢٧٠).

قريش تناوئه وتنازعه، وتلجُّ في اللَّدد والخصومة، وفي الإنكار والتكذيب، وفي العداوة والأذىٰ، فلما طال تكذيبهم وإنكارهم -علىٰ ما يجدون في أنفسهم من مثل الذي وجد الوليد، ومن مثل الذي آمن عليه من آمن من قومه العرب- صبَّ الله عليهم من الوحي ما هالهم وأفزعهم، كانوا يتحيَّرون في هذا الذي يتلىٰ عليهم، وظلَّ رسول الله ﷺ بمكة ثلاثة عشر عامًا والمسلمون قليلٌ مستضعفون في أرض مكة، وظلَّ الوحي يتتابع وهو يتحدَّاهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن، ثم بعشر سورٍ مثله مفتريات، فلمَّا انقطعت قواهم قطع الله عليهم وعلىٰ الثقلين جميعًا منافذ اللَّدد والعناد، فقال: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء:٨٨]، وكذلك كان!

فكان هذا البلاغ القاطع الذي لا معقِّب له هو الغاية التي انتهىٰ إليها أمر هذا القرآن وأمر النزاع فيه، لا بين رسول الله وبين قومه من العرب فحسب، بل بينه وبين البشر جميعًا علىٰ اختلاف ألسنتهم وألوانهم، لا، بل بينه وبين الإنس والجن مجتمعين متظاهرين، وهذا البلاغ الحقُّ الذي لا معقِّب له من بين يديه ولا من خلفه هو الذي اصطلحنا عليه فيما بعد وسمَّيناه (إعجاز القرآن).

وهذا الذي اقتصصته لك تاريخٌ مختصرٌ أشدَّ الاختصار، ولكنه مجزئ في الدلالة علىٰ تحديد معنىٰ (إعجاز القرآن) بالمعنىٰ الذي يُفْهَم من هذا اللفظ علىٰ إطلاقه، ومجزئ في الدلالة علىٰ هذا (الإعجاز) من أي وجوه الإعجاز كان إعجازًا، وإنه ليكشف عن أمورٍ لا غنىٰ لدارسٍ عن معرفتها:

الأول: أن قليل القرآن وكثيره في شأن (الإعجاز) سواء.

الثاني: أن الإعجاز كائنٌ في رصف القرآن وبيانه ونظمه ومباينة خصائصه للمعهود من خصائص كلِّ نظمٍ وبيانٍ في لغة العرب، ثم في سائر لغات البشر، ثم بيان الثقلين جميعًا، إنسهم وجنِّهم متظاهرين.

الثالث: أن الذين تحدَّاهم بهذا القرآن قد أوتوا القدرة علىٰ الفصل بين الذي هو من كلام البشر والذي هو ليس من كلامهم.

الرابع: أن الذين تحدَّاهم به كانوا يدركون أن ما طولبوا به من الإتيان بمثله، أو بعشر سور مثله مفتريات، هو هذا الضرب من البيان الذي يجدون في أنفسهم أنه خارجٌ من جنس بيان البشر.

الخامس: أن هذا التحدِّي لم يُقْصَد به الإتيانُ بمثله مطابقًا لمعانيه، بل أن يأتوا بما يستطيعون افتراءه واختلاقه، من كلِّ معنىٰ أو غرض مما يعتلج في نفوس البشر.

السادس: أن هذا التحدِّي للثقلين جميعًا إنسهم وجنِّهم متظاهرين تحدٍّ مستمرٌّ قائم إلىٰ يوم الدين.

السابع: أن ما في القرآن من مكنون الغيب، ومن دقائق التشريع، ومن عجائب آيات الله في خلقه، كلُّ ذلك بمعزلٍ عن هذا التحدِّي المفضي إلىٰ الإعجاز، وإن كان ما فيه من ذلك كله يعدُّ دليلًا علىٰ أنه من عند الله تعالىٰ، ولكنه لا يدل علىٰ أن نظمه وبيانه مباينٌ لنظم كلام البشر وبيانهم، وأنه بهذه المباينة كلام رب العالمين لا كلام بشر مثلهم.

فهذه أمورٌ تستخرجها دراسة تاريخ نزول القرآن، ومدارسة آياته في جدال المشركين من العرب في صحة الآيات التي جاءتهم من السماء، كما جاءت سائر آيات الأنبياء ومعجزاتهم، وحسبك في بيان ذلك ما قال رسول الله ﷺ: «ما من نبيٍّ إلا وأوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحي إليَّ، فأنا أرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة»[1]، فالقرآن هو آية الله في الأرض، آيته المعجزة من الوجه الذي كان به معجزًا للعرب، ثم للبشر، ثم للثقلين جميعًا.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٨١)، ومسلم (١٥٢).

وكلُّ لبسٍ يقع في ضبط هذه الأمور المتعلقة بمعنىٰ (إعجاز القرآن)، وكلُّ اختلالٍ في تمييزها وتحديد ما تقتضيه في العقل والنظر، سبيلٌ إلىٰ انتشار أغمض اللبس، وأبلغ الخلل في فهم معنىٰ (إعجاز القرآن)، من الوجه الذي صار به القرآن معجزًا للعرب، ثم لسائر البشر علىٰ اختلاف ألسنتهم، ثم للثقلين جميعًا متظاهرين.

* * *

هذا بعض ما أدَّىٰ إليه النظر المجرَّد في استخراج المعنىٰ الذي هو مناط التحدِّي ومفصل الإعجاز، وأرجو أن أكون قد بلغتُ في كشفه مقنعًا ورضًىٰ. ولكنه بقي ما لا بد منه: أن نستنبط بهذا الأسلوب من النظر المجرَّد صفة القوم الذين تحدَّاهم، وصفة لغتهم.

فإذا صحَّ أن (الإعجاز) كائنٌ في رصف القرآن ونظمه وبيانه بلسان عربيٍّ مبين، وأن خصائصه مباينةٌ للمعهود من خصائص كلِّ نظم وبيانٍ تطيقه قوىٰ البشر في بيانهم، لم يكن لتحدِّيهم به معنًىٰ إلا أن تجتمع لهم وللغتهم صفاتٌ بعينها:

أولها: أن اللغة التي نزل بها القرآن معجزًا قادرةٌ بطبيعتها هي أن تحتمل هذا القدر الهائل من المفارقة بين كلامين: كلام هو الغاية في البيان فيما تطيقه القوىٰ، وكلام يقطع هذه القوىٰ ببيان ظاهر المباينة له من كل الوجوه.

ثانيها: أن أهلها قادرون علىٰ إدراك هذا الحجاز الفاصل بين الكلامين، وهذا إدراكٌ دالٌّ علىٰ أنهم قد أوتوا من لطف تذوُّق البيان ومن العلم بأسراره ووجوهه قدرًا وافرًا يصحُّ معه أن يتحدَّاهم بهذا القرآن، وأن يطالبهم بالشهادة عند سماعه أن تاليه عليهم نبيٌّ من عند الله مرسل.

ثالثها: أن البيان كان في أنفسهم أجلَّ من أن يخونوا الأمانة فيه، أو يجوروا عن الإنصاف في الحكم عليه، فقد قرَّعهم وعيَّرهم وسفَّه أحلامهم وأديانهم،

حتىٰ استخرج أقصىٰ الضرورة في عدواتهم له، وظلَّ مع ذلك يتحدَّاهم، فنهتهم أمانتهم علىٰ البيان عن معارضته ومناقضته، وكان أبلغ ما قالوه: ﴿قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾ [الأنفال:٣١]، ولكنهم كفُّوا ألسنتهم فلم يقولوا شيئًا. هذه واحدة. وأخرىٰ أنه لم ينصب لهم حكمًا، بل خلَّىٰ بينهم وبين الحكم علىٰ ما يأتون به معارضين له، ثقةً بإنصافهم في الحكم علىٰ البيان، فهذه التخلية مرتبةٌ من الإنصاف لا تدانيها مرتبة.

رابعها: أن الذين اقتدروا علىٰ مثل هذه اللغة، وأوتوا هذا القدر من تذوُّق البيان، ومن العلم بأسراره، ومن الأمانة عليه، ومن ترك الجور في الحكم عليه، يوجب العقل أن يكونوا قد بلغوا في الإعراب عن أنفسهم بألسنتهم المبينة عنهم مبلغًا لا يدانىٰ.

وهذه الصفات تفضي بنا إلىٰ التماس ما ينبغي أن تكون عليه صفة كلامهم، إن كان بقي من كلامهم شيء، فالنظر المجرَّد أيضًا يوجب أمرين في نعت ما خلَّفوه:

الأول: أن يكون ما بقي من كلامهم شاهدًا علىٰ بلوغ لغتهم غايةً من التمام والكمال والاستواء حتىٰ لا تعجزها الإبانة عن شيء ممَّا يعتلج في صدر كلِّ مبينٍ منهم.

الثاني: أن تجتمع فيه ضروبٌ مختلفةٌ من البيان لا يجزئ أن تكون دالةً علىٰ سعة لغتهم وتمامها، بل علىٰ سجاحتها أيضًا، حتىٰ تلين لكل بيان تطيقه ألسنة البشر علىٰ اختلاف ألسنتهم.

فهل بقي من كلامهم شيءٌ يستحقُّ أن يكون شاهدًا علىٰ هذا ودليلًا، نعم، بقي (الشعر الجاهلي)!

وإذن! ينبغي أن نعيد تصوُّر المشكلة وتصويرها؛ فإن النظر المجرَّد والمنطق المتساوق والتمحيص المتابع كل ذلك قد أفضىٰ بنا إلىٰ تجريد معنىٰ (إعجاز القرآن) مما شابه وعلق به حتىٰ خلص لنا أنه من قِبل النظم والبيان، ثم ساقنا

الاستدلال إلىٰ تحديد صفة القوم الذين تحدَّاهم، وصفة لغتهم، ثم خرج بنا إلىٰ طلب نعت كلامهم، ثم التمسنا الشاهد والدليل علىٰ الذي أدَّانا إليه النظر، فإذا هو (الشعر الجاهلي).

وإذن، فالشعر الجاهلي هو أساس مشكلة (إعجاز القرآن) كما ينبغي أن يواجهها العقل الحديث، وليس أساس هذه المشكلة هو تفسير القرآن علىٰ المنهج القديم كما ظنَّ أخي مالك، وكما يذهب إليه أكثر مَن بحث أمر إعجاز القرآن علىٰ وجه من الوجوه.

ولكن الشعر الجاهلي قد صُبَّ عليه بلاءٌ كثير، آخرها وأبلغها فسادًا وإفسادًا ذلك المنهج الذي ابتدعه (مرجليوث) لينسف الثقة به، فيزعم أنه شعرٌ مشكوكٌ في روايته، وأنه موضوعٌ بعد الإسلام، وهذا المكر الخفيُّ الذي مكَره (مرجليوث) وشيعته وكهنته والذين ارتكبوا له من السَّفسطة والغشِّ والكذب ما ارتكبوا، كما شهد بذلك رجلٌ من جنسه هو (آربري)، كان يطوي تحت أدلته ومناهجه وحججه إدراكًا لمنزلة الشعر الجاهلي في شأن إعجاز القرآن، لا إدراكًا صحيحًا مستبينًا، بل إدراكًا خفيًّا مبهمًا، تخالطه ضغينةٌ مستكينةٌ للعرب وللإسلام.

وهذا المستشرق وشيعته وكهنته كانوا أهون شأنًا من أن يحوزوا كبيرًا بمنهجهم الذي سلكوه، وأدلتهم التي احتطبوها لما في تشكيكهم من الزيف والخداع، ولكنهم بلغوا ما بلغوا من استفاضة مكرهم وتغلغله في جامعاتنا، وفي العقل الحديث في العالم الإسلامي، بوسائل أعانت علىٰ نفاذهم، ليست من العلم ولا من النظر الصحيح في شيء. وقد استطاع رجالٌ من أهل العلم أن يسلكوا إلىٰ إثبات صحة الشعر الجاهلي مناهج لا شكَّ في صدقها وسلامتها، بلا غشٍّ في الاستدلال، وبلا خداع في التطبيق، وبلا مراءٍ في الذي يسلِّم به صريح العقل وصريح النقل، إلا أنهم لم يملكوا بعد من الوسائل ما يتيح لهم أن يبلغوا بحقهم ما بلغ أولئك بباطلهم.

وقد ابتليت أنا بمحنة (الشعر الجاهلي) عندما ذرَّ قَرنُ الفتنة أيام كنت طالبًا في الجامعة، ودارت بي الأيام حتىٰ انتهيتُ إلىٰ ضربٍ آخر من الاستدلال علىٰ صحة (الشعر الجاهلي)، لا عن طريق روايته وحسب، بل من طريق أخرىٰ هي ألصق بأمر (إعجاز القرآن)؛ فإني محَّصتُ ما محَّصتُ من الشعر الجاهلي حتىٰ وجدته يحمل هو نفسه في نفسه أدلة صحَّته وثبوته، إذ تبيَّنتُ فيه قدرةً خارقة علىٰ (البيان)، وتكشَّف لي عن روائع كثيرة لا تُحَدُّ، وإذا هو علمٌ فريدٌ منصوبٌ لا في أدب العربية وحدها، بل في آداب الأمم قبل الإسلام وبعد الإسلام. وهذا الانفراد المطلق، ولاسيما انفراده بخصائصه عن كل شعر بعده من شعر العرب أنفسهم، هو وحده دليلٌ كافٍ علىٰ صحته وثبوته.

ولقد شغلني (إعجاز القرآن) كما شغل العقل الحديث، ولكن شغلني أيضًا هذا (الشعر الجاهلي)، وشغلني أصحابه، فأدىٰ بي طول الاختبار والامتحان والمدارسة إلىٰ هذا المذهب الذي ذهبت إليه، حتىٰ صار عندي دليلًا كافيًا علىٰ صحته وثبوته، فأصحابه الذين ذهبوا ودرجوا وتبدَّدت في الثرىٰ أعيانهم، رأيتهم في هذا الشعر أحيانًا يغدون ويروحون، رأيتُ شابَّهم ينزو به جهلُه، وشيخَهم تدلفُ به حكمتُه، ورأيتُ راضيهم يستنير وجهه حتىٰ يشرق، وغاضبهم تربدُّ سحنته حتىٰ تُظلِم، ورأيتُ الرجل وصديقه، والرجل وصاحبتَه، والرجل الطريد ليس معه أحد، ورأيتُ الفارس علىٰ جواده، والعادي علىٰ رجليه، ورأيتُ الجماعات في مبداهم ومحضرهم، فسمعتُ غزل عشَّاقهم، ودلال فتياتهم، ولاحت لي نيرانهم وهم يصطلون، وسمعتُ أنين باكيهم وهم للفراق مزمعون، كل ذلك رأيته وسمعته من خلال ألفاظ هذا الشعر، حتىٰ سمعتُ في لفظ الشعر همسَ الهامس، وبُحَّة المستكين، وزفرة الواجد، وصرخة الفَزِع، وحتىٰ مثلوا بشعرهم نصبَ عيني، كأني لم أفقدهم طرفة عين، ولم أفقد منازلهم ومعاهدهم، ولم تغب عني مذاهبهم في الأرض ، [وحتىٰ كاشفوني فلم يطووا عني شيئًا مما عاينوه وأبصروا][1]، ولا مما أحسُّوا ووجدوا، ولا مما سمعوا

---

(١) مستدرك من «مداخل إعجاز القرآن» (١٦٩).

وأدركوا، ولا مما قاسوا وعانوا، ولا خفي عني شيءٌ مما يكون به الحيُّ حيًّا في هذه الأرض التي بقيت في التاريخ معروفة باسم (جزيرة العرب).

وهذا الذي أفضيت إليه من صفة الشعر الجاهلي كما عرفته أمرٌ ممكنٌ لمن اتخذ لهذه المعرفة أسبابها بلا خلطٍ ولا لبس ولا تهاون ولا ملل. وهذه المعرفة هي أول الطريق إلىٰ دراسة شعر أهل الجاهلية من الوجه الذي يتيح لنا أن نستخلص منه دلالته علىٰ أنه شعرٌ قد انفرد بخصائصه عن كل شعر جاء بعده من شعر أهل الإسلام.

فإذا صح ذلك -وهو عندي صحيحٌ لا أشكُّ فيه- وجب أن ندرس هذا الشعر دراسة متعمِّقة، ملتمسين فيه هذه القدرة البيانية التي يمتاز بها أهل الجاهلية عمن جاء بعدهم، ومستنبطين من ضروب البيان المختلفة التي أطاقتها قوىٰ لغتهم وألسنتهم. فإذا تمَّ لنا ذلك فمن الممكن القريب يومئذ أن نتلمَّس في القرآن الذي أعجزهم بيانه خصائص هذا البيان المفارق لبيان البشر.

وهاهنا أمرٌ له خطرٌ عظيم، فلا تظننَّ أن الشأن في دراسة (الشعر الجاهلي) هو شأن المعاني التي تناولها، والأغراض التي قيل فيها، والصُّور التي انطوىٰ عليها، واللغة التي استخدمها من حيث الفصاحة والعذوبة وما يجري مجراهما، بل الشأن في ذلك أبعد وأعمق وأعوص، إنه تمييز القدرة علىٰ البيان، وتجريد ضروب هذا (البيان) علىٰ اختلافها، واستخلاص الخصائص التي أتاحت للغتهم أن تكون معدنًا للسموِّ بالإبانة عن جوهر إحساسهم، سموًّا يجعل للكلام حياةً كنفخ الروح في الجسد القائم، وكقوة الإبصار في العين الجامدة، وكسجيَّة النطق في البضعة المتلجلجة المسمَّاة باللسان.

فإذا اتخذنا لهذه الدراسة أهبتها، وأعددنا لها من الصبر والجدِّ والحذر ما ينبغي لها، واللسان لساننا، والقوم أسلافنا، والسلائق مغروزةٌ في أعماق طباعنا، ثم أصَّلنا للدراسة مناهج تعين عليها، واستحدثنا لها أسلوبًا يلائمها، فعندئذ يدنو الذي نراه

بعيدًا، ويتجلىٰ لنا ما كان غامضًا، ويكشف لنا (الشعر الجاهلي) عن أروع روائعه، ويبذل لنا ما استكنَّ فيه واستتر من أصول (البيان) الإنساني، بغير تخصيص للغة العرب، فنراها ماثلةً علىٰ أدقِّ وجوهه وأغمضها، وفي أتمِّ صوره وأكملها.

وهذا الذي أفضتُ فيه من ذكر الشعر الجاهلي، وما وجدته فيه في نفسي بابٌ عظيم، أسأل الله أن يعينني بحوله وقوته حتىٰ أكشف عنه وأجلِّيه، وحتىٰ أؤيده بكل برهانٍ قاطع علىٰ تميُّزه عن كل شعر العرب بعده، وبذلك يكون نفسه دليلًا حاسمًا علىٰ صحَّة روايته، وعلىٰ أن الرواة لم ينحلوه الشعراء افتراءً عليهم.

وغير خافٍ أن الذي وصلنا إلىٰ هذا اليوم من شعر الجاهلية قليلٌ مما روته الرواة منه، والرواة القدماء أنفسهم لم يصلهم من شعرها إلا الذي قال أبو عمرو بن العلاء في أوائل القرن الثاني من الهجرة: «ما انتهىٰ إليكم ممَّا قالت العرب إلا أقلُّه، ولو جاءكم وافرًا لجاءكم علمٌ وشعرٌ كثير»[1]، ومع ذلك فهذا القليل مجزئٌ إن شاء الله في الدلالة علىٰ ما نريد من الإبانة عن تميُّز شعرهم عن شعر من جاء بعدهم، وفيه جمٌّ وافٍ من خصائص البيان التي امتاز بها أهل الجاهلية.

ولكن كيف بقي هذا الشعر إلىٰ يومنا هذا؟ بقي مادةً للغة العرب، وشاهدًا علىٰ حرفٍ من العربية، وعلىٰ بابٍ من النحو، وعلىٰ نكتةٍ في البلاغة. وبقي ذخرًا للرواة، وركازًا يستمدُّ منه شعراء الإسلام، ومنبعًا لتاريخ العرب في الجاهلية، بل بقي كنزًا لعلوم العرب جميعًا، لكل علمٍ منه نصيبٌ علىٰ قدره، ولكن غاب عنَّا أعظمُ ما بقي له هذا الشعر: أن يكون مادةً لدراسة البيان المفطور في طبائع البشر، مقارنًا بهذا البيان الذي فاق طاقة بلغاء الجاهلية، وكانت له خصائص ظاهرة تجعل كلَّ مقتدرٍ بليغ مبينٍ وكلَّ متذوِّق للبلاغة والبيان لا يملك إلا الإقرار له بأنه من غير جنس ما يعهده سمعُه وذوقُه، وأن مبلِّغه إلىٰ الناس نبيٌّ مرسل، وأنه لا يطيق أن يختلقه أو

---

(١) «طبقات فحول الشعراء» (١/ ٢٥).

يفتريه؛ لأنه بشرٌ لا يدخل في طوقه إلا ما يدخل مثلُه في طوق البشر، وأنه إن تقوَّل غير ما أُمِر بتبليغه وتلاوته بان للبشر كذبُه، وحُقَّ عليه قولُ منزله من السماء سبحانه: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ [سورة الحاقة: ٤٤-٤٧].

ولسائلٍ أن يسأل: فحدِّثني إذن، لم بقي شعر الجاهلية بهذه المنزلة لم يتجاوزها؟ وكيف غاب هذا الذي زعمتَ عن أئمَّة العلم من قبلك؟ وكيف أخطأه علماء البلاغة وهم الذين قصَدوا بعلمهم قصدَ الإبانة عن إعجاز القرآن، وهم أقرب بالتنزيل عهدًا منَّا ومنك؟ وما الذي صدَّ العقول البليغة عن سلوك هذا المنهج، وما نهضت إلا للمراماة دون إعجاز القرآن في القديم والحديث؟!

وحقٌّ عليَّ أن أجيب، ولكن يقتضيني جواب هذا المسألة أن أقتصَّ قصَّة أخرىٰ، لا أستوعب القول في حكايتها تفصيلًا، بل أوجز المقال فيها إيجازًا مدفوعًا عنه الخلل ما أطقت، وعلىٰ سامعها أن يدفع عن نفسه الغفلة ما أطاق.

فأهل الجاهلية هم من وصفتُ لك منزلتهم من البيان، وقدرتهم علىٰ تصريفه بألسنتهم، وتمكُّنهم من تذوُّقه بأدقِّ حاسَّة في قلوبهم ونفوسهم، وعلمهم بأسراره، وتغلغلهم في إدراك الحجاز الفاصل بين ما هو من نحو بيان البشر وما ليس من بيانهم، أهل الجاهلية هؤلاء هم الذين جاءهم كتابٌ من السَّماء بلسانهم، هو في آيات الله بمنزلة عصا موسىٰ، وإبراء الأكمه والأبرص في آيات أنبيائه، لتكون تلاوته علىٰ أسماعهم برهانًا قاهرًا يلزمهم بالإقرار له بصحة تنزيله من السماء علىٰ قلب رجل منهم، وأن هذا الرجل نبيٌّ مرسلٌ عليهم أن يتَّبعوه وأن يستجيبوا لما دعاهم إليه، فلمَّا كذَّبوه وأنكروا نبوَّته تحدَّاهم أن يأتوا بمثل هذا الذي يسمعون في نظمه وبيانه، وألحَّ عليه يتحدَّاهم في آياتٍ منه كثيرة، ولكنهم وجدوا في أنفسهم مفارقته لبيان البشر وجدانًا ألجأهم إلىٰ ترك المعارضة، إنصافًا للبيان أن يجار علىٰ حقِّه، وتنزيهًا له أن يزري به جورهم عن هذا الحق.

وعلىٰ الذي تلقَّوه به من اللَّدد في الخصومة والعناد لم يلبث أن استجاب له النفر بعد النفر إقرارًا وتسليمًا بأن الكتاب كلام الله، وأن الرجل نبيُّ الله، ثم تتابع إيمانُ المؤمنين منهم، حتىٰ لم تبق دارٌ من دور أهل الجاهلية إلا دخلها الإسلام أو عمَّها، وألقوا إليه المَقادة علىٰ أنه لا يتمُّ إيمان أحدهم حتىٰ يكون هذا الرجل، بأبي هو وأمي، أحبَّ إليه من أهله وولده، وهذه أعمالهم تصدِّق ذلك كله.

فأقبل كلُّ بليغ منهم مبين، وكلُّ متذوق للبيان ناقد، يتحفَّظ ما نزل من القرآن ويتلوه ويتعبَّد به، ويتتبَّع تنزيله تتبُّع الحريص المتلهِّف، ويُصِيخ له وينصت حين يتلىٰ في الصلوات وعلىٰ المنابر يومًا بعد يوم، وشهرًا بعد شهر، وعامًا بعد عام، وكلُّهم مخبتٌ خاشعٌ لذكر الله وما نزل من الحقِّ، يصدِّق إخباتهم وخشوعهم ما قال الله سبحانه: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ [الزمر:٢٣].

ثم صار للقرآن في جزيرة العرب دويٌّ كدويِّ النحل، وخشعت أسماعٌ للجاهلية كانت بالأمس للذي يتلىٰ عليهم من كلام الله الذي خلقهم وجعل لهم السَّمع والأبصار والأفئدة، وأخبتت ألسنةٌ للجاهلية كانت بالأمس إقرارًا لهذا القرآن بالعبودية، كما أقرُّوا هم للذي اصطفىٰ لغتهم لكلامه سبحانه بالعبودية، وماجت بهم جزيرة العرب مهلِّلين مكبِّرين مسبِّحين، كلَّما علَوا شرفًا أو هبطوا واديًا، وأقاموا تالين للقرآن بالغدوِّ والآصال، وبالليل والأسحار، وانطلقوا يتتبَّعون سنن نبيِّهم ويتلقَّفونها، وخلعوا عن قلوبهم ونفوسهم وعقولهم وألسنتهم ظلمة الجاهلية، ودخلوا بألسنتهم وعقولهم ونفوسهم وقلوبهم في نور الإسلام.

ثم طار بهم هذا القرآن في كلِّ وجه، يدعون الناس أسودهم وأحمرهم إلىٰ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ويحملون إليهم هذا الكتاب المعجز

بيانه لبيان البشر، والذي نزل بلسانهم حجَّةً علىٰ الخلق، وهدًىٰ يخرجهم من الظلمات إلىٰ النور، فكان من أمرهم يومئذٍ ما وصفه ابن سلَّام في كتاب (طبقات فحول الشعراء)[1] حين ذكر مقالة عمر بن الخطاب في أهل الجاهلية: «كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علمٌ أصحَّ منه»، فقال ابن سلام تعليقًا علىٰ ذلك: «فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب، وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم، ولهت عن الشعر وروايته، فلما كثر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب في الأمصار راجعوا رواية الشعر، فلم يؤولوا إلىٰ ديوانٍ مدوَّن، ولا كتاب مكتوب، وألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل فحفظوا أقلَّ ذلك، وذهب عليهم منه كثير».

ولا يغررك ما قال (ابن سلَّام)، فتحسب أن أهل الجاهلية الذين هداهم الله للإسلام طرحوا شعر جاهليتهم دَبر آذانهم، فانصرفوا عنه صمًّا وبكمًا، وخلعوه عن عقولهم وألسنتهم كما خلعوا جاهليتهم، فهذا باطلٌ تكذِّبه أخبارهم، وينقضه منطق طبائع البشر وتاريخ حياتهم، بل كان أكبر ما لحقه من الضَّيم أن نازعه القرآن فصرف همَّهم إليه، فكان نصيبه من إنشادهم وتقصيدهم القصائد أقلَّ مما كان في جاهليتهم، ولكنه بقي مع ذلك هو الذي يؤوبون إليه إذا شقَّ عليهم طول مدارسة القرآن، وهو الذي يستريحون إليه إذا فرغوا مما فرض عليهم ربهم، وسنَّ لهم نبيُّهم ﷺ، وظلَّ ذلك دأبهم في أول إسلامهم، ونشأ أبناؤهم يسمعون منهم شعر جاهليتهم ويستمعون إلىٰ مكنوز بيانهم في ألسنتهم، فيخرجون أيضًا مركوزًا ذلك البيان في طباعهم، وينتقل ذلك بما يشبه العدوىٰ إلىٰ مسلمة الأعاجم وأبنائهم.

وحيث نزل أهل الجاهلية الذين أسلموا نزل معهم الذكر الحكيم، ونزل شعر الجاهلية وتدارسوه وتناشدوه، وقوَّموا به لسان الذين أسلموا من غير العرب.

---

(١) (١/ ٢٤، ٢٥).

وأصبح زاد المتفقِّه في معرفة معاني كتاب ربِّه هو مدارسة الشعر الجاهلي؛ لأنه لا يستقلُّ أحدٌ بفهم القرآن حتىٰ يستقلَّ بفهمه، وحسبك أن تعرف مصداق ذلك قول الشافعي فيما بعد في القرن الثاني من الهجرة: «لا يحلُّ لأحدٍ أن يفتي في دين الله إلا رجلًا عارفًا بكتاب الله، بناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، وتأويله وتنزيله، ومكِّيِّه ومدنيِّه، وما أريد به، ويكون بعد ذلك بصيرًا بحديث رسول الله ﷺ، وبالناسخ والمنسوخ، ويعرف من الحديث مثل ما عرف من القرآن، ويكون بصيرًا باللغة بصيرًا بالشعر، وما يحتاج إليه للسنة والقرآن»[1]، فليس يكفي أن يكون عارفًا بالشعر، بل بصيرًا به أشدَّ البصر، كما قال الشافعي رحمه الله، والذي قاله الشافعي بعد قرنٍ هو الذي جرىٰ العمل عليه في أول الإسلام.

واستفاضت بالمسلمين الفتوح، واستفاض معهم شعرُ جاهليتهم، وأسلمت الأمم ودخلت في العربية كما دخلت في الإسلام، ونزل بيان القرآن كالغيث علىٰ فطرة جديدة، فطرة أهل الألسنة غير العربية، بعد أن رَوِيت من بيان الجاهلية في الشعر الجاهلي، وامتزجت العربُ من الصحابة والتابعين وأبنائهم بأهل هذه الألسنة التي دخلت في العربية، فنشأ من امتزاج ذلك كلِّه بيانٌ جديدٌ ظلَّ ينتقل ويتغيَّر ويتبدَّل جيلًا بعد جيل، ولكن بقي أهله بعد ذلك كله محتفظين بقدرة عتيدة حاضرة هي تذوُّق البيان تذوقًا عليمًا يعينهم علىٰ تمييز بيان البشر كما تعهَده سلائقهم وفِطَرهم، وبيان القرآن الذي يفارق خصائصَ بيانهم من كل وجه.

ثم فارت الأرض بالإسلام من حدِّ الصين شرقًا إلىٰ حدِّ الأندلس غربًا، ومن حدِّ بلاد الروم شمالًا إلىٰ حدِّ الهند جنوبًا، وسُمِع دويُّ القرآن العربي في أرجاء الأرض المعمورة، وقامت المساجد في كل قرية ومدينة وازدحمت في ساحتها صفوفُ عباد الرحمن، وعلا منابرها الدُّعاة إلىٰ الحق، وتحلَّقت الحِلَق في كل مسجد، وتداعىٰ

---

(١) «الفقيه والمتفقه» (٢/ ٣٣١).

إليها طلابُ العلم، فطائفةٌ تتلقىٰ القرآن من قرَّائه، وطائفةٌ تدرس تفسير آياته، وطائفةٌ تروي حديث رسول الله عن حفَّاظه، وطائفةٌ تأخذ العربية عن شيوخها، وطائفةٌ تتلقَّف شعر الجاهلية والإسلام عن رواته، طوائف بعد طوائف في أنحاء المساجد المتدانية، طوائف من كل لونٍ وجنسٍ ولسان، كلُّهم طالب علم، وكلُّهم يتنقَّل من مجلس شيخ إلىٰ مجلس شيخ آخر، فكلُّ ذلك علمٌ لا يستغني عنه مسلمٌ تالٍ للقرآن، لا بل حتىٰ أسواقهم قام فيها الشعراء ينشدون شعرهم، أو يتنافرون به ويتهاجون، والرواة تحفَظ، والناس يُقْبِلون يُنْصِتون، وينقلبون يتجادلون، وعجَّت نواحي الأرض بالقرآن وباللسان العربيِّ لا فرق بين ديار العجم كانت وديار العرب.

وبعد دهرٍ نبتت نابتة الشيطان في أهل كلِّ دين، وجاؤوا بالمِرَاء والجدل، وباللَّدد والخصام، وشقَّقوا الكلام بالرأي والهوىٰ، فنشأت بوادر من النظر في كل علم، وعندئذ نجَم الخلاف، وانتهىٰ الخلافُ إلىٰ الجرأة، وأفضت الجرأة يومًا إلىٰ رجل في أواخر دولة بني أمية يقال له (الجعد بن درهم)، وكان شيطانًا خبيث المذهب، تلقىٰ مذهبه عن رجل من أبناء اليهود، يقال له (طالوت)، فكذَّب القرآن في اتخاذ إبراهيم خليلًا، وفي تكليم موسىٰ، إلىٰ هذا وشبهه، وكان من قوله: «إن فصاحة القرآن غير معجزة، وإن الناس قادرون علىٰ مثلها وأحسن منها»! فضحَّىٰ به خالد بن عبد الله القسري في عيد الأضحىٰ في نحو سنة ١٢٤ من الهجرة[١].

وكلام (الجعد) كما ترىٰ استطالة رجل جريء اللسان خبيث المنبت، بلا حجَّة من تاريخ أو عقل.

ولم تكد دولة بني العباس ترسي قواعدها حتىٰ دخلت بعض العقول إلىٰ فحص (إعجاز القرآن) من باب غير باب السَّفه والاستطالة، فقام بالأمر كهفُ المعتزلة ولسانها (أبو إسحق إبراهيم بن سيَّار النظَّام)، فأتاه من قِبَل الرأي والنظر،

---

(١) «الكامل» لابن الأثير (٤/ ٢٨٤).

حتىٰ زعم أن الله قد صرف العرب عن معارضة القرآن مع قدرتهم عليها، فكانت هذه الصَّرفة هي المعجزة، أما معجزة القرآن فهي في إخباره بكل غيب مضىٰ وكل غيب سيأتي، وهذه مقالةٌ لا أصل لها إلا الحيرة والابتهار من هذا الذي أعجز أهل الجاهلية وأسكتهم، وهبَّ قومٌ يعارضونه ويجادلونه، منهم صاحبه أبو عثمان الجاحظ، فألَّف كتابه في (نظم القرآن)، وأنه غايةٌ في البلاغة، وقال الجاحظ وغيره ومن يليهم، ولكن ظلَّ الأمر محصورًا في إثبات (الصَّرفة) وإبطالها، وفي طرفٍ من الاستدلال علىٰ بلاغة القرآن وسلامته ممَّا يَشِين لفظه، وخلوِّه من التناقض، واشتماله علىٰ المعاني الدقيقة، وما فيه من نبأ الغيب، إلىٰ آخر ما تجده مبسوطًا في كتب القوم، والذي عرفتَ قولنا فيه فيما مضىٰ من كلامنا.

ثم كثرت اللَّجاجة بين هذه الفئات ممَّن عُرِفوا باسم «المتكلمين»، وكان أمرهم أمر جدال وبسطة لسان وغلبة حجَّة ومناهضة دليل بدليل، حتىٰ إذا صارت مسألة (إعجاز القرآن) مسألةً تستوجب أن ينبري لها رجلٌ صادقٌ انبرىٰ لهؤلاء المتكلمين (أبو بكر الباقلاني) المتوفىٰ سنة ٤٠٣هـ والناس يومئذ بين رجلين، كما قال هو نفسه: «ذاهبٍ عن الحقِّ، ذاهلٍ عن الرُّشد، وآخر مصدودٍ عن نصرته، مكدودٍ في صنعته؛ فقد أدىٰ ذلك إلىٰ خوض الملحدين في أصول الدين، وتشكيكهم أهلَ الضعف في كلِّ يقين، وذُكِر لي عن بعض جهَّالهم أنه جعل يَعْدِله ببعض الأشعار، ويوازن بينه وبين غيره من الكلام، ولا يرضىٰ بذلك حتىٰ يفضِّله عليه، وليس هذا ببِدْعٍ من مُلْحِدَة هذا العصر، وقد سبقهم إلىٰ عُظْمِ ما يقولون إخوانهم من مُلْحِدَة قريش وغيرهم» (كتابه «إعجاز القرآن» ص٥، ٦)، فهذا هو الذي حفزه وأهاجه، حتىٰ كتب كتابه المعروف (إعجاز القرآن).

وكتب الباقلاني كتابه وأهل اللسان العربي يومئذٍ هم الناس، ولم يزل تذوُّقهم للبيان ما وصفتُ لك، تذوُّقٌ ملتبسٌ بالطباع، مردودٌ إلىٰ السَّلائق، مشحوذٌ بمدارسة

الشعر وسماعه وروايته، ولكن لم يضرَّ جمهور هذا الطباع شيئًا أن استفاض الجدل وظهر سلطانه، وأن صارت كلُّ فرقة تمضغ كلامًا تناضل به عن رأيها، وتقطع به حجَّة خصمها، طلبًا للغلبة لا تمحيصًا للرأي وفحصًا عن الحق.

ورضي الله عن أبي بكر الباقلاني، فقد جمع في كتابه خيرًا كثيرًا، واستفتح بسليم فطرته أبوابًا كانت قبله مغلقة، وكشف عن وجوه البلاغة حجابًا مستورًا، ولكنه زلَّ زلة كان لها بعد ذلك آثار متلاحقة، وإن لم يقصد بها هو قصدَ العاقبة التي انتهت إليها.

كان الباقلاني حقيقًا أن ينهج النهجَ الذي أدَّانا إليه تمحيص مسألة (الإعجاز)، ويومئذ يجعل الشعر الجاهلي أصلًا في دراسة بيان عرب الجاهلية من ناحية تمثُّله لخصائص بيان البشر، والباقلاني رضي الله عنه كان يجد في نفسه وجدانًا واضحًا أن خصائص بيان القرآن مفارقةٌ لخصائص بيان البشر، وقد ألمح إلىٰ ذلك في كتابه، كما ألمح إليه من سبقه، بيد أن جدل المتكلمين قبله وعلىٰ عهده، وخوض الملحدين في أصول الدين كما قال، ومنهجهم في اللَّجاجة وطلب الغلبة، كل ذلك لم يدعه حتىٰ استغرقه في الردِّ عليهم علىٰ مثل منهاجهم من النظر، ثم دارت به الدنيا لمَّا بلغه أن بعض جهَّالهم يَعْدِل القرآن ببعض الأشعار، ويوازن بينه وبين غيره من الكلام.

وأنت تستطيع أن تقرأ كتابه فصلًا فصلًا لتجد مصداق ما أقول لك، حتىٰ إذا انتهىٰ إلىٰ الذي هاجه من موازنة القرآن ببعض الأشعار هبَّ إلىٰ تسفيه هذه الموازنة، فدعاك في أوسط كتابه أن تعمِد معه إلىٰ ما لا تشكُّ في جودته من شعر امرئ القيس، وما لا ترتاب في براعته ولا تتوقف في فصاحته، كما قال في كتابه (٢٤١)، فطرح بين يديك هذه القصيدة، وجعل يفصِّلها وينقدها ويمحو من محاسنها ويثبِت، ويقف بك علىٰ مواضع خللها، ويفضي بك إلىٰ مكامن ضعفها، ولم يزل يعرِّيها حتىٰ كشف الغطاء عن عوارها، ثم ختم ذلك بقوله: «وقد بيَّنَّا

لك أن هذه القصيدة ونظائرها تتفاوت في أبياتها تفاوتًا بيِّنًا في الجودة والرداءة، والسَّلاسة والانعقاد، والسَّلامة والانحلال، والتمكُّن والاستصعاب، والتسهُّل والاسترسال، والتوحُّش والاستكراه، وله شركاء في نظائرها، ومنازعون في محاسنها، ومعارضون في بدائعها».

فلما انتهىٰ من ذلك افتتح فصلًا شريفًا نبيلًا ذكر فيه آياتٍ من القرآن، وحاول أن يَقِفَك علىٰ بدائع نظمها وبيانها، وهذا الفصل هو أدلُّ الدليل علىٰ أن الباقلاني لو كان استقام له المنهج الذي ذكرناه لبلغ فيه غايةً يسبق فيها المتقدِّم، ويَكُدُّ فيها جهد المتأخر، ولكنه لم يزد في هذا الفصل علىٰ أن جعل يوقفك علىٰ بيان شرف الآيات لفظًا ومعنىٰ، ولطيف حكايتها، وتلاؤم رصفها، وتشاكل نظامها، وأن نظم القرآن لا يتفاوت في شيء، ولا يتباين في أمر، ولا يختلُّ في حال، بل له المثل الأعلىٰ والفضل الأسنىٰ (كتابه ص٣٠٢، ٣٠٥).

وذكر تناسب الآيات في البلاغة والإبداع، وتماثلها في السلاسة والإعراب، وانفرادها بذلك الأسلوب، وتخصُّصها بذلك الترتيب، أما غيرها من الكلام فهو يضطرب في مجاريه، ويختلُّ تصرُّفه في معانيه، وهو كثير التلوُّن، دائم التغيُّر والتنكُّر، ويقف بك علىٰ بديع مستحسَن، ويعقبه بقبيح مستهجَن، ويأتيك باللفظة المستنكرة بين الكلمات هي كاللآلئ الزُّهر (كتابه ص ٣١٣، ٣١٤).

ثم انتهىٰ إلىٰ قوله في القرآن: «وعلىٰ هذا فقِس بحثك عن شرف الكلام، وما له من علوِّ الشأن، لا يطلب مطلبًا إلا انفتح، ولا يسلك قلبًا إلا انشرح، ولا يذهب مذهبًا إلا استنار وأضاء، ولا يضرب مضربًا إلا بلغ فيه السَّماء، ولا تقع منه علىٰ فائدة فقدَّرتَ أنها أقصىٰ فوائدها إلا قصَّرت، ولا تظفر بحكمة فظننتَ أنها زبدة حكمها إلا قد أخللت، إن الذي عارض القرآن بشعر امرئ القيس لأضلُّ من حمار باهِلة، وأحمقُ من هبنَّقة» (كتابه ص٣٢١، ٣٢٢).

وصدَق الباقلاني في كل ما قال، إلا أنه لم يزد علىٰ أن بيَّن خلوَّ القرآن من الاختلاف والتغيُّر، وبراءته من كلِّ ما يلحق كلام الناس من عيب وخلل، وكلِّ ما هو قرينٌ لضعف طبائعهم وإن استحكمت قواهم، ودالٍّ علىٰ عماهم عن كثير من الحقِّ وإن استنارت بصائرهم، ولعمري إنه الحقُّ لا ينال منه الباطل، ولكنه غير الذي ينبغي أن نتطلبه من كشف أصول البيان التي يفارق بها بيانُ القرآن بيانَ البشر من الوجه الذي فصَّلناه.

وليس هذا موضع بحثنا الآن، ولكن بحثنا عن الشعر الجاهلي، وما كان من أمره، فهذه الموازنة التي هاجت الباقلانيَّ كما ذكر هو حملته علىٰ هتك السِّتر عن معلَّقة امرئ القيس؛ ليكشف للناس عيبَها وخللها، لا ليستخرج منها خصائص بيانهم، وكيف كانت هذه الخصائص مفارقةً لخصائص بيان القرآن.

فلما زلَّ الباقلاني هذه الزلَّة وأخطأ الطريق زلَّ به من بعده وأخطأه، وأخذوا الشعر الجاهلي كلَّه هذا المأخذ، ولكن العجب بعد ذلك أن (الشعر الجاهلي) ظلَّ عند البلغاء وجمهور الناس هو مثقِّف الألسنة، والحجَّة علىٰ اللغة، والشاهد علىٰ النحو، وما إلىٰ ذلك، ولكنهم إذا جاؤوا لذكر القرآن وإعجازه اتخذوه هدفًا للنقد والتَّفْلِية وإظهار العيب وتبيين الخلل بإزاء كلام بريء من كلِّ عيب وخلل؛ فيبقىٰ الأمر أمر موازنةٍ لا عدل فيها، وكان حسبهم من الدليل أن أهل الجاهلية بتركهم معارضة القرآن بشعرهم أو كلامهم هو إقرارٌ لا معقِّب عليه بفضل هذا القرآن علىٰ شعرهم وكلامهم، فلم تكن بالباقلاني حاجةٌ إلىٰ سلوك هذا الطريق الذي سلكه إلا ما حمله عليه ما نعَق به جاهلٌ من جهَّال المُلْحِدَة من الموازنة بين الكلامين، وتفضَيل شعرهم علىٰ القرآن.

وكان قد نازع ذلك بابٌ آخر من اللَّجاجة في الموازنة بين شعر الجاهلية وشعر المُحْدَثين من شعراء الإسلام، وظلَّ الجدال في تفضيل أحدهما علىٰ الآخر بابًا

تقتحمه الألسنة طلبًا للمغالبة والظهور، وداخَل ذلك من الإزراء علىٰ الشعر الجاهلي وعيبه ما داخَل، فكان هذا أيضًا صارفًا عن مدارسته علىٰ الوجه الذي طلبناه في صدر حديثنا، وفي خلال ذلك كله تجمَّعت علىٰ فهم الشعر الجاهلي أخطاء شديدة الخطر غشَّت حقيقته بحجابٍ كثيفٍ من الغموض، زاده كثافةً ما لحق الشعر الجاهليَّ من التشتيت والضياع، وما أصابه من اختلال الرواية بالزيادة والنقصان والتقديم والتأخير، حتىٰ اختلطت فيه المعاني أحيانًا اختلاطًا سهَّل لكل عائب أن يقول فيه ما عنَّ له، ومع كل ذلك أيضًا بقي الشعر الجاهلي مثقَّفًا للألسنة، ومعدنًا لشواهد اللغة والنحو والبلاغة.

فليت شعري أيّ بلاء ترىٰ أصاب هذا الشعر!!

ثم تتابعت العصور علىٰ ذلك وعلىٰ ما هو أشنع منه، حتىٰ أفضينا به في هذا العصر الحديث إلىٰ أقبح الشناعة، يوم فرض الاستعمارُ الغربيُّ الغازي علىٰ مدارسنا منهجًا من الدراسة لا يقوم علىٰ أصل صحيح، كان يرمي في نهايته إلىٰ إضعاف دراسة العربية إضعافًا شائنًا لا مثيل له في كل لغات العالم التي يتلقَّاها الشبابُ في معاهد التعليم علىٰ اختلاف درجاتها.

ثم طمَّت الشناعة بعد سنين حين عُزِلت اللغة العربية كلُّها عزلًا مقصودًا عن كلِّ علم وفنٍّ، وأصبح الشباب يتعلَّم لغته علىٰ أنها درسٌ محدَّدٌ هو ثقيلٌ بهذا التحديد المجرم علىٰ كل نفس، وبخاصَّة نفوسَ الشباب الغَضِّ.

ثم لما أنشئت الجامعة ودخلها هؤلاء الشباب -علىٰ ما هم فيه من الملل بلغتهم ومن الاستهانة بأمرها- طلع قرنُ الشيطان بفتنة (الشعر) والتشكيك في صحَّة روايته، وطار الشرُّ إلىٰ الصحافة، فاتُّخِذت اللغة القديمة كلُّها لا الشعر الجاهليُّ وحده مادةً للهزء والسخرية، وللنكتة والزِّراية، لا بل تندَّروا بكل من بقي علىٰ شيء من المحافظة علىٰ سلامة اللغة، سلامةٍ هي كإبراء الذمة لا أكثر ولا أقلَّ.

هذا تاريخٌ مختصرٌ للأسباب التي وقفت بالشعر الجاهلي حيث وقف قديمًا، فحالت بين علماء البلاغة والمنهج الذي كشفتُه وبيَّنته، وكان لزامًا عليهم وعلينا أن نسلكه لدراسة إعجاز القرآن دراسةً صحيحةً سليمةً من الآفات، وهو تاريخٌ أشدُّ اختصارًا للذي تبع ذلك في العصر الحديث لمَّا صار (الشعر الجاهلي) ملهاةً يتلهَّىٰ بها كلُّ من ملك لسانًا ينطق، حتىٰ ألقىٰ ذلك كلُّه ظلًّا من الكآبة والظُّلمة علىٰ دراسات المُحْدَثين في الجامعة وغير الجامعة حين يدرس أحدهم هذا الشعر.

هذا الشعر الذي كان حين أنزل الله القرآن علىٰ نبيه ﷺ نورًا يضيء ظلمات الجاهلية، ويعكف أهله لبيانه عكوفَ الوثنيِّ للصَّنم، ويسجدون لآياته سجدةً خاشعةً لم يسجدوا مثلها لأوثانهم قطُّ، فقد كانوا عَبَدة البيان قبل أن يكونوا عَبَدة الأوثان! وقد سمعنا بمن استخفَّ منهم بأوثانهم، ولم نسمع قطُّ بأحدٍ منهم استخفَّ ببيانهم.

وأنت خليقٌ أن تعرف أن الشيء الذي طلبتُه واحتججتُ له، وحاولتُ أن أكشف عن منهاجه ومذهبه، إنما يتعلق بخصائص البيان في القرآن، وخصائص بيان البشر علىٰ اختلاف ألسنتهم، وأن مخرجَ هذا غير مخرج هذا، وأن الشعر الجاهلي إنما هو مادَّة الدراسة الأولىٰ؛ لأن القرآن نزل بلسان العرب، والذين نزل عليهم ثم تحدَّاهم وأعجزهم هم أصحابُ هذا الشعر والمفتونون به وببيانه.

وهذا بابٌ غير الباب الذي افتتحه الباقلاني، ثم فجَّر عيونه إمام البلاغة (عبد القاهر الجرجاني) المتوفىٰ سنة ٤٧٤هـ في كتابيه (دلائل الإعجاز)، و(أسرار البلاغة)، ثم أبدع فيه العلماء ما أبدعوا، وزادوا فيه عليه ونقصوا، وكان ذلك بعد أن أغلق الباب الذي فصَّلنا القول فيه، كان هو الجدير بأن يفتتحه الباقلاني وعبد القاهر.

فإذا تمَّ ما دعونا إليه لأهل هذا اللسان العربي يومًا ما، وعسىٰ أن يكون ذلك بتوفيق الله، فسيكون ذلك فتحًا مبينًا لا في تاريخ البلاغة العربية وحدها، بل في تاريخ بلاغة الجنس الإنساني كله، وسيكون أيضًا مقنعًا ورضًىٰ لهذا (العقل الحديث) الذي يتطلَّب في معرفة (إعجاز القرآن) ما يرضىٰ عنه ويطمئنُّ إليه.

وليس هذا فحسب، بل إن أهل الحق من أهل الإسلام سيجدون يومئذ وسيلةً لا تدانيها وسيلةٌ تسهِّل لهم ما استغلق عليهم من دعوة الناس إلىٰ كتاب الله الذي خصَّ به العرب، وجعل فيه ذِكرَهم علىٰ الدهر حين أنزله بلسانهم، ولكنه جعله هدًىٰ للبشر جميعًا عربهم وعجمهم، ويومئذ ستبطل فتنة (ترجمة القرآن) من أصلها؛ لسبب ظاهر أشدَّ الظهور، فإن البشر إذا لم يكن في طاقتهم بألسنتهم التي يبدعون في شعرها ونثرها أن يأتوا ببيان كبيان القرآن تدلُّ تلاوته علىٰ أنه بيانٌ مفارقٌ لبيان البشر، فمِن طول السَّفه وغلبة الحماقة أن يدَّعي أحدٌ أنه يستطيع أن يترجم القرآن، فيأتي في الترجمة ببيان مفارقٍ لبيان البشر، فإذا لم يكن ذلك في طاقة أحدٍ لم يكن لهذه الترجمة معنًىٰ، بل سيكون فيها من القصور والتخلف ما يجعل القرآن كلامًا كسائر الكلام، لا آية فيه ولا حجَّة علىٰ أحدٍ من العالمين، ولا توجب ترجمته علىٰ أحدٍ أن يؤمن بما فيه، وإن خالف ما جرىٰ عليه اعتقاده أو علمه، إلا إذا آمن من قبلُ أنه كتابٌ منزلٌ من السماء، وهذا عكسٌ لآية القرآن، وهي أن بيانه هو الدليل القاطع علىٰ أنه ليس من كلام البشر، وأنه كتابٌ منزلٌ من السماء، وأنه هو كلام رب العالمين الذي تعبَّدنا بتلاوته، والذي قال فيه رسول الله ﷺ: «الماهر بالقرآن مع السَّفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاقٌ له أجران»[١]، وقال أيضًا: «من قرأ حرفًا من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول ﴿الٓمٓ﴾ حرف، ولكن أقول ألفٌ حرف، ولامٌ حرف، وميمٌ حرف»[٢].

* * *

وأما بعد، فعسىٰ أن يكون الله قد ادَّخر لآخر هذه الأمة بعض ما يلحقها بفضل أولها، فتفتح بالقرآن آذانًا صمًّا وعيونًا عميًا وقلوبًا غلفًا، وتخرج بهديه الناس من

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٣٧)، ومسلم (٧٩٨).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٩١٠) وقال: «حديث حسن صحيح».

ضلالتهم، وتذودهم به عن اتباع خطوات الشيطان إلىٰ اقتفاء الصراط المستقيم، والله تعالىٰ يقول لنبيه: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴾ [سورة المؤمنون:٧٣-٧٤].

وعسىٰ أن يتمَّ علىٰ يد آخرها ما خبأه الله عن أوَّلها، وعسىٰ أن يكون ذلك مخبوءًا في هذا الفصل الذي نجده في أنفسنا بين بيان الله سبحانه وبيان عباده من البشر.

﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأنعام:١٤٩].

ورحم الله مالك بن أنس إذ يقول: «لا يَصْلُح آخرُ هذه الأمة إلا بما صَلَح به أوَّلها»[1]، فإذا كان أولها لم يصلح إلا بالبيان فآخرها كذلك لن يصلح إلا به، وإن امرءًا يقتل لغته وبيانها وآخرُ يقتل نفسَه لمِثلان، والثاني أعقل الرجلين!

وشكر الله لأخي مالك بن نبي حيث دعاني إلىٰ كتابة مقدمة لكتابه كتاب (الظاهرة القرآنية)، ففتح لي به بابًا من القول في (إعجاز القرآن) كنت أتهيَّب أن ألِجَه، وبابًا آخر من القول في (الشعر الجاهلي) كنت أماطِل نفسي دونه، وأنا أعلم أني قد قصَّرت في ذلك كله واختصرت، وإن كنت قد أطلت، وأخشىٰ أن أكون قد أمللت، ولكن عذري أن الرأي فيهما كان قد شابه ما كدَّره، فبذلتُ جهدي أن أمحِّص القول فيهما حتىٰ أنفي عنها القذىٰ، وأخلِّصهما من الأذىٰ، مبتغيًا بذلك وسيلةً إلىٰ ربي سبحانه، طلبت القربة عنده ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [النحل:١١١].

والحمد لله وحده، ولا حول ولا قوة إلا به، ولا فضل إلا من عنده.

محمود محمد شاكر

---

(١) أخرجه الجوهري في «مسند الموطأ» (٧٨٣)، وابن عبد البر في «التمهيد» (٢٣/ ١٠) عن مالك قال: «كان وهب بن كيسان يقعد إلينا، ثم لا يقوم أبدًا حتى يقول لنا: إنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها». وانظر: «البيان والتحصيل» (١٨/ ٣٢٧). ونقله عياض في «الشفا» (٥٩١) من قول مالك في «المبسوط».

ديوان ابن الدُّمينة[1]

تحقيق أحمد راتب النفاخ

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، وصلىٰ الله علىٰ محمد نبيه وعبده صلاة دائمة زاكية.

وبعد، فلئن كانت أحداث الدهر قد عصفت بالشطر الأكبر من تراث سلفنا في الأدب والعلم والبيان، فإن الكثير الطيب ممَّا انتهىٰ إلينا منه ما يزال مشتَّتًا في مكتبات الشرق والغرب يناهض عوادي الزمن، وينتظر العزائم أن تنشط لإحيائه ونشره، والوفاء بما يجب له من الصَّون والرعاية.

وقد يسَّر الله لدار العروبة[2] أن تساهم في إحياء هذا التراث، غير ضنينة عليه بما يكفل له دقَّة التحقيق وأناقة الإخراج، فبالأمس طلعت علىٰ الناس بالكتاب الأول من سلسلة (كنوز العرب)[3] التي خصَّتها بعلوم العربية وسائر فنون المنثور، وها هي ذي اليوم تقدِّم إلىٰ قرَّاء العربية الكتاب الأول في سلسلتها الجديدة (كنوز

---

(١) مكتبة دار العروبة، القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٥٩.

(٢) من دور نشر التراث في مصر، كانت مرجوَّة لخير كثير لولا أن اغتالتها يد الطغيان، كما يقول الطناحي في «مدخل إلى تاريخ نشر التراث» (١٥٠)، وهي شركة بين ثلاثة نفر: الأستاذ محمود شاكر والدكتور محمد رشاد سالم والأستاذ إسماعيل عبيد، وكانت نواتها «لجنة الشباب المسلم» التي تقدم ذكرها، نشرت عددًا من نفائس التراث وعددًا من الكتب الفكرية والأدبية المعاصرة، ثم أغلقت سنة ١٩٦٥.

(٣) وهو «الإيضاح في علل النحو» لأبي القاسم الزجاجي بتحقيق مازن المبارك. والكتاب الثاني كتاب «حَذْفٍ من نسب قريش» عن مؤرج بن عمرو السدوسي بتحقيق صلاح الدين المنجد سنة ١٩٦٠، والكتاب الثالث «الرد على ابن النغريلة اليهودي ورسائل أخرى» لابن حزم بتحقيق إحسان عباس سنة ١٩٦٠.

الشعر)[1]، وقد قصَرَتها علىٰ دواوين المتقدِّمين من الشعراء وأمَّهات كتب الاختيار.

وإنها لتأمل أن تقدِّم - بعون الله وتيسيره- في قوادم الأيام مزيدًا من نفائس تراثنا العربي شعره ونثره ممَّا لم يسبق نشره أو لم يقيَّض له بعد أن يُنْشَر نشرًا علميًّا محرَّرًا.

والله نسأل الإخلاص في القول والعمل، والهداية إلىٰ سبل الخير والرشاد.

عن دار العروبة

محمود محمد شاكر

(١) والكتاب الثاني هو «ديوان قيس بن الخطيم» عن ابن السكيت وغيره بتحقيق ناصر الدين الأسد سنة ١٩٦٢، والثالث «شرح أشعار الهذليين» لأبي سعيد السكري سنة ١٩٦٥ بتحقيق عبد الستار فراج ومراجعة محمود شاكر وستأتي كلمته فيه.

في مهبِّ المعركة[1]

لمالك بن نبي

لعلي لا أبالغ إذا قلت: إن هذه المجموعة من مقالات أخي الأستاذ مالك بن نبي هي عندي من أنفس ما كتب، لا لأنها تتناول موضوعًا لا نزال نعيشه وعاش فيه من قبل آباؤنا، ولا تزال آثاره باقيةً فينا تعمل عملًا مدمرًا في حياتنا كلِّها، ولا لأنها تاريخٌ متصلٌ مغموسٌ في الشرور التي ارتكبها الاستعمار في بلادنا، ولا لأنها تذكرةٌ لنا ولأبنائنا بما يُخشىٰ أن ينسوه من النكبات التي حاقت بهم، كلا، بل هي أنفس شيء عندي لأنها تكشف لنا عن فكر رجلٍ خبيرٍ فكَّر في الأمور ساعةً بعد ساعة، وقيَّد هذا الفكر في حينه، فإذا نحن نرىٰ أنفسنا في ضوء ما كتب قديمًا كأننا لم نتقدَّم خطوةً في فهم البلاء الذي ينزل بنا ولا يزال ينزل.

وأشدُّ النكبات التي يصاب بها البشر نكبةُ الغفلة؛ لأنها محوٌ لما تقوم به حياة الناس، والمرء لا يكون إنسانًا ناميًا إلا مع اليقظة، فإذا سُلِب اليقظة فقد استقرَّ في حومة الموت والهلاك وإن بقي حيًّا يتحرَّك.

وهذه المقالات المتفرقة المعاني، المتباعدة الأزمان، يضمُّها معنًىٰ واحدٌ في زمان واحد، فالمعنىٰ الذي يضمُّها هو معنىٰ الاستعمار، وهو معنًىٰ واحدٌ وإن اختلفت وسائل التعبير عنه في نواحي الحياة الإنسانية، والزمن الذي يجمعها هو زمنٌ واحد، هو زمن الاستعمار، وإن اختلفت عليه الأيام والليالي والشهور والسَّنوات، والنتيجة التي يخلص إليها قارئها إذا أحسن القراءة وأخذها مأخذ الجدِّ هي أننا عشنا في أكبر مؤامرة علىٰ العالم الإسلامي وتوابعه، ولكننا مع ذلك لا نزال نعيش في هذه

---

(١) مكتبة دار العروبة، القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٦١.

المؤامرة كأنها تعني أحدًا سوانا ولا تعنينا في شيء؛ لأن المؤامرة تتمُّ يومًا بعد يوم ونحن نحيا في آثارها حياة المستمتع بأيامه ولياليه، وما أيامُه ولياليه إلا بناتُ فلك الاستعمار، لا بنات فلك الشمس والقمر، وأنا لا أعني بهذا بلاغةً ولا شعرًا، ولكني أحسستُ ذلك كلَّه وأنا أقرأ هذه المجموعة ساعةً بعد ساعة.

فهذا المفكِّر الخبير قد استطاع بحسن إدراكه وبقوَّة بيانه وبدقة ملاحظته أن يفتح عيوننا علىٰ الخيوط التي تُنْسَجُ منها حياتنا تحت ظلام دامس قد أطلقه المستعمر ليخفيَ عنَّا مكره بنا وخداعه لنا، فإذا تمَّ نسيجُ هذه الحياة لبسناها كأنها حياةٌ نابعةٌ من سرِّ أنفسنا، وبذلك يتمكَّن أن يقودنا كالأنعام ونحن نحسب أننا إنما نقود أنفسَنا، وأننا نتصرَّف في هذه الحياة تصرُّف الحرِّ الذي لا سلطان لأحدٍ عليه، وهذا هو المعنىٰ الذي يرمي إليه الأستاذ مالك باصطلاحه الذي وضعه وهو «قابليَّة الاستعمار».

وليس يخالجني شكٌّ أننا لن نظفر بما تتمنَّاه قلوبنا، ولا بما تتبجَّح بذكره ألسنتنا، من حرِّيَّةٍ أو استقلالٍ أو مجدٍ أو كرامةٍ إلا إذا استطعنا أن نفكِّر في أمورنا تفكيرًا صحيحًا مؤسَّسًا علىٰ أصلٍ من التنبُّه واليقظة والإدراك، وظهورُ رجل مثل مالك بن نبي من بين شعبٍ لقي من نكبة الاستعمار ما لم يلقه شعبٌ إسلاميٌّ آخرُ باعثٌ علىٰ الرجاء والأمل، فأنا لا أعرف فيمن قرأتُ لهم أو سمعتهم من الناس ولا ممَّن في أيديهم مقاليد أمور الشعوب العربية والإسلامية رجلًا فيه مثل هذا الحسِّ الدقيق بالنكبة، أو مثل هذا التنبه الشامل للدَّسيسة، أو مثل هذه الاستقامة في فهم الوسائل المعقَّدة التي يستخدمها الاستعمار، أو مثل هذه الخبرة بالخسَّة التي تلبس ثياب النُّبل والشرف، وإنه ليحزنني أن يكون أمرُنا اليوم كما قال الأول: «من البلاء أن يكون الرأيُ لمن يَمْلِكُه دون من يُبْصِرُه»[1].

---

(١) قاله المهلب بن أبي صفرة حين كتب إليه الحجَّاج يستعجله في قتال الأزارقة، كما في «البيان» (١/ ٢١٢)، والكامل» (٣/ ٢٦٨)، و«المجالسة» (٢/ ٤١٢، ٦/ ٣٢).

فعسىٰ أن تكون هذه المجموعة من المقالات دليلًا مرشدًا يفتح به الله عيونًا عميًا وآذانًا صمًّا وقلوبًا غلفًا، فيومئذ تتحقَّق لنا الأمنية التي لا نعيش إلا بها، ولا نسعىٰ إلا إليها.

محمود محمد شاكر

شرح أشعار الهذليين[1]

صنعة أبي سعيد السكري

حققه عبد الستار أحمد فراج   راجعه محمود محمد شاكر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده لا شريك له، وصلىٰ الله علىٰ محمد عبده ورسوله وسلم تسليمًا كثيرًا.

وبعد، فقد تمَّ بعون الله كتاب «شرح أشعار الهذليين» صنعة أبي سعيد السكري.

و«دار العروبة» لا تملك إلا أن تُجْزِل الثناء للصَّديق الفاضل الأستاذ عبد الستار أحمد فراج، فقد بذل من الجهد في تحقيقه وفي وضع فهارسه ما يحمدُه له كلُّ عالمٍ بالشعر، وكلُّ خبيرٍ بالتراث، وعند الله جزاء ما بَذَل، وفَّقه الله وأعانه.

وأما مطبعة الأخ الأستاذ علي صبح المدني وولديه محمد ومحمود، ورئيس العمَّال الأخ محمد بدوي أحمد، فقد أدَّوا ما عليهم من إتقان العمل والإخلاص فيه.

---

(١) مكتبة دار العروبة، القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٦٥. وهذه الكلمة وإن كُتِبت في ختام الكتاب فهي كالتقدمة له.

فالحمد لله أولًا وأخيرًا علىٰ ما وفقنا إليه من اجتماع العِلم الأمين والعمل المتقن علىٰ إحياء أثرٍ من أعظم الآثار التي خلَّفها لنا آباؤنا رضوان الله عليهم، وعلىٰ الله نتوكل، وبه نستعين.

عن دار العروبة

محمود محمد شاكر

الخميس ١٦ من ذي القعدة ١٣٨٤

١٨ مارس سنة ١٩٦٥

دراسات لأسلوب القرآن الكريم[1]

لمحمد عبد الخالق عضيمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده لا شريك له، أنزل الكتاب بالحقِّ، لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه، وصلىٰ الله علىٰ خيرته من خلقه، محمد رسول الله صلىٰ الله عليه وسلَّم تسليمًا كثيرًا، بلَّغ الرسالة، وأدَّىٰ الأمانة، وترك الناس علىٰ المحجَّة الواضحة بنور القرآن الذي لا يخبو نورُه، وضياء السُّنَّة التي لا يخفت ضياؤها.

وبعد.

فماذا يقول القائل في عمل قام به فردٌ واحدٌ لو قامت عليه جماعةٌ لكان لها مفخرةً باقية؟! فمن التواضع أن يسمَّىٰ هذا العمل الذي يعرضه عليك هذا الكتاب «معجمًا نحويًّا صرفيًّا للقرآن العظيم».

فمعلومٌ أن جُلَّ اعتماد المعاجم قائمٌ علىٰ الحصر والترتيب.

أما هذا الكتاب، فالحصر والترتيب مجرَّد صورةٍ مخطَّطة يعتمد عليها.

أما القاعدة العظمىٰ التي يقوم عليها فهي معرفةٌ واسعةٌ مستوعبةٌ تامَّةٌ لدقائق علم النحو، وعلم الصَّرف، وعلم اختلاف الأساليب.

ولولا هذه المعرفة لم يتيسَّر لصاحبه أن يوقِّع في حصره من حروف المعاني وتصاريف اللغة علىٰ أبوابها من علم النحو، وعلم الصَّرف، وعلم أساليب اللغة.

---

(١) جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، مطبعة السعادة بالقاهرة، الطبعة الأولى ١٣٩٢- ١٩٧٢.

وهذا العمل الجليل الذي تولَّاه أستاذنا الشيخ محمد عبد الخالق عضيمة، والذي أفنىٰ فيه خمسة وعشرين عامًا طوالًا، والذي يعرض عليك منه هذا القسم الأول، إنما هو جزءٌ من عمل ضخم لم يسبقه إليه أحد، ولا أظنُّ أن أحدًا من أهل زماننا كان قادرًا عليه بمفرده؛ فإن الشيخ قد أوتي جلَدًا وصبرًا ومعرفةً وأمانةً في الاطلاع ودقةً في التحرِّي لم أجدها متوافرةً لكثيرٍ ممَّن عرفت.

وحروفُ المعاني التي يتناولها هذا القسم الأول من جمهرة علم القرآن العظيم[1] أصعبُ أبواب هذه الجمهرة؛ لكثرتها وتداخُل معانيها، فقلَّ أن تخلو آيةٌ من القرآن العظيم من حرفٍ من حروف المعاني.

أما المشقَّة العظيمة، فهي في وجوه اختلاف مواقع هذه الحروف من الجمل، ثم اختلاف معانيها باختلاف مواقعها، ثم ملاحظة الفروق الدقيقة التي يقتضيها هذا الاختلاف في دلالته المؤثِّرة في معاني الآيات، وهذا وحده أساسُ علمٍ جليلٍ من علوم القرآن العظيم.

وسترىٰ في هذا القسم العمل المتقن الذي تولَّاه أستاذنا الجليل، مواضع كثيرة من الاستدراك علىٰ النحاة منذ سيبويه إلىٰ ابن هشام، ولكن ليس معنىٰ هذا أن نبخس الشيوخَ الأوائل نصيبهم من التفوُّق الهائل الذي يذهل العقول، ولكن معناه أن الأساس الذي أسَّسوه في أزمنتهم المتطاولة كان ينقصه هذا الحصرُ الدقيقُ لكلِّ ما في القرآن العظيم من حروف المعاني، وكان هذا الحصرُ خارجًا يومئذٍ عن طاقتهم؛ فإن الذي أعان عليه هو الطباعة التي استحدثت في زماننا. والناظرُ في كتب القدماء لا يخطئه أن يرىٰ أنهم قاموا بحصرٍ غير تامٍّ، بيد أن هذا القدرَ الذي قاموا به هو في ذاته عملٌ فوق الجليل وفوق الطاقة.

---

(١) «الجمهرة» هذه اللفظة وضعتُها لما نسمِّيه في هذا الزمان «دائرة المعارف» أو «الموسوعة». (شاكر). وانظر: «أباطيل وأسمار» (٢١٨، ٣٢٦).

ويظنُّ أستاذنا الشيخ عضيمة أن الأوائل قد شغلهم الشعرُ عن النظر في شواهد القرآن العظيم، وأظنُّ أن الذي تولّاه أستاذنا من حصر هذه الأشياء في القرآن العظيم، وتنزيلها في منازلها من أبواب علم النحو، وعلم الصَّرف، وعلم أساليب اللغة، مقدمةٌ فائقة الدلالة لعملٍ آخر ينبغي أن تتولّاه جماعةٌ منظَّمة في حصر ما في الشعر الجاهلي والإسلامي من حروف المعاني، ومن تصاريف اللغة، ومن اختلاف الأساليب ودلالتها.

والذي ظنَّ الأستاذُ أن القدماء قد فرَّغوا هِمَمهم له هو في الحقيقة ناقصٌ يحتاج إلىٰ تمام، وتمامُه أن يهيِّئ الله للناس من يقوم لهم في الشعر بمثل ما قام به هو في القرآن العظيم.

وإذا تمَّ هذا كما أتمَّ الشيخُ عمله في القرآن العظيم، فعسىٰ أن يكون قد حان الحين للنظر في «إعجاز القرآن» نظرًا جديدًا لا يتيسَّر للناس إلا بعد أن يتمَّ تحليل اللغة تحليلًا دقيقًا قائمًا علىٰ حصر الوجوه المختلفة لكل حرفٍ من حروف المعاني وتصاريف اللغة؛ لأن هذه الحروف وهذه التصاريف تؤثر في المعاني، وتؤثر في الأساليب، وتحدِّد الفروق الدقيقة بين عبارةٍ وعبارة، وأثرها في النفس الإنسانية، وأثر النفس الإنسانية فيها وفي دلالاتها.

وإذا كان أستاذنا الجليل قد تواضع فظنَّ أنه قد وضع أساسًا علميًّا ثابتًا للحكم علىٰ أساليب القرآن، وموقعها من النحو والصرف، فإني أظنُّ أنه قد فات ذلك وسبقه، فهيَّأ لنا أساسًا جديدًا للنظر في «إعجاز القرآن» نظرة جديدة تخرجه من الحيِّز القديم إلىٰ حيِّز جديد يعين علىٰ إنشاء «علم بلاغة» مستحدَث؛ فإنه مهما اختلف المختلفون في شأن «البلاغة» فالذي لا يمكن أن يدخله الاختلاف هو أن تركيبَ الكلام علىٰ أصول النحو والصَّرف هو الذي يُحْدِث في كلامٍ ما ميزةً يفوق بها كلامًا آخر، وهذا لا يتيسَّر معرفتُه إلا بتحليل اللغة وتحليل مفرداتها وأدواتها وروابطها التي

هي حروفُ المعاني، عملٌ لا ينتهىٰ فيه إلىٰ غاية إلا بعد الحصر التامِّ للُّغة وتصاريفها، ولا سيما حروف المعاني، وبعد معرفة الفروق الدقيقة التي تُحْدِثها هذه الحروفُ في مواقعها، وبعد معرفة أثر هذه الفروق في تفضيل كلامٍ علىٰ كلام.

والشيخ -حفظه الله- لم يترك مجالًا للاستدراك علىٰ عمله العظيم، فكلُّ ما أستطيع أن أقوله إنما هو ثناءٌ مستخرَجٌ من عملٍ يثني علىٰ نفسه، ولكن بقي ما نتهاداه في هذه الحياة الدنيا، وهو أن أدعو الله له بالتوفيق، وأن يزيده من فضله، وأن يعينه علىٰ إتمام ما بدأ، وأن يجعل هذا العمل ذخيرةً له يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون.

محمود محمد شاكر

٢٠ من جمادىٰ الآخرة سنة ١٣٩٢

٣١ من يوليو سنة ١٩٧٢

مَقَالَات

الإصلاح الإسلامي[1]

لقد لقي الإسلام في هذه الأيام الأخيرة شرًّا كثيرًا من دعاة «التجدُّد والانتقال»[2] من أبنائه الخوارج وغيرهم من دعاة النصرانية، وما كان ذلك لجمودٍ رأوه في الإسلام كما يقولون، بل هي أهواءٌ ودوافع نفسية مغرضة شهوانية لا تثبت على أساس، ولا ترتكز على عَمَدٍ من قوى العلم الحديث، وما هي إلا أوهامٌ تبنى على أوهام، فلا شكَّ أن مصيرها للانهيار يومًا ما، ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [إبراهيم: ٢٤]، ذلك فعلٌ يضاهئون به عمل الذين كفروا من قبل ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٠].

الآن هبَّت أقلامٌ من مضاجعها تتلفَّت يمنةً ويسرة عسى أن تظفر بالقلوب التي تخطُّ عليها أمثلةً من روح الإسلام العالية، ومبادئه الكريمة، وآياته الغالية، فتكون لها عونًا في إخراج العالم الإسلامي من هُوَّةٍ سقط فيها على غِرَّةٍ منه، تلك الهُوَّة هي التي حفرتها له الأمم الموتورة من المسلمين من زمنٍ مضى بما لها من أساليب في إخفاء الحقائق وإظهار الباطل مؤتزرًا بثوب الحقِّ، وهم في ذلك لا يالون أن يطعنوا الحقَّ في نحره طعنة المَغِيظ المُحْنَق، قائلين: إنهم يفتِكون بالباطل أنى كان وحيثما ثَقِف ، كلَّا وألف مرة كلَّا، إنما أنتم رسلُ الدَّمار وشياطين تلك الإنسانية المحتضرة.

---

(١) صحيفة الفتح، السنة الأولى، العدد ٣٣، ٢٣ رجب ١٣٤٥ - ٢٧ يناير ١٩٢٧. وهي من بواكير مقالات الأستاذ محمود شاكر وتلادها، وكان في الثامنة عشرة من عمره.

(٢) الثورة على القديم، وتقليد الغرب. ولم أر هذا المصطلح عند غير الشيخ محمد شاكر في مواضع من رسالته «القول الفصل في ترجمة القرآن الكريم إلى اللغات الأعجمية»، فتلقاه أبو فهر عنه، وانظر تعليق أخيه الشيخ أحمد على «الرسالة» للشافعي (٤٩).

كان العالم الإسلامي يغطُّ في ضجعته التي قام منها اليوم يحملُ كلَّ ما في الحياة من قلب نابض ونظر ثاقب وسلاح حديد، فلا غرو إذا هبَّت تلك الأقلام لتنير للناس طريق الهدىٰ والرشاد، وتسلك بهم المحجَّة البيضاء التي أصبحت مطمحَ الأنظار من مشرق الشمس إلىٰ مغربها.

(١) فقام من قام ليثير همَّةً خامدةً أو كادت تخبو نارها.

(٢) وقام آخر:

(أ) يصفُ لنا مواضعَ الداء العُضَال ويشرحُه، ويضعُ لنا تحت نور الشمس الوضَّاء الأسبابَ التي أدَّت إلىٰ وجوده، وما هي المغبَّة المُفْجِعَة إن كانت الحال ستمرُّ في طريقها دون علاج ناجع شافٍ.

(ب) وهو في الوقت نفسه يصفُ لنا العلاج الذي يجب أن نقوم به قبل أن يتفاقم الخطبُ ويتَّسع الخَرق.

(٣) وهناك من يضع لنا الخطط التي سنسير عليها لدفع الغائلة وردِّ التيَّارات المتدفِّقة، وكلُّهم قاصدٌ الخيرَ للعالم الاسلامي من غير شك.

فالآن ونحن نحمل عدَّتنا، ونستلئم بسلاحنا للعمل جدًّا لا هزلًا، واجبٌ علينا وجوبًا لا مناص منه أن ننظر في عمل كلٍّ نظر المنتقد البصير الذي لا يضع رجله إلا وهو يعلم إلىٰ أين المصير ولو بعد مئتي عام.

تلك هي الخطة التي اتَّبعتها الأمم الموتورة من ثلاثمئة سنة، فكان لها بذلك نصرٌ في كثير من مواقفها حيالنا. فاللهمَّ إنا نسألك الهداية والإصابة، وأن تقينا خطلَ القصدِ وفُيولة الرأي، وبك اللهمَّ المستعان.

(١) إثارةُ الهمم التي خمدت أو كادت تفيض حياتها بمرور الزمن وكرِّ الدَّهر ذلك أمرٌ لا بدَّ منه، فواجبٌ علينا أن نعمل بكلِّ تؤدة، ونبني بكل ما أوتينا من إحسان

وإتقان لإعادة تلك القلوب الساكنة إلىٰ قلوب خفَّاقة نابضة، تحمل كلَّ ما في هذه الدنيا من حياة وحركة متشبِّعة جدَّ التشبُّع بما أملاه علينا الإسلام في معاني التضحية.

نعمل لنخرِج قلوبًا مثقلةً بثمر تلك الشَّجرات التي غرسها كتابُ الله وسنَّة رسوله في قلوب المؤمنين من قبل، فهي ماضيةٌ لا تَنِي ولا تُحْجِم، لا يردُّها رادٌّ عن حقٍّ هي إليه ساعيةٌ توَّاقة.

وإنا ولله الحمد لم نطلب أمرًا يعزُّ إدراكُه، بل كان ذلك شأن المهاجرين الأولين، ودعاة الحقِّ من المؤمنين، وتلك هي بعينها الحياة، وتلك والله هي النفوس الملتهبة التي أكلت كلَّ ما قُذِف لها من الجواهر والمعادن المختلطة، فأخرجت منها جواهر ومعادن تأتلق كلَّما لاحت شمسٌ في أفق، أو أضاء بدرٌ في ظلماء، أو إن شئت فقل: هي منارات الهدىٰ وأعلام الحقِّ في دياجير الظلم الكثيفة، يهتدي بها الضالُّ، ويأوي إليها كل عافٍ وطَلُوب.

هي الشمسُ أبدىٰ رونقَ الحقِّ نورُها ... وأشرق في سرِّ القلوب طلوعُها
فقرَّت قلوبٌ كان جمًّا وَجِيبُها ... ونامت عيونٌ كان نزرًا هجوعُها(١)

(٢) (أ) وحقٌّ علينا أن ننظر للذي يصفُ لنا مواضع الدَّاء العضال نظرة الإكبار والإجلال، ونعرف له فضله وبصرَه بالأمور، وما هو عليه من غيرة صادقة وحميَّة مضطرمة.

ومع هذا كله فواجبٌ علينا أن لا نتقبَّل منه قوله إلا بعد المناقشة والمناظرة التي تقوم علىٰ أساس الصَّفاء الإسلامي الذي أنبته الإسلام في قلوبنا؛ لنجني منه غرسًا طيبًا لا غضاضة فيه ولا مرارة، فربما نظر هو إلىٰ أمرٍ فحسبه من الأدواء التي فتكت بنا وفتَّت في عضدنا زمنًا طويلًا ولم يكن ذلك الشيء في ذاته هو الدَّاء، بل هو

---

(١) للبحتري في ديوانه (١٢٩٨، ١٣٠١).

متأثرٌ بداءٍ آخر يؤثر فيه تأثيرًا شديدًا لو تخلَّص من تأثيره الذي محا قوَّته الكامنة فيه من أصله لصار بعدُ من أقوىٰ أسباب الشفاء وأطيبها وأنجعها، وهذا كثير الوجود في العلل التي أصيب بها العالم الإسلامي، ومع ذلك فالعلم الحديث يشهد لنا بذلك، فهذا النوع موجودٌ في أصول الطبِّ الحديث وفي علم النفس والطبيعة وغير ذلك.

وهنا وبعد هذا كلِّه نقفُ وقفة الخائف المتحرِّز نرفع أيدينا من عملٍ هي سائرةٌ فيه، ثم نضعها برفقٍ واتئاد، فِعْلَ الصَّنَع البصير الحاذق والطبيب المدرَّب؛ لئلا ينقلب بناؤنا رأسًا علىٰ عقب، بعد أن نكون قد جاهدنا جهادًا عنيفًا، فنحمل من منبره إلىٰ حفائر القبور وظلمات المستقبل الذي لا يعلمه إلا الله جل جلاله.

هنا لنحمل كلَّ ما يدَّعيه مدَّعٍ من شكٍّ وحيرة، هنا لا نطمئنُّ، بل لا زلنا في تردُّدٍ متَّصل أولُه بأخراه.

الشطر الثاني من عمل المجاهد الثاني، وعمل المجاهد الثالث، لا نريده، بل نأباه كلَّ الإباء. ذلك ما أقوله، ولعلَّ كثيرًا من الناس لا يوافقون. فليكن كلُّ اعتراض، فالمسألة هي العقدة التي نريد حلَّها في سبيل جهادنا هذا.

حاشا لله أن تكون قد أسأنا بالمجاهدَين الأخيرَين الظنَّ، فهم أصلٌ من الأصول التي نحتاج إليها بغير شك، وهم الأساس الذي سيبنىٰ عليه مجدُنا الذي ننشده، وهم هم بغيتُنا التي نتطلَّبها ونعضُّ عليها بالنواجذ، لا نفتر ولا نَنِي طرفة عين عن الدؤوب في تحصيل أمثالهم، والانتفاع بما يحملونه من غيرة وعقل راجح وأدب جمٍّ وفضل عميم.

المسألة هي موضع البحث الذي يجب أن يتَّجه إليه الآن في بداية الجهاد مدادُ أقلام الكتَّاب المبرزين والأئمة من الفضلاء العاملين.

نُشْهِدُ الحقَّ بأسره أنَّا ما شهدنا في تاريخ الجهاد والحروب قائدًا يقول لأعدائه: هذه هي السَّبيل التي أنا سالكُها في هذه الحرب، هذه هي العُدَد التي سأُعْمِلُها في نحوركم بعد غد. كلَّا، فكلٌّ من المتحاربين يعلم أنما الحرب خدعة، وأنه إن أوقد نارًا يرىٰ ضوءها أعداؤه فهي بعد غد خامدةٌ ولا شك، فكلٌّ يجهَد جهدَه في إخفاء خططه وسترها، وإظهار وجهاته علىٰ غير ما هي عليه في الحقيقة، حتىٰ تكون بعدُ الموقعة الفاصلة، فإما نصرٌ مبين، أو ذلَّة المُهِين، والحقُّ لا يخبو له ضياء.

فإن نحن معشر المجاهدين أظهرنا لعدوِّنا العلاج الذي سنتجرَّعه، والطريق الذي سنركبه، وهو في الحقيقة قادرٌ قويٌّ، حمانا أن نُسِيغه بما يخلق من عقبات، وبنىٰ حصنَه المنيع في طريقنا الذي سنسلكه، فتكون عاقبتنا الخذلان الفاضح، ونكون قد بيَّنَّا للناس ما نحن عليه من فُيولة في الرأي وخلوٍّ من الحزم.

وأنا في صميم نفسي أسمع هاتفًا يقول: أفنكفُّ إذن عن تجرُّع الدواء ووضع الخطط والعمل؟ لقد قلتَ حقًّا لو امتنعنا عن هذا كلِّه فكأنَّا نهدم ما بنينا لا هوادة ولا انتظار. العمل والجهاد يستمرُّ في طريقه، إنما الذي نطلبه أن لا نُرِيَ عدوَّنا ما نعمله أو ما سنعمله في الغد، وأن لا ننشر علىٰ صفحات الجرائد والمجلَّات ما يجبُ أن يُعْمَل والخطط والمنظَّمة التي نضعها، بل يكون همُّنا علىٰ صفحات الجرائد أن ندحض ما يأتي به من شُبَه تغرُّ الأغفال، نُرِي الناسَ سبيل الهدىٰ والرشاد.

وفي هذا يقول شاعرٌ يخاطب أوروبا:

إني لأخشىٰ أن أبثَّكِ ما بي ... فأكون قد حاردتُ غير صوابِ

القائدُ الجيش اللُّهام بستره ... خططَ الحروب يؤوبُ بالأسلابِ

فاللهمَّ اهدنا سبيل الرشاد، وافتح بيننا وبين قومنا بالحقِّ وأنت خير الفاتحين.

معجزة الدهر

الدولة الإسلامية الكبرى في ثمانين عامًا[1]

﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٠].

ما فتئ للناس عجبًا أن يروا تلك الدولة الإسلامية الكبرىٰ تخرج من ترائب الغيب تشتدُّ ترمي الأممَ عن جنباتها رميًا، وتنفضها مِن عن يمينها وشمالها نفضًا، وتفتحُ ما تفتحُ من بلادٍ ألقت إليها ديارها وأموالها من بلادٍ نائية وأراضي لم يطأوها، ثم هي هناك تُقِرُّ ما تُقِرُّ والناسُ أجمعون علىٰ رضا، وتمحو ما تمحو وهم بذلك يستبشرون، وهم لا يرفعون من دونها سيفًا ولا لسانًا، اللهم إلا عنادًا ولجاجًا، مع اطمئنان النفوس وتضافرها علىٰ أن ذلك هو الحقُّ لا شكَّ ولا ريب.

ثم ذلك العجب لا يزال يتقصَّىٰ بهم حتىٰ يتساءلون: كيف أتيح للأمَّة الإسلامية أن ترىٰ أعلامها تخفق علىٰ جنبتَي الأرض ما بين عشيَّة وضحاها، ما بين اليوم الذي نزل فيه الرُّوح الأمين علىٰ قلب الرسول الكريم صلوات الله عليه وسلامه، وبين انقضاء ثمانين عامًا لبزوغ هذا النور المبين، بيد أنَّا نرىٰ دولة الرُّومان قد جَهِدت جهدَها ثمانمئة عام فما تمخَّضت إلا عن عجز، لا هي ببالغةٍ مبلغًا أدركه أهل هذا الدين القويم، ولا هي بآملةٍ أن تحلَّ من الأمم المغلوبة علىٰ أمرها ما حلَّ قومنا المسلمون، وتنزل من قلوبهم منزل الإجلال والإكبار مثل ما نزل أسلافنا الطيبون الطاهرون، وأي شيء أحجىٰ بالعجب[2] من هذا الأمر العظيم!

---

(١) صحيفة الفتح، السنة الأولى، العدد ٤٩، ٩ ذو الحجة ١٣٤٥ - ٩ يونيو ١٩٢٧.

(٢) أي: أجدر بالعجب.

إن شئنا قلنا: معجزة هذا الدين وهذا الهدىٰ الوضَّاء، وما زال الله يحبو حزبه الطاهرين بالأمور الجسام حتىٰ تقرَّ أعينهم في الدنيا كما ستقرُّ في جنَّات النعيم، وأراد الله أن لا يدعهم يفارقون دار الزوال حتىٰ يشهدوا بأنفسهم وأعينهم كلمة الله تعلو وقالة الكفر تَغِيض، وحتىٰ يروا نور الحق يمدُّ ضوءه وما زالت أعناق الكفر لهيبته خاضعة، وإنَّا علىٰ ذلك لمن الصادقين.

وإن شئنا قلنا: ذلك أمر الله، وإذا أراد الله أمرًا فإنما يقول له كن فيكون.

ليس الأمر بمعجزة، وإنما هو لا يتاح إلا لنفوسٍ جادت بأرواحها، وحَقَرت الموتَ فسيقت لها الحياة سَوقًا، وليست الحالة بعدُ بخارجةٍ عن سنن الله في أرضه، إلا أنها بعيدة المنزع، صعبة المرتقىٰ، غير دانية المنال، النفوس دونها كليلة، والهامُ علىٰ حافاتها تنثال، وإنا لمن الصادقين، غير أنه لا يجوز علىٰ حكمة الله تعالىٰ وعزَّ أن ينصر المؤمنين من عباده الصالحين بالمعجزات فحسب.

وما علمنا أن ذلك كان من الهدىٰ الذي نزل به القرآن الكريم ليكون نبراسًا للعاملين وهدًىٰ للمسلمين من بعد، يقتصُّون أثره، ويتَّبعون سبيله.

نزل القرآن الكريم كتابًا فيه هدًىٰ للمتقين الذين يضعون نفوسهم حيث شاءت كلمة الله العالية أن تضعها، وينزلونها بالمكان الذي شاءت آياته البينات أن تنزلها، لا يخشون في ذلك لومة لائم، ولا أن تكون رقابهم حصادًا للسُّيوف، وأجسادهم غطاءً لظهر الأرض، ورؤوسهم فقاقيع الدَّم المهراق.

وكان الكتاب العزيز حكمةً تتلىٰ، كما كان سياسةً تتَّبع، وشريعةً يهتدىٰ بها، ونظَامًا للحكم الإسلامي الذي بهر نورُه الأبصار وخُطِفت من دونه الأنظار.

وكان كتابه جلَّ وعلا معجزًا في لفظه ومعناه، كما كان معجزًا في حكمته وتشريعه، وكمثل ما كان معجزًا في طريقة حكمه وسبيل سياسته، وبذلك كانت مواقع النصر المبين جزءًا من السياسة التي أدَّاها الرسول إلينا إن نحن قصدنا قصدَ سبيله وحذونا حذوَه.

وليست تلك المعجزات هي كلَّ السياسة التي ضربت الوثنية ضربة الموت في بطحاء بدر وأحد، وجرَّعت الأحزاب كأس الأجل المكتوب في مغار الخندق، وأنزلت الناس منازلها حين فتحت مكة.

هناك أمورٌ كثيرةٌ لا بدَّ من تفصيلها في هذه الكلمة وفيما يلي؛ لتكون لقومنا عظةً وعبرةً ومنارًا مرفوعًا يهتدىٰ به في دياجي الضلال الذي ألقىٰ علىٰ عقول شبابنا الناهض جِرَانَه، وأخذ من نفوسهم مأخذًا قويًّا تحت راية دعاية التبشير المسيحي، وتشكيك الشاكِّين من الناس الذي صَغُروا -وظنُّوا أنهم كَبُروا- عن أن يكونوا من الذين يفقهون كتاب الله وهدي عبده ورسوله محمد بن عبد الله ﷺ.

هذا وليتبع المسلمون من قومنا هداية الرسول الأمين، وأنصاره المؤمنين الأولين، ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب:٢١].

فأنت لا تكاد تقع عينك علىٰ سيرة الرسول ﷺ إلا رأيتَ منها من أساليب السياسة العليا في قيادة الناس في السِّلم والحرب شيئًا عظيمًا يخرج للناس أصدق صورةٍ وأجملها، وأشدَّها أخذًا بمجامع القلوب لحسن قيادة الأمم والجيوش، ورياضة أخلاق الشعوب علىٰ اختلاف طبقاتها، وخاصَّة في أمة كالأمة العربية متشعِّبة المنازع والأهواء، حادَّة النفوس، ماضية الأذهان، شديدة البأس، عزيزة المنال، حرَّة السَّجايا والطباع، لا تكاد تُذْعِن لحكم حاكم في جاهليتها، أو تسمع لأمر آمرٍ أو نهي ناهٍ إلا إذا استجمع صفاتٍ لا تكاد تجتمع لأندر الخلق.

لقد رأينا تلك الأنفسَ الأبيَّة -بعد أن جاءها الهدىٰ وقبلته- راضيةً مطمئنَّة تحني رؤوسها إجلالًا وإكبارًا بعد أن كانت ترفع أنوفها شامخةً إلىٰ السماء كبرًا وعلوًّا، ولقد رأينا هذه العقول الجبَّارة لا تزال تقشع يومًا بعد يوم عن نفسها غيابة الضلال الأكبر لتفقه ما في هذا الدين القويم وما في جوامع كَلِم الرسول الأمين الذي

لا ينطق عن الهوىٰ وإنما هو وحيٌ يوحىٰ، لتفقه ما في هذا كلّه من حكمةٍ أبدية وآياتٍ بيناتٍ تبيدُ الليالي والأيام وما تبيده، ويطوىٰ أديمُ السموات والأرض وما يطوىٰ أديمُها، وهي بعدُ لا تزال علىٰ مرِّ الدهور هي المثل الأعلىٰ وإن ظنَّ بنو الإنسان أنهم يملكون من عقولهم مُسْكةً تدلُّهم علىٰ هدًىٰ وتحميهم من غيٍّ، وإن خال بنو الإنسان أنهم قادرون علىٰ أن يسلكوا السبيل القويم، وأن يلحقوا المثل الأعلىٰ في وادٍ غير الوادي الذي أبانه القرآن الكريم، وإن وَهِم بنو الإنسان أن هناك مثلًا أعلىٰ غير المثل المنزل في كتاب الله العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [سورة الحج:٧٣-٧٤].

ولقد أراني الآن وجَّهتُ نفسي في هذه الكلمات إلىٰ شيء غير الذي يدلُّ عليه عنوان هذه الكلمة، ولكنَّا قسرًا عنَّا نفعل ذلك، فلقد والله فاضت النفوسُ من هول مقدار ذلك الضلال الذي يريد أصحاب الضلالات من المبشِّرين في مصر وغير مصر من البلاد الإسلامية أن يلقوه بين أيدي العقول والذين في قلوبهم مرضٌ والقائلين لإخوانهم: هلمَّ إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلًا.

ولقد والله بلغ السَّيلُ الزُّبىٰ، وجاوزَ الحِزامُ الطُّبْيَيْن، من تشكيك الضالِّين، وتقوُّلات المأجورين الذين باعوا عقولهم وشرفهم وعزَّتهم ودينهم وبلادهم وقومِيَّتهم بمالٍ لن يبلغ من الأمر شيئًا، وما المال إلا فتنةُ الحياة الدنيا تُباع به النفوسُ وتشترىٰ، لا سيما في هذه الأيام التي حسبَت أنْ قد بلغَت الأوجَ الأعلىٰ، وإن كان ذلك حقًّا فهي كذلك قد بلغت -من جهاتٍ أخرىٰ كثيرة- الحضيضَ الأوهد.

وإنما نحن إن شاء الله سنبتدئ الموضوع في جملته وتفصيله في المقالات الآتية، وسنتناول بالبحث الأسبابَ التي رفعت الأمة العربية حتىٰ نهضت بالإسلام -دينِ الله- نهضةً ما تقدر عليها أمةٌ في هذا العالم المتمدِّن الحاضر، وكيف كان النبي ﷺ يتلو علىٰ الناس كتابَ الله جلَّ وعلا، فيرىٰ الناسُ الحقَّ من خلاله، فيملأ نفوسهم مَلْأً طاردًا منهم سوء النفس ونَغَل الدَّخيلة وفسادها، وكيف كانت كلماته ﷺ هي نبراسَ الهدىٰ وأكبر قائدٍ لتلك الحركة الكبرىٰ التي لم يشهد التاريخ مثلها من يوم أن عرف نفسه حتىٰ اليوم.

وسنتناول كثيرًا من آيات الله في كتابه العزيز، ومن أحاديث الرسول ﷺ بالشرح والتفصيل من الجهة الأخلاقية، والجهة التي أثَّرت في هذه الطائفة العربية التي مادت من تحت أرجلها الأرضُ كما اهتزَّ لِسَعْدِها[1] عرشُ الرحمن.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال:٢٤].

(١) سعد بن معاذ رضي الله عنه سيد الأوس، في الحديث: «اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ» أخرجه البخاري (٣٨٠٣)، ومسلم (٢٤٦٦).

محمد ﷺ(1)

-1-

نشر علي عبد الرازق في جريدة «السياسة» مقالًا تحت عنوان «محمد» يوم الخميس ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٤٦، فما كنَّا نودُّ أن نتحرَّك للرَّدِّ بعد ما قام إخواننا المخلصون بواجبهم في الردِّ(2)، وفيهم الكفاية التامَّة، مع عجزنا وضعفنا.

كلنا يعلم أن المقال لم يكن موضوعًا علميًّا حتىٰ تنبري له كلُّ هذه النفوس لتردَّه مذمومًا مدحورًا، ولكن خشية أن تغرَّ أمثال هذه الألفاظ الجوفاء شبابنا الناهض قام المخلصون بواجبهم في ردٍّ مثل هذه الأقوال، ونِعمَّا هذه الردود، فالوقت الذي نحن فيه طورٌ عنيفٌ من أطوار حياتنا انتابت عقول الكثيرين الشكوك، وما أسرع ما يلقط عقلُ الشَّاكِّ أمثال هذه الأقوال المرذولة.

لا نظنُّ أن علي عبد الرازق يدَّعي أن العظمة لباسٌ يُلْبَس ويُخْلَع، فإذا ما أراد الرجلُ أن ينتظم في سلك العظماء اشترىٰ حلَّة العظمة فلبسها فصار عظيمًا، ولا أنها مادة يبحث عنها العلم الحديث بآلاته وبتحليله الأشياء إلىٰ عناصرها، بل كلُّ عاقل يقول: إن العظمة وإن لم يمكننا أن نحدِّد معناها قوةٌ كامنةٌ لها أسبابها ومؤهِّلاتها وظواهرها وعوارضها وظروفها، وأنها كلها مرهونةٌ بأوقاتها، حتىٰ إذا ما جاء وقتها ظهر الرجلُ صاحبُها محمولًا علىٰ أعناق الرجال، فهي بذلك ليست بشيء تحاربه

(1) صحيفة الفتح، السنة الثانية، العدد ٦٣، ٢٦ ربيع الأول ١٣٤٦ - ٢٢ سبتمبر ١٩٢٧.

(2) من أعلام من ردَّ على علي عبد الرازق بعد ذلك: شيخ الأزهر العلامة محمد الخضر حسين في محاضرة ألقاها بدار جمعية مكارم الأخلاق الإسلامية آخر ربيع الثاني سنة ١٣٤٦- ١٩٢٧، ونشرت في صحيفة الفتح العدد ٦٨، السنة الثانية ١٣٤٦- ١٩٢٧، ثم طبعت بالمطبعة السلفية في ذلك العام بعنوان «العظمة».

الأنبياء، وإنها لتظهر في الغنىٰ كما تظهر في الفقر، وتظهر في الحاكم كما تظهر في الرعيَّة، وليست أكداس الذهب من العظمة في شيء، وليس الغنيُّ بالرجل العظيم، وإنما هنا قومٌ لهم نفوسٌ لا تبرح تعبد الذهب والفضة لأغراضها وشهواتها، ولا يزالون يظهرون لصاحب المال من التعظيم ما يجعل مثل الأستاذ يقول إنه عظمة، إن مثل هذه العظمة «عظمة المال» إن كانت من قِبَل الغنىٰ فهي يا أستاذ كِبْرٌ وتجبُّر، وإن كانت من قبل الغرض الشهواني فهي تعظيمٌ لا غير، وليس لمثل هذه العظمة كما قلنا قوة كامنة لها أسبابها ومؤهلاتها وظواهرها وعوارضها وظروفها، وإنها كلها مؤقتة بأوقاتها، وإنها تظهر في الغنىٰ كما تظهر في الفقر، وإنها متعلقة بالشخص في ذاته لا تنفصل عنه ولا يمكنه أن ينفصل عنها، وهي قوة ثابتة باقية لا تفنىٰ ولا تخمد نارها إذا ما تأجَّجت في وقتها المكتوب لها.

إن عظمة الغنىٰ هذه التي تدَّعيها إنما هي عظمة في الذهب ذاته، عظمةٌ إذا ما انفصلت بِنْيتها عن الرجل فهو أذلُّ من عَيْرٍ مُكَدَّم[1]، وأنت يمكنك أن تنزع عنه هذه العظمة بنزعك ماله، وهو يمكنه أن يخلع هذا اللباس عن نفسه. هذه ليست بالعظمة، الحكم الذي ذكرت أن له عظمةً عظمتُه من هذا النوع نفسه، وكذلك الفتك والتلصُّص والجمال.

أجل، إن هناك عظمةً للعلم، وعظمةً للفنِّ والصَّنعة، وهذه تفترق عمَّا ادَّعيتَه أولًا من العظمة، إن أمثال هذه العظمة قوةٌ كامنة في النفس العظيمة لها أسبابها ومؤهلاتها وظواهرها وعوارضها وظروفها، وكلها مؤقتة بأوقاتها، وكلها تظهر في الغنىٰ كما تظهر في الفقر، وهي متعلقةٌ بالشخص نفسه لا تنفصل عنه ولا ينفصل عنها إنَ ابتغىٰ إلىٰ ذلك سبيلًا، وهي قوةٌ ثابتةٌ باقيةٌ لا تفنىٰ ولا تخمد نارها إذا ما تأجَّجت في وقتها المكتوب لها.

---

(١) العَير: حمار الوحش. والمكدَّم: المعضوض.

ليس كلُّ متعلِّم يصير بعلمه عظيمًا، إنما هذا الذي تراه موجَّهًا من العامة إلىٰ العلماء بدون نظر إلىٰ نتائج علمهم ومكنون أفهامهم ومحدَثاتهم في العلم، هذا الذي تراه من الباب الأول الذي ادَّعيتَه هو باب التعظيم لا العظمة يا فضيلة المحقِّق المدقِّق! وليس كلُّ من تعلَّم الفنَّ والصَّنعة صار عظيمًا في صنعته، وقوبل بالعظمة، ليس هذا بالذي يقبله عقل عاقل يفكر فيما يقول.

هذا الذي أتيتَ به في أول مقالك من الكلام علىٰ العظمة لا نعدُّه حشوًا، بل نقول: إنه المكر السيئ، ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله، فما كلُّ رجل يسلِّم عقله لك، وما كلُّ رجل يبيت يملأ شدقيه بألفاظك دون أن يفكِّر فيما تعنيه، تعني التغرير بالعقول للوصول إلىٰ القول بأن رسول الله النبي العربي الأمي ﷺ ليس له من العظمة شيء، وليس من العظماء في شيء، وإنما هو دخيلٌ فيهم تُدْخِله فيهم أفهامنا القاصرة المضطربة، ويُخْرِجه منهم عقلك الثابت الرزين!

ويقول ذلك الرجل: «ولولا أن الناس قد فُتِنوا بدين العظمة وعبادة العظماء لما ساغ إذا ذكرتَ رسل الله ومحمدًا خاصَّة أن يبحث باحثٌ في أنهم من العظماء، فذلك بحثٌ ليس له موضعٌ في مقام التحدُّث عن رجال النبوة والرسالة والدعوة الخالصة إلىٰ الله العلي العظيم».

أجل، الناس فُتِنوا بدين العظمة وعبادة العظماء، ولولا ذلك لما ساغ إذا ذكرتَ رسل الله ومحمدًا ﷺ خاصَّة أن يبحث باحثٌ في أنهم من العظماء، إذًا فالرجل الذي تحكم عليه بأنه عظيمٌ وأن له عظمةً ليست له هي تلك القوة الكامنة، وإنما العظمة شيءٌ يلقيه عليه الناس، ثم يُفتَنون به ويعبدونه بعد ذلك.

يقول الناس جميعًا مسلمهم وكافرهم، يهوديُّهم ومسيحيُّهم: إن محمدًا ﷺ عظيم، ويتحدَّثون عن عظمة محمد ﷺ، والناسُ كما يقول الرجل قد فُتِنوا بدين العظمة وعبادة العظماء، ولا يسوغ في مذهب علي بن عبد الرازق أن نبحث عنه في

العظماء أو مع العظماء، إذًا فمحمد ﷺ في الحقيقة ليس بعظيم، والناس يقولون: إنه عظيم؛ لأنهم قد فُتِنوا بدين العظمة وعبادة العظماء!

إذًا فالعظمة في عُرف الأستاذ شيءٌ يُلْبَس، وليس هو قوة كامنة إذا ما أضاءت رآها الأعمىٰ والبصير، والقويُّ والضعيف، والعالم والجاهل، والعاقل والغبي، والمؤمن بها والكافر، العظمة عنده شيءٌ تمنحه الناس لأيِّ رجل، حتىٰ الرجل الغبي الأحمق الجاهل الذي لا يملك مؤهلًا واحدًا من مؤهلات العظمة، فسبحان الله! له في خلقه شؤون!

ويؤيد ما نذهب إليه من أن الرجل يعتقد أن العظمة هذه شيءٌ يُلْبَس أو يُمْنَح قوله: «وما أبعد رسل الله والداعين إليه، وما أبعد محمدًا خاصَّة من أن يبالوا أكانوا عند الناس في مقام العظماء أم دون ذلك»، ثم قال: إن رسول الله ﷺ «أبىٰ أن يكون في الناس عظماء وغير عظماء»، إذًا فالعظمة شيءٌ مجسَّمٌ مخيفٌ شبحُه، تبعد عنه الأنبياء، ويأبىٰ رسول الله ﷺ أن يكون في الناس عظماء وغير عظماء.

من ذلك ترىٰ أنه يريد أن يقول: إن العظمة مادة تقسَّم بين الرجال.

أراد الرجل في هذا كلِّه أن يعبِّر عن الكبرياء والجبروت بلفظ «العظمة»، فأخطأ وخلط وجاء بما لم تتمخَّض عنه الحبالىٰ من سخافات الزمن.

قد أطلنا الآن ولم نتجاوز ربع المقال، فميعادنا الأسبوع المقبل إن شاء الله تعالىٰ وجلَّ، غير أني أريد أن أختم هذه الكلمة بمثلٍ نضربه لما يكتب علي عبد الرازق.

كان في زمن الأمين أديبٌ ظريفٌ هو أبو العباس محمد بن أحمد المعروف بحمدونَا الحامض، حتىٰ إذا ما كان زمن المتوكل ترك الجدَّ وعدَل إلىٰ الحمق والشهرة وقد نيَّف علىٰ الخمسين، فكنِّي بدل أبي العباس أبا العِبَر، وأخذ يزيد في كنيته كلَّ عام حرفًا حتىٰ صارت: أبو العِبَر طر طيل طليري بك بك!

سأل رجلٌ أبا العِبَر عن هذه المُحَالات التي يتكلَّم بها: أي شيء أصلها؟ فقال: أبكِّر فأجلس على الجسر ومعي دواةٌ ودُرج، فأكتب كلَّ شيء أسمعه من كلام الذاهب والجائي والملَّاحين والمُكَارِين حتى أملأ الدُّرج من الوجهين، ثم أقطعه عرضًا وألصِقه مخالفًا، فيجيء منه كلامٌ ليس في الدنيا أحمق منه[1]!

ذلك مثَل كلام المحقِّق المدقِّق!

وغاية ما نعمل الآن أن نسأل الله أن يعجِّل له بالشفاء؛ فإن أشدَّ الأمراض وقعًا بالإنسان على أنه لا يحسُّ به هو ذهابُ العقل عن صاحبه.

---

(١) أخبار الشعراء المحدثين من «الأوراق» للصولي (٣/ ٣٢٨).

محمد ﷺ(1)

-٢-

كنت غداة ظهرت كلمتي السابقة مع بعض الأصدقاء، فقُرِئت المقالة، ثم دارت بيننا مناقشة أدَّتني إلىٰ أن أكتب هذه الكلمة تتميمًا لتلك؛ لما وجدتُ من أنهم لم تستقرَّ بلابل صدورهم لمعنىٰ العظمة الذي نريده حين نقول: «عظمة محمد ﷺ».

العظمة من صفات الله عز وجل، ومنه: «سبحان ربي العظيم»، وعظمتُه سبحانه وتعالىٰ لا تُكَيَّف ولا تُحَدُّ ولا تُمَثَّل بشيء، وإذا وُصِف العبدُ بالعظمة فهو ذمٌّ؛ لأنه هو كِبْره وتجبُّره، وأعظمَ الأمر صار عظيمًا، ورجلٌ عظيمٌ في المجد والرأي علىٰ المثل، ولفلانٍ عظمةٌ عند الناس أي: حرمةٌ يعظَّم لها (باختصار عن «اللسان»).

فللعظمة معانٍ أربعة:

١. عظمة الله جلَّ وعلا، وهي لا تُحَدُّ ولا تُكَيَّف.

٢. وعظمة العبد، وهي التي يأتيها اختيارًا أو بشبه اختيار، وهي كِبْره وعلوُّه وتجبُّره.

٣. وعظمة الرجل العظيم، وهي في المجد والرأي، وهي غير مكتسبة، ليست كمثل عظمة الكِبْر المكتسبة بمالٍ أو غيره.

٤. وعظمة الرجل التي يلقاها، وهي الحُرمة، وهي تقرب من المعنىٰ الثالث وتدخل تحته.

---

(١) صحيفة الفتح، السنة الثانية، العدد ٦٤، ٤ ربيع الثاني ١٣٤٦ - ٢٩ سبتمبر ١٩٢٧.

ولعل الأستاذ علي عبد الرازق الذي درس في بلاد الإنجليز يعلم أن ما يوافق كلمة «عظيم» في الإنجليزية هي Great، وأن لها معاني تكاد توافق ما في العربية من كل وجه، ولْيرجع إلىٰ معاني هذه الكلمة من أراد، ولكن علىٰ كل حال نريد الآن أن نضع معنًىٰ عامًّا لمعنىٰ العظمة الذي نريده حين نقول: إن هذا الرجل عظيم، وما نكتبه الآن نكتبه علىٰ وجه الإجمال لا علىٰ وجه التفصيل، فلا نردُّ كلَّ معنًىٰ أخذناه إلىٰ ما أُخِذ عنه، فليس هذا وقته، وسننشره بعد.

العظمة جلالٌ وهيبةٌ يلقاهما الرجل في الرجل من غير معرفةٍ سابقةٍ بينهما أو اتصالٍ قديم، يجد هذه العظمة في هيئته ومشيته وقامته وابتسامه وبكائه وكلامه، جدًّا كان أو هزلًا، وفي أفعاله وخصاله وإشارته، إلىٰ غير هذا. وهذه لا تكون اكتسابًا محضًا، بل لا بدَّ إلىٰ جِبلَّة مركَّبة من عنصر الرجل قويةً كانت أو ضعيفة، فإن كانت قويةً زادها الاكتساب قوَّة، وإن كانت ضعيفة زادها الاكتساب علوًّا حتىٰ تصل إلىٰ أن تكون قوية، وإلا بقيت علىٰ ضعفها، ويكون صاحبها مميَّزًا في كل وسطٍ ينزل فيه تتَّجه إليه أنظار القوم إن مشىٰ وإن وقف، وتميل إليه قلوبهم بكلِّ إجلال ووقار واحترام؛ لما رُكِّب فيه من جلال العظمة التي هي هبةٌ من خالق الخلق جلَّت قدرته.

هذا هو ما أراده علي عبد الرازق من قوله: «العظمة» و«العظيم» و«العظماء» في مقاله السابق.

ولنثبت من كلامه أنه لم يرد غير هذا نقول: إنه قال في مكانٍ لم نكن ذكرناه في المقالة السابقة: «ما قيمة المال؟ ما قيمة الجاه؟ ما قيمة الملك؟ ما قيمة الألقاب العلمِية؟ إذا وازنتها في مجال العظمة لا إله إلا الله»، فبإضافة هذا إلىٰ ما ذكر في المقالة السابقة من عظمة الحكَّام والغنىٰ والجمال والعلم والتلصُّص والفَتْك (عظمة الخوف) والفنِّ والصَّنعة تجد أن لا مناص من أنه أراد من العظمة المعنىٰ الذي شرحناه.

والآن أجدني وأنا أكتب هذه الكلمة الثانية يملكني خجلٌ شديدٌ يكاد يدعوني لإلقاء القلم وترك الكتابة بتاتًا حول مقالة علي عبد الرازق، غير أني أحسُّ بما أُلقِي علىٰ كتفي وعلىٰ كتف كلِّ من يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا بن عبد الله عبده ورسوله، وأن القرآن كلام الله قديمٌ حقٌّ، وأن الجنَّة حقٌّ، والنار حقٌّ.

نعم، إن المسلم اليوم ليحمل من أعباء ملقاةٍ علىٰ كاهله شيئًا كثيرًا، وكلُّ مسلم صادق يخلص وجهه لله يجد أن لا مناص ولا مفرَّ من القيام علىٰ ما ألقي إليه قيامًا صادقًا خالصًا حكيمًا لا تشوبه شائبة الجبن أو الرياء أو أي عامل من العوامل التي تعوقه عن أن يؤدِّي ما كلِّف علىٰ وجهه المطلوب، فدفعني ذلك الشعور إلىٰ كتابة الكلمة الأولىٰ، ثم ها أنذا أكتب الكلمة الثانية، يملكني خجلٌ شديدٌ لرجل عظَّموه ورفعوه، ثم هو لا يزال جاهلًا لا يعرف فرق ما بين الألِف والمئذنة!

يستدلُّ الأستاذ المحقِّق علىٰ أن النبي ﷺ حقَر العظمة، ولم يبالِ أكان عند الناس في مقام العظماء أم دون ذلك، بأن محمدًا ﷺ «هو الذي أبىٰ للناس إلا أن يكونوا سواسيةً كأسنان المُشط، لا فضل لعربيٍّ علي عجميٍّ إلا بالتقوىٰ، وإلا أن يكونوا علىٰ قدم المساواة، فكلُّهم لآدم وآدم من التراب، وأبىٰ أن يكون في الناس عظماء وغير عظماء، وسواءٌ فيهم من تزدريه الأعين ومن يَرُوق منظرُه، وسواءٌ فيهم السُّوقة والملوك».

بينَّا في هذا المقال وفي المقال السابق أن العظمة غير الكِبْر أو التعظيم، وأن الأستاذ يخلط بين المعنيين، وأن العظمة قوةٌ كامنة في النفس العظيمة لها أسبابها ومؤهلاتها وظواهرها وعوارضها وظروفها، وكلُّها مؤقَّتة بأوقاتها، وكلُّها تظهر في الغنىٰ كما تظهر في الفقر، وهي متعلِّقة بالشخص نفسه لا تنفصل عنه ولا ينفصل عنها إن ابتغىٰ إلىٰ ذلك سبيلًا، وهي قوةٌ ثابتة باقية لا تفنىٰ ولا تخمد نارها إذا ما تأجَّجت في وقتها المكتوب لها.

العظمة -إن أردنا تقريبها إلىٰ فهم الأستاذ المحقِّق- كالعقلِ موهبةٌ، فما كلُّ رجل يستطيع أن يكون عالمًا ولا مخترعًا ولا شاعرًا ولا مفكِّرًا بإرادته، والعقلاء منهم الألمعيُّ واللبيب والذكيُّ والمتوسط الذكاء والعاقل علىٰ وجه الإطلاق، هذا في العقلاء. وهناك من أصحاب العقول الأحمق والجاهل والغبيُّ والأفِين[1] والسَّخيف، إلىٰ غير ذلك يا فضيلة المحقِّق.

أتريد أن تقول: إن رسول الله ﷺ يريد أن يكون الناس كلهم عظماء بعد أن بينَّا لك أن العظمة هذه شيءٌ لا يملكه الشخص بالشراء أو الجدِّ والاجتهاد إذا كانت جِبلَّته منها خَلاء؟!

أنت يا فضيلة المحقِّق لا تفهم كتاب الله ولا سنة رسوله بعد ما أُشْرِب قلبك ما أُشْرِب، معنىٰ أن يكون الناس سواسيةً كأسنان المُشط، وأن يكونوا علىٰ قدم المساواة، فكلُّهم لآدم وآدم من التراب، معنىٰ هذا يا فضيلة المحقِّق أن الغنيَّ والفقير والقويَّ والضعيف والرفيع الدرجة والوضيع والحاكم والمحكوم سواءٌ أمام أحكام كتاب الله وتشريعه وعقوبته وثوابه، وسواءٌ أمام القضاء فلا يسامَح ظالمٌ غنيٌّ عند ظلمه المظلومَ الفقيرَ لأن هذا غنيٌّ وهذا فقير، ولا يكون هذا شاهدَ عدلٍ لأنه غنيٌّ وهذا ليس بعدلٍ لأنه فقير، إلىٰ آخر هذا كلِّه علىٰ أتمِّ وجهٍ يسعىٰ إليه البشر، وفي هذا أيضًا نهيٌ عن الكِبْر والتعاظم.

بقي أمرٌ ثالث هو أنه «لا فضل لعربيٍّ علىٰ عجميٍّ إلا بالتقوىٰ»، يريد الأستاذ أن يقول -حسبما قدَّم وحسبما قدَّمنا- أنه لا عظمة لعجميٍّ أو عربيٍّ، وإنما يفضُل بعضُهم بعضًا بالتقوىٰ، وهذا من مُحَالات أبي العِبَر التي قدَّمناها في المقالة السابقة!

التخليط بيِّنٌ يا فضيلة المحقِّق، والجهلُ أبينُ منه وأوضح، لقد يَبِين للذي يقرأ قولك: «فللحكم ونفاذ الكلمة عظمة، وللغنىٰ عظمة، وللعلماء عظمة» إلىٰ آخر

---

(١) الأحمق.

ما قلت، وقولك: «فذلك بحثٌ ليس له موضعٌ في مقام التحدُّث عن رجال النبوة والرسالة والدعوة الخالصة إلىٰ الله العلي العظيم»، وقولك: «لم يكن محمد بن عبد الله يؤمن بتلك العظمة الأرضية التي يؤمن بها الناس»، وقولك: إن محمدًا «هو الذي أبىٰ للناس إلا أن يكونوا سواسيةً كأسنان المُشط لا فضل لعربيٍّ علي عجميٍّ إلا بالتقوىٰ، وإلا أن يكونوا علىٰ قدم المساواة، فكلهم لآدم وآدم من التراب، وأبىٰ أن يكون في الناس عظماء وغير عظماء، وسواءٌ فيهم من تزدريه الأعين ومن يَرُوق منظرُه، وسواءٌ فيهم السُّوقة والملوك»، يَبِين حقيقة للذي يقرأ هذا أنك تريد بالعظمة الكِبْر والتجبُّر، ولقد أثبتنا فيما سبق أنك لم ترد هذا بنصِّ أقوالك السابقة، وأنك أردتَ العظمة التي هي الجلال والرَّهبة والإكبار، كما قدَّمنا من الشرح.

تقول: إن محمدًا أبىٰ أن يكون في الناس عظماء وغير عظماء، ثم بعد ذلك تقول: لم يكن محمد بن عبد الله يؤمن بتلك العظمة الأرضية التي هي ذلٌّ للنفوس العالية.

فبمقتضىٰ قولك هذا ترىٰ أن في الناس نفوسًا عاليةً ونفوسًا غير عالية، وأن نفس رسول الله ﷺ من النفوس العالية، وأنه ﷺ أبىٰ أن يكون في الناس عظماء وغير عظماء، وهل النفسُ العالية إلا النفس العظيمة فيما يُراد بهذا التعبير؟ وهل الرجل ذو النفس العالية إلا الرجل العظيم؟ وهل علوُّ النفس إلا العظمة، كما قدَّمنا لك شرحه من قبل؟ فما هذا يا فضيلة المحقِّق؟!

قال سيِّدٌ فاضلٌ وعالمٌ جليل: إن علي بن عبد الرازق أظهر من القِحَة والسَّفه أكثر ممَّا أظهر من الخبَل والجهل!

صريعُ تحت لواء الجهاد[1]

كم من شــريعةِ حقٍّ قد أقمتَ لهم   كانت أُمِيتــت وأخرىٰ منكَ تنتظرُ
يا لهفَ نفســي ولهفَ الواجدين معي   علــىٰ النُّجومِ التــي تغتالها الحُفَرُ

ولهفَ قلوبٍ تصبُّها العيون دماءً تجري علىٰ الخدَّين، لتشهد صريعَ الحقِّ يُسَنُّ عليه التراب، بعد أن كانت محجوبة في حنيَّات الصدور، ولتقرأ كتابًا آن أوان طيِّه، بياضٌ قد خُطَّ فيه سوادٌ كسواد العين كلُّه نور، ولكن أيتها القلوب: هل تدرين أيَّ صريعٍ تشهدين؟ وأيَّ كتابٍ تقرئين؟ وأي نورٍ تبصرين؟

أشهَدُ صريعَ الحقِّ.. رجلٌ كأنما هو أديمٌ قَدَّه الحقُّ ليكون مستقرَّه ومثواه، وأقرأ كتابَ الحقِّ.. كلُّه كلماتٌ هي خير ما تنطق به الأفواه، وأُبصِرُ نورَ الحقِّ.. فتراني له خاشعًا وتكاد تهوي له الجباه، ذلك لأن نوره مقبوسٌ من نور الله.

كان يديم تلاوة كتاب الله، وبحسبِكَ رجلٌ دمُه تتمشَّىٰ فيه كلمات الله كتمشِّي البُرء في السَّقم، والنار في الأجَم، فكان كتاب الله نبراس هداه، وضوء نهاره ودُجاه، فجنىٰ خير ثمر، وشرب من خير نهر، فصار رجلًا وكلُّه حياة، أو صار هو أكبر جزء من كتاب الحياة.

---

(١) صحيفة الفتح، السنة الثانية، العدد ٧٨، ١٢ رجب ١٣٤٦ – ٥ يناير ١٩٢٨. والمقال في رثاء أمين الرافعي، وهو كما يقول الزركلي في «الأعلام» (٢/ ١٧) كاتبٌ سياسي، قويُّ الحجة، مستقلُّ الفكر، انضمَّ إلى الحزب الوطني في عهد مؤسسه مصطفى كامل، فكتب بواكير مقالاته في جرائد «اللواء» و«العلم» و«الشعب»، وسُجِن في الحرب العامة الأولى، وبعد الحرب ابتاع جريدة «الأخبار» فكانت منبره اليومي، وظهرت حركة الوفد المصري فكان من أقوى أنصارها إلى أن اختلف مع سعد زغلول على رأي في جوهر القضية، فانحاز عن الوفد، وغاضب رجاله، واستمر يجاهد بقلمه مستقلًّا إلى أن توفي بالقاهرة سنة ١٩٢٧.

أوَما لنا أن نعرف ما الذي جعل (أمينًا) في الذُّروة العليا والسَّنام الأرفع من قوم أُولي قوَّة وأُولي بأس شديد؟ جعله الذي جعل المؤمنين الأولين سيلًا دفَّاقًا لا يذرُ من باطلٍ أتىٰ عليه إلا جعله كالرَّميم، شدَّةٌ في غير عنف، ولينٌ في غير ضعف، وبطشٌ في غير ظلم، وقلبٌ كقلوب إخوانه المؤمنين لا يبالي أوقع علىٰ الموت أم وقع الموتُ عليه.

فكان جبَّارًا علىٰ الباطل، جبَّارًا علىٰ الكفر، جبَّارًا علىٰ العقل الزائغ، جبَّارًا علىٰ الظلم، جبَّارًا علىٰ القويِّ حتىٰ ينصِف الضعيف، وكذلك كان جبَّارًا تجاه كل شيء إلا الواحد القهَّار، وإلا أمر دينه القويم، وإلا الحقِّ الصَّريح، وإلا العدل المرضيِّ، وكذلك يكون المؤمنون أذلَّةً علىٰ المؤمنين أعزَّةً علىٰ الكافرين.

وكان من قوم تحسبهم أغنياء من التعفُّف، لا يسألون الناس إلا أن يطلبوا الحقَّ المبين، ويتبعوا سبيل الرشاد، دينُهم عدَّتهم وعتادهم، طارفهم وتِلادهم، يذودون عنه كما يذود الليث عن أجمِه، ولو كانت أمامهم كتائب الموت والفقر شاكيةً مستلئمةً بالعدَّة والسِّلاح، تحسب أن ستأتي علىٰ كل شيء حتىٰ علىٰ الراسيات، كان يطالب الناس بأن يكونوا كذلك وكان هو ساعتئذٍ الرجل الذي وقف أمامها، وصمَد لها والناس ينكصون علىٰ أعقابهم يتلفَّتون تلفُّت الخائف المطرود.

وكان كلما أجلبت عليه بخيلٍ ورَجِلٍ لم تزده إلا إيمانًا بالله، واستهانةً بالقوَّة الغاشمة، واحتقارًا للظلم والتجبُّر في الأرض بغير الحق، واستهزاءً بالفقر الذي يريد أن يحيله عمَّا يرىٰ من رأي وما يعتقد من عقيدة.

وكان صخرة الرأي تلينُ عليها أهواء المبطلين، وتعتصم بها الآراء الرزينة، وتأوي إليها أفكار الكاتبين وكان كالشَّراب المصفَّق[1] يروي غلَّة الشاربين، ويغصُّ به ذو الغصَّة المفتون، وكان كالزَّهر ريحانُه في كل أنف، وحسنُه في كل عين، رغم الأنوف ورغم العيون.

---

(١) الممزوج. وصفَّق الشراب: حوَّله من إناء إلى إناء ليصفو.

وكان (أمين) متين الدين، جزل العقيدة، يراقب الله في كل ما يأتي وما يذر، وكان يرىٰ الإسلام خير نظام لحياة الفرد منفردًا والجماعة مجتمعة، وكان يستمدُّ منه القوَّة التي صار بها رجل الحياة والإخلاص والجهاد، فأصبح كلُّ عضوٍ منه -في سبيل الله، وفي سبيل الحق، وفي سبيل العدل، وفي سبيل الحرية- أمضىٰ من شَبَاة سِنَان.

اقترف (أمين) من كتاب الله قوَّةً خارقة، فكان جَلِيدًا، وكان صبورًا، وكان خشوعًا، وكان وقورًا، وكان حليمًا، وكان صائب الرأي، مُبين الحجَّة، شديد الوطأة علىٰ الذين اتخذوا دينهم هزوًا ولعبًا، والذين اتخذوا الحياة متجرًا وسوامًا.

كان ترجمان آلام الشعب المنهوك، ولسانًا قد خُلِق من الدم المسفوك، وبناءً طينتُه طينةُ ذلك البناء المدكوك، وجسمًا قد جُمِعت فيه مصائب الأجيال فصار النَّسجَ المُفَوَّف المحبوك، وصُفِّق إلا من صالح الأعمال، فصار تاج المطالبين بالاستقلال، وكان من العزَّة تِبْرُه المسبوك.

كان يعدُّ من صلاته للقاء ربه، ومن تقواه لاتقاء ناره، ومن الاهتداء بهدي محمد ﷺ زلفىٰ إلىٰ جناته، وكان وهو يتجرَّع غصصَ الموت، ويلاقي منذرات المَنون، يجاهد المرض الفاتك حتىٰ يؤدِّي ما عليه من فرضٍ، ولا يلقىٰ ربَّه مجذوم الصَّلاح مبتور التُّقىٰ.

﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ [محمد: ٤- ٦].

تحت راية الشُّبَّان المسلمين

بين رجل وامرأة[1]

عزمتُ يوم الخميس ٢٤ شعبان سنة ١٣٤٦ علىٰ أن أزور أحد أصدقائي الإنجليز في منزل عائلةٍ نزل به، وكان ذهابي هذا علىٰ غير ميعاد، فوجدته قد خرج مبكرًا إلىٰ عملٍ عرَض له، ولأول مرَّة أجد امرأة أوروبيَّة تدعوني للحديث معها، وأنا لست لها زائرًا، وتلك ليست من عاداتهم، ولم أدر لم دعتني للمُكث قليلًا حتىٰ تتكلَّم معي وتجاذبني أطراف الأحاديث؟! ولم تسبق لي بها معرفةٌ متينة، ولم يكن بيني وبينها اللهمَّ إلا التحية.

امرأةٌ قد اشتعل في رأسها الشَّيب، وبدت عليها عوارض الكِبَر، وأول ما رأيتها حتىٰ اليوم ما كنت أحسبها تجمعُ بين كلمتين، وما كنت أظنُّ ذلك الوجه المتخدِّد يطوي تحته بحارًا من الحكمة لا تفيض.

قالت: عفوًا يا بنيّ، تعلمُ أن هذا الفعل الذي فعلتُه ليس من عاداتنا، ولولا أني أعلم ممَّا يدور بينك وبين صديقك الذي جئتَ ترجو زيارته أنك «عربيٌّ» تستمسك بعاداتك الطيبة، وآدابك الجميلة، لما دعوتك لهذا الحديث.

بنيّ، دعوتك لهذا الحديث وأنا توَّاقةٌ إليه منذ عامين، يوم رأيتك وقد اشتدَّ الجدل بينك وبين صديقك، وقد علا صوتُه صوتَك وأنت أعلىٰ منه صوتًا، فجئتُ أنظر فوجدتك وعلىٰ فمك ابتسامةٌ مطمئنَّة تُدْلِي إلىٰ الاستهزاء بحَبل، وتُدْلِي بحبل إلىٰ الإيمان بما تقول، أتدري حول أيِّ شيء كان يدور حديثكما؟

(١) صحيفة الفتح، السنة الثانية، العدد ٨٥، ٢ رمضان ١٣٤٦ - ٢٣ فبراير ١٩٢٨.

قلت: عفوًا لقد نسيت.

قالت: حول المرأة يا بنيّ، وأظنُّك صاحب الرأي الصائب في ذلك.

قلت في نفسي: أستغفر الله، وما أنا؟

قالت: سيكون حديثي عن المرأة أيضًا، فهل تسمح لي بذلك؟ علىٰ أني أعاهدك بأن لا أطيل معك، وأظنك مشغول البال كما أقرأ في صفحة جبينك.

قلت: إن كنتِ تريدين ذلك سيدتي فأول ما أبدؤك به مع العفو أني عربيٌّ أحبُّ العرب كما قلت، ولا تزالين ترين في ولدك طريقة العرب في أحاديثهم حين يكلمك باللغة الإنكليزية.

قالت: أعرف العربية، فتكلَّم بها ولا ضير.

قلت: ذلك خير.

سيدتي، أقول لك: لا تزالين ترين فيَّ الطريقة العربية، أحدِّثك عن المرأة وأنا لم أدرس علم الاجتماع ولا علم النفس ولا غيرهما ممَّا ترون أنتم أنه لا يمكن لمتكلِّم أن يتكلَّم في مثل هذا الموضوع قبل أن يجيد درسَه، فعفوًا يا سيدتي إذا قلت لك أني أهتدي بهدي القرآن، وبسنة محمد بن عبد الله رسولنا ﷺ، ولا أجد عن اتباع هديه محيصًا مهما قامت في وجهي عواصف علم الاجتماع والنفس وغيرهما من العلوم التي لم تزل بعدُ وليدة الفكر البشريِّ المحتمل فيه الإصابة والتخليط؛ علوم (التي أحدِّثك عنها) لا تزال وليدة الظنون المُرَجَّمة، وليست مبنيَّة علىٰ الحقائق الثابتة التي لا يعتورها شكٌّ ولا يدسُّ عليها الوهن، فأكلِّمك حسبما يدلُّني عقلي ويسلك بي فكري، أحدِّثك في بساطة البداوة وصفاء الفطرة بعيدًا عن مزالق الحضارة وفساد الفطرة الأولىٰ، فأيَّ شيء في المرأة تبغي سيدتي المحترمة أن تحادثيني عنه؟

قالت: تعلَم يا بنيَّ أننا قومٌ أوروبيون، عاداتنا تقضي علينا بظهور المرأة أمام

الرجل في كل منتدىٰ وفي كل مجلس، وتعاوِن الرجل (كما يقولون) في الأعمال الخارجة عن دائرة تربية أولادها ومراقبة بيتها والعمل فيه، وأنتم قومٌ (مسلمون) يقضي (دينكم) بأن تحجبوا المرأة وتحبسوها في بيتها تعيش تربِّي أولادها حتىٰ يأتي يوم تُدْعىٰ فتجيب، وأرىٰ في كتب الأوروبيين حملاتٍ شديدة علىٰ هذه الطريقة، وفي جرائدكم العربية أيضًا، وأراكم بدأتم تسيرون في طريق الأوروبيين في طريق (المساواة) بين الرجل والمرأة، فهل لك أن تحدِّثني بما يشفي الغلَّة في هذا الشأن، وتلاحظ أولًا -كما يقولون- أن طريقتكم رمت بالمرأة في حمأة الجهل وفساد تربية أولادها؟

قلت: أحدِّثك سيدتي علىٰ القاعدة التي وضعتُها لك في أول حديثي، سيدتي مسلمٌ يحدِّثك عن دينه وما يعبد الله عليه، وينظر في الأمور نظرة الرويَّة، وكما قلتُ في بساطة البداوة وصفاء الفطرة بعيدًا عن مزالق الحضارة وفساد الفطرة الأولىٰ، تريدين مني أن أبيِّن لك أيَّ السبيلين أقوم.

فأقول: إن الذي يقولونه عن المرأة المسلمة وأنها بهذا العمل قد رُمِيت في حمأة الجهل وفساد تربية أولادها، لم يأتنا إلا من يوم أن هجرنا ديننا، واتبعنا بدعًا قام بها دعاة الهلاك وأئمة الضلال، واتخذنا غير سبيل المؤمنين سبيلًا.

واجبٌ علىٰ الرجل أن يعلِّم المرأة، ويغذِّي ذهنها بالعلم النافع، ولو تعلمين كم في الإسلام من نساءٍ كنَّ خيرًا من رجال، وكنَّ عالماتٍ قد استمسكن بسببٍ متينٍ من العلم، لعلمتِ فرق ما بين المرأة المسلمة اليوم وما كانت عليه بالأمس.

هذا رسول الله ﷺ يعلِّم نساءه ويقول: «خذوا نصف دينكم عن هذه الحُمَيراء»[1] يعني زوجه عائشة رضي الله عنها.

---

(١) لا أصل لهذا الحديث ولا يعرف له إسناد، كما ذكر الحفاظ. انظر: «البداية والنهاية» (١١/ ٣٣٩)، و«تحفة الطالب» (١٤١)، و«موافقة الخُبر الخَبر» (١/ ١٤٩).

وكيف ترينَ نساء الإسلام، كنَّ قانتاتٍ لله، حافظاتٍ لدينه، يربِّين أولادهنَّ تربيةً تدهش الناظرين، فكان من أولادهنَّ (وذلك بفضلهنَّ) من دكَّ العروش، وساسَ الأمم، وكان منبعًا للفضائل؛ للخير الذي أنشئ عليه بفضل أمِّه المسلمة المتعلِّمة العارفة بما أنزل الله، التي تفقَه ما يتلىٰ في بيتها من آيات الله والحكمة.

يدَّعي أعداء الهدىٰ الذي نهتدي به أن المرأة في بيتها لا تعينُ الرجل، بل تكون عالةً عليه، وما ظنُّك بامرأة وأولادها يعولهم رجلٌ واحد، إن ذا لكثير، فوجب لذلك أن تخرج المرأة للعمل جنبًا لجنب مع الرجل الذي يعولها حتىٰ تعينه علىٰ كسب ما يعولها به هي وأولادها.

فأقول -متبعًا القاعدة التي بيَّنتها لك-: إنك إذا نظرتِ إلىٰ بيت المرأة فأنا ضمينٌ لك بأن تضلِّي فيما يمكنها أن تفعله وكثرة ما يمكن أن تأتيه من عمل.

أول عمل تقوم به المرأة لرجلها أن تهيِّئ له أسباب الراحة حتىٰ إذا ما فرغ من عمله جاء ليستجمَّ ما بذل من جهد وما أفنىٰ من طاقة، فهي تهيِّئ له البيت علىٰ ما يحبُّ ويرضىٰ، وبذلك تقتصد من مال زوجها مقدارًا عظيمًا، فبدل أن يأتي بخادمتين يأتي بواحدة، وبدل أن يأتي بواحدة لا يأتي بأحد، كلٌّ بحسب اتساع منزله وكثرة ما يحتاج إليه من عمل، والطبخ تتعاون هي وبناتها وصغار أولادها عليه، فلا يحتاج إلىٰ أن يأتي بطاهية طعام أو طاهٍ يستهلك مقدارًا وافرًا من ماله أجرًا ومقدارًا سرقةً وإسرافًا، وملابسه تُكوىٰ في بيته، فلا يحتاج إلىٰ أن يرسلها إلىٰ الخارج، وفي الجملة يا سيدتي تأتي شيئًا كثيرًا. إنا لا نريد أن نكلِّفها أكثر ممَّا تطيق، تفعلُ ما تقدر عليه وتدع البَاقي، فتوفِّر علىٰ زوجها مالًا كثيرًا.

ثم لتلاحظي يا سيدتي أنها بذلك وباهتمامها بأمر بيتها تبقي من مال زوجها مقدارًا وافرًا لا تضيعه كما يضيعه الأوروبيون في الزينة والتجمُّل يومًا بعد يوم ممَّا تضيق به صدور الرجال في كل بقعة من بقاع الأرض.

ثم بقي عملٌ هو أشقُّ الأعمال وأعناها وأصعبها مراسًا، ذلك العمل هو تربية الأطفال وتهذيبهم، والمرأة التي لا ترىٰ أولادها إلا مرَّة أو مرَّتين لا تدري كيف تربِّي أولادها وإن هي تركتهم لامرأةٍ تستأجرها، أفترينَ هذه المستأجَرة لها في كتاب الإنسانية حقٌّ أقلَّ ممَّا لسيدتها؟! أليست هي الأخرىٰ تريد أن تخرج وتدع الأطفال وتعمل مع الرجل جنبًا لجنب؟! ولِمَ تخرج سيدتها للعمل وهي رهينة الحبس؟! أليس لها أن تفعل ما تفعل سيدتها وتتساوىٰ بالرجل؟! ثم يا سيدتي هذه المستأجَرة امرأةٌ غريبةٌ عن الأولاد، ليس لها حنان الأمِّ علىٰ ابنها الذي هو قطعةٌ من لحمها وعصارة دمها ونور عينيها وعيني زوجها.

الأم يا سيدتي هي المسؤولة عن أولادها، وهي التي يجب عليها أن تعاني تربيتهم وتهذيبهم وفهم نفوسهم، وتقدير قوىٰ الطفل في الأعمال التي يتهيأ لها حتىٰ يخرج إمَّا رجلًا قويًّا سليم العقل سليم الجسم أديبًا مهذَّبًا جريئًا صادقًا مؤمنًا، يحبُّ الخير ويحبُّ الفضيلة، وينشأ لا يبالي أن يكون فريسة الموت ما دام يقصد نور الحقِّ ويتَّبع ما يرضي الله وما تقرُّ به عين الإنسانية المهذبة، وإما امرأةً عاقلةً حكيمة تعرف ما لها وما عليها، وتحبُّ زوجها وتفديه بروحها كما يفديها ذلك الزوج الكريم بروحه، وتطيعه وتعنىٰ بما يرضيه، ولها عليه مثل ما له عليها.

وبمثل هذا العمل أيضًا نقول لأعداء الهدىٰ الذي نهتدي به تُبقِي المرأة علىٰ مالٍ كثير من مال الرجل، فهو ليس في حاجة إلىٰ أن يرسل أولادها إلىٰ مدارس (روضة الأطفال) التي لا يجني الطفل منها علمًا أبدًا بل خلقًا فيما يقولون، وما دامت الأم قد قامت بذلك العمل من قبل فلا حاجة إلىٰ هذه المدارس وإلىٰ ما يريق الزوجُ المسكين من دم قلبه ويذهبُ في أحيانٍ كثيرة هباءً منثورًا.

قد أطلتُ عليك فعفوًا يا سيدتي، وكمسلم أقول لك: إن هذا ديني، وأنا لا أبغي به بديلًا.

وودَّعت بعد أن كلَّمتني كثيرًا، وصرَّحت بأنه إن كان هذا دين الإسلام فهو دين البشرية الذي لا محيص لها عنه، وهي تقطعُ إليه طرقًا معوجَّة تضلُّ فيها وتقع صريعةً دون أن تصل إلىٰ ذلك الهدىٰ المبين.

وتحت راية الشبَّان المسلمين قد تكلَّمتُ بهذا الحديث، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وأن ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴾ [الأعراف:٨٩].

كلمةٌ في الجُود[1]

عن عبد الله بن عمر بن الخطاب ﷺ: أن رجلًا جاء إلىٰ رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أيُّ الناس أحبُّ إلىٰ الله؟ فقال: «أحبُّ الناس إلىٰ الله أنفعهم للناس، وأحبُّ الأعمال إلىٰ الله عز وجل سرورٌ تدخله علىٰ مسلم، تكشِف عنه كربة، أو تقضي عنه دينًا، أو تطرد عنه جوعًا. ولأن أمشي مع أخٍ في حاجة أحبُّ إليَّ من أن أعتكف في هذا المسجد -يعني مسجد المدينة- شهرًا. ومن كظم غيظَه ولو شاء أن يمضيه أمضاه ملأ الله قلبه يوم القيامة رضًا. ومن مشىٰ مع أخيه في حاجة حتىٰ يقضيها له ثبَّت الله قدميه يوم تزول الأقدام»[2].

ولم أر في الحياة أضلَّ من رجل يبسط له الله من نعمته وبركته، ويمدُّ له أسبابَ الغنىٰ، ولو شاء لمنعه، ثم لا يجد بيانًا يشكر به الله علىٰ ما أمدَّه من الرزق أبينَ من حرمان أخيه من الناس فضلَ ما أنعم الله به عليه.

ثم لا أدري كيف لا تنبسط نفسُ امرئ بالعطاء وهو يعقِل! ألم ينظر إلىٰ نشأته ونشأة أخيه، وكيف كان كلٌّ منهما طفلًا لا يملك من أمر نفسه شيئًا، حتىٰ إذا بلغ أشدَّه واستوىٰ آتاه الله ومنع أخاه، وكرَّمه بنعمته وحرَم أخاه، ورحمه الله وأحوج أخاه؟! أفلا يعلم أن لو يشاء الله لكان هو المحروم الممنوع الذي تصرِّفه الحاجة، وتَسُوقه الضرورة، وتضربه حوادث الأيام؟! أم اطلع علىٰ الغيب فرأىٰ ما آتاه الله

---

(١) كتب أبو فهر هذه الكلمة في صدر نشرته لكتاب «فضل العطاء على العسر» لأبي هلال العسكري سنة ١٣٥٣ - ١٩٣٥ بالمطبعة السلفية، وعنوانها في أولها «كلمة» بلا إضافة، وأثبتت في رأس الصفحات (الترويسة): «كلمة في الجود»، فاعتمدتها لوضوحها.

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٢/ ٤٥٣)، و«الأوسط» (٦٠٢٦) بإسناد ضعيف جدًّا. وروي بإسنادٍ خير منه عند ابن أبي الدنيا في «قضاء الحوائج» (٣٦)، وفيه لين.

باقيًا عليه، فما يخشىٰ تقلُّب الدهر به؟! ولو كان ذلك لكان أحرىٰ بالبذل، وأجدر بالجود، وأبعد عن الشُّحِّ.

ولكن... ولكن غيَّرت الأيامُ فطرة الله التي فطر الناسَ عليها، فزاغت طبائعُ قوم عن رشدها، وصرَفها الهوىٰ، وقادتها الشهوات، فزُيِّن لهم أمرُ الدنيا، فنسوا وغفلوا وضلُّوا وأضلُّوا وكان أمرهم فُرطًا.

والفطرة الأولىٰ في الإنسان فطرةٌ مستقيمةٌ لا زيغ فيها ولا عِوَج؛ لأنه كان لا يبالي بشيء من أمور الحياة إلا بما يقيمُ صلبَه ويردُّ شهوة الطعام، وما يقيه لذعةَ البرد، ويدفع عنه وَقدة الشمس، وما فضل عن ذلك من أمر الدنيا فسبيلُه سبيلُ كلِّ ما لا يعني ولا يفيد.

وكان الحرصُ، ولكنه كان حرصًا في حدودٍ من الإنسانية البريئة المصفَّاة، كان حرصًا علىٰ بعض أسباب الحياة ممَّا يقيم الأوَد ويسدُّ الخَلَّة ويقي مصارع الضُّرِّ، ثم امتدَّ مع الزمن والحضارة والعمران والشهوات حتىٰ أصبح حرصًا علىٰ كلِّ أسباب الحياة من مالٍ وبنينَ وزخرفٍ ومتاع.

ومن غريب حكمة الله في الانسان أنْ جمَع فيه الغرائز كلَّها خيرَها وشرَّها ممَّا تفرق في الحيوان كلِّه، ثم منحه العقل المدبِّر المفكِّر الذي نقصَ من الحيوان كلِّه؛ ليمهِّد بذلك للإنسان سبيل الرُّقيِّ والتدرُّج.

فلو استقامت غرائز الإنسان علىٰ طرازٍ واحدٍ لما كان هناك للعقل عملٌ ينفي به شيئًا ويمكِّن لشيء، ويزيِّف أمرًا ويثبت آخر؛ وذلك لأن عمل العقل إنما هو في تنازعَ الغرائز فيه، وهذا التنازع هو الذي يرهقه ويحدُّه ويسوِّغ له القدرة علىٰ الابتداع والاختراع واستنباط ما لم يكن بيِّنًا وتبيين ما كان خفيًّا.

علىٰ أن هذا العقل الذي أودعه الله تلك الفَخَّارة الصَّغيرة[1]، والذي هيِّئ ليقود الغرائز ويردَّ من جِمَاحها ويكسر من شِرَّتها، قد يذلُّ للغريزة الجامحة، فلا تزال تجري به وهو في غبارها كالمختَبَل لا يستبينُ قَبِيل أمره من دَبِيره، وفي هذا الذلّ المَحْقُ كلُّ المَحْق للإنسانية التي تميَّز بها الإنسانُ من سائر الحيوان.

ولا تتجلَّىٰ الإنسانية في رجل إلا أن يكون عقلُه هو مدبِّر غرائزه وقائدُها وهاديها، قائمًا عليها لا تدركه الغفلة، ولا يستبدُّ به الهوىٰ، ولا تطوِّحه النوازع.

وفي هذا التركيب الحكمةُ العظمىٰ في تدبير الخلق، وتسيير الحياة، وإيجاد التفاوت بين البشر، ولولا هذا التفاوت لانساقت الحياة في مجرّىٰ واحد لا يتغيَّر، ولانحسمت مادَّة الموج الذي يعلو بالأمم وينخفض، ولكان الإنسان حيوانًا يرعىٰ المرعىٰ، ويتتبَّع الكلأ، ويتطلَّب الصَّيد، ويأوي إلىٰ غارٍ أو غابٍ أو كِنَاس، ولا يمدُّ بصره إلىٰ ما وراء ذلك من أمر الدنيا والآخرة، ولبقي علىٰ حالة واحدة من العمران والحضارة لا تسمو ولا تتدلَّىٰ.

ومِن أظهر الغرائز في الإنسان غريزةُ المنفعة، فهو لا يفتأ يتطلَّب المنفعة لنفسه من كلِّ وجه وفي كلِّ سبيل، ثم هي أكثر غرائز الإنسان تصرُّفًا علىٰ حالين من المصلحة والضَّرر، ولا يصرِّفها في هذين الوجهين إلا العقلُ أو الهوىٰ. فإذا استحكم العقلُ وبَصُر قادها إلىٰ كلِّ ما فيه الخيرُ الإنساني المشرق، وإذا غلب الهوىٰ واستبدَّ ضرَب بها كلَّ وجه حتىٰ ترتطم في أنواع من الشرور وظلماتٍ من الضلال لا هادي فيها ولا دليل.

وعلىٰ ذلك فهو أسُّ الفضائل وعمادُها أو أمُّ الرذائل وغذاؤها، وعملُ العقل فيها إنما هو في نفي الأَثَرة عنها وتدريبها علىٰ السَّماحة والبذل والشُّعور بالشَّرِكة في نعم الله التي منحها وجعلنا عليها قُوَّامًا وسُوَّاسًا، وفي أخذها بالمذهب الصَّحيح

---

(١) الجمجمة فيها الدماغ.

في أن المنفعة التي تخصُّ ليست منفعةً بل ضررًا، وأن المنفعة التي تعمُّ هي السَّعادة والصلاح، وإن كان نصيبُ الفرد في الثانية أوكسَ منه في الأولىٰ.

وعمل الهوىٰ في هذه الغريزة إنما هو في تصريفها بالأثرة والتفرُّد والاختصاص والحرص والضَّنِّ والشُّحِّ وتفضيل ما فيه صلاحُ الفرد علىٰ ما فيه صلاحُ الجماعة.

ومن هذه الغريزة القوية يُستمَدُّ العسرُ واليسرُ، أو السَّماحة والشُّحُّ، اللذان أفرد لهما أبو هلال هذه الرِّسالة[1] في تقديم الأول علىٰ الآخر منهما.

وكان قصدُ السبيل في هذه الرسالة التي بين يديك أن نعرضها عليك دون أن نقدِّم لها أو نصدِّر، وما حملنا علىٰ كتابة هذه الكلمة إلا ما نجدُ في الناس من الغدر والخيانة والشُّحِّ في ساعة الجدِّ وأوان الخير، والإسراف والتبذير في كلِّ مهلكة مُبِيرة أو ملهاة مضيعة.

ولقد وجدنا أيضًا كثيرًا من أهلها لا يملُّون الإزراء علىٰ العرب وعاداتهم وأخلاقهم، ويعدُّون الكرم من نقائصهم، ويشكرون للأمم الأوربية صنيعَهم في الاقتصاد والتدقيق، ويقولون: إن الأوربيين ينصفون أنفسهم وأهليهم حين لا يدعون أحدًا إلىٰ طعامهم إلا أن يكونوا قد أعدُّوا له العدَّة، فإذا لقي الصَّديقُ منهم صديقَه علىٰ حين غفلةٍ لم يَدْعُه إلىٰ داره؛ لأن طعام داره إنما هو طعامُ أهلها لا طعامُ الناس من كلِّ غادٍ ورائح.

وهذه فتنةٌ من التدليس علىٰ العقل باستبداد هوىٰ الحرص والشُّحِّ علىٰ الغرائز الكريمة في الإنسان، وتسويلٌ من النفس الأمَّارة بالسُّوء، ومدٌّ من الطمع، وإغراءٌ من الظنِّ المريض في حيازة الدنيا، ولو قصد الرجلُ سواء السبيل لوجد أن أقلَّ الدنيا كأكثرها في مصارف الحياة، وما يفرِّق بين قليلها وكثيرها إلا سحرُ الحياة الدنيا وشهواتها وزينتها.

---

(١) «فضل العطاء على العسر».

ولقد دخل عمر بن سعد بن أبي وقاص[1] علىٰ عمر حين رجع إليه من عمل حمص، وكان قد جعله واليًا عليها، وليس معه إلا جرابٌ وإداوةٌ وقصعةٌ وعصا، فقال له عمر الخليفة الزاهد: ما الذي أرىٰ بك؟ من سوء الحال أم تصنُّع؟ قال: وما الذي ترىٰ بي؟ ألست تراني صحيحَ البدن معي الدنيا بحذافيرها؟ قال: وما معك من الدنيا؟ قال: معي جرابي أحملُ فيه زادي، ومعي قصعتي أغسل فيها ثوبي، ومعي إداوتي أحمل فيها مائي لشرابي، ومعي عصاي إن لقيتُ عدوًّا قاتلتُه وإن لقيتُ حيَّة قتلتُها، وما بقي من الدنيا تبعٌ لما معي[2].

فهذا هو النظر الصحيح إلىٰ أمور الدنيا عاليها وسافلها، قليلها وكثيرها، ولا جرَم أن يكون مثلُ هذا الرجل من سادة الدنيا؛ إذ لا يبالي «أوَقع علىٰ الموت أم وقع الموتُ عليه»[3]، ولا عجب أن تسعد أمةٌ يكون سادتها وأغنياؤها قد صحَّحوا مقاييس الغنىٰ والفقر علىٰ هذا المقياس الفطريِّ الجميل، حتىٰ يصير همُّ المال في بذله والسَّماحة به، لا في قبضه والحرص عليه، ويبطل هذا العملُ الفاسد الذي انتظم أكثر المدنيات، والذي استبدَّ بالمدنية الحديثة فمدَّت الفتنُ أعناقها في كلِّ مكان بوجهٍ من الاشتراكية والشيوعية ظالمٍ كمظلوم.

وليس الكرم والجود في بعثرة الأموال وإلقائها في الجَدب والخصب بغير حساب ولا ميزان، بل الكرم في بذر المال في الأرض الصَّالحة الطيبة التي تنبت نباتًا حسنًا يزكو فينفع الناسَ ويزيد في الخير، والجود إرسالُ المال علىٰ الأرض التي

---

(١) كذا في الأصل. وهو وهم. وكأن أبا فهر رأى الخبر في «البيان والتبين» (٣/ ٢٣- ط. السندوبي) وفيه «عمر بن سعد» محرفًا غير منسوب، فظنه عمر بن سعد بن أبي وقاص، وإنما هو عمير بن سعد بن شهيد الأنصاري أمير حمص على عهد عمر ﷺ.

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٧/ ٥١)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٤٧) مطولًا، والسياق هنا من كتاب الجاحظ.

(٣) يروى أن عليًّا قال لابنه الحسن ﷺ: «إن أباك والله ما يبالي أوقع على الموت أو وقع الموت عليه». أخرجه الطبري في تاريخه (٥/ ١٩).

تحيا به وتتحلَّىٰ، وما سوىٰ ذلك من إراقة المال في غير وجهٍ مقصودٍ ولا غاية مستبينة إسرافٌ وإتلافٌ للمال وصاحبِه وآخذِه.

ولا أدري لم يترك الرجلُ جارَه غَرثان طاويًا وهو ينال من أطايب الدنيا وخيراتها ما تمتدُّ إليه عينُه وتناله يداه؟! ولو هو نبَذ من فضل ما ينال إلىٰ جاره المسكين لأحياه، واستودعه حسنةً باقية في قلبه ما أورق عودٌ، وما أهلَّ مولود.

إلا أن مطالب الحياة والمدنية خاصَّة قد تخدَّعت الناس عن قلوبهم، فما تجد رجلًا مُمَوَّلًا ينبض قلبُه مع قلوب أهله في الضراء والبؤسىٰ، يشعر بما يشعرون، ويبكي لما يبكون، ويتألَّم ممَّا يتألَّمون، بل يتعبَّده الهوىٰ بالحرص علىٰ ما في يديه؛ لِمَا يتوهَّم من أحداث الزمان وتصاريف الأيام، ولو أنصف الناسَ وأرضىٰ هواه لحرص علىٰ بعض وادَّخر بعضًا منه في قلوبٍ شاكرة وأفئدةٍ ذاكرة، فلا يُذْكَر اسمُه يومًا موصوفًا باللَّعنة فيقال: فلانٌ البخيل، وفلانٌ الحريص، وفلانٌ الشَّحيح.

وما أحسن ما يستودع الرجلُ الحسنات عند الناس أدَّوها أو خانوها، ما يبالي أن يقال فيه:

سأشكرُ عَمرًا ما تراختْ منيَّتي ... أيادِيَ لم تُمْنَن وإن هي جَلَّتِ
فتًىٰ غيرُ محجوب الغِنىٰ عن صديقهِ ... ولا يُظْهِر الشكوىٰ إذا النَّعْلُ زَلَّتِ
رأىٰ خَلَّتي من حيث يخفىٰ مكانُها ... فكانت قَذَىٰ عينيه حتىٰ تجلَّتِ[1]

ولا يحسبنَّ أحدٌ أنَّا ندعو الناسَ إلىٰ الفوضىٰ في إرسال المال، ولا أنَّا نؤمُّ بهم إلىٰ سبيل من فساد الدنيا واطِّراح زينة الحياة، بل الأمر كلُّه في هذا الدَّاء الذي استبطن القلوبَ فقبض الأيدي عند الضرورة الداعية إلىٰ البذل، وفي هذا التجهُّم

---

(١) الأبيات في مصادر كثيرة، وفي نسبتها اختلاف. انظر تعليق أبي فهر على «دلائل الإعجاز» (١٤٩)، ومن قبله الميمني في «سمط اللآلي» (١/ ١٦٦).

البغيض في وجه السَّائل والمحروم، وفي هذا الإحجام الباغي عن فِعَال الخير، حتىٰ اضطرب حبلُ الحياة في أيدي الناس، وهبَّ «الاقتصاديُّون» يُرِيغون المخرج من الأزمات، ودعاة السَّلام يتوجَّسون أن تحلَّ بالعالم كارثةٌ من دويِّ المدافع وتحليق الطائرات، فتخرَّ المدنيَّةُ علىٰ رؤوس أهلها بالعذاب والدَّمار واليُتْم والفقر والهلاك.

وكيف يُرِيغون المخرج ويدعون إلىٰ السَّلام وما من رجلٍ إلا وهو أحرصُ علىٰ المال من حرصه علىٰ أهله وبنيه؟ وكيف يُرِيغون المخرج ويدعون إلىٰ السَّلام والأغنياء لا يملُّون شهواتهم، ولا يفتُرون عن إرسال المال في كلِّ سبيل إلا سبيل الفقر والمسكنة؟ وكيف يُرِيغون المخرج ويدعون إلىٰ السلام وما من نفسٍ تطيبُ بردِّ شهوة من شهواتها لتردَّ علىٰ فقير روحًا علىٰ وشك قُلْعةٍ وارتحال؟

ألا إن العبث أن يحاول أحدٌ من السُّوَّاس والقادة إنقاذ العالم ممَّا يرتطمُ فيه بالمؤتمرات والكلام الملفَّق والعلم المتعالي، وكيف يداوون داءً مستبطنًا قد تلبَّس باللحم وخالط الدَّم وجرىٰ من ابن آدم مجرىٰ الحياة، كيف يداوونه بدواءٍ لا يصل إلىٰ موضع الداء في أحدٍ من أهل هذا العالم؟! إن كلامهم ككلِّ كلام يلقىٰ إلىٰ قلوب غير صاغية وآذانٍ غير واعية، ولا أمل في استنقاذ العالم ممَّا هو فيه إلا بدواءٍ يتناول الأمم أمةً أمة، والطوائف طائفةً طائفة، والرجال رجلًا رجلًا، فيَنْفُضُها لينفيَ عنها الخبَث والوَضر حتىٰ تعود بيضاء نقيَّة.

ألا وإنه لا أمل في استصلاح ما أفسد الدُّهرُ إلا برجوع العالم إلىٰ فطرة الأخلاق الكريمة، والفكر المتوقِّد البسيط الذي لا تعقيد فيه، والشعور الحيِّ بالأخوَّة بين الناس، والسَّماحة الأولىٰ التي كانت بين الناس. أمَّا أن تطلب إلىٰ رجل أو طائفة أو أمَّة تقدِّم الشهوات والأهواء علىٰ المنافع المشتركة بين الناس أن تجود أو أن تحطَّ لك شيئًا من الأشياء تقتضي المنفعةُ العامَّة حطَّه وإسقاطه فانظر إلىٰ الجبل إن نفختَ فيه هل يطيرُ أو يضطرب!

لا أمل، لا أمل إلا أن ترىٰ الرجلَ يلقىٰ أخاه من الناس في ضنكٍ وضيق، فيغمُّه أن يراه حتىٰ يبذل إليه ما غلا وما عزَّ حتىٰ تنكشف الكربة وتتقشَّع ولو أصابه ما يصيب.

وصدق رسول الله ﷺ: «ما ذئبان جائعان أُرْسِلا في غنم بأفسدَ لها من حرص المرء علىٰ المال والشرف لدينه»[1].

---

(١) أخرجه أحمد (١٥٧٩٤)، والترمذي (٢٣٧٦) وقال: «حديث حسن صحيح».

كلمة في التاريخ[1]

كتب الدكتور هيكل في العدد (١٤٧) من «السياسة الأسبوعية» (٢٥/ ١١/ ١٩٣٩) مقالًا عن «بيعة أبي بكر الصديق»، وكأنه أراد أن يتابع القول بعد كتابه «حياة محمد ﷺ» في سير خلفائه رضوان الله عليهم، وقد مرَّ الكتاب في دوره التاريخي، وانتهىٰ إلىٰ نهايته، ووقف النقدُ دونه فلم يمسَّه إلا مسَّ المترفِّق، ولا أقول هذا لأضع من شأن الكتاب، فهو إن لم يكن إلا تقريبًا لسيرة رسول الله حتىٰ يستوعبها جمهرةُ القرَّاء ممَّن يعسُر عليهم متابعة سيرته في الكتب الأصول لكان ذلك نعمَ العمل، هذا علىٰ أن للكتاب فضائل أخرىٰ ليس هذا مكان الإنباه إليها، وفيه وراء ذلك أسبابٌ يعتلُّ بها من وجوهٍ كنَّا نرجو أن يبرأ منها كلَّ البراءة؛ لما لسيرة رسول الله ﷺ من سموٍّ المنزلة، ولما لكاتبه من القدرة علىٰ البيان، والبراعة في الفكر، والإحسان في سياق القول علىٰ منهج واضح معبَّد.

فحين قرأت كلمته عن «بيعة أبي بكر» حملني ما وجدت فيها أن أكتب تعليقًا مقاربًا أبدؤه بكلمة في التاريخ الإسلامي، وكيف انتهىٰ إلينا من عند الأوائل، وكيف بدأنا في هذا العصر نكتبه علىٰ المنهاج الذي هو إلىٰ رضىٰ الناس أقرب، ولأذواقهم أسرع، وهو بذلك عليهم أجدىٰ وأنفع.

ولنضرب حدًّا علىٰ ما نريد من وجه القول؛ لئلا ينتشر الرأي علىٰ الناظر فيه؛ فإن تاريخنا الإسلامي العربي يقع في ثلاثة عشر قرنًا من بدء الرسالة إلىٰ مطالع هذا القرن، ولكلِّ قرنٍ أو قرون منه بابٌ من القول يفضىٰ إليه منه، ونحوٌ يقصدُ قصده علىٰ سياسة وتدبير، والتقصير في تقدير الغرض قبل الإهداف إليه يرمي بنا إلىٰ الإسراف في الحكم أو المجازفة بغير كيل ولا وزن.

---

(١) مجلة الثقافة، السنة الثانية، العدد ٥٣، ٢٢ ذو القعدة ١٣٥٣ - ٢ يناير ١٩٤٠.

وقد رأيتُ أن أقصر قولي علىٰ القرنين الأولين من تاريخ الإسلام، فقد فشا بعدهما كثيرٌ لم يكن فيهما، وتغيَّرت الأسباب الاجتماعية والعلمية والأدبية، وبدأت تتقرَّر الحضارة الإسلامية علىٰ قاعدةٍ بعد قاعدة، واتسع الأفق الإسلاميُّ حتىٰ بلغ ما بين مغرب الشمس ومشرقها، في أمم كثيرة قد انتُزِعت من أعراقها انتزاعًا، وترامت العرب بينها واستفاضت، فتباعدت عن المنشأ والمَرْبَىٰ والوطن، وخضعت لطبائع لم تكن تخضع لها في عقر ديارها، وحملت بقايا هذه الأمم علىٰ ما لم يكن من متوارَثها أو قديمها العادي المنتقل إليها في أصلاب التاريخ القومي، وجعل انتشارُ الإسلام واستحكام لغته يزيل في عنفوانه كلَّ ما دربوا عليه واعتادوه وأخذوا أنفسهم بعلاجه وممارسته في الجيل بعد الجيل.

ومن ثمَّ تنقَّذت العربُ هذه الأمم المختلفة والشعوب المتباينة فأخرجتها -أو كادت- أممًا عربيَّة مسلمة تنطق بالعربية وتدين بالإسلام، وتتعامل علىٰ الأصول الاجتماعية المقرَّرة في هذه الدولة الواحدة المترامية المتراحِبة، ومع كل ذلك فقد امتازت أشياء بالبقاء لهذه الأمم، فبقيت لتدلَّ علىٰ أصولها التاريخية، واختلطت أشياء وتشابكت واتحدت، حتىٰ استحكمت الأمة كلها إسلاميةً عربيةً علىٰ اختلاف أصولها، وتعدُّد أوطانها، وتباين طبائعها، وافتراق نوازعها وأعراقها.

وأيضًا، فإن للعوامل الاجتماعية التي يكون من سلطانها أن تستبدل شيئًا بشيء، وجيلًا بجيل، واجتماعًا باجتماع، أكبر حجَّة في فصلنا ما بين القرنين الأولين من الهجرة وبين ما جاء بعدهما. ولعل أعظم هذه العوامل أثرًا هو انتشار الكتابة انتشارًا لم يكن لها من قبل، وابتداء استقرار تأليف الكتب علىٰ قاعدة جديدة لم تكن، وشمول التأليف في كلِّ فنٍّ وعلمٍ ممَّا كان من فنون تلك العصور وعلومها؛ فإن ظهور التأليف والكتب في عصرٍ من العصور يفصل كلَّ الفصل بين هذا العصر والذي سبقه في نظر من يجرِّد نفسه لتأريخ هذه العصور.

والتاريخ الإسلامي العربي في هذين القرنين خاصَّةً تاريخٌ بِكرٌ يتأبَّىٰ علىٰ باغيه إلا أن ينفذ إليه بالصَّبر والحيلة والترفُّق والأناة، ومِن أعظم أداةٍ غناءً في دَرْكِ ذلك إدمانُ الفكر فيه والتقليب لما عسىٰ أن يعمِّيه من كثرة الوجوه التي يسلكها الرأي إليه وغلبة التفرُّق علىٰ أجزائه، ممَّا يستدعي الوقوع في الخطأ، فيلد الخطأ أخطاءً، فلا يزال كذلك حتىٰ لا يهتدىٰ فيه إلىٰ صواب يطمئنُّ عليه الرأي أو يقرُّ.

وقد بُنِي هذا التاريخ الأول علىٰ الرواية، والرواية بطبيعتها خاضعةٌ لعلل، وهذه العلل متفشِّية في الأصول[1]، فلذلك أصبح هذا التاريخ من أشقِّ الأعمال علىٰ من لم يتعاطَ أصول فنِّ الرواية علىٰ التحرير والتجويد، فنفذ بصائب رأيه إلىٰ معرفة العلل الموجِبة والعلل السَّالبة، وأين يضرب بنظره في أغوار الكلام ليستنبط مادة التعليل الصحيح للروايات المتفرِّقة، وكيف يتاح له أن ينفي عنها ما عسىٰ أن يكون كدَّر صفوَها من أخلاط القول التي لا تنفع ولا تفيد.

فلا بدَّ إذًا لمن يتعرَّض للتاريخ الإسلامي في هذين العصرين خاصَّة أن يفرِّق بين التاريخ عند العرب والتاريخ الذي نعتمده في هذا القرن الأخير، وأن يتبيَّن كلَّ البيان معنىٰ الرواية وما هي عند المؤرخين، وأن يقرِّر في نفسه أصولًا كثيرة كلُّها يغذو بمادَّته هذا العلم، وبذلك يتسنَّىٰ له ما يستغلق عليه من الأقفال التي ضربتها الضروراتُ الاجتماعية علىٰ تاريخ العرب في الصدر الأول من الإسلام.

ونحن اليوم نفهم معنىٰ هذا الحرف (التاريخ) بوجهٍ غير الذي كان يذهب إليه أوائلنا في فهمه، ونرمي بكتابته إلىٰ غرضٍ غير غرضهم، ونتناوله من حيث كانوا هم يقفون به، فهم كانوا يعدُّون «التاريخ» في اصطلاحهم وتأليفهم يوقِّتونه من الأحداث والوقائع والغزوات والحروب، وما تتضمَّنه من أخبار أصحابها في وقت هذه

---

(١) قرأت في «الثقافة» عدد (٥٠) وما قبله ما كتب الأستاذ العبادي في تحقيق صفة السَّفَّاح التي ألصقتها الروايات المختلطة بأبي العباس الإمام أمير المؤمنين، وهي من أجود ما رأيتُ في التحري والتتبع والتنقيب، وهي مثالٌ جيدٌ لبعض ما نريد هنا. (شاكر)

الأحداث، وما يكون من أخبار الدولة، وما يقع من بعض الولاة ممَّن يعظُم أمرهم أو يقع إلىٰ المؤرِّخ ذكرهم، وبعض ما يتخلَّل ذلك من تاريخ الأبنية كالمساجد وقصور الخلفاء وما إلىٰ ذلك، ونُبَذٍ ممَّا يكون من البلاء الذي يستهلك الناسَ وأموالهم كالطاعون والخسف والزلازل والسُّيول والقحط، ويضمِّنون ما يكون في السنوات من ذكر الوَفَيات من المشهورين والعظماء والعلماء ومن إليهم، ويضمُّون إلىٰ هذا العلم كتبَ تراجم الرجال من الشعراء والكتاب والأدباء والعلماء والرواة علىٰ اختلافهم، وذلك كلُّه علىٰ التقتير والاختصار، لا يتوسَّعون فيه إلا بقدر ما كانوا يعدُّونه من حاجتهم إليه في الفنون المختلفة، وكان غرضهم منه كما وصفوه أن يقفوا علىٰ أحوال الماضين من رجال الأمم في أخلاقهم وسياساتهم وتدبيرهم وبصرهم بشأن الدولة حتىٰ يقتدي بهم من ينزع في مثل منازعهم في أحوال دنياه وآخرته.

فلما كان ذلك هو كل التاريخ عندهم، وكانت هذه سبيله، لم يكن بدٌّ لهم إلا أن يعتمدوا في جمعه وتأليفه سبيلَ الرواية، فيذكروا السَّنة ثم ما كان فيها من الحوادث[1] -أو أهمَّها علىٰ الأرجح-، ينقلون ذلك عمَّن شَهِد، وليس كلُّ من شهد يتكلَّم، ولا كلُّ من يتكلَّم يستقصي ما شهد أو يحفظ كلَّ ما رأىٰ وما سمع، وإذا تكلَّم الشاهدُ فإنما كلُّ همِّه التبليغ بما شهد دون التفصيل والتصوير، أو تمييز العلل والأسباب التي أوجبت ما كان، ولِمَ كان، وكيف بدأ، وأين انتهىٰ أثره، فإن ذلك -إن كان- لا ينصرف إليه أحدٌ وهو يتحدَّث، وإنما يكون مطلبًا لمن يكتب أو يؤلِّف.

ولمَّا كان أهمَّ ما تنبعث إليه هِمم الأوائل من علماء التاريخ سيرة رسول الله ﷺ وسِيَر أصحابه وخلفائه في ضبط الرعية وإقامة دين الله في عبادته وسياسته، طلبوه علىٰ أنه أسلوبٌ يفضي إلىٰ الفقه في أسرار الدين وشرائعه، ومحجَّةٌ إلىٰ أصل العمل في الإسلام لسياسة الدولة وتدبيرها.

---

(١) ولا شك أن هذا هو العمل الابتدائي في التاريخ، وكان لا بد منه، وهو أشبه بالصحافة في القرون الأولى، ولذلك وقعت فيه عيوبٌ كثيرة من عيوب الصحف الأخبارية. (شاكر)

وكذلك درَج التاريخُ علىٰ مدرجة (الحديث النبوي) في الإسناد إلىٰ قائله، هذا وإن كان المؤرخون لم يُعْنَوا بما عُنِيَ به أصحابُ علم الحديث من استبراء الأخبار وأسانيدها استبراءً يَحُوط أصلَ الخبر بالثقة واليقين، ويقف به علىٰ مطمئنٍّ القول، فقد كان همُّ المؤرخين أن يحشدوا من الأخبار استكثارًا علىٰ غير تثبت، فلذلك عُرِفوا في تاريخ العربية (بالأخباريين)، وكان من توصيمهم أنه يغلبُ عليهم الإكثار والتخليط واحتطابُ ما يُسْتَهجَن في الرأي، ويستركُّ في النظر، ولولا أن أئمَّة المحدِّثين استنقذوا سنة رسول الله بما يشبه المعجزة من بيداء الشكِّ والحيرة لكان أشدَّ البلاء علىٰ تاريخ الإسلام الأول ما اضطرب من روايات الأخباريين؛ فإن اشتراك علماء الحديث وعلماء التاريخ في جمع سيرة رسول الله وسِيَر أصحابه وذكرِ ما كان من أحوالهم وسياساتهم وغزواتهم وفتوحهم -كلٌّ لما انتدَب له- هو الذي أبقىٰ بين أيدينا معيارًا ينتقَد به الزَّيف علىٰ الصحيح من وجوه مختلفة يهتدي إليها البصير بنقد الأحاديث والأخبار.

بل إن علم الحديث هو عندي أعظم الأصول التاريخية بغير شكٍّ؛ فإن أصحابه كانوا يعتمدون به البيان في فقه الدين وشرائع أهله، وما يجري عليه عمل الفرد والجماعة والدولة، فهو بذلك أغزر مادَّة للتاريخ الاجتماعي في نأناة الإسلام[1] وبدئه، والأخبار المفرَّقة التي احتشدها المؤرخون لا يوصِل أولُها بآخرها إلا بصلاتٍ من حقائق التاريخ الاجتماعي للأمة الإسلامية، وإلا بقيت كما هي أباديدَ لا يربطها شيءٌ من حيل المؤرخين[2] التي ظنُّوا بها أن تكون استقلالاً للتاريخ حتىٰ يصبح علمًا من العلوم.

---

(١) النأنأة: الضعف.

(٢) من أعظم حيل المؤرخين تأليفهم الأخبار المسندة في سياقٍ بعد نفي الإسناد، وكذلك فعلوا حتى انتهى إلى ابن خلدون على جلالته، فكانت هذه كل حيلته وعجَز. (شاكر)

وهذا التاريخ الأول الذي وقع إلينا تفاريقَ أخبارٌ شتَّىٰ بين الصحة والبطلان، والقصد والسَّرف، والعلوِّ والنزول، قد كان خيرًا للتاريخ بوجه، وإن كان قد أدركته عللٌ من وجوه أخرىٰ، فهو أخبارٌ مجموعة مؤلَّفة مسندة لم يدخلها رأيُ كاتب ولا تصرُّف مؤوِّل ولا حيلة مُحِيل؛ وبذلك بقي في الكتب الأصول علىٰ حالة واحدة لم تتغيَّر، وسيبقىٰ كذلك أبدًا.

ولو أن المؤرخين فعلوا غير ذلك لانتهىٰ إلينا تاريخ عقول كتبته علىٰ اختلافٍ وتباينٍ بين صحَّة وفساد، ولم يكن هكذا أخبارًا باقية يؤول إليها المختلفون في تحقيق الخلاف والإبانة عن مذهب الرأي بالحجَّة منه والبرهان.

وأما أشدُّ ما يلحقه من العلَّة لاعتماده علىٰ الإسناد والرواية والإخبار، فهو خفاء الأسباب التي تلحق الأحداث فتكون بها، أو تدركها فتتحوَّل بها عن نتيجة القياس التاريخي؛ فإن الشاهد -وهو المسنَد إليه الأول، أو الراوي الأول- قلَّ أن يلقي إلىٰ سامعه أو مستخبره إلا بالنبذ اليسير من الخبر عمَّا كان، ولا تكاد تجده يدفع إليه بالرأي في تأويل المشكل من الأخبار، فإن كان في خبره شيءٌ يدلُّ علىٰ أصل رأيه فإنما يأتي في سياق القول من غير بيان أو إشارة، وليس يستطاع أن يعرف ما في الخبر من رأي المخبر به أو هواه أو تدليسه أو غلوِّه أو سهوه وغلطه إلا أن يجتمع للخبر صنوٌ من مُخبِر آخر يخالفه أو يشاكله أو يباينه في سوق الخبر كلَّ المباينة، فعند ذلك يستطيع القارئ أن يفرِّق ويميِّز، ويضع الأسباب في أعناق نتائجها علىٰ تحقيق وثقة.

فمن أهمِّ ما يجب علىٰ المؤرِّخ في عصرنا هذا استيعابُ الأخبار عن أكبر عدد من الرواة، ليتسنىٰ له أن يقارن بين الأخبار المختلفة، ويستخرج الأسباب والعلل في خبَرٍ خبَر، ويجمع إلىٰ ذلك ما يتشتَّت في هذه الأخبار من الدلالات علىٰ التاريخ الاجتماعي الإسلامي في ذلك العصر، وهو أهمُّ مادة التاريخ لمن يؤرِّخ علىٰ السَّرد، لا علىٰ الرواية والإسناد.

ومع ذلك، فإن طبيعة هذا العلم في التاريخ العربي تقتضي أن لا يقتصر في طلب ذلك علىٰ كتب التاريخ؛ فإن العرب لم يستنبهوا إلىٰ هذا الباب الكبير في تاريخهم، ولم يجمعوا فيه إلا نبذًا متفرقًا قليل الغَناء، وقد تفرَّق وبقي موزَّعًا بين نصوص اللغة، وعلم الحديث، وكتب تفسير القرآن، وفقه الشريعة، وكذلك بقي في أصول الأدب من نثرٍ وشعرٍ كثير في دواوين الشعر وأخبار الشعراء، ثم فيما تفرَّع عن ذلك من بقية أبواب العلوم والفنون، ككتب الاختلاف والكلام، والمِلَل والنِّحَل، وما يردُّ إليه ذلك من أصول النشأة والأولية.

فعملُ المؤرخ كما ترىٰ من المشقة والكدِّ والتعب والمشاركة في أنواع من العلوم بالمكان الذي لا يقدِم عليه إلا من اتخذ لهذا الأمر أداته، وأعدَّ له عدَّته، وعمِل في إدراكه بالمصابرة والمرابطة وإطالة التدبير، ومع ذلك فإن أكثر من يتعرَّض لكتابة التاريخ علىٰ السَّرد يقنع بقراءة بعض ما كتب الأوائل من تاريخهم علىٰ الرواية، ثم يلفِّق بين الروايات بما يدبُّ إلىٰ رأيه من أسباب يحملُ التاريخ علىٰ قبولها حتىٰ يتوجَّه له أن يكتب هذا التاريخ للفرق بما يشبه أن يكون سردًا واحدًا، كأنه ثوبٌ حوكٌ لا يختلف بعضه علىٰ بعض، ولكنه ينسىٰ أن كلَّ مفرَّق يمكن أن يجمَع علىٰ شكل من الأشكال حتىٰ ينتظم سرده ويتصل، ولكنه بعدُ لا يستطيع أن يدعي أن هذا السَّرد كان هو السَّرد لا غيره.

فإذا كان قد دفع الأصول التي اتخذها دفعًا عنيفًا فلم يخشَ أن تتقطَّع صلاتٌ كانت بينها وطمستها عللُ الرواية وما تقتضيه من التفرُّق والتباعد والتنازع وما إلىٰ ذلك -ممَّا لا يسع بيانه هنا-، وإذا كان يختار من الروايات روايةً واحدة لعلها تكون أضعف أخواتها أصلًا، وأخفاهنَّ شخصًا، وأقلهنَّ مادة، وأسكتهنَّ عن بيان الوجه والعلة والسَّبب، وإذا كان لم يقف علىٰ الأسباب التي حملت الراوي الأول علىٰ السُّكوت عن بعض القول، أو ألجأت صاحب الخبر نفسه إلىٰ الموقف الذي وقفه

في خبره = إذًا فقد أحال التاريخَ عن أصله، وأزال أحداثه عن أماكنها، وأدار وجهه إلىٰ غير ما توجَّه له، وأسقط من بيان سياقه ما أسقطت الرواية من لفظٍ قد أبقته مضمرًا غير منطوق.

وإذا لم يكن مثل هذا فسادًا في كتابة التاريخ فهو -لا شكَّ- عجزٌ عن معرفة أصول التاريخ والنفاذ إلىٰ ما يتلاءم عليه وما لا يتلاءم، وإذًا فلا نلبث إلا قليلًا حتىٰ نرىٰ التاريخ الإسلامي الأول تاريخًا مضحكًا لا يكاد يخلص قارئه إلا إلىٰ استجهالٍ أو تنقُّص أو سخرية أو حيرة.

ومردُّ هذا البلاء في التاريخ الإسلامي -وفيما كتبه المُحْدَثون خاصَّة- إلىٰ أصلين قائمين لا يزال أحدهما مُمِدًّا للآخر غاذيًا له:

أولهما أن التاريخ السَّرد أسلوبٌ جديدٌ بيِّن الجِدَّة علىٰ التاريخ العربي، فلم تضبط له أصولٌ من طبيعة نشأته ومَدْرَجه ومنبته الذي استوىٰ فيه، ولم تمحَّص له أصولٌ أخرىٰ كان يجب أن تُنْتَخل وتنقَّىٰ وتستَصفىٰ قبل البدء في الكتابة، وعسىٰ أن يكون ذلك قريبًا.

وأما الآخر فهو ما انقذف عليه ممَّا كتب الأعاجم المُحْدَثون في تاريخ الدول الإسلامية، وغير ذلك من آداب العرب وعلومهم الخاصَّة بهم لم يشركهم فيها أحد؛ فإن ما كتبوا من شيء في ذلك لا يقوم أكثره لشيء من النقد؛ لأنه مبنيٌّ علىٰ أصول فاسدة مختلَّة؛ لما فيها من نقص الاستقصاء الشامل لعلوم وفنون لم يتعلَّقوا إلا بالقليل منها. هذا علىٰ أنهم ربما أتوا في الاستقصاء المحدود بالآيات علىٰ الصَّبر واليقظة والدقة، ولكنهم يأتون في فهمه أيضًا بالآيات علىٰ بعدهم عن إدراك الحقائق التي لا تُنقض في تاريخ هذه الأمة وآدابها.

ولمَّا كان هؤلاء هم القدوة في هذا العصر، وانتفشت معانيهم بأوهامها في جماعة من الكتَّاب لم يأخذوا علمهم علىٰ البيِّنة والثقة والتحرير، وباد أهلُ هذا العلم إلا

قليلًا = تتابع الناسُ علىٰ الخطأ في تصوير التاريخ الإسلامي، وإن كان بعضهم قد أجاد المذهب وأساء الغاية.

فما للمؤرخ إذًا بدٌّ من التمحيص قبل البدء، وأن لا يعتمد من أقوال هذه الأعاجم في فهم التاريخ الإسلامي شيئًا إلا أن تقوم البيِّنة علىٰ صواب المذهب فيه، وكذلك يمكننا أن نُنَبِّتَ هذا العلمَ في أرضه التي هي له أغذىٰ وأعدل.

وحي الرسالة[1]

المجلد الأول، الطبعة الأولى، مطبعة الرسالة بالقاهرة ١٣٥٨هـ، ١٩٤٠م، الثمن ٢٥ قرشًا، للأستاذ أحمد حسن الزيات صاحب «مجلة الرسالة»

قال الزيات: «قارئي العزيز، اخترتُ لك هذه الفصول ممَّا كتبتُه للرسالة في ستِّ سنين. وكان من عادتي أن أكتب الفصل منها أصيلَ السَّبت من كلِّ أسبوع، ثم لا أكتبه طوعًا لتأثير قراءة، أو تحرير فكرة، أو تخمير رأي، وإنما كان أثرًا لوحي ساعته أو حديث يومه أو صدىٰ أسبوعه، فالزمن جزءٌ منه متمِّمٌ لمعناه، يبيِّن ملابسته للحادث، ويعيِّن مناسبته في التاريخ؛ لذلك أعقبتُ كلَّ فصل بذكر اليوم الذي كُتِبَ فيه ليتَّضح موضعُه بفعله وحاله وظرفه».

هذا خيرُ ما يوصفُ به هذا الكتاب. فأنت ترىٰ أني لا أستطيع أن أزيد في صفته من حيث التأليف والتبويب، ولكني أستطيع أن أقدِّم بين يدي قارئه بعض الرأي في أدب صاحبه.

وأنت إذ تناولتَ هذا الجزء، فقرأتَ فهرسَه، رأيتَ مئة وعشرين بابًا من أبواب القول قد افتتحها الزياتُ بقلمه، وسنَّاها برأيه، ومهَّدها بحسن بيانه. ولكلِّ باب منها غرض، ولكلِّ غرض أسلوب، ولكلِّ أسلوب لفظٌ يصلح عليه ولا يصلح عليه غيره.

وإذا كان الكتابُ كذلك كانت المشقَّة فيه أعظم من مشقَّة التأليف المرسل

---

(١) مجلة المقتطف، الجزء ٣ من المجلد ٩٦، ٢٢ محرم ١٣٥٩ - ١ مارس ١٩٤٠. ولم يذيَّل التعريف في المجلة باسم محمود شاكر، لكن الزيات صرَّح بنسبته إليه عندما نشر طائفة من «آراء صفوة الكتَّاب» في «وحي الرسالة» آخر الجزء الأول (٤٩٥) من طبعته التي أصدرها بعد ثورة ١٩٥٢ وحذف منها الفصول التي جرى فيها لفاروق وأبيه ذكر وجعل عوضها تلك «الآراء».

إلىٰ غرض واحدٍ لا يتميَّز إلا بالاتجاه؛ فإن الغرض الواحد قلَّما يُخْرِج أسرار البيان من قلب الكاتب ولسانه؛ لأن الأسلوبَ إليه قلَّما يختلف. فإذا اختلفت الأساليبُ باختلاف الأغراض محَّصت قدرة الكاتب علىٰ ما اعترض له وهمَّ إليه من الكتابة.

فإذا أنت أخذتَ هذا الكتابَ بين يديك، وسايرتَه فصلًا فصلًا وأسلوبًا أسلوبًا، عرفتَ الجهدَ الذي لقيه صاحبه في إبداعه، ورأيتَ الزيات في كلِّ أسلوب هو الزيات لا يختلف ولا يتنافر. والكاتبُ إذا صار إلىٰ هذه المرتبة حيث تراه هو هو مهما اختلفت الأغراض وتباينت الأساليبُ فاعلم أنه إنما يشتقُّ لك كلَّ ما يكتبه من حرِّ نفسه، فيضنيها ويهلكها مخلصًا صابرًا لا يملُّ، وإذا كان الكاتب كذلك فهو كاتبٌ لا يزيِّف لك ولا يقبل الزَّيف، وهو يعطيك ولا يسألك، ويبذل لك ولا يمنُّ عليك، ويعلِّمك ولا يدَّعي لك أنه أعلم منك؛ ذلك بأنه قد بلغ من العقل والفكر والصَّفاء والبيان حيث يعلم أنه مِلكُ قارئه لا أن القارئ مِلكٌ له، وأنه مرشدٌ لا مسيطر، وأنه أخوك الذي يُناقِلك الحديث وإن كان بمنزلة الأب.

والزيات كما عرفتُه من كتابته روحٌ هادئةٌ متكتِّمة مسترسلة، يكاد يختفي في نفسه حين يفكِّر، كأنه فيلسوفٌ من فلاسفة الصِّين، يمشي هادئًا، ويفكر ساكنًا، ويحاسب نفسَه ولكن علىٰ التسامح والرضا والاستسلام، فإذا أراد أن يقيِّد أحلامه وأفكاره وهواجسه كان هو الهادئ السَّاكن المتسامح، فإذا اشتدَّ وحَمِسَ وأراد أن يتفجَّر خيِّل إليَّ أنه عينٌ حمَّةٌ ترسل لواذعها سكبًا ساخنًا حاميًا كالماء إذا غلىٰ ثم هدأ أول هدأةٍ لا يضرب بعضه في بعض. ولذلك ترىٰ نقدَه إذا نقد شديدًا بالغًا ولكنه رفيقٌ غير عنيف، ولكنه علىٰ ذلك ممَّا تُخشىٰ صواعقُه.

وَهذه الروح التي وصفناها هي التي تجعل كلَّ كلامه قطعًا مزيَّنةً ناضرةً محكمةً مقدَّرة الألوان لا يختلط شيءٌ منها بشيء، ولا يجور لونٌ منها علىٰ لون، وهي التي تجعل لفظه مبنيًّا علىٰ الإيجاز دون الإطناب، وعلىٰ مذهب الحكمة دون المذهب الكلامي.

وإذا أردتَ أن تتبيَّن كلَّ ذلك حقيقة التبيُّن فلا تتكلَّف أكثر من أن تقرأ إهداء كتابه، يقول لولده «رجاء» الذي احتسبه عند ربه في سنة ١٩٣٦: «إلىٰ روحك اللطيفة العذبة يا ولدي رجاء أقدِّم هذا الكتاب، فلولاك ما أنشأتُ الرسالة، ولولا الرسالة ما أنشأتُ هذه الفصول».

فإن في هذه الكلمات القلائل لوعةً مستكنَّةً باقيةً إلىٰ يومها هذا، ولكنها ساكنةٌ راضيةٌ هادئةٌ لا تثور ولا تتأجَّج، ولكنها تسري وتدبُّ وتمشي في روحه الهُوَينا الهُوَينا.

هذا سرُّ أسلوبه. وأما أسلوبُه وبيانُه واقتدارُه علىٰ عربيَّته، وحُسْن تصريفه لألفاظه في وجوه أغراضه ومراميه، فالزيات -ولا أشكُّ- هو بقيَّة أصحاب الأقلام العربية التي لا تُخَلِّط ولا تتقمَّم من هنا وهنا.

فأنت إذا نفذتَ إلىٰ كلِّ جملة من كلامه في هذا الكتاب لم تجد إلا عربيَّةً خالصةً مطاوعةً ليِّنة، لا ينافر حرفٌ منها حرفًا، علىٰ كثرة الأغراض التي رمىٰ إليها واختلافها، وعلىٰ ظنِّ من لا يعلم أن العربية لا تُطِيع في التعبير عن الضرورات الحديثة التي قسَرتنا عليها مدنية القرن العشرين من ميلاد المسيح.

فلو أتاح الله لهذه العربيَّة من يخلِص لها في معاهد التعليم علىٰ اختلاف أغراضه وأنواعه، وأراد أن يردَّ علىٰ العربيَّة شبابَ أيامها حتىٰ تكون لغة مدنيتنا في الأدب والعلم والفنِّ، لوجد في الذين أبادوا شبابهم بالعمل لإحياء اللسان العربيِّ في هذا العصر قومًا قد استطاعوا أن يجعلوا عربيَّتهم أصلًا في الحياة؛ إذ جعلوا الحياة أصلًا فيها، وبقية هؤلاء هو الزيات.

عمر بن أبي ربيعة[1]

الجزء الثاني، الطبعة الأولى، المطبعة الأميركانية، بيروت، سنة ١٣٥٨هـ، وسنة ١٩٣٩م، للأستاذ جبرائيل سليمان جبور

في سنة ١٩٣٥ أصدر الأستاذ جبرائيل سليمان جبور الجزء الأول من دراسته لحياة عمر بن أبي ربيعة وشعره[2]. وخصَّ هذا الجزء الأول بدراسة العصر الذي كان فيه عمر بن أبي ربيعة، من زمن عمر بن الخطاب ﷺ إلىٰ قريب من أواخر عصر الأمويين، واستوفىٰ كلَّ ما استخرجه واستنبطه من التاريخ الاجتماعي العربي في تلك الحقبة من الزمان، وقد كان الجهدُ فيه أشقَّ ممَّا يخيَّل؛ لأن أكثر التاريخ الاجتماعي للعرب أشتاتٌ مفرَّقة تتسرَّب في كل باب من أبواب العلم العربي.

فقيامُه بجمع كلِّ شاردة، واستخلاص كلِّ ظاهرة، واستنقاذ ما طمَّ عليه النسيان من تاريخ الاجتماع العربي الأول، جهدٌ مُضْنٍ مُضِلّ، ومع ذلك فقد استطاع أن يداني الحقَّ في كثيرٍ ممَّا رامه وابتغاه، وجعل ذلك تمهيدًا لدراسة حياة عمر بن أبي ربيعة.

ثم أصدر سنة ١٩٣٩ هذا الجزء الثاني، وقد أرصده لدراسة حياة عمر دون شعره، فهو قد خصَّص له الجزء الثالث إن شاء الله.

---

(١) مجلة المقتطف، الجزء ٣ من المجلد ٩٦، ٢٢ محرم ١٣٥٩ - ١ مارس ١٩٤٠. ووقع التعريف بالكتاب عقب التعريف بـ«وحي الرسالة» دون إمضاء، وهو له كسابقه بلا ريب. وأحسب أن هذا الكتاب الصادر سنة ١٩٣٩ هو ما استفزَّ محمود شاكر لكتابة مقالاته البديعة «مذكرات عمر بن أبي ربيعة» التي ابتدأ نشرها بمجلة الرسالة (١٣ مارس ١٩٣٩) إن كان قد صدر قبلها. وقد عرَّف محمود شاكر من قبل بكتاب آخر لجبرائيل جبور هو «ابن عبد ربه وعقده» في المقتطف (نوفمبر ١٩٣٣)، وهو في «جمهرة مقالاته» (٢/ ٦٥٧).

(٢) عرَّف به الشاعر المحقق حسن كامل الصيرفي في المقتطف (نوفمبر ١٩٣٥).

أما هذا الجزء الذي بين أيدينا فهو دليلٌ علىٰ أن الأستاذ جبور لم يألُ جهدًا في استقصاء كلِّ شيء يتعلَّق بابن أبي ربيعة ممَّا رواه الرواة، وأنه فوق ذلك قد اجتهد أن يستخرج من شعر عمر نفسه كلَّ ما أمكنه أن يستخرجه ليجعله مادَّةً لتاريخ حياته[1]، **وأنا أعلمُ أن استخلاص التاريخ من الشعر أشقُّ عمل يريده من يؤلِّف**؛ لأنه استنباطٌ محض، والاستنباط إذا لم تُضْبَط أصولُه هوىٰ بمرتكبه من شاهقٍ إلىٰ عميق.

وقد رأيتُ الأستاذ جبور حريصًا كلَّ الحرص أن لا يُغْفِل الأصول المسدَّدة الثابتة، وكذلك استطاع أن يجعل لاستنباطه نظامًا شاملًا لا تخرج عنه النتائج التي وصل إليها.

فأنت إذا قرأتَ الكتاب من بدئه إلىٰ مختتَمه تنقَّلتَ مع عمر من مولده إلىٰ وفاته، لا تجد كدًّا ولا عناءً في متابعة السِّيرة التي صوَّرها لك مؤلِّف هذا الكتاب، ولكنك ربما خالفتَه في بعض ما يستنبطه، أو ما يأخذ به من الرأي، أو ما يردُّه من رواية الرواة، ومع ذلك لا تستطيع أن تقول: إن المؤلف قد قصَّر أو خان أو استكان إلىٰ الراحة والدَّعة كعادة أكثر من يؤلِّف في زماننا هذا.

وليس ذلك بشيء؛ فإن عمر شاعرٌ من أوائل شعراء الإسلام، قد بَعُدَ العهدُ بينه وبين الناس، ولم يُقْدِم علىٰ الترجمة له ترجمة كاملة محقَّقة أحدٌ قبل الأستاذ جبور، فهو يعمل وحده في «حَفر» التاريخ العربيِّ لاستخراج الكنوز المدفونة تحت ركام السِّنين، فإن فتَر أو أجهد أو نسي فعذرُه عذرٌ لا يردُّ، وما كان من شيءٍ فله فيه أجر.

وليت كلَّ امرئ منَّا -نحن العرب- يتولَّىٰ تاريخ نابغة من نوابغنا بمثل التحقيق والاستِقصاء والإخلاص في العمل اللواتي تولَّىٰ بها الأستاذ عمله هذا.

فهذا الجزء إذا أنت قرأتَه ثم قرأتَ شعر ابن أبي ربيعة كنتَ كالذي يصحبه ويعاشره ويحسُّ بإحساسه، ويتوجَّه معه حيث تتوجَّه به نوازعُه، وكفىٰ بهذا عملًا جليلًا.

---

(١) كما صنع شاكر في كتابه عن المتنبي.

كيف ينبغي أن نعمل؟

موقف رجل(١)

حين قرأتُ ما كان من موقف الزعيم المصريِّ الموفَّق(٢) اندفعت في روحي تلك القوَّة الكامنة التي أخذت مكانها(٣) في كلِّ قلب مصريٍّ، واشتعلت تلك الشُّعلة الخالدة في روح الإنسان الحُرِّ، وتوهَّج الفكر الناريُّ الذي يضيء للحيِّ طريقه في الحياة.

لا أحبُّ أن أتناول في هذه الكلمة سياسةً أنقدها أو أحبِّذها، وإنما أحبُّ أن أبين عن روح القوَّة الأدبية الهائلة التي تدفع الرجلَ أن يعلن رجولته في الموقف المتضايق، حيث تفقد أكثر النفوس ضياءها ونورها، وترتدُّ إلىٰ ظلام دامس من الجبن والارتياع والخوف والحرص والطمع.

إن الأيام المحاربة التي نعيشها اليوم علىٰ هذه الأرض الظامئة إلىٰ الدَّم المسفوح هي أيامٌ ستعيش في تاريخ الإنسانية حمراء تلمعُ بنيران الشرِّ الذي استحدثته في العالم مدنيةٌ فاسدةٌ قد قامت علىٰ الشهوات التي تسبح في الدم الأحمر سبحًا، وتلطم فيه بسواعدها المفتولة لطماتٍ ترتفع بموج تيَّار متقاذفٍ تتحطَّم في دفاعه الفضائلُ الإنسانية التي يعتصِم بشاطئها العقلُ الإنساني السَّامي والروح الإنسانية الفاضلة.

---

(١) جريدة الدستور، السنة الثالثة، العدد ٧٧٧، ١٩ جمادى الأولى ١٣٥٩ - ٢٥ يونيو ١٩٤٠.
وتحت عنوان المقال: بقلم الأديب البارع الأستاذ محمود محمد شاكر.

(٢) رئيس الوزراء المصري علي ماهر، كما سيأتي، والموقف الذي يشير إليه هو انتهاجه سياسة «تجنيب مصر ويلات الحرب» خلال الحرب العالمية الثانية، على خلاف هوى الإنجليز. وقد كتب عنه الأستاذ محمود شاكر وعن الحرب بضع مقالات (قبل هذا المقال وبعده) في جريدة الدستور نشرت في جمهرة مقالاته (٢/ ٨٣٣- ٨٥٢).

(٣) الأصل: مكنها.

فأما رجلٌ استطاع أن يقف بفضائله الخالدة وقفة الجبل الشامخ المتطامن بأعضاده علىٰ أرض الإنسانية فهو مثَلٌ تسمو إليه الأبصار، وفي لمحها ضوءٌ يتَّسم بالفرج، وفي وميضها ذلك الحنينُ الفطريُّ إلىٰ الفضيلة الثابتة التي تجعل الإنسان خَلقًا آخر بين الإنسان والملائكة إذا هي استولت علىٰ مَراشِده، وتسلَّطت علىٰ قهر مَغَاوِيه.

إن غاية الأدب هي إنشاء الروح الإنسانية في كلِّ جيل إنشاءً ساميًا عبقريًّا يستطيع أن يقاوم الفساد الذي يتطرَّق دسيسًا إلىٰ النفس في ركودها، فتتعفَّن بآفاتٍ كثيرة تعرض لها من قِبَله تستطيع معها الجراثيم الماردة أن تعمل عملها الشيطاني في إبادة الإيمان الذي فُطِرت النفوسُ البشرية علىٰ محبَّته والحرص عليه.

وإذا رأيتَ أكثر أصحاب الفنون يقولون: إن الفنَّ للفنِّ والأدبَ للأدب، ولا يبالون أن يكون ذلك الفنُّ وهذا الأدب عملًا أسود مغبَرًّا تثور في ظلماته الأتربة الخانقة التي تثيرها شياطينُ الشهوات الراكضة في الأرض = إذا رأيتَ ذلك فاعلم أن هؤلاء إنما يأتون ما يأتون بحماقاتهم علىٰ الهَوادة والبُلَهْنِيَة[1]؛ فإن أشقَّ أعمال الإنسان هو أن يعمل، وأن يعرف ما يعمل، وفيم يعمل؟ ولم يعمل؟ وإلىٰ أين هو منتهٍ بعمله؟ وما هي الصِّلة التي تربط العمل بالحياة التي تحيط به؟ وكيف هو أثره فيها؟

والأدباء والفنَّانون قد ركنوا من قديمهم إلىٰ ضروب من الراحة والدَّعة وإرسال النفس علىٰ سجيَّتها، ولولا رجالٌ منهم صبروا علىٰ المشقَّة والجَهد والبلاء، وأرهقوا العقل بالِفكر، والسُّموَّ بهذا الفكر، والإلحاحَ في طلب هذا السُّموِّ، والمثابرة علىٰ هذا الإلحاح = لكان الأدب هو البلاء الوحيد الذي أعان الإنسان علىٰ قتل إنسانيَّته، ومهَّد للحيوانية أن تغلب وأن تتحكَّم.

---

(١) الرخاء وسعة العيش.

إن بعض الخيانة يكون بتسليم العدوِّ سلاحًا من أسلحة الوطن السِّرِّيَّة التي تدفع عنه عادية الشَّرِّ الذي يصبُّه عليه الأعداء، ولكن أعظم الخيانة أن تعمل علىٰ نزع سلاح الوطن باللَّذَّة والطَّراوة والرَّفاهية وطلب الرَّاحة ورفض الجهد، وحتىٰ يجد الوطنُ أبناءه وهم يتخلَّون عنه بالتأنُّث والخلاعة والمرح وإطلاق وحوش الشهوات من عقالها، تتفرَّق في وجهٍ تطلب صيدَها الذي تجد فيه شبعًا من جوع، وريًّا من ظمأ، بل وحتىٰ تعود النفسُ طالبةً وتأبىٰ أن تكون مجاهدةً في الطلب!

ماذا قال الرجلُ المسكين الذي كان بالأمس يتكلَّم عن جروح قلبه بصوت الآلام المتفجِّرة فيه من أقصىٰ تاريخه الوطني والحربي؟ ماذا قال المَرشال بِيتان[١] في رسالته إلىٰ الشعب الفرنسي؟ ماذا قال لهؤلاء الأغفال الحمقىٰ الذين يتكلَّمون بكلام الشهوة المجنونة التي نشرت في دمهم جميعَ أبالستها؟ إنه يقول للشعب الفرنسي الماجن المنهزم، بل لهذا العالم الفاسد الذي نعيش فيه: «منذ سنة ١٩١٨ عمَّت روح السُّرور والمرح، وطغت علىٰ روح التضحية، فطالب الناسُ بأكثر ممَّا أعطوا، وأرادوا أن يكفوا أنفسَهم مشقة بذل الجهود، ولذلك هُزِموا في حرف الحياة والموت».

إن هذا السَّطر الصَّغير من كلمات المَرشال الحربي يصيحُ كلُّ حرفٍ[٢] منه بآلام إنسانية سامية لا يدرك هؤلاء الحمقىٰ مداها، إنها حكمة الأجيال البعيدة قد جاءت تتكلَّم علىٰ لسان رجلٍ طاعن في السن، قد ذاق حلو الأيام ومرَّها، ومجَّد سيفه بالجهاد والفخر سنين عددًا، ثم ها هو يضع هذا السَّيف بضراعة وذلَّة وانكسار وتفجُّع، وينظر إليه نظراتٍ تئنُّ وتبكي وتتهالك، يا له من رجل!! يا له من حكيم!! يا له من فيلسوف في ثيابٍ حربية!!

---

(١) قائد جيوش فرنسا.

(٢) الأصل: حرب.

وإذا كان المَرشال بِيتان يعاني آلام التسليم بعد قتالٍ باسل فهو في هذا التسليم رجلٌ أيُّ رجل، رجلٌ رأىٰ أمته تتفانىٰ وتبيد بين يديه وعلىٰ مدِّ بصره، وليس في القتال بعد ذلك أيُّ خير إلا زيادة الجروح في قلوب الشعب الفرنسي، رجاله ونسائه، في أفئدة أمهاته وآبائه، في ذاكرة التاريخ التي لا ترضىٰ أن تكون الحماقة هي النهاية العقلية العظمىٰ للإنسان.

لقد نامت فرنسا جيلًا طويلًا من عمرها، واسترخت للذَّاتها، وعاشت علىٰ جوع شهواتها، وترفَّعت عن الجهد والمشقَّة وعَنَت البحث عن الحقيقة والعفَّة والشَّرف، فوجب إذن أن تتحمَّل تبعة الغفلة والمتابعة والانقياد لغرورها وغرور شيطانها الذي دفع بها بين براثن ضارٍ لا تقوم حقيقة ضراوته إلا علىٰ الافتراس والفَرفرة والقَضقضة[1] وقضم اللحم الطريِّ الغضِّ المعرَّض له.

إن فرنسا الذاهبة يجب أن تعطي الأجيال الفرنسية القادمة محنةً يتغلغل ذلُّها في صميم القلب؛ ليوقظ ذلك القلب من فراش اللذَّة المخدِّرة التي كان قد استلقىٰ عليها مسترخيًا في وَهدة بَسْطِه وسروره.

ولو أن المَرشال بِيتان حمَل الشعبَ الفرنسيَّ علىٰ غير هذا المركب لكان قد أساء إلىٰ وطنه الذي يحبُّه ضِعفَ ما أساء هذا الشعب إلىٰ نفسه، ولا يفوتنَّ أحدًا أن رجولة هذا الشيخ المسكين في احتمال عبء المذلَّة التي أرسلها القدرُ علىٰ فرنسا جزاء ما تواهنت وتناومت هي الرجولة التي لا تضارعها إلا رجولة المحارب الباسل المستعدِّ حين يأبىٰ إلا أن ينتصر أو يموت دون النصر، وبذلك تنتصر روحه علىٰ الذلِّ إلىٰ الأبد.

ولا تعجبنَّ إذا نحن وضعنا رجولة الزعيم الوطني الماجد «علي ماهر» علىٰ صراطٍ واحدٍ مع الجنرال بِيتان؛ فإن موقف هذا الرجل سوف يقف هو في التاريخ

(١) فرفر الذئبُ الشاة: مزَّقها. وقضقضها: كسرها.

المصري مثالًا علىٰ حِدَته، يتكلَّم بكلام الروح السَّامية التي تأبىٰ أن تندفع في التهوُّر إلىٰ نهاية الهلكة، إنه سوف يشرف علىٰ الأجيال المصرية القادمة ليقول لها: هذا رجل مصريٌّ قد استطاع أن يرقىٰ إلىٰ ذروة الجبل الشامخ، تتحطَّم تحت أقدامه كلُّ الحجارة المسنونة التي غرزتها في سبيله ومرقاه أعداءٌ باغيةٌ أرادت أن تدفع بمصر علىٰ يديه إلىٰ حضيض هذا الجبل مهشَّمة محطَّمة ذليلة قد هلكت علىٰ غرورٍ وخداع وفتنة.

إن هذا الرجل الحكيم الصَّارم قد أثبت عدَّة مرَّات في تاريخ مصر أنه ابنُ مصر الذي جرت في دمائه أحداث التاريخ المصري، وأنه الرجل الذي استوعب تاريخ مصر الاجتماعي والسياسي والأدبي والعقلي، فهو يعمل ويتحدَّث بإملاء هذا التاريخ وهديه، فليس يرىٰ وهو يدفع مصر إلىٰ ضلال تضلُّ به إلىٰ أن يصيبها ما أصاب الغزال المتفلسف الذي ذهبت به فلسفته إلىٰ أن يدرس سرَّ القوَّة المفترسة الكامنة في أنياب الأسد ومخالبه، فهذا الرجل سيكون وحيًا جديدًا في الفكر المصري ما وقف هذا الموقف من أجل مصر في أدقِّ الساعات التي تمتحن هذا الشعب امتحانًا قاسيًا عنيفًا مهددًا باغيًا.

وأنت تسألني: وأين هذا من الأدب الذي قد نصبتَ له نفسك، وعقدتَ علىٰ أسبابه عزمك، وعكفتَ عليه لا تحاول غيره؟!

وأنا لا أستطيع أن أجيب من يسأل، ولكني أعرف أن الأدب إذا لم يكن هو الذي ينشئ الرجال للشعب، وإذا لم تكن غايته أن يجري في دم الشعب ليحشد من مجموع الوراثات المصرية السابحة في الدم المصري جيشًا يستطيع أن يدافعَ عن مصر دفاعًا لا يكلُّ ولا يفتر، وأن يكون لهذا الجيش قائدٌ وحكيمٌ يستطيع أن يمسك الجيش أو يرسله علىٰ تدبيرٍ وسياسة وإحكام = فإن هذا الأدب الذي نعكف عليه وثنٌ باطل الصُّورة والمعنىٰ، فلا ينفع، بل ضره أكبر من نفعه في تخدير النفوس، وقتلها، وانتزاع حريتها، وإفساد فطرتها.

ونحن لا نشكُّ أن فطرة هذا السياسي البارع هي فطرةٌ أدبية محضة، وأن هذه الفطرة الأدبية التي طُبع عليها -وإن كنت لم أتشرَّف بمعرفته- هي التي حملته علىٰ أن يقف هذا الموقف لا يتزعزع في قصف هذه العاصفة المرسلة علىٰ الشعب المصري في ساعة يذهب فيها كلُّ عمل باطلًا إن لم يكن آتيًا من قِبَل الروح، ومسدَّدًا ببلاغة العاطفة، ومُعَانًا بإرهاف الحسِّ، ومؤزَّرًا بقوة البصيرة التي تتطلَّع من وراء الأجسام الطبيعية إلىٰ أسرارها وحقائقها، وموفَّقًا بتوفيق الله الذي أعطىٰ وسَلَب.

إن الحق لا يضيع ما دام في الدنيا من يستطيع أن يعبِّر عنه ببلاغة الفكر البياني العامل للأدب، ومن يستطيع أن يبين عنه ببلاغة العمل السياسي القائم علىٰ روح الشعب.

يجب علىٰ مصر أن تلتفَّ حول صاحب حريتها، تُعِينه لحماية شرف مصر الخالد، وأن لا تضيع الحكمة في سيلٍ من الأراجيف الكاذبة التي عاشت وتعيش أبدًا علىٰ الأباطيل والأضاليل.

إن الفكر المصريَّ قد وجد الرجل الذي بدأ[1] في جوِّه، فينبغي علينا أن نبدأ فكرًا جديدًا في تاريخ مصر الحديثة الذي جدَّده موقف «علي ماهر» شدَّ الله عزمه، وأبقاه لمصر حاميًا يذود عنها وحشية الذئب الخبيث العارِم.

---

(١) أي نشأ.

كلمة في بيت[1]

قرأتُ كلمة الأستاذ محمد أحمد عيد[2] في عدد الرسالة (٧٠٧)[3] تصحيحًا لخطأ وقعتُ فيه في نصِّ قول الشاعر[4]: «فقالت: من اي الناس أنت؟ ومن تكن؟»[5]، إذ جعلتُ «من تكن» استفهامًا، وهو شرط، كأنه قال: «ومهما تكن فإنك راعي صِرْمةٍ لا يَزِينها»، والبيت بهذا التصحيح أدقُّ معنًىٰ، وأبلغ في سياقة العاطفة التي أوحت بالشعر، ويكون قولي في شرحه أيضًا خطأً.

وأنا لا أزال أشكر الأخ الكريم علىٰ حسن تسديده للمخطئ، وكمال أدبه في دقة القراءة. وقد أحسن إليَّ من حيث أساء غيره ممَّن جعلهم الله علىٰ مَدْرَجة المثل الذي جرىٰ علىٰ لسان الأوائل، والذي وضعوه لمن يضع نفسه حيث لا يستأهل،

---

(١) مجلة الرسالة، العدد ٧٠٨، ٢٧ يناير ١٩٤٧.

(٢) شاعر وجداني، ولد في الإسكندرية، وتوفي في القاهرة سنة ١٩٥٢. معجم البابطين لشعراء العربية.

(٣) في باب البريد الأدبي: «إلى الأستاذ محمود شاكر: رأيتك أيها الأستاذ الفاضل تورد هذا البيت هكذا:

فقالت من ايِّ الناس أنت؟ ومن تَكُنْ؟ فإنك راعي صِرْمةٍ لا يَزِينها

بعلامة استفهام بعد (ومن تكن)، وأغلب ظني أن (مَنْ) هنا شرطية وليست استفهامية، والدليل على ذلك هذا الجزم في الفعل المضارع، فإنه لا محل له هنا في حالة الاستفهام، وهذا هو رأيي الضعيف والسلام. محمد أحمد عيد».

(٤) أعرابية أو رجل من بني كلاب، في «الحيوان» (٣/ ٥٣)، و«مجالس العلماء» للزجاجي (١٦)، و«أمالي المرتضى» (١/ ٥٠٨)، وغيرها.

(٥) مقال «بعض الذكرى» عن شيخه سيد بن علي المرصفي، مجلة الرسالة، العدد ٦٩٦، نوفمبر ١٩٤٦، وهو في «جمهرة المقالات» (١/ ٣١٤).

وهو قولهم: «متىٰ كان حكمُ الله في كَرَب النخلِ؟!»[1].

علىٰ أني أحبُّ أن أقول قولًا آخر أخشىٰ أن يكون له وجه، وإن كنت أوثر هنا القول الأول، وهو أن هذا الفعل ككثيرٍ من الأفعال التي كثر استعمالها، قد تلعَّبت به العرب لكثرة دورانه علىٰ ألسنتها، حتىٰ حذفوا منه الحرف الذي لا يُحْذَفُ من أمثاله، كقولهم: «لم يَكُ» في «لم يكن» وهو حرفٌ من نفس الفعل.

فلست أرىٰ ما يمنع هذه العرب الجريئة الألسنة أن تلعب به في الاستفهام في قولك: «مَن تكونُ؟»، فإنها إذا وقفت عليه كما تقف علىٰ قولك: «مَن تعرفْ؟» وهي تنوي الرفع، فيكون عندئذٍ «من تكونْ؟»، فتحذف أضعف أحرفه لالتقاء الساكنين، فتقول: «من تكنْ؟» في الاستفهام أيضًا.

وقد فعلت العرب مثل ذلك في قولك: «لم أبالِ»، فتوهَّمت الوقفَ علىٰ حرفٍ لا وقف فيه؛ لأن أصله «أبالي» المكسورة اللام من نفس الفعل بعد حذف الياء للجزم، فكانت عندها: «لم أُبَالْ»، فحذفت الحرف المستضعَف في الكلمة وهو ألف العلة، وقالت: «لم أُبَلْ»، واعتمدت ذلك وجرت عليه في غير الوقف.

وكالذي رُوِي عنهم أيضًا -رواه سيبويه وغيره- من قولهم: «لا أَدْرِ»[2]، فحذفوا الياء لكثرة استعمالهم له، كقولهم: لم أُبَلْ ولم يَكُ.

قال ابن سيده: «ونظيره ما حكاه اللحياني عن الكسائي: أقبل يضربه لا يألُ، مضموم اللام بلا واو»[3].

---

(١) مثلٌ لجرير الشاعر، قال يهجو الصلتان العبدي:

أقول ولم أملك سوابق عبرة متى كان حكم الله في كرب النخل

ديوانه (٢/ ٥٧٨، ١٠٣٧)، و«الأمثال» لأبي عبيد (٢٩٣)، و«طبقات فحول الشعراء» (٢/ ٤٠٥، ٤٤٩)، و«الشعر والشعراء» (١/ ٤٩٢).

(٢) «الكتاب» لسيبويه (٢/ ١٩٦، ٣/ ٥٠٦، ٤/ ١٨٤).

(٣) «المحكم» (٩/ ٣٩٣).

وقال الأزهري: «ربما حذفوا الياء من قولهم: «لا أدرِ» في موضع: «لا أدري»، يكتفون بالكسرة منها، كقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾ [الفجر: ٤]، والأصل: يسري»[١].

وقال الجوهري بمثل الذي قال به سيبويه أيضًا في تأويل الحذف في «لا أدرِ»[٢].

وهناك شواهد أخرىٰ لا خير في الإطالة بذكرها.

فهذا رأيٌ عسىٰ أن يكون فيه وجهٌ من الحق، ودلالةٌ علىٰ مقطعٍ من مقاطع الصواب؛ فإن العرب أجرأ علىٰ لغتها وأعرفُ بها وبما ينبغي لها وما لا ينبغي. ولولا ما تبعثر من ذخائر الذاكرة لاعتمدت هذا الرأي بشاهدٍ آخر في هذا الحرف بعينه كان مرَّ بي فأُنسِيتُه، ولعل الأخ يجعلُ بالَه إليه عسىٰ أن يجده أو يقع له.

محمود محمد شاكر

---

(١) «تهذيب اللغة» (١٤/ ١٥٦).

(٢) «الصحاح» (٦/ ٢٣٣٥).

إياكَ والقناعة .. حَذارِ من الحسرة[١]

محمود محمد شاكر

مدير تحرير مجلة المختار

الشعوب هي بانية الحضارات، أما خاصَّة العلماء والأدباء والفنَّانين فهم الصَّفوة التي تنشئ مجد الحضارة، فإذا تيسَّر للشعب أن يقف على أنباء العلوم والفنون والآداب، ويشارك في معرفتها والإلمام بأصولها، ثارت في نفسه تلك القوَّة الدافعة التي تحرِّك المرء إلى مُثُلٍ يتطلَّب تحقيقها يومًا بعد يوم وساعةً بعد ساعة.

فلا بدَّ إذن من شيء يغري الشعوب بأن تقرأ ثم تقرأ ولا تَكُفَّ، حتى لا ينقطع عنها المَدد الذي يُمِدُّها به صفوة العلماء والأدباء والفنانين.

---

(١) مجلة المختار من ريدرز دايجست، مايو ١٩٤٧. وقد تولى محمود شاكر إدارة تحرير هذه المجلة من يوليو ١٩٤٦ إلى نوفمبر ١٩٤٧ بدعوة من صديقه الأستاذ فؤاد صرُّوف صاحب مجلة «المقتطف»، فشارك في اختيار وترجمة موادها، وبثَّ في أعطافها شذرات تراثية فاخرة، واستطاع «أن يقدِّم مستوًى للترجمة الصحفية لم يُعْرَف من قبل» كما يقول أيمن فؤاد سيد في مقدمة «الدراسات العربية والإسلامية المهداة إليه» (ص: ١٥)، وقد دافع عن عمله فيها صاحبه وتلميذه الدكتور إحسان عباس وردَّ على من نال من وطنيته وزعم أن المجلة كانت تخدم هدفًا سياسيًّا مُرِّر تحت غطاء ثقافي، فذكر في حواره الثري مع علي العميم المنشور في كتاب «العلمانية والممانعة الإسلامية» (٣٢٦) أن محمود شاكر إنما «اشتغل بها لأنه كان قديرًا في معرفته باللغة الإنجليزية، وضليعًا في علمه بدقائق اللغة العربية، ولم يشتغل بها لأنه كان أجيرًا أو متواطئًا مع جهة مشبوهة». وفي كثير من موادِّ أعداد المجلة لتلك الفترة روحٌ من روح محمود شاكر وقبسٌ من بيانه، إلا أن الموادَّ المترجمة في المجلة لم تكن توقَّع بأسماء مترجميها، فلا يمكن تمييز ما ترجمه منها ممَّا راجعه وحرَّره من ترجمة غيره.

ونحن اليوم نعيش في عالم قد امتلأت جوانبه بألوانٍ من المعارف الإنسانية مختلفةٍ متباينة، تصدُر في آلافٍ من الكتب وملايينَ من نسخ المجلَّات والصُّحف، ولا طاقة للفرد بتتبُّع ضروب المعارف والمشاكل العالمية التي تضمُّها كلُّ هذه الملايين من الكتب والمجلَّات والصُّحف؛ فكان لا بدَّ للقارئ الوسط من مجلَّاتٍ تختار له من أنباء العلوم والآداب والمعارف الإنسانية ما يكفل له استمرار المَدد الذي يهديه إلىٰ هذه الألوان المختلفة المتباينة.

وفي هذه الرقعة المترامية من الأرض -من مراكش إلىٰ بلاد الهند- جيلٌ من الناس يبلغ تعداده أكثر من مئة مليون نسمة، كلُّهم يتكلَّم اللسان العربيَّ أو يقرؤه، وبين يديه حضارةٌ مستحدَثةٌ تزخر بالحياة والحركة، وتموجُ بألوانٍ من الفنون والآداب والعلوم، ولهذه الألوان كلَّ يوم جديد يذاع منها في كل ساعةٍ نبأٌ أو أنباء.

ثم يتلفَّت هذا الجيل في ماضيه، فيرىٰ حضارةً مجيدةً كانت تزخر بالحياة والحركة وألوانٍ من الفنون والآداب والعلوم، أفتراه يقنَع بالنظر والاستمتاع، أو بالذكرىٰ والتحسُّر؟!

أما الحياة فتقول لكلِّ حيٍّ: «إياكَ والقناعة، وحَذَارِ من الحسرة».

فهو يسمع نداءها، ويريد أن يستوعب ما أمامه، ويجدِّد الذي فات، فكذلك كُتِبَ عليه أن يجاهد جهادًا عنيفًا شاقًّا لا هوَادة فيه، حتىٰ يبني حضارةً جديدةً كالتي بناها له آباؤه وأجداده.

ومجلة «المختار» تؤدِّي اليوم جزءًا من المهمَّة العظيمة التي فُرِض علينا أن نؤدِّيها للعالم العربي، وهي اختيارُ الجيِّد ممَّا يُكْتَبُ ويُذاع من المعارف والعلوم في العالم العربي، فيَصِل بيننا وبين الحضارة الحديثة التي تحيط بنا من كلِّ ناحية، ويتيح لنا أن نعرف ما يستجدُّ من أنباء العلوم والمعارف والمشاكل الدولية التي لا غنىٰ لنا أن نقف عليها.

ولن يستطيع شعبٌ بعد اليوم أن يعيش في عزلة؛ فإن السُّرعة التي امتاز بها هذا العصر، في المواصلات والنقل والإذاعة، جعلت الدنيا كلَّها كأنها مدينةٌ واحدةٌ يعيش فيها ناسٌ لا بدَّ من تعاونهم وتعارفهم، حتىٰ يفهم بعضهم عن بعض، وينظر بعضهم إلىٰ خير بعض، أي أن يعيشوا بالتآخي والتفاهم، لا بالتقاطع والتدابر.

ونحن وإن كنَّا لا نزال في أول الطريق، إلا أن سالفَ مجدنا كفيلٌ بأن يحيي في نفوسنا تلك الشُّعلة القديمة التي أنارت للشعب العربيِّ القديم طريقه بين رُكَام الحضارات الغابرة، فاختار منها ما شاء، ثم صاغ لنفسه حضارةً عظيمةً كانت هي الأساس الأول للحضارة الغربية الحديثة.

ونحن اليوم في الموقف الذي وقفه آباؤنا من الحضارات السالفة، فعلينا أن نقرأ وأن نقف علىٰ كلِّ نبأٍ من العلوم والفنون والآداب، ونختار منها ما يلائم حضارتنا، وعلينا أن نعرف معرفةً دقيقةً مشاكل العالم الحديث؛ لنقرِّر لأنفسنا الخطَّة ونمهِّد السبيل الذي يفضي بنا إلىٰ المشاركة في بناء الحضارة الإنسانية العامة، وهي الأمل البعيد الذي يسعىٰ إليه الجنسُ البشريُّ كلُّه.

إن كلَّ كلمةٍ يقرؤها المرء توحي إلىٰ نفسه بمعنًىٰ أو مَثَلٍ يرشده في الطريق الذي كُتِبَ عليه أن يقطعه مُجِدًّا جاهدًا، فعليه أن يختار ما يقرأ، وعلىٰ الصُّحف والمجلات أن تختار لقرائها أولىٰ المعارف بالتتبُّع والقراءة، وهذه مجلة «المختار» لم تخلُ صفحةٌ من صفحاتها من هذا الحرص علىٰ أن تختار لقارئها العربيِّ أجودَ ما يسدِّده من المعارف، وأحسنَ ما يتطلَّب من المُثُل، وأقوىٰ ما يَحْفِزُه علىٰ أن يعمَل في الحياة بعزمٍ وحرِّية ومعرفة.

من التراث[1]

اختيار محمود محمد شاكر

قال عبد الله بن المعتز (٢٤٧ - ٢٩٦هـ):

ما بالمنازل لو سألتَ أحَدْ، ولقد يكون هوًى بهِنَّ ووُدْ

أزمانَ أمرحُ في عِنانِ صبًى، أجرِي إلى لهوي ولستُ أُرَدّ

والدهر لم تسمُجْ ملاحتُهُ، في أعصُرٍ أيامُهنّ جُدُد

غِرًّا بفجْعِ الدهر، متَّبعًا للهو حتىٰ قام، بي وقَعَد[2]

في غفلةٍ لا هَمَّ يعرفُها، فطفِقتُ أهزلُ بالزمان وجَدّ

فلئن أُصِبتَ بما تُسَرُّ به، ما كنتَ أولَ واجدٍ ففَقَد

بَلَغتْ مسرَّتُه مساءتَهُ، وأصاب عيشًا صالحًا ففسد

---

(١) مجلة الثقافة، العدد ١، أكتوبر ١٩٧٣. وقد حافظت على ضبط أبي فهر للأبيات وترقيمه للنص وطريقة كتابته، فلم أتصرَّف فيه ولم أجعل الأبيات في عمودين؛ لأن في وصله لما وصله ووضعه للفواصل حيث وضعها إبانة عن فهمه للأبيات وما يراه من مواضع السكت والتغني فيها، وأثبتُّ لذلك ما أثبته من النجوم الفاصلة في مواضعها بين الأبيات؛ لأن فيها كذلك تنبيهًا على ما يذهب إليه من أمر تشعيث الأزمنة ووحدة الأبيات، ولم أزد في شرح الأبيات على ما شرحه؛ ليكون النصُّ خالصًا له، **فكلُّ ما في الحواشي من الشرح فمن الأصل**، ولم أختمها باسمه اختصارًا واكتفاء بهذه الإشارة.

والقصيدة في ديوان ابن المعتز (٢/ ٥٨ تحقيق محمد بديع شريف)، (٣/ ١٤٥ تصحيح ب. لوين).

(٢) الغِرّ: الشابُّ الذي لا تجربة له. وقوله: «غرًّا بفجع الدهر» يعني: لم يجرِّب فواجع الدهر. والضمير في «قام وقعد» للَّهو.

ومحا المشيبُ خطوطَ زينته، ورمىٰ قَوامَ قناته بأوَد

وطواه خُلَّانُ الصفاءِ، كما يُطوَىٰ رداءُ البيع حين يُرَد

شدَّ الزمانُ عليه قبضتَه، فغدَوْا وقبضتُهُمْ عليه أشدّ

كم أنعُمٍ لي عندهمْ هلكتْ، لو عُدِّدتْ كان الترابُ يُعَد

ذلُّوا لفضلي وهو غائظهمْ، وتناولوا جُودي بكفِّ حسَد

فمددتُ إذ عثر الزمانُ يدي لتنالني منهمُ فأنهض، يد[1]

فوهَتْ، وردُّوها مخذَّلةً، لا تتَّقي محذورَها بسَند

وثَنَوْا أعنَّتَهم كما صَدَفتْ أعيارُ ماءٍ خِفْنَ فيه رَصَد[2]

* * *

قال العواذلُ حين شبتُ ألا ينهاكَ شيبُ الرأس قلتُ: فقَدْ

ولقد قَضَتْ نفسي مآربَها، وتبعتُ غَيًّا مرةً ورَشَد

ونهارُ شيْب الرأس يوقظ مَنْ قد كان في ليل الشباب رَقَد

* * *

يا مَنْ لساريةٍ سهرتُ لها، غَرَّاءَ بَشَّرَ برقُها ووَعَد[3]

لا تستقلُّ بها الرياحُ وَنًىٰ، حتىٰ تكونَ لها الجبالُ عَمَد[4]

---

(١) «يد» فاعل «تنالني».

(٢) الصدوف: الإعراض. و«أعيار» جمع عير، وهو حمار الوحش. و«الرصد» يعني: الصائد، يترصد له ليصيده. وحمار الوحش إذا ورد الماء يتوجَّس كلَّ حسٍّ ويتخوَّفه، فإذا أحسَّ أدنى صوت أسرع تاركًا موارد الماء.

(٣) السارية من السحاب: التي تسري، أي تجيء ليلاً، والجمع السواري.

(٤) استقلَّه: رفعه وحمله. والونى: الفتور وضعف الحركة.

مسجورةٍ بالبرق مُشعَلةٍ، كلظَىٰ الحريق أضاء ثم خمد[1]

مكظوظةٍ بالماء واطئةٍ آثارَ رجلِ المحْلِ حيث قصد

ما زال يسحُو الأرضَ وَابِلُها حيرانَ يومًا لا يريمُ وغَد[2]

حتىٰ أربَّتْ كلّ مَحْنِيَةٍ ثعبانُ سيلٍ يرتقي بزبَد[3]

والأرضُ إن قتَلَ الهجيرُ لها وَلَدًا أعاش لها الربيعُ وَلَد

* * *

مَثْوىٰ التي لجَّ الفؤادُ بها، سَقْيًا لتلك معاهدًا، وبلَد

أرضٌ بها خلَّىٰ الصبا رَسَني غرًّا، ولم يَقْدِرْ عليَّ فَنَدْ[4]

غرَّاءُ تكفُر باللثام سَنَىٰ قمرٍ، وتظلمُ بالسِّواكِ بَرَد[5]

* * *

ولقد وطئتُ الغيثَ يحملني طِرفٌ كلون الورد حين وَفَد[6]

يمشي فيَعْرِضُ في العِنان كما صَدَفَ المعشَّقُ ذو الدلال وصَدّ[7]

---

(١) مسجورة: مملوءة.

(٢) يسحو: يجرف. وسيل ساحية: يقشر كل شيء يجرفه، والهاء للمبالغة، والساحية المطرة الشديدة الوقع. لا يريم: لا يبرح. والمتحير من السحاب: الدائم الذي لا يبرح مكانه يصبُّ الماء صبًّا، ولا تسوقه الريح.

(٣) المحنية من الوادي: منعرجه حيث ينعطف. وأربَّ: أقام بالمكان ولزمه. والثعبان جمع ثَعْب -بفتح الثاء وسكون العين-، وهي مجامع الماء في مسيل الوادي، وهي فاعل «أربَّت».

(٤) الرسن: الحبل الذي يقاد به البعير وغيره، وتخليتُه إرخاؤه وإرساله. والفند هنا: اللوم.

(٥) تكفر: تغطى.

(٦) الغيث: الأرض أصابها المطر فكثر نباتها، والغيث: المطر. والطِّرف: الفرس. والضمير في «وفد» للورد.

(٧) عرض الفرس يعرض عرضًا: مرَّ عارضًا في عَدْوه، وذلك إذا عدا عارضًا صدره ورأسه، مائلاً.

طارت به رِجلٌ مُلسَّعَةٌ، رَجَّامةٌ لحصىٰ الطريق ويَد[١]

جَمَّاعُ أطرافِ الصُّوار فما الأخرىٰ عليه إذا جَرَىٰ بأشد[٢]

بلَّ المها بدمائهنَّ ولم يبتلَّ منه بالحميم جَسد[٣]

وكأنه رَشَأٌ برابيةٍ يعطُو بأكرمِ صفحتين وخَدّ[٤]

وكأنه موجٌ يذوب إذا أطلقْتَهُ، وإذا حَبستَ جَمَد

وكأنه بَرَدٌ علىٰ أَسَلٍ طارت به الأرواحُ ثم رَكد[٥]

لَمَّا أُذيق السوطَ طار وقد جار الغلامُ عليه حين جَلَد

* * *

ولَرُبّ خَصمٍ جاش مِرجلُهُ أطفأتُ حَرَّ جحيمه فبَرَد

ولقيتُه مني بقاطعةٍ مَلأْته تصديقًا بها وكمد

وسَفَرتُ عن وجه اليقين له، وهدمتُ باطلَه وكان ألدّ

* * *

لي صاحبٌ إن غبتُ يأكلني، وإذا رآني في النَّديِّ سجد

كم قد هممتُ بأن أعاقبهُ يومًا فما وجد العقابُ أحد

وفقدتُ قومي غيرَ شرِّهمِ، وطلبتُ خيرَهمُ فلستُ أجد

---

(١) ملسَّعة: من اللسع، يريد الخفّة والسرعة. ورجامة: من الرجم، وهو الرمي بالحجارة.

(٢) الصوار: القطيع من بقر الوحش. ويعني بالأخرى عَدْوه وراءه لصيده بعد تجميعه.

(٣) المها: جمع المهاة، وهي بقرة الوحش. والحميم هنا: العرق.

(٤) الرشا: الظبي. وعَطْوُه: مدُّ عنقه إلى الشجر للتناول منه.

(٥) البَرد: حبّ الغمام. والأسل: شجر. والأرواح: الرياح.

فبقيتُ أندبُ معشرًا هلكوا، عَرَمَ الزمانُ عليهمُ ومَرَد[1]

كانوا يُريغون البقاءَ، فقد ساق البقاءَ فناؤهمْ ففسد[2]

والدهرُ يهدمُ ما بنىٰ بيدٍ منه، وإن زَرَع السُّرورَ حصد

يا ليتَ مَن أبقاهُ مُخترَمٌ منَّا ومَن أفناه كان خَلَد[3]

---

(١) عرم: اشتدّ. ومَرَد: عتا وطغى.

(٢) أراغ الشيءَ: أراده وحرص على طلبه.

(٣) مخترم: هالك.

تساؤلات داخل حياتنا الثقافية[1]

لا أتفق مع الأستاذ سامح كريم حين جعل سلسلة «عالم المعرفة» مقياسًا لما ينبغي أن يتمَّ في مسألة الكتاب العربي، وذلك لأن السعر الذي يباع به الجزء الواحد من هذه السلسلة وهو (خمسة وعشرون قرشًا) سعرٌ لا يكاد يصدَّق!

ولماذا نبعد؟! إن هذا السعر استحال تحقيقه داخل الكويت نفسها، كما هو واضحٌ من الأسعار المطبوعة علىٰ الغلاف، إنه يباع هناك بأكثر من ضعف ما يباع به في مصر.

ومن هنا يصعب علىٰ مؤسساتنا الثقافية أن تبيع كتبها بما يقارب هذا السِّعر، ولا عجب علىٰ ذلك، فتكاليف ورق هذا الجزء وطبعه وتجليده يتجاوز نصف دينار كويتي، أي ما يزيد عن الجنيه والربع، هذا إذا كان المطبوع منه ثلاثين ألف نسخة، وبديهيٌّ أن يزيد سعر النسخة الواحدة من الكتاب كلما قلَّت أعداد النسخ المطبوعة.

فكيف إذن يباع الكتاب الواحد من هذه السلسلة في مصر بأقلَّ ممَّا يباع به داخل الكويت؟! وكيف تتخذه مقياسًا لما ينبغي أن نسير عليه في نشر كتبنا الثقافية؟!

وزيادة أسعار الكتب في مصر التي أشار إليها الكاتب لها ما يبررها، إنه الغلاء العامُّ في جميع ما نعيش به، وفي مجال الكتب لقد وصل سعر طبع الملزمة إلىٰ أربعة أمثالها، والسبب في هذه الزيادة راجعٌ إلىٰ ارتفاع أجور العمَّال وأسعار الورق والحبر والحروف المسبوكة، إلىٰ جانب ارتفاع أسعار آلات الطبع الحديثة، فكيف إذن يمكن أن تبقىٰ الأسعار كما كانت منذ عشر سنوات؟!

---

(١) جريدة الأهرام، ٢٧ أكتوبر ١٩٧٨.

ومسألة تدخُّل الدولة كمدعِّمة للكتاب حتىٰ ينخفض ثمنه، فهذا يقتضي أن تكون الدولة مقتنعة اقتناعًا كاملًا بشؤون الثقافة، وفي هذه الحالة ينبغي علىٰ الدولة أن تهتمَّ بأشياء كثيرة تتعلَّق بالكتاب، وفي مقدمتها حقُّ مؤلف الكتاب نفسه؛ لأنني لا أتصوَّر أن يقضي المؤلف سنة أو سنتين وربما ثلاثًا في تأليف كتاب، ثم لا يزيد تقديره الماديُّ عن المئتي جنيه، وكأنَّ تخفيف عبء تكاليف الكتاب لا يتحمَّله إلا المؤلف!

ولست أدري كيف ينصرف الكاتبُ إلىٰ تأليف كتاب، ويعكف علىٰ ذلك سنتين أو أكثر، وهو يعلم مقدَّمًا أن ما يتقاضاه من المال أقلُّ ممَّا يتقاضاه عامل المطبعة في شهرين أو ثلاثة؟! وهذه مقارنةٌ مؤذية، ولكنها ضروريةٌ علىٰ أي حال!

وقد أتفق مع الأستاذ سامح كريم من الوجهة النظرية -والنظرية فحسب- في قوله بأن زيادة أعداد المطبوع من الكتاب يقابلها انخفاضٌ في سعر الكتاب، ولكنني أختلف معه من الوجهة العملية اختلافًا كبيرًا، فهب أننا طبعنا من الكتاب الذي يُطْبَع منه الآن خمسة آلاف نسخة مئة ألف نسخة مثلًا -كما قرأت في أحد التعليقات- فهل نضمن تسويته في سنة أو سنتين أو حتىٰ خمس سنوات، أم أن مصير هذه المئة ومئاتٍ أخرىٰ هو الإيداع في المخازن، لنبني هرمًا ضخمًا من العائد المخزون؟!

إن طبع مئة ألف نسخة من كتاب ثقافي ويتمُّ تسويقها[1]، أنا لا أصدِّق ذلك! وإلا لأصبح عدد قراء الثقافة في بلدنا قريبًا جدًّا من عدد قراء الصحافة!

ثم كيف يزيد طلاب الثقافة علىٰ هذا النحو ونحن نلاحظ أن العمارة الواحدة التي فيها عشرون شقَّة، سكَّانها من المقتدرين، قلَّ أن يكون فيها شقَّة واحدة يدخلها كتابٌ ثقافي في كل سنة وليس كل شهر!

كيف يتمُّ هذا والمقتدرون علىٰ شراء الكتب عددٌ كبيرٌ جدًّا يفضِّلون الذهاب هم

---

(١) كذا وقعت العبارة في الأصل.

وذووهم إلىٰ دور السينما واللهو في كل أسبوع علىٰ شراء كتاب واحد في كل شهر؟!

إن الراغبين رغبة أكيدة في شراء الكتب طلبًا للثقافة عددٌ قليلٌ جدًّا، هم من غير المقتدرين، وأكثرهم يتواجد في عواصم المحافظات حيث تصله الكتب، وهذه القلة لا تمثِّل بأيِّ حالٍ من الأحوال قدرةً شرائية بين أربعين مليونًا.

إن للثقافة علينا حقًّا، هو أن يكون بين الأربعين مليون نسمة الذين يكوِّنون تعداد مصر وحدها مليونٌ واحدٌ يسعىٰ إلىٰ الكتاب وقراءته، فهل يحدث هذا؟!

الحقُّ أن بَوار الثقافة الذي أحدث هذه المشكلة التي أحسَن تصويرها والكتابة عنها بصدقٍ وإخلاص الأستاذ سامح كريم هو أن دولنا لا تهتمُّ أصلًا اهتمامًا صحيحًا بإنتاج المثقف الذي يسعىٰ إلىٰ طلب الثقافة حيث تكون، أي أنها في الأصل لا تعنىٰ بالمدرِّس ولا بتعليمه ولا بقدرته ولا برزقه الذي يتقاضاه ولا شيء يتيح له تخريج عددٍ صالح من بين الملايين التي تلتحق بالمدارس عامًا بعد عام.

تبقىٰ المشكلة الأزلية أو الطامَّة الكبرىٰ التي تتمثَّل في المؤلفين أنفسهم، إني ألاحظ من قراءاتي لكثيرٍ ممَّا يصدر وأنفِق أكثر مالي في شرائه منذ كنت صبيًّا إلىٰ اليوم أن الكتب التي تستحقُّ أن يطلق عليه «كتب ثقافية» عددٌ قليلٌ جدًّا في هذا الموج الزاخر مما تخرجه المطابع.

إنني لا أظنُّ أن هذه الكثرة من المؤلفين عاجزةٌ عن تجويد ما تكتب، ولكنها فيما أظنُّ تتعجَّل التزوُّد ببعض المال؛ لأن ضرورات الحياة في هذا الزمان تحملهم علىٰ التساهل، والتساهل يقودهم إلىٰ عدم المبالاة، وعدم المبالاة يصبح بعد ذلك عادةً يستعصي عليهم إصلاحها.

ومن العجيب أن تكون هذه الظاهرة أكثر وضوحًا في المعروفين من الكتَّاب منها في المجتهدين من الناشئة! وهذه مسألةٌ عجيبةٌ لا أدخل في تفسيرها.

إن مشكلة الكتاب العربي علىٰ جانب كبير من الأهمية، هي تتطلب البحث الدائم والمناقشة الهادئة لإيجاد الحلول المفيدة لها. وهي أيضًا جديرةٌ باهتمام «الأهرام» في هذه الآونة الأخيرة التي يمرُّ فيها الكتاب خاصَّة بمحنة، والثقافة عامَّة بأزمة[1].

---

(١) كتب سامح كريم بجوار مقال الأستاذ محمود شاكر:

تحية أكثر منها تعقيبًا

الرد على إنسان تحبه وتحترمه محاولة صعبة أشبه ما تكون بتجربة إشعال ثقاب وسط العاصفة.. هذا ما شعرت به عندما حاولت التعقيب على أستاذي الكبير محمود محمد شاكر. فمع تقديري لهذا الاهتمام المشكور بما كتبتُ والذي جاء من عالم لغويٍّ مدقق، وكاتب فذٍّ يعرفه قراء العربية من الخليج إلى المحيط، أجد نفسي مضطرًّا للتعقيب على بعض ما جاء في رده؛ لأسباب كثيرة أهمها إيماني بأن كلمته التي لها وزن عند القارئ جديرة بالرد على ما نسب إليَّ فيها من تقصير.

* الأستاذ محمود محمد شاكر يستهل رده بالاختلاف معي حين تصور بأنني جعلت سلسلة «عالم المعرفة» مقياسًا في مسألة الكتاب عندنا. وأقول: إنني لم أجعلها مقياسًا؛ لأنني أعرف أن ظروفنا تختلف عن ظروف الكويت، بل اعتبرتها مدخلًا للتساؤلات لا أكثر ولا أقل.

* والأستاذ محمود محمد شاكر يرى أن زيادة أسعار الكتب بهذه الصورة الفاحشة التي تصل إلى عشرة أمثال أسعارها منذ سنوات لها ما يبررها، واندهش لهذا القول. فالمسألة تتعلق بالكتاب الثقافي الذي لا فرق بينه وبين رغيف الخبز، وقياسًا على ذلك هل يمكن أن نبرر مثلًا ارتفاع سعر رغيف الخبز من قرش إلى عشرة قروش ونقول: إنه الغلاء العام الذي نعيش به؟! لا أعتقد ذلك، وإلا لما كان هناك ما يسمى تدعيم الدولة للكثير من الخدمات.

* ويختلف الأستاذ محمود محمد شاكر معي من الناحية العملية -وإن كان يتفق من الناحية النظرية- في أن زيادة أعداد المطبوع من الكتاب يقابلها انخفاض في سعره. وربما يزول هذا الاختلاف بيننا إذا ذكَّرت سيادته بما كتبت، وكيف أنني لم أطلقه هكذا، بل ربطت ذلك بشرطين هما: الجودة وضمان التوزيع، وإذا توافر ذلك مع انخفاض السعر تحققت نسبة كبيرة من المبيعات.

وفي الختام.. أرى من واجبي نحو أستاذي الكبير محمود محمد شاكر أن أقول: إن هذه السطور جاءت تحية أكثر منها تعقيبًا.

سامح كريم

المستشرقون والثقافة العربية[1]

ما دمتَ قد سألتَ في الأسبوع الماضي عن المستشرقين، والشعر الجاهلي، وابن سلَّام صاحب كتاب «طبقات فحول الشعراء»، ومرجليوث صاحب مقال «نشأة الشعر الجاهلي»، وذكرتني مستشهدًا، فواجبي أن أضع لك القضية في وضعها الصحيح.

فالمستشرقون بهذا الإطلاق غير المحدَّد لم يقولوا: إن الشعر الجاهلي موضوعٌ كلُّه أو أكثره، ولا أن الكثرة المطلقة مما نسمِّيه شعرًا جاهليًّا ليست من الجاهلية في شيء، فهي إسلامية تمثِّل حياة المسلمين وميولهم وأهواءهم أكثر مما تمثِّل حياة الجاهليين، وأن ما بقي عندنا من الشعر الجاهلي الصحيح قليلٌ جدًّا لا يمثِّل شيئًا ولا يدلُّ علىٰ شيء.

لم يقل المستشرقون هذا، بل قائله مستشرقٌ واحدٌ لا غير، هو مرجليوث. ومن الإنصاف للمستشرقين أقول لك: إن كثيرًا منهم من شيوخ مرجليوث وأقرانه وتلامذته قد رفض هذه القضية وردَّ عليها ونقضها. وكان من آخرهم فيما أعلم المستشرق آربري، فقد لخَّص أدلة مرجليوث ونقضها عليه، وذلك في كتابه «المعلقات السبع»، ثم قال في آخر كلامه: «إن السَّفسطة -وأخشىٰ أن أقول: الغشَّ- في بعض الأدلة التي ساقها الأستاذ مرجليوث لا تليق البتة برجل كان ولا ريب من أعظم أئمة العلم في عصره».

هذا هو الوضع الصحيح لقضية الشعر الجاهلي عند المستشرقين الكبار القدماء، ولا أدري ما هو رأي المستشرقين المُحْدَثين اليوم؛ لأني اطَّرحتُ الاستشراق كله من حسابي منذ زمن بعيد؛ لأسباب معروفة عندي علىٰ الأقل.

---

(١) جريدة الأهرام ٣٠ أبريل ١٩٨٢.

أما ابن سلَّام (١٣٩- ٢٣٢هـ) صاحب كتاب «فحول الشعراء»، فهو من قضية مرجليوث ومن قضية الشعر الجاهلي بمعزل. وسأوضح لك الأمر كلَّه باختصارٍ شديد وبلا خلطٍ ولا تخليط.

لفظ «الشعر الجاهلي» حين يُطلق لا يراد به إلا الشعر العربي الذي كان قبل الإسلام بنحو مئة وخمسين سنة. وشعراء هذه الفترة معروفون بأسمائهم، وقد أَلِفَ الناس أن يجعلوا أوَّلهم أو من أوَّلهم «امرأ القيس الكندي اليمني».

هذا هو التحديد المشهور، وهذا هو الشعر الجاهلي العربي عند العلماء وغير العلماء.

ولكن كان في عهد ابن سلَّام كتبٌ فيها شعرٌ عربيٌّ آخر، منسوبٌ إلىٰ أمم بائدة من العرب، هم «عاد وثمود وحمير وتبَّع»، بل إلىٰ أبينا آدم عليه السلام، فأشار في مقدمة كتابه إلىٰ هذا الشعر، فقال: «وفي الشعر مصنوعٌ موضوعٌ لا خير فيه ولا حجة في عربيته»، وذمَّه ذمًّا شديدًا، ثم قال لمن حمل إلىٰ الناس هذا الشعر: «أفلا يرجع إلىٰ نفسه فيقول من حمل هذا الشعر وأدَّاه منذ آلاف السنين: والله تعالىٰ يقول: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ۝٥٠ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبْقَىٰ﴾ [النجم: ٥٠- ٥١]»[1]، فهذا قطعٌ ببطلانه، لا شكَّ فيه، وذلك لتطاول الزمن وهلاك هذه الأمم من العرب البائدة عادٍ وثمود.

ثم ذكر العرب المستعربة أبناء إسماعيل عليه السلام، فقال: إن العرب تنتسب إليه، وتقف عند أبيهم عدنان، وبين عدنان وأبيه إسماعيل آلافٌ من السنين، وإن «معدّ بن عدنان» كان بإزاء موسىٰ بن عمران عليه السلام، ومع ذلك فنحن لا نجد لهؤلاء العرب الأوائل من «معدّ بن عدنان» شعرًا، فكيف بعادٍ وثمود؟!

هذه حجةٌ أخرىٰ مرتبطةٌ بالزمن وتطاوله.

---

(١) «طبقات فحول الشعراء» (١/ ٨).

ثم استدلَّ بدليل آخر مرتبطٍ بتطاول الزمن، ثم قال: «إنه قد بقيت بقايا قليلة في أقاصي اليمن كان عندهم بقيةٌ من لسان حمير، وهم عربٌ ولسانهم عربيٌّ أيضًا، وزمانهم أقرب عهدًا من زمان عادٍ وثمود»، ذاكرًا قول أبي عمرو بن العلاء (٧٠- ١٥٤هـ) في ذلك، وهو «ما لسان حمير وأقاصي اليمن اليوم بلساننا، ولا عربيتهم بعربيتنا»، فكيف بما علىٰ عهد عادٍ وثمود؟!

وهذه الحجَّة الأخيرة هي التي ضلَّلت من شكَّ في الشعر الجاهلي؛ لأنه وضعها في غير موضعها، وصرفها إلىٰ الشعر الجاهلي في اليمن قبل الإسلام بمئة وخمسين سنة.

وقد ختم ابن سلَّام كلامه في هذه القضية وبيَّن ما عناه من الشعر، فقال بلفظٍ واضح لا لبس فيه: «لم يكن لأوائل العرب من الشعر إلا الأبيات يقولها الرجل في حاجته، وإنما قُصِّدت القصائد وطُوِّل الشعر علىٰ عهد عبد المطلب وهاشم بن عبد مناف (يعني قبل الإسلام بنحو مئة وخمسين سنة)، فهذا يدل علىٰ إسقاط شعر عادٍ وثمود وحمير وتبَّع»[1].

هذا تحديدٌ واضحٌ وقطعٌ ببطلان الشعر المنسوب إلىٰ هذه الأمم التي ذكرها، والتي لا يدخل شعرُها تحت اسم «الشعر الجاهلي»، هذا قطعٌ بالبطلان لا شكَّ في الشعر الجاهلي الذي يضمُّ الشعر العدناني والقحطاني اليمني.

بقيت قضيةٌ أخرىٰ تعرَّض لها ابن سلَّام في كتابه عن فحول شعراء الجاهلية والإسلام، واستُخدِمت استخدامًا سيئًا جدًّا.

وخلاصة القضية بلفظ ابن سلَّام، لا بلفظي أنا، ولا بلفظ من خلطوا بين القضيتين. قال ابن سلَّام: «وكان قومٌ قلَّت وقائعُهم وأشعارهم، فأرادوا أن يلحَقوا بمن له الوقائعُ والأشعار، فقالوا علىٰ ألسنة شعرائهم، ثم كانت الرواة بعدُ فزادوا في

---

(١) «طبقات فحول الشعراء» (١/ ٢٦).

الأشعار التي قيلت. وليس يُشْكِل علىٰ أهل العلم زيادةُ الرواة، ولا ما وضعوا، ولا ما وضع المولَّدون، وإنما عَضَل بهم (أي صعب عليهم) أن يقول الرجلُ من أهل البادية من ولد الشعراء أو الرجل ليس من ولدهم، فيشكِل عليه بعض الإشكال»[1].

فهذا كما ترىٰ ليس شكًّا في الشعر الجاهلي، بل هو الدليلُ القاطع الحاسم علىٰ أن العلماء بالشعر قبل ابن سلَّام وبعده قد محَّصوا لنا هذا الشعر ووثَّقوه وأدَّوه إلينا علىٰ أعظم وجه.

أما قضية الزيادة في شعر شاعرٍ أو نسبة شعرٍ إليه ليس من شعره، فهذه قضيةٌ معروفة في جميع آداب الأمم.

فهذا شكسبير -مثلًا- تعرَّضت بعض أعماله للنقد، وقيل: إنه لم يكتبها هو، بل كتبها فلان، فهل يمكن عند ذلك أن نشكَّ في شعر شكسبير كلِّه ونطرحه كلَّه حتىٰ بعد أن يثبت علىٰ وجه القطع صحَّة ذلك الشك؟!

وفي زماننا هذا جُمِع شعرُ الدكتور ناجي، ثم تبيَّن لبعض الباحثين أن في ديوانه قصائد ليست له، فهل يجوز لي أنا بصفتي معاصرًا له أن أشكَّ في شعر ناجي كلِّه، وأقول: إنه مصنوعٌ كلُّه، وأضمَّ إليه شعر علي محمود طه، ومحمود حسن إسماعيل، ثم أرتفع بهذا الشكِّ إلىٰ شوقي وحافظ والبارودي؟!

هذه أساليبُ عجيبة تأتي في زمن عجيب!

ابن سلَّام يا سيدي لا يشكُّ في شعرٍ هو أحد حفَّاظه وعلمائه، ثم يؤلِّف في هذا الشعر وشِعرائه كتابًا قائمًا برأسه هو كتاب «طبقات فحول الشعراء»، فلماذا نزيِّف الحقائق؟!

---

(١) «طبقات فحول الشعراء» (١/ ٤٦).

شواهد التوضيح لتقدير «أن» في بعض الأساليب[1]

ومِمَّا[2] حُذِفَ فيه (أن) واكتُفِيَ بصِلَتها:

١- قوله تعالىٰ: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ ﴾ [الروم: ٢٤]، والأصل: «أن يريكم»؛ لأن الموضع موضع مبتدأ خبره ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ ﴾[3].

٢- ومثله قوله عليه السَّلام: «لا يحلُّ لامرأة تؤمنُ بالله واليوم الآخر تحدُّ علىٰ ميت فوق ثلاث» (البخاري في الجنائز) «باب حدِّ المرأة علىٰ غير زوجها» (الفتح ٣: ١١٧).

٣- وقوله عليه السَّلام: «لا يحلُّ لامرأة تسأَلُ طلاقَ أختها» (البخاري في النكاح، باب الشروط التي لا تحل في النكاح) (الفتح ٩: ١٩)[4].

أراد «أن تحدَّ»، و«أن تسأل».

٤- قال هذا تعليقًا علىٰ الخبر «نحن الآخرون السَّابقون يوم القيامة، بيد كل أمة أوتوا الكتاب من قبلنا»[5]، والأصل في رواية[6] من روىٰ «بيد كل أمة»: «بيد أن كل أمة»، فحذف (أن) وبطل عملها.

---

(١) بحث منشور في كتاب «في أصول اللغة» الصادر عن «مجمع اللغة العربية» بالقاهرة (٤/ ٨١)، من أعمال الدورة الخمسون (١٩٨٣ - ١٩٨٤)، وكُتِب في حاشية عنوان البحث: «للأستاذ محمود شاكر - عضو المجمع». وجميع الحواشي المذكورة هنا من الأصل إلا ما نبهت فيه على خطأ ما في الأصل. وقد رقَّمتُ الشواهد، ولم ترقَّم في الأصل.

(٢) في الأصل: «وما»، ولعله خطأ.

(٣) «شواهد التوضيح لمشكلات الجامع الصحيح» لابن مالك (ص ١٥٥).

(٤) «الفتح» (٣/ ١١٧، ٩/ ١٩٠).

(٥) «الفتح» (٦/ ٣٨١).

(٦) في الأصل: «الرواية»، وهو خطأ.

وهذا الحذف في (أن) نادر، لكنه غير مستبعدٍ في القياس علىٰ حذف (أن)؛ فإنهما أختان في المصدرية، وشبيهان في اللفظ.

٥- في حديث معاذ بن جبل قال: «لو كنتُ آمرًا بشرًا يسجدُ لبشرٍ لأمرتُ المرأة أن تسجد لزوجها»[١].

٦- في حديث أنس بن مالك (الأدب المفرد رقم ٢٧٨): «جاء أعرابيٌّ فأخذ بثوبه، فقال: إنما بقي من حاجتي يسيرة، وأخاف أنساها».

٧- في حديث لهشام بن عامر: «لا يحل لمسلم يُصَارِم مسلمًا فوق ثلاث ليال». (رقم٤٠٧).

٨- حديث حرملة بن عبد الله قال: «قلت يا رسول الله: ما تأمرني أعمل» (رقم ٢٢٢).

٩- «ليس يُحْسِن يَكْتُب»[٢].

١٠- حديث سعد بن أبي وقاص، قال عمر بن الخطاب: «لقد شكَاكَ أهلُ الكوفة في كلِّ شيء، حتىٰ زعموا أنك لا تحسنُ تصلي بهم»[٣].

١١- حديث جابر بن عبد الله، عبد الله بن أنيس: «أنا[٤] المَلِك، لا ينبغي لأحدٍ يدخلُ الجنة وأحدٌ من أهل النار يطلبه بمظلمة، ولا ينبغي لأحدٍ[٥] من أهل النار يدخل النار وأحد من أهل الجنة يطلبه بمظلمة»[٦].

---

(١) «مسند أحمد بن حنبل» (٥/ ٢٨٨).

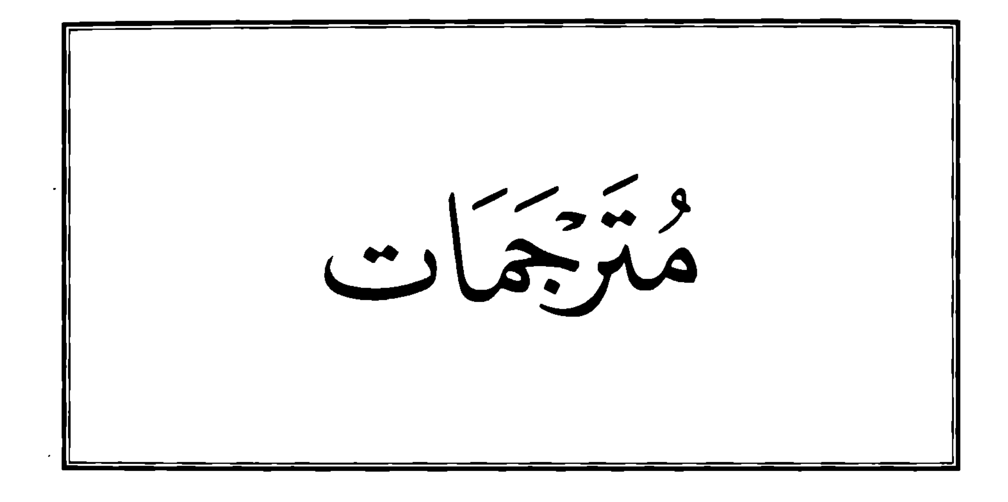
(٢) فيَ «مسند أحمد بن حنبل» (٤/ ٢٩٨)، «تاريخ الطبري» (٣/ ٨٠).

(٣) «مسند الحميدي» (١/ ٣٨)، و«مسند أحمد» رقم ١٥١٨، ١٥٤٨، ١٥٥٧.

(٤) في الأصل: «إن»، وهو خطأ.

(٥) في الأصل: «أحد»، وهو خطأ.

(٦) «الأدب المفرد» رقم ٩٧٠، «المسند» (٤/ ٤٩٥).


مُتَرجَمَات

الإنذار المثلث

لأرثر شنتزلر الكاتب النمسوي[1]

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [الأنعام:٥٩].

خرج الفتىٰ والضباب يحجب وجه النهار إلا فتوقًا تنفذ معها اللَّمحات إلىٰ عنان السَّماء الزرقاء، وسار يطوي الأرض إلىٰ الجبال وقد خيِّل إليه أنها تناديه، وكان قلبه كأنما يرقص بين جنبيه علىٰ نغم الطبيعة المنسجم، فسار في السُّهول خليًّا لا يكبو به همٌّ فيما مضىٰ أو فكرٌ فيما يستقبل، فلمَّا أشرف علىٰ طرف الغابة ابتدر سمعَه دويُّ صوتٍ فيه خفاءُ البعيد ومسُّ القريب، فسمع نبأةً خافتةً توحي إليه:

- لا تخترق الغابة، يا فتىٰ، إلا إذا سرَّك أن تكون قاتلًا.

فوقف الفتىٰ ذاهلًا يتلفَّت، فلمَّا لم يجد حيًّا ولا ناطقًا ذهب به الظنُّ إلىٰ أن الجنَّ كانت تحدِّثه وتهتف به، ولكنه لم يعبأ بذلك؛ لما جُبِل عليه من الجرأة والثبات، فمضىٰ لا يلوي علىٰ شيء إلا أنه وَضَع من سرعة سيره؛ إذ استيقظت فيه غريزة الاحتراس، فكان يستعدُّ للقاء ذلك العدوِّ المجهول الذي أنذره.

لم يلق الفتىٰ أحدًا في سيره، ولا سمع صوتًا يقذف في روعه بالريبة، حتىٰ نفذ من ظلال الأشجار إلىٰ الفضاء الرَّحب، وهناك في برد الظلال ألقىٰ العصا وجلس

---

(١) مجلة المقتطف، الجزء الثاني من المجلد الرابع والثمانين، ١٦ شوال ١٣٥٢- ١ فبراير ١٩٣٤. وكتب في آخرها: أفرغها في القالب العربي محمود محمد شاكر.

يستجمُّ ويستروح، واستقرَّ ببصره علىٰ المروج الفيحاء الممتدَّة إلىٰ سفوح الجبال، وقد نهَدت بين هذه السفوح قمَّةٌ شامخةٌ جرداء ناتئة الأضراس، وكانت هي الهدف الذي يرمي بأشواقه إليه.

لبث هنالك ما شاء، وما كاد ينهض حتىٰ سمع نأمَة صوتٍ كأنه قريبٌ بعيدٌ معًا يوحي إليه في جدٍّ وحرارة:

- لا تخترق المروج، يا فتىٰ، إلا إذا سرَّك أن تجلب الدَّمار علىٰ وطنك.

وكأنَّ ما بين جنبيه من الكبرياء والتقحُّم أبىٰ عليه أن يعبأ بهذا النذير، فابتسم لهذه التُّرَّهات الباطلة التي يوحي إليه بها الهواء، وكأنها تنطوي علىٰ أمرٍ ذي بال، وأسرع الفتىٰ يتدفَّق في سيره، وما يدري أيستحثُّه القلقُ أم يستفزُّه الجزع، فلما بلغ مواطئ ذلك العملاق الصخريِّ الذي رمىٰ إليه بنفسه كان الليل قد أرخىٰ ستوره علىٰ المَرْج، وما كاد الفتىٰ يطأ الصخر حتىٰ راعه ذلك الصَّوت القريب البعيد، يقول في تهديدٍ غامض:

- علىٰ رِسلك أيها الفتىٰ وإلا لقيتَ الحتف.

فقهقه الفتىٰ، ثم مضىٰ مسرعًا لا يتردَّد، وكان كلما استوعرت مسالكه ومطالعه امتلأ صدره بهواء الجبل اللطيف، فلمَّا بلغ القمَّة كان نور الشفق يتلألأ علىٰ هامته.

«ها أنذا» يُرسِلها بصوت الظافر «إن يكن هذا امتحانًا منكِ أيتها الروح الصَّالحة -أو أيتها الروح الشرِّيرة- فها أنا قد فزتُ وبلغت، لم أرتكب جريمة قتلٍ تلوِّث قلبي أو ضميري، وها هو وطني ينام في ظلال الأمن والعزَّة، وأما أنا أيتها الروح فما زلت حيًّا ينبضَ قلبي بالحياة، فكن لمن تشاء أيها الصَّوت، فأنا أقوىٰ ممَّن أرسلك إذ لم أؤمن بك، ولقد أحسنت».

وإذا بصوت كقاصف الرعد يجلجل من جوانب السماء، وكأن قصفه في أذنيه:

- أخطأتَ يا فتىٰ أخطأتَ.

وقعَت هذه الكلمة ثقيلةً عليه، فلم يطق حملها، واستلقىٰ علىٰ حافة الجبل ليجد مسَّ الراحة، وأخذ يجمجم بهذه الكلمات، وقد لوىٰ شفته ساخرًا.

- أتراني قد اقترفتُ جريمة قتلٍ ولا علم لي بما جنيت؟!

فدوَّىٰ الصَّوت:

- إن قَدَمَك الغافلة قد أزهقَت روح دودةٍ من دود الأرض.

فأجاب الفتىٰ مستخفًّا ساخرًا:

- الآن فهمت، فليس النذير من الأرواح الصَّالحة أو الشرِّيرة، وإنما هي روحٌ متهكِّمة ساخرة تستروح الهزل، وما كنت أعلم أن مثلها ممَّن يطوف بنا نحن أبناء الموت.

فدوَّىٰ الصَّوتُ أخرىٰ علىٰ مِزَق الشفق المتهدِّلة علىٰ الأفق:

- ألست أنت ذلك الفتىٰ الذي كان يطوي الأرض هذا الصَّباح؟ ألم يكن قلبك يرقص بين جنبيك علىٰ نغم الطبيعة المنسجم؟ فالآن أترىٰ قلبك استحجَر فلم يعد يهزُّه حزن شيء أو فرحُه وإن كان دودةً من دود الأرض؟!

- «أهاهنا غُرْت؟» يقولها وقد تغضن جبينه «إن يكن ذلك فأنا مجرم، بل مجرمٌ يحمل أوزار ألف جُرم، ومثلي في ذلك مثل سائر البشر أبناء الموت الذين يطؤون بأقدامهم الغافلة أحياء لا تُعَدُّ، فيزهقون بذلك أرواحها».

- وأنت قد حُذِّرتَ عاقبة ما اجترحتَ من الخطيئة، فهل تدري ماذا تقع هذه الدودة التي قتلتَ من نظام الكون؟

فحنىٰ الفتىٰ رأسه وقال:

- لمَّا كنت لا أعلم موقعها من نظام الكون، ولا أستطيع أن أعلم ذلك، كانت الجريمة واقعةً ولا شكَّ، فأنا في تجوالي قد اقترفتُ هذه الجريمة، وهي واحدةٌ من عدَّة جرائم اجترحتها كنتَ تستطيع أن تحذِّرني عاقبتها. ولكن كيف يكون اجتيازي ذلك المَرْج، كما تقول، سببًا في جلب الدمار علىٰ وطني، هذا ما أريد أن تخبرني بأمره.

فقال الهاتف:

- هل تذكر تلك الفراشة الزاهية الألوان التي رفرفت بأجنحتها من عن يمينك؟

فقال الفتىٰ:

- رأيتُ فراشًا كثيرًا غير التي ذكرت.

- أجل! فراشًا كثيرًا، إن أنفاسك حادت بهذا الفراش عن طريقه، غير أن الفراشة التي أعني ذهبت ناحية الشرق، وحملتها الريحُ حتىٰ بلغت سياجًا ذهبيًّا يحيط بالحديقة الملكيَّة في وطنك، فستلدُ تلك الفراشة ويخرج من ولدها أُسْرُوع[1]، ففي يوم من أيام الصَّيف المقبل يزحف هذا الأُسْرُوع حتىٰ يقع علىٰ عنق الملكة البَضِّ، فيوقظها من نومها مذعورةً تنتفض حتىٰ يسكت قلبها عن النَّبض، وتموت وفي أحشائها ثمرة الحياة من الولد. وكذلك يا فتىٰ يرث أخو الملك العرشَ وقد فُقِد الوارثُ من الولد الذي أزهقتَ أنت روحه قبل أن يولد، وأخو الملك هذا ظالمٌ مستبدٌّ جائر، فسيحكم بجَوره حتىٰ يحلَّ بشعبه البؤس والشقاء، ثم يحاول بعد ذلك أن يخلِّص نفسه فيخوض بالبلاد غمرة حربٍ آكلةٍ تجلب علىٰ الوطن الدَّمار. وما من ملَومٍ غيرك، أنت وحدك، يا من ذهبت أنفاسُه بالفراشة إلىٰ المشرق، فطارت فوق المَرْج حتىٰ اجتازت ذلك السِّياج الذهبيَّ إلىٰ حديقة الملك.

---

(١) واحد الأساريع، وهي دودٌ حمر الرؤوس بيض الأجساد تنسلخ فتصير فراشة. (شاكر)

فهزَّ الفتىٰ كتفيه استخفافًا وسخرية، ثم قال:

- أيها الهاتف الخفيُّ، كيف لي أن أنكر كلَّ ما تتنبَّأ به؟ لا، ما زالت الأحداث يستتبع بعضها بعضًا في هذه الدنيا، ومن أدنأ الأسباب تخرجُ أجلُّ الأحداث، ومن أجلِّ الأسباب تخرج أهونُ الأحداث! كيف أصدِّق هذه النبوءة وما زالت ثالثة نبوءاتك لم تتحقَّق، وهي التي توعِدني بالموت إذا أنا ركبتُ هذا الجبل.

فدوَّىٰ الهاتفُ النذير:

- إنَّ من ركب الجبل وجب عليه أن يهبط منه من حيث صعَّد فيه إذا ابتغىٰ أن يعود إلىٰ الحياة الإنسانية مرَّة أخرىٰ، فهل فكَّرت في ذلك يا فتىٰ؟

فوقف الفتىٰ ساعة، وكاد يستقر رأيه علىٰ أن يسلك السبيل الذي ينجيه إلىٰ سفح الجبل، ولكنه خشي الليل المُكْفَهِرَّ الذي يكتنفه، وأدرك أن الأخطار التي تحفُّ به في التصويب من الجبل لا يكشفها عنه إلا ضوء النهار، وذلك لكي يحشد قوَّة فكره في تصويبه ولا يبعثرها في ظلام الليل.

لم يجد الفتىٰ بدًّا من أن يستلقي علىٰ الحافة الضيِّقة، فاستلقىٰ لا يهمُّ بحَراك، يستجلب بذلك النوم الذي ينشئ في بدنه القوَّة، إلا أن الفكر فيما هو فيه كان يطرد عنه النوم، ففتح الفتىٰ جفونه المتعبة، وأحسَّ بقشعريرة تمشي في عروقه ورِعدة تدبُّ في ظهره، وكانت الهوَّة ماثلةً بين عينيه، وطريقها هو الطريق الفرد إلىٰ الحياة، كان هذا الفتىٰ قبل هذه الساعة فتًىٰ رابط الجأش راسخ القدم جريئًا، أما الآن فقد انقلبت رباطة الجأش إلىٰ ريبة تنسلُّ إلىٰ قلبه فتفتُّ من جرأته وتزلزل من قدميه، فكان ذلك سببًا في آلام لم يستطع تحمُّلها، فعزم لساعته أن يحاول ما لا بدَّ له منه، فلا يبقىٰ في عذاب من القلق والحيرة والاضطراب منتظرًا أضواء النهار.

نهض الفتىٰ وهو يعدُّ نفسه للمغامرة غير منتظرٍ نجدة ضوء النهار، نهض متحفزًا ليغلب خطر السبيل ويظهر عليه، نهض ولكن كانت خطواته متزلزلة تتعثَّر! فما كاد

ينقل قدمه في ظلمة الليل حتىٰ توثَّق من أن حتفه حتمٌ لا يُرَدُّ، وأن منيَّته قضاءٌ مبرم، فصاح مَغِيظًا مُحْنَقًا:

- أيها الهاتف الخفيُّ، يا من أنذرني ثلاثًا ولكني كذَّبته وأبيتُ أن أسمع له، أيها الهاتف الذي أخشع له كما يخشع الضَّرِعُ لمن هو أقوىٰ منه، حدِّثني قبل أن أنكبَّ علىٰ موارد الهلاك، وخبِّرني من أنت؟

فدوَّىٰ الصَّوت وما يدري الفتىٰ أهو يدوِّي في أذنيه أم في جنبات الفضاء المترامية:

- لم يعرفني إلىٰ يومي هذا أحدٌ من أبناء الموت، والأسماء متعدِّدة، فمن آمن بالغيب سمَّاني «القدر»، ومن آمن بحماقاته سمَّاني «الحظَّ»، والمؤمنون يقولون: «هو الله»، أما الحكماء فيقولون: «هو القوَّة التي كانت في البدء، وسوف تكون سرمدًا بلا نهاية إلىٰ الأبد».

فصاح الفتىٰ وقد قذف الموتُ في قلبه جنونَ الحياة:

إذًا فأنا أبرأ منك في ساعة النَّفَس الأخير من الحياة، إذا كنتَ كما يقولون: «القوَّة التي كانت في البدء، وسوف تكون سرمدًا بلا نهاية إلىٰ الأبد» فقد كان من قدري أن يقع ما وقع، أن أخترق الغابة فأجترم خطيئة القتل، وأن أجتاز المَرْج فأجلب الدَّمار علي وطني، وأن أصعِّد في هذا الجبل الشامخ لأستقبل الموت، وكلُّ هذا بعد تحذيرك إيَّاي وإنذارك، فإما كنتَ تعلم أن إنذارك لن يردَّني عمَّا كنت فيه، فلماذا أسمعتني كلامك وكلَّمتني ثلاثًا؟ لماذا؟! لماذا؟! يا للسخرية، ألا فأخبرني في هذه السَّاعَة المتصرِّمة الأخيرة وأنا مضطرٌّ أن لا ألقي سؤالي إلا إليك! لماذا؟! لماذا؟!

فكان الجواب السَّاخر القاسي قهقهةً قاصفةً تطيف بمعانيها الأسرار، ودوَّت أصداؤها في جنبات السَّماوات التي لا تُرىٰ، وحاول الفتىٰ أن يتلقَّف الكلمات في

قَصف الضَّحك إلا أن الأرض غالت به وكأنْ قد انخسَفت من تحت قدميه، فهوىٰ كما يهوي في أعماق لا غور لها إلىٰ ليل الزمان الذي كان وسوف يظلُّ أبدًا في مبدأ الأحداث ونهايتها.

أفرغها في القالب العربي

محمود محمد شاكر

جنَّة العاملين

لرابندرانات طاغور[1]

كان صاحبنا لا يَدِينُ أبدًا بثمرات العمل، فطفِق ينغمس في بَدَواتٍ من جنونه إذ لم ير عملًا نافعًا يعمله، وأخذ نفسَه بعمل الدُّمىٰ الصَّغيرة في صور رجال ونساءٍ وقلاع، وأخرىٰ من أواني الفخَّار مرصَّعة بأصداف البحر، وكان حينًا يصوِّر بألوانه ما شاء، وبذلك أضاع أيامه فيما لا يجدي ولا ينفع. وقد أثار الناس حتىٰ سخروا منه، فكان يعقد العزم وينذر علىٰ نفسه أن ينفض من رأسه هذه البَدَوات المخبولة، ولكن هذه البَدَوات ما كانت لتدعه، وما إن تزال متعلِّقةً به.

إن بعض الصِّغار لا يقرأ من كتبه شيئًا ولكنه مع ذلك يجتاز الامتحان، وكذلك كان أمر صاحبنا، فإنه أنفق عمره علىٰ الأرض فيما لا يجدي، وحين فاضت روحه فتِّحت له أبواب السَّماوات، ولكن القدر يجري حتىٰ في السَّماوات، فقد حدَث ما حدَث، فإن الروح الذي وكِّل به أخطأ القصدَ وأنزله في «جنَّة العاملين».

وإنك لتجد في هذه الجنَّة كلَّ ما تتوهَّمه إلا الفراغ، فهناك يقول الرجال: «ربنا ما لنا من ساعةٍ نستريحُ إليها»، وثَمَّ النساء يقلن: «الوَحَىٰ الوَحَىٰ[2] يا أحبابنا؛ فإن الزمن يطير»، والجميع يقولون: «الزمنُ غالٍ ثمين، إن أيدينا لا تخلص ساعةً من أعمالها، وإنَّا لنستفيد من كلِّ دقيقة بالعمل»، ثم يتنفَّسون الصُّعداء، وقد كانت هذه الكلمات نفسها تشعِرهم اللذَّة والسَّعادة.

---

(١) مجلة المقتطف، الجزء الثالث من المجلد الخامس والثمانين، ٢٣ رجب ١٣٥٣ - ١ نوفمبر ١٩٣٤. وقد نُشِرت هذه القطعة والقطعة التالية معًا، وكُتِب في مطلعهما: **نقلهما محمود محمد شاكر.**

(٢) أي: السُّرعةَ السُّرعة.

ولكن هذا الواغِل -الذي صرف كلَّ حياته علىٰ الأرض خليًّا لا عمل له- كان شذوذًا في أسلوب الحياة في «جنَّة العاملين»، فتقاذفته الطُّرق هائمًا مذهوبًا بعقله، يصطدم بالرجال الدائبين علىٰ عجل، وكان حينًا يلقي ببدنه علىٰ نبات الأرض فيَسْلُقه الزارعون بألسنةٍ حِدادٍ إذ كان أبدًا لَقًىٰ في طريق غيره[1].

وثَمَّ كانت تمرُّ فتاةٌ يجري بها الدُّؤوب ويستفزُّها النشاط لتملأ إبريقها من مندفَع سيلٍ وقورٍ صامت[2]، وإن السَّيل في «جنَّة العاملين» ليأبىٰ أن تضيع أسبابُ نشاطه في التصويت والطرب.

وكانت خطواتُ الفتاة علىٰ الطريق أشبه شيء بالحركة السَّريعة من بَنان ماهرٍ بارع علىٰ أوتار قيثار، وكان شعرها مرسلًا في غير عناية، وترىٰ خصلاتٍ منه يفيِّئها النسيم علىٰ جبينها، وكأنها تشرِف علىٰ سحر نظرات عينيها.

وكان هذا الفارغ الخليُّ واقفًا علىٰ النَّبع لا حَراك به، وكما ترىٰ الملكةُ من خلال النافذة سائلًا منبوذًا فتأخذها الرحمة، فكذلك رأت الفتاة الإلهية هذا الخليَّ فأخذتها الرحمة، فسألته:

- ها. أما لك عملٌ بين يديك تعمله؟!

فأرسلها صاحبنا زفرةً: عملٌ! ما أجد من ساعةٍ أفرغ فيها للعمل!

فحارت الفتاة في معنىٰ ما يقول، ثم قالت: لئن أحببتَ لأهيئنَّ لك عملًا تعمله.

قال: يا ابنة السَّيل الصَّامت، هل لك أن ترمي إليَّ بإبريقٍ من أباريقك؟

- إبريق! أتودُّ أن تستقي من مجرىٰ السَّيل؟

- لا، بل أودُّ أن أصوِّر علىٰ إبريقٍ بعض التهاويل.

---

(١) اللَّقى: الملقى على الأرض، طُرِح وتُرِك لهوانه.
(٢) في المجلة: «سيل (وقور صامت)، سيل صامت».

فبرمت به الفتاة وقالت: ما أجد لي ساعةً أضيِّعها مع مثلك، لأدعنَّك. وتركته وسارت لطيَّتها.

ولكن كيف يعلو إنسانٌ عاملٌ بالغلبة علىٰ من لا عمل له؟!

وجرىٰ الزمن وهما يلتقيان في كل يوم، وفي كل يوم يقول لها: يا ابنة السَّيل الصَّامت، ارمي إليَّ بإبريقٍ من أباريقك، لأصوِّر عليه بعض التهاويل. وأخيرًا لان له قلبُ الفتاة، ورمت إليه بإبريق، وبدأ صاحبنا يصوِّر، وأخذ يمدُّ خطًّا بعد خطٍّ، ويضع لونًا إلىٰ لون، فلما فرغ رفعت الفتاة بإبريقها ومدَّت إليه عينين ملؤهما الحيرة والعجب، وقوَّست الدهشة حاجبيها، ثم سألته: أي معنًىٰ ترمي إليه هذه الخطوط الكثيرة، وهذه الألوان العديدة؟ ثم ما الغرض منها؟ ثم حملت أباريقها وولَّت.

وفي دارها -وقد بعدت عن العيون المتجسِّسة- رفعت إبريقها إلىٰ الضوء، وأدارته يمنةً ويسرةً تنظر إلىٰ الصُّورة من كل ناحية، وحين أرخىٰ الليلُ سُدوله قامت من مضجعها وأشعلت نبراسها وحَدَجَتْه بالنظرات في صمتٍ وحيرة، ولأول مرة في حياتها ترىٰ ما لا معنىٰ له ولا غرض منه.

وفي اليوم التالي نهضت الفتاة إلىٰ عملها، والعَجَلُ الذي كان يمدُّ خطواتها قد بدأ ينقص؛ إذ ثارت في ذهنها الأفكار التي لا غرض لها ولا معنىٰ فيها.

فلمَّا بلغت موضع مَسِيل وجدت هذا الفارغ الخليَّ هناك، فسألته مَغِيظةً مُحْنَقة:

- ويلك أيها الرجل، بل ماذا.. ماذا تبتغي مني؟

- ما أبتغي شيئًا إلا عملًا أظفر به من يديك.

- وأي عملٍ تريد؟!

- ذريني أنسِجُ لك عَصْبًا[1] ملوَّنًا تَعْصِبين به شعرَك، إن بلغتُ بهذا رضاك.

---

(١) أي عصابة. والعَصْب: بُـرْدٌ يُعْصَب غزلُه، أي يُجْمَع ويُشَدُّ، ثم يُصْبَغ ويُنْسَج.

- ولماذا؟!

- لا لشيء.

وصنَع لها العَصْبَ يَزْهَر بألوانه، وهنا أخذت الفتاة الدائبة في «جنَّة العاملين» تنفق أوقاتها كلَّ يوم في وضع هذا العَصْب علىٰ شعرها، وفرَّت السَّاعات وراءها السَّاعات ضائعةً مضيَّعة، وبقيَ عملٌ علىٰ عملٍ لم يتمَّ، وبقيت الأعمالُ في «جنَّة العاملين» ناقصةً من ذلك الوقت، وأصاب الفتور كثيرًا ممَّن كان قبلُ لا يمسُّه نصَبٌ ولا لُغوب، وأضاعوا السَّاعات الغالية فيما لا ينفع، كالتصوير وصُنع التماثيل.

قَلِقَ شيوخُ «الجنَّة»، ودعوا الناس إليهم، وأجمعوا الرأي علىٰ أن هذا حدثٌ عجيبٌ لم يسبق له مثيلٌ في تاريخ هذه الجنَّة، وبينا هم كذلك إذ أقبل الرُّوحُ الذي وُكِّل بصاحبنا، وانحنىٰ للشيوخ إجلالًا، وأقرَّ بما فعل: «إني أتيتكم خطأً برجلٍ تقع عليه وحده تبعاتُ هذا الحدث»، فنودي به، فدخل ورأىٰ الشيوخُ بزَّته العجيبة، وآلات تصويره، ولفائفَ صوره التي في يده، فقرَّ في أنفسهم أن ليس مثل هذا من رجال «جنَّة العاملين»، فقال له الرئيس متجافيًا مغلظًا: ليس هذا مكانك أيها الرجل، فعليك أن ترحل عنَّا لساعتك.

فأرسلها صاحبنا زفرةً، وجمع أداته وآلته، وهَمَّ، وبينا هو علىٰ نوَىٰ الرحيل إذ جاءت «ابنة السَّيل الصَّامت» من أقصىٰ «الجنَّة» تسعىٰ:

- تلبَّث قليلًا، فأنا أيضًا راحلةٌ معك.

فأخذ العجبُ كلَّ مأخذٍ من الشيوخ، فما جرىٰ يومًا ما في «جنَّة العاملين» حدثٌ كهذا لا غرض له ولا معنىٰ فيه!

القارئ يناجي شاعره

لرتشرد لا غالين[1]

ويحك، أيها الشاعر، أما ينتفض بك الحسُّ إذ تجدني أضمُّ إلىٰ قلبي أغاريدك، وإن أنت إلا رمَّةٌ وتراب، وحين آوي بها مع الليل إلىٰ وسادي أقبِّلها قبل أن يعقد الكرىٰ أجفاني، ثم أصبِّحها بقبلة علىٰ وجه الفجر النَّديِّ حين يستشرق من وراء الليل.

ويحك، أما إني لأدع الشمسَ تفيض علىٰ صفحاتها من ضوئها الطهور، وأهَبُها لنسمات الفجر ترتاح بين أوراقها كما ترتاح بين أوراق الورد.

وإني لأحمل ديوانك بين يديَّ، فأدسُّ وجهي في صفحاته كما دفنتُه بالأمس في فؤاد زهرة نديَّة، كلَّا، بل فيما هو أعزُّ منها ومن فؤادها مكانًا وأشهىٰ.

تعلَّمْ أيها الشاعر، إن ألوفًا من الورىٰ يحبُّونك كحبِّي إياك، وإن الحبيبات ليبلغ بك حبهنَّ إلىٰ مكانٍ هو فتنة المتمنِّي.

أسعيدٌ أنت أيها الشاعر؟

وإن من أمانِيَّ حينًا بعد حين أن أحيىٰ في مثل ما تحيىٰ فيه من المحبَّة والأحدوثة، ومن أفراح قلبي أن أتغنَّىٰ بمثل أغانيك، ثم أُسْلِم الرُّوح.

---

(١) مجلة المقتطف، الجزء الثالث من المجلد الخامس والثمانين، ٢٣ رجب ١٣٥٣ - ١ نوفمبر ١٩٣٤. وقد نُشِرت هذه القطعة والقطعة السابقة معًا، وكُتِب في مطلعهما: **نقلهما محمود محمد شاكر.**

نبِّني، أيها الشاعر، أما تمنحني مجدَك هذا، وعليَّ أن أردَّ علىٰ بَوالِيكَ ميعَة شبابي، باذلًا لك حياتي وأيامي في ضوء الشمس، لأظفر بواحدةٍ من مثل أغاريدك الجميلة؟

مُلَخَّصَات

رُوَّاد اليمن من الأوروبيين[1]

العلامة المحقق الأستاذ نالينو C. A. Nallino الإيطالي في الطبقة الأولىٰ من علماء المشرقيات لهذا العهد. تولىٰ تدريس العربية في كلية بالرمة، ثم في جامعة رومة، وهو صاحب محاضرات «تاريخ علم الفلك عند العرب في القرون الوسطىٰ» في الجامعة المصرية القديمة، وناشر «زيج البتاني» سنة ١٩٠٣. وقد بدأ في هذا الشهر بإلقاء محاضرات في الجامعة المصرية عن تاريخ اليمن القديم، وقدَّم بين يدي البحث خلاصة في أسماء الأوروبيين الذين ارتادوا تلك الديار باحثين عن ماضيها وحاضرها، ونحن ننشر ذلك ملخصًا مما كتبه صديقنا السيد محمود شاكر الذي أخذ علىٰ نفسه كتابة هذه المحاضرات سماعًا من الأستاذ نالينو. (الزهراء)

بلاد اليمن وحضرموت واقعتان علىٰ سواحل البحر الأحمر وخليج عدن، فهما -بهذا الموقع- نالتا الحظَّ الأوفر من الأهمية من حيث التجارة، وكثيرًا ما كانت السُّفن التجارية تمرُّ باليمن رائحةً أو غاديةً بين الهند والبلاد الأخرىٰ، وكانت تمرُّ بها السُّفن الأوروبية كثيرًا في القرن السادس عشر.

• لُودُ فيكودي فارتيما Ludovieo di Vartema •

أول من دخل بلاد اليمن من الفرنجة السري الإيطالي (لود فيكودي فارتيما)، فلما نزل بعدن سجنه أحد أمرائها مدة ثمانية أشهر، ثم خلىٰ سبيله فسافر إلىٰ صنعاء، وعاد منها إلىٰ الجنوب، فزار (ظَفار) و(تَعِز)، ثم أخذ طريقه إلىٰ (زَبيد)، فالبحر الأحمر قافلًا إلىٰ إيطاليا، وفيها كتب كتابًا جليلًا وصف فيه ما زاره من بلاد الشرق، وخصَّ اليمن بجزء صغير منه.

---

(١) مجلة الزهراء، شعبان ١٣٤٥، المجلد ٣، الجزء ٨.

• دي لاغريلوديير De la Grelaudiere •

هو السائح الثاني الذي دخل بلاد اليمن سنة ١٧١٢، لكنه زار بقعة صغيرة منها، فقد كان قادمًا من الهند علىٰ سفينة فرنسية رست في مرفأ المَخا[١]، فاتصل خبرها بإمام اليمن، وكان مريضًا، فأرسل يطلب منها طبيبًا، فانتهز السائح هذه الفرصة وصحب طبيب السفينة إلىٰ مدينة (المواهب)[٢] حيث كان الإمام، ثم وضع لوصف رحلته كتابًا صغيرًا.

• بعثة ميخائيليس Michaelis •

ميخائيليس عالمٌ ألماني، كان جادًّا في البحث عن آثار العبرانيين، وعن نسخ التوراة وأصولها وشروحها، ثم بدا له أن يرحل إلىٰ الشرق، ويدرس عاداته وتاريخه وأحواله الجغرافية ونباتاته وحيواناته، ووجد أن في التوراة شيئًا غير قليل عن اليمن وملوكها وحضارتها، ففكَّر في تأليف بعثة إلىٰ اليمن. ولما عرض فكرته علىٰ فريدريك الخامس ملك الدانيمرك سنة ١٧٥٦ وافق ذلك هوًىٰ من الملك، فعهد إليه بتأليف البعثة، فاختار خمسة من علماء ألمانيا والسويد والدانيمرك، منهم: (كارستين نيبُهْر Carsten Niebuhr) الضابط في الجيش الدانيمركي، و(فورسكل Forskal) السويدي الشَّجَّار[٣].

في سنة ١٧٦١ خرجت البعثة قاصدة القسطنطينية، ومنها إلىٰ القاهرة حيث أقامت مدة أَلَّف فيها الشَّجَّار السويدي كتابًا في (نبات مصر).

(١) هكذا ضبط في معجم البلدان بالحركة لا بالنَّص، والمشهور على ألسنة اليمانيين الآن بضم الميم. (الزهراء)

(٢) بلدة قريبة من ذمار. وصاحب المواهب هو الإمام المهدي محمد بن أحمد بن الحسن مولده سنة ١٠٤٧ هـ (١٦٣٧م)، ووفاته في رمضان سنة ١١٣٠هـ (١٧١٨م)، وقبره بحصن المواهب حول مدينة ذمار، أخبرنا بذلك الأستاذ الفاضل الشيخ عبد الواسع الواسعي اليماني. (الزهراء)

(٣) أي العالم النباتي، انظر: الزهراء ٢: ١٩٧. (الزهراء)

وفي سنة ١٧٦٣ ذهبوا إلىٰ (اللُّحَيَّة)، وتوغلوا في داخل اليمن إلىٰ صنعاء، وجاءوا منها إلىٰ المخا بعد أن مات اثنان منهم، ثم مات اثنان آخران في سفرهم إلىٰ الهند، ولم يبق غير نيبُهْر، فلما رجع إلىٰ بلاده ألف كتابين مهمين، أحدهما في وصف جزيرة العرب كلها اعتمادًا علىٰ الأخبار التي جمعها وهو في سواحل البلاد، والثاني في وصف بلاد اليمن. ولم يعثر في رحلته علىٰ كتابات حِمْيرية، وإنما أخبروه بأن مثل ذلك يوجد في خرائب (ظفار) علىٰ بعد ميلين من (يريم).

• سيتزن Seetzen •

إن كتاب نيبُهر حمل العالم سِيتزِن الألماني -الذي قضىٰ زمنًا في خدمة قيصر روسيا- علىٰ البحث عن آثار اليمن والشرق، فسافر إلىٰ الشام وفلسطين، وألَّف كتابًا عن رحلته هذه.

ثم أمَّ اليمن، فنزل (الحديدة) سنة ١٨١٠، واعتنق الإسلام، وسار إلىٰ صنعاء، ثم تحوَّل إلىٰ الجنوب، فسلك الطريق الذي وصفه نيبُهر حتىٰ صار قريبًا من (ذمار)، فسأل عن قرية (حدافة)، فلم يعرفها أحدٌ من أهل تلك الجهة؛ لأن اسمها الصحيح (ضاف)، ثم أخذ ينحدر إلىٰ الجنوب حتىٰ بلغ (ظفار)، وفيها وجد ثلاث كتابات اشترىٰ إحداها، وكانت الثانية في بيتٍ عالٍ فلم يصل إليها، ولم يتمكن من نسخ الثالثة؛ لأنه سافر مسرعًا. ثم وجد خمس كتابات في مسجد قرية تبعد ساعة عن ظفار، ثلاث منها كانت عالية لم يصل إليها، ونسخ الاثنتين[1] وأرسلهما إلىٰ أوروبا، فكانت أول الكتابات الحِمْيرية التي دخلت ديار الغرب. وسافر سِيتزِن بعد ذلك إلىٰ جهات أخرىٰ فانقطع خبره ولم يُعْلَم أين مات.

---

(١) وقع نيبهر في نسخ الكتابات الحِمْيرية في خطأ غريب، فإن بعضها كان محفورًا والآخر بارزًا، فظن أن البارز من الكتابات المحفورة هو الكتابة، وأن المحفور في الكتابة البارزة هو الكتابة أيضًا، فنشأ عن ذلك تشويش. (شاكر)

انقضت ٢٥ سنة بعد سِيتزِن لم يكتشف فيها أحدٌ كتابات أخرىٰ في اليمن، فلما كانت سنة ١٨٣٠ ندبت حكومة بومباي (الهند) سفينة إنكليزية لارتياد سواحل اليمن ورسم خرائط لها، فرست السفينة سنة ١٨٣٤ تجاه (حصن الغراب) من سِيف حضرموت، وقد لمح ضبَّاطها -ومنهم الضابط وِلِّسْتِد Wellsted - في جبل حصن الغراب خرائب حرَّكت في نفوسهم الرغبة في صعوده، فلما وصلوا إلىٰ قنَّته وجدوا آثارًا كثيرة منها برجان عظيمان كانا -في الغالب- مدخل هذا الحصن المنيع القائم في رأس الجبل، ووجدوا كتابتين لاحظوا أن حروفهما تشبه الحبشية وظنوهما بالحِمْيرية فنسخوهما، وعند عودتهم إلىٰ أوروبا أخذوا في نشرهما.

وفي السنة التالية ارتادت هذه السفينة سواحل اليمن مرة أخرىٰ، فلما نزل ضبَّاطها إلىٰ الساحل ذهبوا إلىٰ (بالحاف)؛ حيث قيل لهم: إن في الداخل خرائبَ ذات كتابات كثيرة، فقصدوا إليها حتىٰ بلغوا خرائب (نقب الهجر)[1] علىٰ تلٍّ مشرفٍ علىٰ (وادي ميفعة).

ومن عجيب أمر هذا الجبل أنه عند ارتفاع الثلث الأسفل منه يحيط به سورٌ ذو بروج عظيمة تدلُّ علىٰ أن سفحه كان عامرًا بمدينة عظيمة علىٰ هيئة قلعة لها مدخل من الجنوب وآخر من الشمال، ولم يتمكن وِلِّسْتِد من دخوله، لكنه نقل بعض الكتابات، وعاد بها إلىٰ أوروبا، فلم يستفد العلماء منها شيئًا؛ لأن النسخ كان مشوَّهًا.

ومما اكتشفه وِلِّسْتِد في (حصن الغراب) خطوط غير منقوشة، بل مرسومة علىٰ الحجر باللون الأحمر، وعثر علىٰ مساند أخرىٰ فتحت باب علم سرِّ الخطِّ الحِمْيري، واجتهد في درسها العلَّامتان ويلهلم جِسنيوس Whilhelm Gesenius وإميل رودجر Emil Rodiger، فنشر كلٌّ منهما في سنة ١٨٤١ رسالة في فَسْر هذه

---

(١) نبَّه الأستاذ نالينو على أن الهجر بالهاء لا بالحاء. (شاكر)

الخطوط، وفهما ألفاظًا قليلة جدًّا منها، وعاد رودجر في السنة التالية إلىٰ البحث فتمكَّن من فَسْر نصف تلك الكتابات.

• السِّر كروتندن Crutienden •

وفي شهري يوليو وأغسطس من سنة ١٨٣٦ سافر الضابط الإنكليزي السِّر كروتندن من المخا إلىٰ صنعاء قاعدة اليمن، فعثر في طرق المدينة ومنازلها علىٰ خمس كتابات من المرمر الأبيض مجلوبة من مأرب[1]، اثنتان منها كاد لا يكون فيهما شيء من التلف أو النقص، وقد نسخها كلها، وأرسلها إلىٰ أوروبا فاستفاد من الكاملتين منها العلامة رودجر، ولم يتمكَّن كروتندن من نسخ الكتابات الأخرىٰ؛ لأنه كان شبه أسير في قصر الإمام، لكن هذا الأسر أفاده من جهة أخرىٰ؛ إذ عثر في حديقة قصر الإمام في صنعاء علىٰ رأس تمثال من المرمر جيء به من بلاد مأرب، فحصل عليه الضابط وأرسله إلىٰ إنكلترا، وهذا الرأس موجود الآن في المتحف البريطاني بلندن.

وعلم (كروتندن) وهو في قصر الإمام أن أعراب مأرب يأتون بقطع ذهبية مربعة الشكل فيبيعونها في صنعاء، وأن بعض الجهات إذا اشتدَّ فيها هطول المطر تجرف المياه معها بعض اللآلئ والجواهر فيأخذها البدو، فكان ذلك مما دلَّ (كروتندن) علىٰ أن اليمن كانت فيها حضارة عظيمة تلوح لنا بهذه الآثار كالبرق في الليل الدامس.

• توماس يوسف أرنود Thomas Joseph Arnaud

وفولجانس فْرِنِلْ Fuglence Frensel •

كان كلُّ ما عُثِر عليه حتىٰ سنة ١٨٤٣ من الكتابات الحِمْيرية نحو خمس عشرة كتابة، وهي علىٰ قلَّتها كانت فيها نسخٌ سقيمة قليلة الفائدة وبعضها ناقص.

---

(١) يقول الأستاذ نالينو: إن مأرب غير مهموزة بلغة حمير. (شاكر)

وفي سنة ١٨٤٣ اكتُشفت كتابات وآثار يمانية كثيرة ترقَّت بها معارفنا عن ذلك الشطر من التاريخ بفضل رجل اسمه توماس يوسف أرنود الذي كان صيدليًا في الجيش المصري، فانتقل سنة ١٨٤٠ إلىٰ صنعاء، فكان صيدليًّا لإمام اليمن، وكان في خلال ذلك يسمع الأخبار الكثيرة عن آثار مأرب وكتاباتها.

فلما ترك خدمة الإمام توجه إلىٰ (جدة)، فلقي فيها المستشرق الفرنسوي (فولجانس فْرِنِلْ) الذي كان أقام بمصر مدة طويلة اهتمَّ فيها بالعرب ولغتهم وشؤونهم وتاريخهم وكتبهم التي جمع منها نفائس كالأغاني والعقد الفريد، فكان هذا المستشرق يهتمُّ وهو في جدة بالتقاط الأخبار عن حضرموت واليمن من أهلها القادمين إلىٰ الحجاز، وجمع ما حصل عليه من هذه الأخبار في رسالة جميلة.

فلما وصل الصيدلي أرنود إلىٰ جدة وقابل فْرِنِلْ قصَّ عليه ما رآه وسمعه عن اليمن وخرائبها، فحثَّه علىٰ العودة إلىٰ تلك الديار والتنقيب علىٰ الآثار الحِمْيرية بين خرائبها.

واتفق يومئذ أن عثمان باشا والي الحجاز عقد النية علىٰ إرسال وفد إلىٰ اليمن لتهنئة إمام اليمن الجديد بولايته، فسافر أرنود مع هذا الوفد، فلما وصل إلىٰ صنعاء كان نفور اليمانيين من التُّرك قد زاد عن ذي قبل، فرأىٰ أن مصلحته تقضي عليه بمفارقة الوفد، فانفصل عنهم ونزل في خان هناك، ثم اتفق مع أحد معارفه في صنعاء علىٰ أن يسافر به إلىٰ مأرب.

وبالفعل سافرا في شهر يوليو سنة ١٨٤٣ متزودين بزادٍ يكفيهما ١٥ يومًا، وتزيَّا أرنود بزيِّ اليمانيين، وبعد ست مراحل وصلا إلىٰ مأرب فأقاما فيها ثلاثة أيام زارا في خلالها بعض الخرائب القديمة، ونسخ أرنود بعض الكتابات، وقفل راجعًا، فمرَّ في طريقه بقرية سمَّاها (الخربة)، غير أن اسمها الحقيقي (صِرْواح)[1]، وكان هذا الخطأ سببًا لخطأ آخر سنذكره بعد.

---

(١) خرائب أثرية واقعة بالقرب من بلاد حاشد وأرحب، على ما أخبرنا به الشيخ عبد الواسع. (الزهراء).

وفي صِرواح وجد كتابات كثيرة سبئية وغيرها، فكان جملة ما نسخه أرنود ٥٦ كتابة منها ٣ في صنعاء، و٨ في المكان الذي سمَّاه الخربة، و ٤٦ بمأرب.

وكان الذي يمرُّ بهم في طريقه يرتابون بلون بشرته، فيسمِّيه بعضهم جاسوسًا وبعضهم ساحرًا، ولولا أن أمير مأرب شمله بحمايته لانتهت به هذه الشكوك إلىٰ فقد حياته، وأصيب في هذه الرحلة برَمَد حرمه من استعمال عينيه مدة عشرة أشهر، فأرسل إلىٰ صاحبه فِرِنِلْ وأملىٰ عليه أخبار رحلته، ووصف له البقاع، فرسم فْرِنِلْ خرائطها وطبع الكتابات الأثرية في كتاب بأمر الحكومة الفرنسوية.

واجتهد فْرِنِلْ في مقارنة أحرف هذه الكتابات بأخواتها في الخطِّ الحبشي، وألحق بالكتاب المذكور ملحقًا بنتيجة أبحاثه في هذه الحروف ومقارنتها بالحبشية، ولم يقتصر فْرِنِلْ في ذلك الكتاب علىٰ إثبات معنىٰ الحروف، بل اجتهد أيضًا في فهم شيء من لغة تلك الكتابات. وكان فْرِنِلْ اطلع علىٰ ما كتبه جسنيوس ولم يعرف ما كتبه رودجر، ولو عرفه لأعانه علىٰ فهم كثير مما فاته فهمه.

• كتابات عمران •

وبعد هذا اشترىٰ ضابطٌ إنكليزي ٤٢ كتابة يمانية علىٰ البرنز من عدن، وأرسلها إلىٰ المتحف البريطاني، وأكثرها من بلدة (عمران) بين (اللُّحَيَّة) و(مأرب)، وهي كتابات مهمة واضحة منقوش عليها صور وتهاويل دلت علىٰ تقدم اليمانيين القدماء في الفنون الجميلة.

واعلم أن هذه الكتابات صارت بعدُ أساسًا لبحث جديد حرره الأستاذ أرنست أوزياندر Ernest Osiander، وألَّف فيه ثلاث مقالات سنة ١٨٦٤.

• كتابات المسيو شارل لنورمان Charies Lenormant المزيفة •

وفي سنة ١٨٦٧ نشر الأثري الفرنسي شارل لنورمان سبع كتابات قال: إنها وُجدت في أَبْيَن، وأن طبيبًا فرنسيًّا نسخها سنة ١٨٤٧، وأن النُّسَخ سلِّمت إلىٰ لنورمان سنة ١٨٦٧، وبعد نشرها ضاعت أصولها في فتنة باريس سنة ١٨٧٠.

ذلك ما زعمه المسيو لنورمان، ولكن هذه الكتابات ظهر فيما بعد أنها مزوَّرة كما أثبت ذلك المستشرق داود هانريخ مولر David Heinrich Muller سنة ١٨٨٢، ولا ندري ما هو غرض المزيف من هذا العمل الذي ينافي الأمانة العلمية؟!

• كتابات أخرىٰ مزيفة •

وفي سنة ١٨٧٠ جُلِبَ من عدن إلىٰ أوروبا ثلاث كتابات يمانية منقوشة علىٰ البرنز، ثم اتضح أنها هي أيضًا مزوَّرة، وأن نحَّاسًا من صنعاء لما سمع باهتمام المستشرقين بهذه الكتابات القديمة جعل ينقل من بعض الأحجار الأثرية كلمات ويقيس عليها، وينقش تلك الحروف علىٰ البرنز؛ ليبيعها في أوروبا بثمن عالٍ يكون له منه مورد رزق متَّسع، ولكن هذه الكتابات المزيَّفة أفادت بعض الفائدة لأن فيها فِقَرًا منقولة نقلًا صحيحًا.

وكان في صنعاء رجلٌ آخر ينحت الأحجار، فصنع ما صنعه زميله النحَّاس، واتصلت بوالي اليمن التركي الأحجار التي نحتها، فأرسلها إلىٰ متحف القسطنطينية.

المشتغلون بدرس الآثار اليمانية [١][1]

من محاضرات العلامة كارلو نلينو في الجامعة المصرية

يوسف هاليفي - بلاد الجوف ونجران والأخدود - سيكفريد لانجر

المَعِينيون في العلا - استدراك

• يوسف هاليفي Joseph Halevy •

نتكلم الآن عن رجل كان له فضل كبير في إماطة اللثام عن دقائق اللغة الحِمْيرية، وكشفِ كثيرٍ من الكتابات والتواريخ التي كانت مجهولة، حتىٰ تمَّ له الفوز.

هذا الرجل هو العلامة يوسف هاليفي، وهو إسرائيلي كان يقيم أولًا في البلاد العثمانية، ثم انتقل إلىٰ فرنسا؛ حيث صار من الأساتذة هناك.

وقبل الكلام عليه نذكر شيئًا كان قائمًا في ذلك الوقت علىٰ قَدَم وساق، في منتصف القرن التاسع عشر أخذ المجمع العلمي في برلين يهتم بحركة جمع الكتابات اللاتينية القديمة المبعثرة في أوروبا وآسيا وإفريقية، وسمىٰ هذا المجموع المشتمل علىٰ مجلدات كثيرة ضخمة باسم Latinarum Carpus inscriptionum.

وفي عام ١٨٦٥ أراد مجمع العلوم بباريس أن يجاري المجمع الألماني، فعرض علىٰ وزارة المعارف الفرنسية إنشاء مجموع الكتابات السامية، وسمَّوه Carpus inscriptionum semiticarum، وقسَّموه أربعة أقسام كبيرة:

---

(١) مجلة الزهراء، رمضان ١٣٤٥، المجلد ٣، الجزء ٩.

أولها للكتابات الفينيقية.

والثاني للكتابات باللغات الآرامية.

والثالث للكتابات العربية.

والرابع للكتابات الحِمْيرية.

ولم يذكروا في تقريرهم المرفوع لوزارة المعارف إلا الحِمْيرية في عنوان القسم الرابع؛ لأنه حتىٰ ذلك الحين لم يكن قد عُرِف غيرها من لغات بلاد العرب الجنوبية، مثل السبئية والمَعِينية.

فقبلت الوزارة المشروع، وقرَّر المجمع العلمي الباريسي المذكور إرسال هاليفي لجمع هذه الكتابات الحِمْيرية، فسافر من باريس سنة ١٨٦٩، ونزل عدن ومنها رحل إلىٰ لحج، ولكنه لم يجد فيها كتابات، فلما صفرت يده هناك كرَّ راجعًا إلىٰ الحديدة، ومنها دخل اليمن حتىٰ بلغ صنعاء، فلبث فيها مدة ينقب عن الكتابات الأثرية، لكنه لم يصل إلىٰ شيء كثير؛ لقلة ما في صنعاء من ذلك، والذي فيها من الكتابات الأثرية موجود في أماكن مرتفعة لا يوصل إليها، وبعضها في مثل المساجد التي لا يدخلها الأجنبي إلا بإذن خاص يحصل عليه بصعوبة.

قال الأستاذ نلِّينو: وقد سمعت أن في أحد مساجد صنعاء كتابات قديمة جدًّا لكن من المحال أن ينالها إلا مسلم. وفضلًا عن صعوبة نسخ الكتابات الموجودة في المساجد، فإن أهل صنعاء استعملوا الأحجار القديمة في بناء دورهم فتشوَّهت حروفها.

أخذ هاليفي يجول في نواحي صنعاء، ولاقىٰ في ذلك مصاعب جمَّة أتت بفائدة قليلة؛ لأنه لم يجد من الكتابات إلا بضع قطع عليها آيات أو سور من القرآن. ومن الممكن العثور علىٰ بقايا كتابات وأحجار أثرية إذا أمكن الحفر هناك؛ لأننا نعرف أن

(غُمْدَان) كان في صنعاء، وهو قصرٌ لملوك صنعاء قبيل ظهور الإسلام، فلما كان عهد أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه أمر بهدمه، ومما نُقِل إلينا من وصف هذا القصر العظيم -علىٰ ما ورد في الكتب القديمة- أنه قصرٌ ذو عشرين سقفًا، غُرَفًا بعضها فوق بعض، وكل الألواح من المرمر الأبيض مدفونة تحت الأرض.

هذا معنىٰ ما قاله الهمداني صاحب كتاب (الإكليل)، وهو كتابٌ مقسَّم إلىٰ عشرة أقسام لم يصل إلىٰ أيدينا منها إلا الثامن والتاسع، ولم يطبع منهما إلا نُبَذ نشرها الأستاذ مولر D. H. Mülller.

ولنأخذ الآن في هاليفي، فإنه بعد إقامته في صنعاء مدة أراد السفر إلىٰ بلاد (الجوف)، وهي في شمال صنعاء، ولم يكن أحد من قبله قد سافر إليها. وبلاد الجوف هذه كانت في نظر أهل صنعاء مقبرة لكل داخل فيها، ولا سيما إذا كان من الأجانب.

وليتمكن هاليفي من دخول الجوف تزيًّا بزي يهود القدس، فسهل عليه الأمر، خصوصًا وهو في الواقع يهودي، واسمه من أسماء اليهود المعروفة، وقد حصل هاليفي من حاخام صنعاء علىٰ رسائل وصاة إلىٰ اليهود المقيمين في الجوف، ومعلوم أن النصارىٰ يكاد لا يكون لهم وجود في اليمن، أما اليهود فإنهم قدماء فيها وبقوا بعد الإسلام، وهم في غاية المهانة والصَّغَار، وأهل اليمن يسخرون منهم ويعبثون بهم، وغاية ما هنالك أنهم مرخَّص لهم بالتجول في أنحاء اليمن، فبدأ هاليفي رحلته مستصحبًا نحّاسًا يهوديًّا يدعىٰ (حاييم حَبْشوش)، وهو من اليهود الأصليين فأمكنه بذلك أن يتجول بسهولة، ومع ذلك فقد لقي غير مرة أخطارًا عظيمة كادت تودي بحياته.

ولم يكن هاليفي يتمكن من نسخ الكتابات إلا خُفية، فكان يضع في كمه القلم والقرطاس حتىٰ إذا رأىٰ كتابة أخذ في نسخها إلىٰ أن يلوح له شبح إنسان يخفق من

بعيد فيتظاهر بالنوم، وكان لذلك ينتهز وقت انشغال الناس بالصلاة فينسخ الكتابات، وعلَّم صاحبه اليهودي الحروف الحِمْيرية ليساعده علىٰ النسخ.

ومن العجيب في سلوك هاليفي أنه لم يذكر لنا شيئًا عن هذا اليهودي في الرسالة التي ألَّفها عن رحلته هذه، ولم يتعرض لطرفٍ من هذه الصحبة وما حصل عليه فيها من مساعدة، ولا ندري ماذا كان غرضه من كتمان ذلك، فبقي أمر هذه الصحبة خفيًّا حتىٰ ارتحل العلامة غليزر Glaser إلىٰ اليمن بعد خمسة عشر عامًا، فوقف علىٰ جلية الأمر.

وإنما ذكرت ذلك لأنه ظهرت لنا أشياء عجيبة في كتابات هاليفي، فقد كان بعضها منسوخًا بدقة وإحسان، وبعضها ظاهر عليه أثر الغفلة وأخطاؤه بينة، واتضح بعد التدقيق والبحث أن هناك قطعًا كثيرة يكمِّل بعضها بعضًا، والواقع أنها قطعة كبيرة قد جُزِّئت، والسرُّ في ذلك هو أن حبشوش اليهودي علىٰ ما فيه من جشع وغدر كان أجيرًا ينال الأجر علىٰ قدر ما ينسخ، وكان هاليفي يعطيه علىٰ القطعة الكبيرة مثل الأجر الذي يعطيه إياه علىٰ القطعة الصغيرة، فكان حبشوش إذا رأىٰ كتابة مطولة جدًّا يقسمها حين نسخها إلىٰ أقسام؛ استكثارًا للأجر بتكثير عدد الكتابات.

• بلاد الجوف - نجران - الأخدود •

الجوف مكان في غاية الأهمية؛ لأنه كان الجزء الأوسط من (مملكة مَعِين) التي لم يعرف أحدٌ عنها شيئًا قبل وصول هاليفي إليها، وتدوينه ما شاهده فيها برسالته عن هذه الرحلة.

وَقد وصف هاليفي في هذه الرسالة القسم المحصَّن من مدينة (مَعِين) فقال: «هو كائنٌ علىٰ تلٍّ طوله نحو ٢٨٠ مترًا، وعرضه نحو ٢٤٠ مترًا. أما السور الذي كان في أسفل التل فليس منه الآن إلا أجزاء في الجبهة الشمالية، وله بابان متقابلان: أحدهما في الجهة الشرقية، والآخر في الجهة الغربية، وهما لا يزالان في أحسن حالة،

وكذلك الأبراج القريبة منهما لا تزال في حالة جيدة. وهي كبيرة ضخمة شاهقة فاخرة المنظر.

وهذه الأبنية من حجارة منحوتة مربعة يلتصق بعضها ببعض بدون مِلاطٍ ولا جير، ومع ذلك يراها الرائي كأنها حجر واحد، وعلىٰ أكثرها كتابات منقوشة يبلغ طول بعضها مقدارًا عجيبًا. أما في الداخل فأكثر هذه الآثار خرائب عبث البدو بها، وحاولوا الإقامة في وسطها، وقد بنوا بحجارتها القديمة مسجدًا أيضًا».

وبعد أن قضىٰ هاليفي في بلاد الجوف ما أراد ارتحل إلىٰ الشمال، وفي يونيو سنة ١٨٧٠ وصل إلىٰ (المخلاف)، وهي قرية في وادٍ متسع كثير الخير اسمه (وادي نجران) كانت فيه مدينة نجران العظيمة المشهورة عند مؤرخي اليونان القدماء، وتحيط بالمخلاف مياه جارية ينبت علىٰ حافاتها الشجر النضر.

ومن خرائب المخلاف بقعة يسمونها مدينة (الأُخْدد)، ويظنون أنها الموضع الذي أُشير إليه في سورة البروج من القرآن العزيز: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ [البروج:١ - ٧].

ولا شك أن تلك النواحي تتضمن عددًا كثيرًا جدًّا من الآثار والكتابات المهمة العظيمة الفائدة، ولكن هاليفي كان عنها في شغل بالتواري عن أعين سكان البلاد والانضواء إلىٰ بيوت اليهود؛ لأن أهالي تلك الجهة من الإسماعيلية (الباطنية) المتعصبين اسمهم (بنو يام)، وهم يكفِّرون كل من خالف نِحْلتهم من المسلمين وغير المسلمين.

وفي عودة هاليفي إلىٰ صنعاء عثر في (براقش) وغيرها من القرىٰ التي في طريقه علىٰ خرائب وكتابات فنسخ بعضها.

وفي أغسطس سنة ١٨٧٠ وصل إلىٰ (مأرب) فمنعه أهلها من النسخ. ثم مرَّ علىٰ الخرائب التي سماها أرنود Arnaud[1] (الخربة)، والصحيح أنها (صِرْوَاح)[2]، وهي من المدن الكبرىٰ في مملكة (سبأ)، وفيها كِتابات ذات قيمة عظيمة وفائدة كبيرة يقول عنها هاليفي: إنه لم ير كمثلها طولًا في الكتابات الأخرىٰ.

ومع أن الظروف لم تكن مسعفة لهاليفي فإنه جمع ٦٨٦ كتابة، فكان له الفضل الأكبر في كشف الكتابة الحِمْيرية لكثرة ما نقله منها، وهو الذي اكتشف آثار مملكة مَعِين التي لم يذكرها العرب ولا اليونان ولا الرومان في كتبهم القديمة، واعتمد هاليفي علىٰ هذه الكتابات في تأليف كتاب في الصرف والنحو بلغة حمير وسبأ ومَعِين، ونشرها في المجلة الأسيوية Asiatque Journal سنة ١٨٧٣.

ومع كثرة الأغلاط في النُّسَخ التي أتىٰ بها؛ لأنها لم تنقل بطريقة مطردة مطمئنة، ومع ما كان من أمر اليهودي حبشوش الذي غشَّ صاحبه في كثير من أعماله، فإن العلم باللغة الحِمْيرية تقدم برحلة هاليفي خطوات واسعة فأُزيح النقاب عن أشياء كانت مكنونة في طيات الغيب، وتبين أن ذلك القسم الجنوبي من بلاد العرب كانت توجد فيه حضارة قديمة وممالك لم يرد ذكرها في كتب العرب واليونان والرومان.

والحقُّ أن مساعي هاليفي كانت خير مساعد لفهم كل ما عُرف عن اليمن حتىٰ ذلك الوقت، فازداد علماء المشرقيات شوقًا إلىٰ مواصلة التنقيب عن أحوال اليمن، لولا اضطراب تلك الديار بالعداء الذي كان قائمًا بين الأهالي والترك، وحَذَر اليمانيين من الأجانب ولا سيما الفرنجة منهم، فكان ذلك مما منع البعثات من زيارة اليمن زِمنًا طويلًا.

---

(١) لا «أورنود ornaud» كما جاء في ص ٥٠٦، ٥٠٧ من الجزء الماضي، وقد نبَّهنا الأستاذ نلينو إلى ذلك، فشكرًا له. (الزهراء). وقد أصلحتها في مواضعها السابقة.

(٢) لا «سراوح» كما جاء في ص ٥٠٧، وهذه أيضًا مما نبهنا الأستاذ إليه. (الزهراء). وقد أصلحتها كذلك في الموضع السابق.

• Siegfried Langer لانجر •

بعد هاليفي بنحو ١٢ سنة حاول سيكفريد لانجر النمساوي التوغل في بلاد اليمن، فهَمَّ بما عزم عليه سنة ١٨٨٢، غير أنه لم يتمكن من التوغل في (الجوف) بل سافر من الحديدة إلىٰ صنعاء مارًّا في طريقه ببلدة (بيت الفقيه) و (ظوران) و(ضاف).

ولما وصل إلىٰ صنعاء لم يتمكن من الإقامة بها لأن الوالي التركي أجبره علىٰ الرجوع حالًا إلىٰ الحديدة، ومع ذلك فقد نسخ ٢٢ كتابة بينها خمس وجدها في (ضاف).

وهذه الصدمة لم تثن من عزم لانجر فحاول الدخول إلىٰ اليمن مرة ثانية من جهة عدن، فلما كان في وادي بنا علىٰ مسافة ٩٠ كيلو مترًا من عدن اعترضه قُطَّاع الطرق فقتلوه طمعًا بالمال، وهو ثاني رجل مات ضحية البحث عن آثار اليمن.

وبعد هذا الرجل لم تصل إلىٰ أوروبا من اليمن كتابات وآثار، اللهم إلا ما كان الأهالي يجدونه فيبيعونه للتجار، من ذلك ألواح من الحجر أو البرنز، ومباخر من الفخار، وقطع تماثيل ولا سيما رؤوس من المرمر.

ومن المتاحف التي اقتنت هذه الآثار متحف قصر جينيلي في القسطنطينية، وأغلب هذه الأشياء لا تُعرف البقعة التي استُخرجت منها، وهذا مما يقلل من أهميتها بالنسبة إلىٰ علم الآثار.

• المَعِينيون في العُلا •

من الجدير بالذكر أن ٦٩ كتابة باللغة المَعِينية ظهرت في أرض نازحة عن اليمن، اكتشفها ونسخها يوليوس أوتينغ Euting Julius عام ١٨٨٣، وهي منقوشة علىٰ الصخور في قرية (العُلا) في القسم الشمالي من الحجاز بين المدينة وحدود الشام (فلسطين)، وعلىٰ مسافة غير بعيدة منها (مدائن صالح)، واسمها القديم (الحِجْر)،

ويقول أهل تلك الجهات: إن المغاور التي في الصخور كانت تسكنها ثمود، وأنها وطن النبي صالح ﷺ، ولا شك أن هذه الجهة كانت بلاد ثمود، ويظهر ذلك من الآثار المكتوبة بلغتهم وبلغة الأنباط.

وكان غريبًا وجود كتابات مَعِينية في هذه الجهة البعيدة عن مملكة مَعِين، غير أن وجودها فيها قد دلنا علىٰ أن جالية كبيرة من تجار مَعِين أقامت مدة طويلة في نواحي العلا، وذلك في مدة تسعة ملوك من ملوك مَعِين مذكورين في هذه الكتابات التي كان أصحابها يبنون بروجًا وحصونًا للاعتصام بها، ويبنون هياكل يعبدون فيها آلهة مَعِين.

* * *

استدراك:

بدأنا في الجزء الماضي بنشر المعلومات القيمة التي يلقيها العلامة المحقق الأستاذ كارلو نالينو C. A. Nallino[1] علىٰ طلبة الجامعة، **واعتمدنا في نشرها علىٰ المذكرات التي يكتبها صديقنا السيد محمود محمد شاكر سماعًا من الأستاذ**، ولما اطلع الأستاذ علىٰ ما نُشر من محاضراته في الزهراء وقع ذلك منه موقع الرضا، وكلَّف نفسه مهمة الاطلاع علىٰ ما سننشره قبل نشره تفاديًا من وقوع الخطأ في الأعلام وغيرها، وكتب لنا بخطه استدراكًا لما وقع من ذلك فيما نُشر في الجزء الماضي، ولم يطلع عليه قبل نشره.

ويرىٰ الأستاذ أن الغرض من هذه المحاضرات ذِكرُ الذين اكتشفوا كتابات قديمة في اليمن، وليس الغرض منها ذِكْر جميع رواد اليمن، لذلك أهمل ذكر الذين توغلوا في تلك البلاد لأغراض جغرافية وعلمية أخرىٰ مع ما لهم من فضل.

---

(١) ورد حرف C في الجزء الماضي برسم E خطأ فليصحَّح. (الزهراء). وقد صححته وسائر ما سيأتي ذكره في مواضعه.

ومما نبَّهَنا الأستاذ إلىٰ تصحيحه اسم لودريكو فارنتينا الذي مضىٰ في موضعين من ص ٥٠٢، وصوابه لُودُ فيكودي فارتيما Ludovieo di Vartema والذي سجنه ليس أحد أمراء عدن، بل أحد أمراء اليمن، وهو سلطان مدينة علىٰ ثمان مراحل من عدن اسمها Rhada، ويظن الأستاذ أنها (رَداع) الواقعة شرقي ذمار.

وجاء في ص ٥٠٤ سطر ١٢ و١٥ وفي الحاشية أيضًا اسم (نيبهر) والصواب (سيتزن).

وفي سطر ١٥ «لم يكتب عن اليمن»، والصواب «لم يكتشف في اليمن».

وفي ص ٥٠٥ سطر ١١ «خرائط متقنة الصنع ملونة رسومها باللون الأحمر»، والصواب «خطوط غير منقوشة بل مرسومة علىٰ الحجر باللون الأحمر».

وفي ص ٥٠٥ - ٥٠٦ الصواب: «اثنتان منها كاد لا يكون فيهما شيء من التلف أو النقص، وقد نسخها كلها، وأرسلها إلىٰ أوروبا فاستفاد من الكاملتين منها العلامة».

وفي ص ٥٠٨ سطر ١ - ٢ «في العربية... بالعربية»، والصواب «في الخط الحبشي بالحبشية»، ولم يقتصر فِرنِلْ في ذلك الكتاب علىٰ إثبات معنىٰ الحروف، بل اجتهد أيضًا في فهم شيء من لغة تلك الكتابات.

وفي سطر ١١ «وألَّف فيه كتابًا»، والصواب «وألف فيه ثلاث مقالات».

وفي سطر ١٣ «١٨٧٦»، والصواب «١٨٦٧».

وكذلك في الموضع الأول من السطر ١٥ «سنة ١٨٧٠»، وصوابه «١٨٦٧».

وفي ص ٥٠٩ سطر ٤ «بإمام اليمن»، والصواب «بوالي اليمن التركي».

المشتغلون بدرس الآثار اليمانية [٢][1]

من محاضرات العلامة كارلو نلِّينو في الجامعة المصرية

• إدوارد كلازر Edward Glaser ورحلاته الأربع إلىٰ اليمن •

وُلد كلازر سنة ١٨٥٥ في قرية صغيرة من بوهميا التي كانت تابعة للنمسا، وهي الآن من بلاد تشيكوسلوفاكيا.

ولما بلغ ١٦ عامًا اطَّلع اتفاقًا -وهو في أحد المقاهي- علىٰ جزء من مجلة جغرافية شهرية فيه بحث عن سياحات ليفينْكسْتُن في جنوب إفريقية، فكان لذلك أثر عظيم في قلبه، أثار فيه الميل إلىٰ السفر في الأقطار المجهولة.

والتحق بمدرسة الهندسة في مدينة براكا ليتعلم ما لا بد له منه عند رسم الخرائط، كالفلك والمساحة، وابتدأ حينذاك بتعلم العربية، وبعد أن نال شهادته انتقل إلىٰ فينَّا وصار فيها معاونًا في المرصد، وثابر علىٰ درس العربية في أحد المعاهد العليا بفينا. وتعرف ثمة بالأستاذ مولر D. H. Müllter، وكان يُعْنَىٰ بالكتابات الحِمْيرية، فحثَّه علىٰ السفر إلىٰ اليمن، وليتقدم في تعلم العربية ومعرفة أحوال الشرق قَبِل وظيفة مؤدب في القنصلية النمسوية بتونس ليتأهب للدرس.

١- وفي سنة ١٨٨٢ ارتحل إلىٰ الإسكندرية، ومكث في مصر تسعة أشهر، ثم توجه إلىٰ الحديدة فوصلها في شهر أكتوبر من تلك السنة.

أما نفقات السفر فقام بها كلازر بمعونة أستاذه الذي جمع له ١٢٠ جنيهًا مصريًّا، وساعده المجمع العلمي الباريسي بمبلغ ٢٣١ جنيهًا، بشرط أن تكون نتيجة أبحاثه ملكًا للمجمع المذكور.

---

(١) مجلة الزهراء، ذو الحجة ١٣٤٥، المجلد ٣، الجزء ١٠.

وهذه هي رحلته الأولىٰ.

فخرج من الحديدة قاصدًا صنعاء، ولبث فيها سنة دون أن يحصل علىٰ إذن بالدخول إلىٰ جهات أخرىٰ من أرض اليمن؛ لأن الوالي التركي لم يشأ أن يأذن له إلا إذا تلقىٰ فرمانًا سلطانيًّا بذلك.

وعلىٰ كل حال فقد استفاد كلازر مدة إقامته في صنعاء شيئًا كثيرًا عن أحوال اليمن، فلما جاء الفرمان وفيه الإذن بسفره إلىٰ (همدان) ذات الشهرة العلمية قديمًا، وإلىٰ (أرحب)، وهما من البلاد الواقعة في شمالي صنعاء، أعد هذا الباحث عُدَّته ورحل إليهما، فعثر علىٰ كتابات بالقلم السبئي فنَسَخَها، وقد نشر المجمع العلمي الباريسي أكثرها، غير أن النَّسخ كان لا يخلو من أغلاط.

هذه هي الرحلة الأولىٰ لكلازر.

٢- وقام برحلة ثانية عام ١٨٨٥ - ١٨٨٦ ابتدأها ببلاد واقعة في جنوب الخط الواصل بين الحديدة وصنعاء، ولا سيما نواحي (ظفار) التي كانت عاصمة حِمْيَر قبيل الإسلام فجلب ١٢٥ كتابة بعضها أحجار موجودة الآن بمتحف لندن، وجمع أكثر من ٢٥٠ مخطوطة عربية قديمة من مؤلفات الزيديين وهي الآن في دار الكتب ببرلين، وهذه الكتب ذات أهمية؛ لأنها تساعد علىٰ معرفة مذاهب الزيديين والمعتزلة في العقائد والفقه.

٣- وكانت رحلته الثالثة من أكتوبر سنة ١٨٨٧ إلىٰ سبتمبر سنة ١٨٨٨، فابتدأها من عدن متوجهًا إلىٰ صنعاء، مارًّا في طريقه علىٰ (تعز) و(إب) و (العُدَين) والجزء الجنوبَي من تهامة، ولما بلغ صنعاء تجهَّز لزيارة خرائب (مأرب) فوصل إليها بعد (أرنود) و (هاليفي)، إلا أن (هاليفي) لم يتمكن من الإقامة بها غير ساعة واحدة؛ لأنهم لم يسمحوا له بذلك.

والسفر إلىٰ هذه الجهة كان ولا يزال محفوفًا بالخطر، حتىٰ إن الترك الذين كانوا قائمين بأمر اليمن لم يكونوا يتمكنون من الدخول إليها؛ لأن البدو لا يمكِّنُون (الأجانب) من ذلك علىٰ الإطلاق، وقد تمكن كلازر من هذه الرحلة بصفة غريبة، وذلك أنه اتفق مع الوالي التركي علىٰ أن يقول كلازر لأمير مأرب: إنه يريد البحث عن إمكان ترميم سدِّ مأرب وإعادته إلىٰ ما كان عليه قبل الإسلام، لتحييٰ به الأراضي وتسهل الزراعة.

ولكن مع هذا التدبير ما استطاع كلازر أن يقيم هناك لولا عون السيد محمد بن عبد الله المَرْوَعي من (آل الأهدل) السادة الحسينية[1] الكثيري النفوذ في بلاد اليمن. ويقول الأستاذ أحمد زكي باشا: إنه ما تمكن من رؤية أشياء كثيرة في رحلته إلىٰ اليمن إلا بأنه مسلم من السادة الحسينية. فلما فهم السيد محمد بن عبد الله الأهدل حُسْن غرض كلازر أعانه عليه وأمده، مع علمه بأنه نصراني. ارتحل السيد وأمير مأرب وكلازر من صنعاء في نصف الليل؛ لئلا يعلم أحد بأنه سافر معهما، وكان يلبس لباس فقيه، فكان أمير مأرب يحسب أنه فقيه مسلم، ولولا ذلك لما أمكنه السفر أو الاستمرار.

وكانت رحلته هذه محفوفة بالمشقة؛ إذ كان الأهالي يطلبون منه في بعض الأحيان أن يكون إمامًا للجماعة، وألحوا عليه مرة أن يخطبهم فكان يقول لهم: «أنا مَدِين»، والمَدِين عندهم لا يتقدَّم للإمامة، وأحيانًا يقول: «أنا لا أقدِّم نفسي علىٰ سيِّد حسيني».

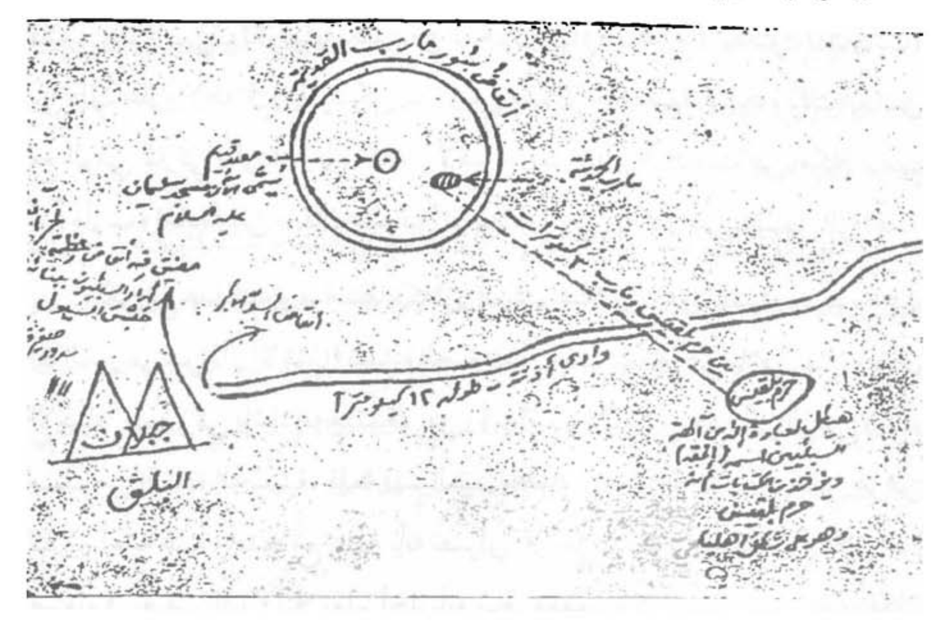
• كلازر في مأرب •

مكث كلازر في مأرب مدة شهر نسخ في أثنائه كتابات كثيرة طويلة مفيدة جدًّا. وقد سُمِحَ له بأن ينزع الرمل والتراب الذي يغطي الكتابات، فعثر علىٰ كتابات مطولة جدًّا لم يُسْمَع بمثلها من قبل.

---

(١) إن أهل اليمن وحضرموت يطلقون لقب «السيد» على الذي ينتسب إلى سيدنا الحسين بن علي بن أبي طالب، ولقب الشريف على من ينتسب إلى سيدنا الحسن. (الزهراء)

وخرائب مأرب متسعة جدًّا، وهاك رسمها:



• خرائب مأرب وأنقاض السَّدّ •

وقد وجد كلازر علىٰ السَّدِّ الكبير -المبيَّن في الرسم- كتابتين طويلتين ذات مئة سطر، جاء فيها: أن شرحبئيل يعفر ملك سبأ رمَّم هذا السد سنة ٥٦٥ (والمرجَّح أن عدد ٥٦٥ منسوب إلىٰ تاريخ ابتدأ سنة ١١٨ قبل الميلاد، فتاريخه إذن هو سنة ٤٤٧ بعد الميلاد).

ووجد كتابة أخرىٰ ذات ١٣٦ سطرًا وضعها أبرهة الحبشي سنة ٦٥٨ (أي سنة ٥٣٩ بعد الميلاد)، وأبرهة هـذا كان واليًا علىٰ اليمن من قِبَل النجاشي.

وهاتان الكتابتان مهمتان من الجهة التاريخية؛ فإن فيهما شيئًا كثيرًا عن تاريخ اليمن وأحوالها.

ولما عثر كلازر علىٰ هذه النفائس أراد الارتحال إلىٰ بلاد الجوف الواقعة شمالي مأرب حتىٰ نجران، غير أن قلة المال اضطرته للرجوع إلىٰ صنعاء؛ حيث

وصل ومعه ٦٣٢ كتابة بالسبئية والمَعِينية. ومن هذه الكتابات الكتابة التي ذكرنا في الكلام علىٰ رحلة هاليفي أنها موجودة في سور صرواح العاصمة الأولىٰ لمملكة سبأ، وتتضمن ألف كلمة، وهي أطول ما وُجد بالسبئية حتىٰ الآن.

وهنا تنتهي رحلة كلازر الثالثة إلىٰ بلاد اليمن.

٤- أما الرحلة الرابعة فكانت من سنة ١٨٩٢ إلىٰ ١٨٩٤.

فقد سافر من عدن مارًّا بتعز ثم بصنعاء، فلما بلغ صنعاء لم يقدر علىٰ السفر أكثر من ذلك؛ بسبب الفتن التي قامت بين القبائل داخل اليمن، فأقام في صنعاء مدة سنتين اخترع في أثنائهما وسيلة مضمونة للحصول علىٰ نسخ صحيحة من الكتابات، مستعملًا في ذلك بعض الأعراب.

كان روَّاد الآثار اليمانية - حتىٰ ذلك الحين - ينسخون الكتابات بأيديهم؛ لأن آلات التصوير كانت نادرة، ويصعب استعمالها في بلاد العرب، فكان ما ينسخونه عُرضة لأخطاء كثيرة في النقل، فعلَّم كلازر البدو نقل الكتابة الحجرية بما يسمىٰ بالفرنسية Estampage وذلك بأن يبلوا ورق النشاف ويضعوه علىٰ الحجر المكتوب، ويلمسوه بالأصابع أو بفرشة ليِّنة ويضغط ثم يرفع وقد انطبعت عليه الكتابة كالأصل، وبهذه الطريقة نقل له الأعراب كثيرًا من الكتابات، منها كتابات سبق لهاليفي نقلها غير أنها لم تكن صحيحة، فنُقلت لكلازر نقلًا صحيحًا.

وبلغ ما نقل لكلازر بهذه الطريقة ١٠٠ كتابة بلغة قتابان فيما بين مأرب وشبوة Satota، وشبوة هذه مذكورة في كتب العرب وذكرها بلينوس باللاتينية، وتقع علىٰ منتصف الخط الواصل بين ساحل البحر الأحمر أمام جزيرة كمران ومصبِّ وادي المسيلة في المحيط الهندي علىٰ عرض صنعاء. وهذه الكتابات هي التي أظهرت وجود مملكة قتابان.

ونقل كلازر في هذه الرحلة بعض الأحجار المنقوشة وباعها لمتحف فينا، ونقل نقوشًا حِمْيرية وآثارًا أخرىٰ.

وبالجملة فقد جمع في أسفاره كلها نحو ألفي كتابة، ولم تزل تُكشف بعد كلازر كتابات أخرىٰ، غير أنها قليلة جدًّا بالنسبة إلىٰ ما نقله هو.

وقبل ترك هذا الباب -باب روَّاد اليمن الباحثين عن الكتابات القديمة- نذكر شهيرين من روَّادها:

١. بُرخاردت الألماني Herrmann Burchardt.

٢. وبنزوني الإيطالي Gaetano Benzoni.

فقد رادا معًا بلاد اليمن لجمع الكتابات، وابتدءا سفرهما من المخا، ولما وصلا قريبًا من (إب) قتلهما البدو في ديسمبر سنة ١٩٠٩، وكان برخاردت قد أرسل قبل ذلك إلىٰ أوروبا كتابات أخذها بالفطوغراف.

من تلك الآونة جعل أهل اليمن هذه الكتابات القديمة متَّجرًا، فينقلونها من مكانها الأصلي ثم يبيعونها، فتضيع قيمتها الأثرية لجهل موضعها الأول، ونظن أنهم يحاولون حفر الأرض لاستخراج ما فيها، وهذا مُضِرٌّ جدًّا؛ لأن الحفريات التي يعملها من ليس له إلمامٌ بالحفر تأتي بضرر؛ إذ من شروط الحفريات العلمية أن يوصف بكل دقة ما وُجِد في كل طبقة من طبقات الأرض، وأن لا تخلط ذخائر طبقة بذخائر أخرىٰ، فتندثر الدلائل علىٰ ترتيبها التاريخي.

ومِن البدو من لا يعرف غرض علماء المشرقيات من جمع هذه الكتابات فيخربونها، كما حصل في آثار (خرائب سدوس)، وهي في الجانب الجنوبي من نجد، وفيها عمائر ذات كتابات بلغة لم تُعرَف إلىٰ الآن، ولا استطاع أحد أن ينسخها.

قال السيد محمود شكري الألوسي في «تاريخ نجد»[1]: «إن في مقاطعة العارض من بلاد نجد بلد سدوس، وفي قربها أبنيةٌ قديمة يُظنُّ أنها من آثار حمير وأبنية التبابعة. نقل لي بعض الثقات من أهل نجد أن في جملة هذه الأبنية شاخصًا كالمنارة، وعليها كتاباتٌ كثيرة منحوتة في الحجر ومنقوشة في الجدران، فلما رأىٰ أهل قرية سدوس اختلاف بعض السياحين من الإفرنج إليها هدموها مخافة التداخل معهم».

---

(١) ص٢٦ طبعة المطبعة السلفية سنة ١٣٤٣. (الزهراء)

رموز اللغة الحِمْيرية وكيف توصَّل العلماء إلى حلِّها[1]

من محاضرات العلامة الأستاذ كارلو نلينو بالجامعة المصرية[2]

قلت فيما مضىٰ[3]: إن ولستد الضابط الإنكليزي نشر عام ١٨٣٤ نسخة لكتابات (حصن الغراب) التي عثر عليها عامئذ، وفي سنة ١٨٣٧ طبع رسمه لكتابة (نقب الهجر) التي اكتشفها سنة ١٨٣٥، لكنها كانت كتابة ذات سطرين فقط.

وأول من أمعن النظر في هذه الكتابات إميل رودجر Emil Rodiger، فاهتم بالنُّسخ التي نسخها ولستد، واجتهد في تفهُّم معاني الحروف وإثبات ما إذا كانت حِمْيرية أم لا.

وفيما هو مهتمٌّ بذلك عثر في دار الكتب الملكية ببرلين بمخطوطة جِيليَّة في فقه الزيديَّة، وفي آخر هذه المخطوطة الحروف الحِمْيرية وما يقابلها من الحروف العربية، كتبها أحد القرَّاء.

ثم وجد مخطوطًا فارسيًّا فيه صورة هذه الحروف أيضًا، ولكن الفرق بين المخطوطتين كبيرٌ في الصور.

وفي سنة ١٨٣٧ نشر رودجر رسالة في الموضوع دلَّ فيها علىٰ ما يأتي:

أولًا: إن الحروف الواردة في ذينك الكتابين -علىٰ فسادها وكثرة غلطها وتحريفها- كانت حروفًا حِمْيرية حقًّا؛ وذلك لأنها إما مشابهة لحروف وردت في

---

(١) مجلة الزهراء، الربيعان ١٣٤٦، المجلد ٤، الجزء ١ و٢.

(٢) ننشرها اعتمادًا على المذكرات التي يكتبها صديقنا الفاضل **السيد محمود شاكر**، وقد تكرم جناب الأستاذ نلينو بإعادة النظر عليها قبل أن ننشرها. (الزهراء). قلت: وجميع الحواشي التالية من المجلة، والأشبه أنها لنلِّينو ما عدا العزو.

(٣) الزهراء ٣: ٥٠٤ -٥٠٥.

الكتابات التي نسخها ولستد، أو شبيهة بحروف أخرىٰ واردة في سائر الخطوط الساميَّة.

ثانيًا: بعد ملاحظة أن الكتابات التي نسخها ولستد لا فصل فيها بين الكلمات، أي ليس بين الكلمة والكلمة بياضٌ يفرق بينهما، تبادر لذهنه أن الخط المستقيم الرأسي الكثير الورود في تلك الكتابات -وعلوُّه مساوٍ لعلوِّ الحروف الأخرىٰ- ليس حرفًا، بل هو علامة الفصل بين كلمة وكلمة، كما هو الحال في الكتابتين اللتين كان اكتشفهما الرحَّالة الإنكليزي سالت Salt في يحا Yeha من بلاد تِجْرَىٰ Tiger من أعمال الحبش الشمالية، ونشرهما سنة ١٨١٦، وقد ظنَّهما رودجر مكتوبتين بالخطِّ الحبشيِّ القديم واللغة الحبشية (الأثيوبية) القديمة[١].

ومن غريب الاتفاق أن هـذا الظنَّ غير الصحيح أدىٰ رودجر إلىٰ فرض صحيح، وهو أن الخط الرأسيَّ في هاتين الكتابتين وفي الكتابات الحِمْيرية علامة الفصل بين الكلمات؛ إذ من قاعدة الخطِّ الحبشيِّ الحديث وضع نقطتين متراكبتين في آخر كل كلمة.

ثالثًا: إن إمعان النظر الدقيق في الكتابات المنقولة من بلاد العرب الجنوبية يؤدي إلىٰ إثبات أن الخطَّ فيها جارٍ من اليمين إلىٰ الشمال[٢]، خلافًا لاعتقاد علماء المشرقيات قبل رودجر الذين غرَّهم الخطُّ الحبشيُّ القريب من الخطِّ الحِمْيري، وهو يجري من الشمال إلىٰ اليمين.

---

(١) والحقيقة أنهما بالخط الحِمْيري وباللغة السبئية.

(٢) هذا صحيح في أكثر الكتابات المعينية والسبئية والحِمْيرية، غير أنه في بعض الكتابات السبئية القديمة جدًّا يجري الخط في السطر الأول من اليمين إلى الشمال، وفي الثاني من الشمال إلى اليمين، ويعود في الثالث إلى الجريان من اليمين إلى الشمال، وهلم جرًّا، وتسمى هذه الطريقة boustrophedon، وهي كلمة يونانية معناها: تدوير البقر عند الحرث.

بهذه الملاحظات الثلاث وضع رودجر الأساس المتين لقراءة هذه الكتابات وفهمها.

وبناءً علىٰ الرسالة التي ألفها رودجر قرأ جزنيوس W. Gesenius في كتابة حصن الغراب كلمتي «ملك حميرم» وفهم أن معناها «ملك حِمْيَر»، غير أنه غلط في ظنِّه أن الميم في آخر «حميرم» علامة الجمع كما هي الحال في اللغة العبرية التي يُجْمَع فيها الاسم المذكَّر بإضافة «يم» إلىٰ آخر الكلمة.

ومع ذلك كله ظلَّ بعض العلماء في ألمانيا يقول: إن خط كتابة نقب الهجر يوناني لا حِمْيري، ويجد فيها حروفًا يونانية.

ولم يمض غير قليل حتىٰ اتضح الحقُّ بما نشره كروتندن سنة ١٨٣٨ من رسم الكتابات التي كان نسخها في صنعاء[1]، وهي أربع كتابات واضحة سالمة أكثر حروفها من التلف، فساعدت هذه الكتابات جسنيوس ورودجر علىٰ تفهُّم لغة سبأ وحِمْير.

ففي سنة ١٨٤١ نشر كلٌّ منهما رسالة اجتهد فيها بشرح كتابة حصن الغراب وغيرها، بيد أن الفرق بين نتائجهما كبيرٌ جدًّا حتىٰ يظنُّ من رأىٰ الترجمتين أنهما لأصلين مختلفين تمامًا.

وفي سنة ١٨٤٢ كرَّر رودجر بحثه عن كل الكتابات المعروفة في ذلك الحين، وأثبت نتائجه في ذيل الترجمة الألمانية لرحلة ولستد، فتوصَّل إلىٰ قراءة أكثر الحروف الواردة في تلك الكتابات، وعرف أيضًا أن الخطَّ الحِمْيري لا تُكْتَب فيه حروف العلة للدلالة علىٰ الممدود، وإنما أخطأ في زعمه أن علامة O (وهي العين بالخط الحِمْيري) قد تستعمل أيضًا بمعنىٰ حركة من الحركات كالضمة والفتحة والكسرة، وكان خطؤه هذا سبب بعض الأغلاط في تفسيره.

---

(١) انظر: الزهراء ٣: ٥٠٥ -٥٠٦.

وقد استعان رودجر علىٰ فهم هذه الكتابات باللغة الحبشية القديمة (الأثيوبية) واللغة الأمهارية (نسبة إلىٰ بلاد أمهارة بالحبشة) وهي المستعملة الآن.

وبعد هذين الرجلين اجتهد وجدَّ في البحث فْرِنِلْ Fulgence Fresnel الذي كان قنصل فرنسا في جدة[1]، فنشر في المجلة الآسيوية Asiatique Journal الباريسية سنة ١٨٤٥ رسالة في الكتابات الحِمْيرية، وهو قد اطلع علىٰ رسالتي جسنيوس ورودجر الصادرتين سنة ١٨٤١، لكنه لم يطلع علىٰ رسالة رودجر الثانية سنة ١٨٤٢، بل جهلها تمامًا، فكان جهله هذا عائقًا عن التقدُّم المطَّرد.

غير أن فْرِنِلْ امتاز علىٰ رودجر بأنه كان عنده ٥٦ كتابة، وهي التي نسخها أرنود في مأرب وصرواح وصنعاء[2].

ومن الواضح أن توفُّر الكتابات -ولا سيما الكتابات الطويلة- عونٌ عظيمٌ علىٰ حلِّ رموز الخطوط واللغات المجهولة.

وقرأ فْرِنِلْ أولًا في بعض هذه الكتابات «ملك سبأ»، ومن كتابات أخرىٰ فَهِمَ اسم ملك تبَّع «كَرِب».

يقول فْرِنِلْ: «وبعد ذلك كدتُ لا أشتغل إلا بتفقُّد أسماء الأشخاص والأماكن الواردة في هذه الكتابات.

وبعد البحث عن المفردات التي كنت أستعين علىٰ فهمها بقاموس مجد الدين الفيروزابادي لم يبق لي إلا مقارنة الكتابات المنسوخة بعضها ببعض.

ولم يكن من الممكن أن تخلو هذه الكتابات من زلاتٍ صادرة عن الناسخين، ولكني لا أشكُّ في أن مقارنة النصوص تهدي إلىٰ تصحيح بعض الغلطات ولو لم يزل مجهولًا المعنىٰ الذي أراده واضعو الكتابات.

---

(١) انظر: الزهراء ٣: ٥٠٦ -٥٠٧.

(٢) انظر: الزهراء ٣: ٥٠٦ -٥٠٨.

ولا أشكُّ أيضًا في أننا إذا وصلنا إلىٰ إثبات ما صحَّ من الكلمات -أو إلىٰ تصحيحها فيما لو كانت منقولة نقلًا غير صحيح- فإننا سنهتدي بذلك إلىٰ كشف معناها، ولا وسيلة غير مقارنة النصوص تؤدِّي بنا إلىٰ فهم المعنىٰ».

ثم نظر فْرِنِلْ في ثلاث كتاباتٍ نسخها أرنود، وهي كثيرة الاختلاف في الألفاظ وفي أسماء الأعلام الواردة فيها، كأن لا علاقة فيما بينها بالفحوىٰ، غير أن في آخر كلٍّ منها جملةً تكاد تكون واحدة، وهي موجودة أيضًا في قِطَع متعددة من كتاباتٍ أخرىٰ.

قال فْرِنِلْ عندما لاحظ ذلك: «فأول ما يخطر ببال من يدمن النظر في هذا الأمر أن الأسماء التي تكاد تَرِدُ في كل كتابة -مع الاختلاف العظيم بين الكتابات عصرًا ومعنًىٰ- أسماء آلهة؛ لأن الذي يطلبُ جميعُ أفراد أمَّةٍ شهادتَه أو حمايتَه -مع تباعد العصور واختلاف الملوك- هو الإله أو الآلهة»، وبناء علىٰ هذه الملاحظة المهمَّة ذهب فْرِنِلْ إلىٰ أن كلمات الجملة المتكررة هي أسماء آلهة، وقد أصاب فيما ذهب إليه.

أما الجملة المشار إليها الواردة في آخر الكتابات الثلاث فهذه هي:

(١) ب ع ث ت ر/ و ب/ و ب س/ و ب/ ا ل م ق ه/ و ب/ ذ ت/ ح م ىٰ م/ و ب/ ذ ت/ ب ع د ن م/ و ب/ ذ ت/ ب ب ر ن /

(٢) ب ع ث ت ر/ و ب/ ه و ب س/ و ب/ ا ل م ق ه/ و ب/ ذ ت/ ح م ىٰ م/ و ب/ ذ ت/ ب ع د ن م/

(٣) ب ع ث ت ر / و ب/ ا ل م ق ه/ و ب/ ذ ت/ ح م ىٰ م /

وأما السطر الأول فمأخوذٌ من الكتابة رقم ٥٦ من مجموعة أرنود أو فْرِنِلْ (Fr .56)، والثاني من الكتابة رقم ٥٥ من تلك المجموعة، والثالث من الكتابة

رقم ٩ منها[١]، والفراغ الذي في السطر الثالث ليس فراغًا في الأصل، وإنما تركناه زيادةً في وضوح المقابلة بين الكتابات الثلاث.

وقد لاحظ فْرِنِلْ أن كلَّ اسم بسيط أو مركَّب في هذه الجملة يسبقه حرف (ب) وأن هذا الحرف يسبقه حرف (و) دائمًا إلا في أول الجملة.

ورأىٰ أنه إذا حذف حرف (ب) من كل ب ع ث ت ر بقي عنده (عثتر) وهي كلمة واردة في كتابات أخرىٰ بلفظ (عثتر) مجردًا من الباء، فاستنتج أن (ب) حرف و (عثتر) اسم.

وقال أيضًا: إن الخطَّ الحِمْيري مثل الخطِّ الفينيقي وخطوطٍ ساميَّة أخرىٰ ما كان يُسْتَعمل فيها حروف العلة دلالةً علىٰ الممدود.

واستنتج من هذا أن (ذت) هي (ذات) في العربية.

ثم نظر إلىٰ كلمة (عثتر) من وجهة افتراض أن الجملة تشتمل علىٰ أسماء آلهة، فقارنها باسم آلهة مشهورة عند الكنعانيين، مذكورة في الكتابات الفينيقية والتوراة وكتب اليونان، أعني (عشتروت) بالعربي، واستارتس Astaretes باليوناني، فاستدلَّ به علىٰ أن (عثتر) اسم إلهٍ سبئيٍّ يقابل (عشتروت) عند الأمم الساميَّة الشمالية، فتيقَّن حين ذاك أن الواو في معنىٰ الواو العربية، وأن الباء للقسم كالعربية.

أما الأسماء الأخرىٰ فلم يتمكَّن من فهمها، وإنما رأىٰ أن الاسم (المقه) شبيهٌ جدًّا باسم ملكة سبأ (بلقيس) المذكورة في تاريخ الطبري وغيره كابن خلدون (بلقمة بلقة، يلقِمة يلقة).

---

(١) الكتابتان الأوليان وُجِدَتا في خرائب مأرب، والثالثة في صرواح، وكلها باللغة السبئية، أما كلمة ب ب ر ن التي في آخر السطر الأول فهي سهو من أرنود وفرنل ناشئ عن تلف صغير في الحجر، وعن جهل فرنل بمعنى حرف غ الذي ظنه نوعًا آخر من حرف (ب)، والصواب «غ ض ر ن» لا «ب ب ر ن».

ثم نظر في كتابات أخرىٰ، وفهم منها مثلًا أن (بن) بمعنىٰ (ابن) في العربية.

ثم نظر فِرِنْل في جملتين واردتين في موضعين من الكتابة (رقم ٥٥ فِرِنْل)، وهما:

(١) ال ش ر ح/ ب ن/ س م ه ع ل ىٰ/ ذ ر ح/ م ل ك/ س ب أ/

(٢) و ب/ أ ب ه و/ س م ه ع ل ىٰ/ ذ ر ح/ م ل ك/ س ب أ/ و ب/ أ خ ه و/

أي يذكر في كلتيهما «سمهعلي ذرح ملك سبأ»، ويظهر منهما أن «الشرح» ابنه، فقال فِرِنْل: إن (الشرح، ذرح) اسمان يشبهان أسماء مذكورة في تاريخ اليمن من الكتب العربية. ولم يشكَّ في أن (سمهعلي) اسم عَلَم أيضًا.

وعندما قارن الجملة الأولىٰ من الكتابة بالجملة الأخيرة منها وجد أن السطر الأخير للقسم أو الاستشهاد، وفهم الكلمات (أب) و(ابن)، وعلم أن الضمير هو المتصل البارز.

ولم يستند فِرِنْل في جميع أبحاثه هذه إلىٰ اللغة الحبشية القديمة -خلافًا لما قد فعله رودجر-، ولكنه التجأ إلىٰ لغاتٍ أخرىٰ كان درسها في جدَّة، وهي لغات أراضٍ فيما بين حضرموت وعمان، أي أرض مَهَرة[1] وأرض يسمِّيها الأهالي أرض «القرىٰ»[2]، وظنَّ فِرِنْل أن هذه اللغات -خصوصًا الإحْكِلِيّ- مشتقَّة من لغة حِمْير القديمة[3]، فبحث فيها بحثًا خفيفًا، واستعان بها أحيانًا للوصول إلىٰ فهم معنىٰ بعض الكلمات الحِمْيرية، غير أن ما استفيد منها للآن عند درس الكتابات القديمة ليس شيئًا كبيرًا، وذلك لأسباب منها: أننا لا نعرف تلك اللغات معرفةً تامة، ثم لأن هذه

---

(١) المنسوبة إليها (الجمال المَهَرية)، وعاصمتها: قِشِن (بكسر القاف والشين).

(٢) ونطق هذا الاسم الأهالي: el-Gra، وهي بعد (قشن) إلى جهة الشرق، وتمتد من مرباط إلى ظفار.

(٣) لغات هذه الأراضي بعيدة جدًّا عن العربية الحالية، والفرق غير كبير بين اللسان المَهَري واللسان القراوي أو (الإحكلي) إلا أن الأول قد دخلته ألفاظٌ عربية كثيرة، ويستعمل في جزيرة (سُقُطْرى) اللسان السُّقُطِري القريب من المَهَري.

اللغات لا يتكلم بها الآن إلا ناسٌ يعيشون عيشةً بسيطة ساذجة قريبة من الهمجية؛ لأنهم إما بدوٌ أو من صيَّادي البحر، فمن الواضح أننا لا نجد في كلامهم ألفاظًا تدل علىٰ أمور عالية مثل التي تشير إليها الكتابات الحِمْيرية، ففيها اصطلاحاتٌ تتعلق بالهيئة الاجتماعية والبناء والزراعة وأمور أخرىٰ لا يعرفها ولا يهتمُّ بها أهل مَهَرة وأرض القرىٰ.

وما زال علماء المشرقيات يتقدَّمون بعد رودجر وفْرِنِلْ في فهم الكلمات الموجودة في المساند الحِمْيرية، ويبلغ عدد الرسائل التي أُلِّفت في هذه الموضوع خمسمئة رسالة.

ونريد أن نذكر هنا اكتشافين كبيرين:

الأول من اكتشافات أوزياندر Osiander الذي فهم أن الميم اللاحقة بآخر كلمات كثيرة في اللغات الحِمْيرية والسبئية والمَعِينية بمنزلة التنوين العربي.

وقد ذكرنا قبل أن جسنيوس قرأ في كتابة حصن الغراب (ملك حميرم) فظن أن الميم تدل علىٰ الجمع كحرف (يم) في العبرية، و(ون) في العربية، ولكن ظهر لأوزياندر أن الميم للتنوين، فحلَّ بذلك غوامض كثيرة.

أما الاكتشاف **الثاني** فوفِّق إليه جيلد ميستر Gildemeister الألماني وهو أن حرف (ن) الكثير الورود في آخر كلمات كثيرة باللغات الحِمْيرية والسبئية والقتابانية والمَعِينية كان ينطق (أن) ومعناه (ال) في العربية، فيقال في الملك (ملكن).

حِوَارَات

لقاء مع محمود شاكر[1]

تحقيق التراث

■ **سألته عن جيله.. أهمّ ملامح هذا الجيل كما يراها؟**

كان جيلنا جيلًا مثابرًا فيه ذكاءٌ ودأب، كما أن الظروف التي نشأنا فيها كانت ظروفًا غير عادية، هناك احتلال، وقضية وطنية تشغل الجميع، وأخطارٌ جديدة تهبُّ علينا: الحضارة، والمرأة، والخلافة، والمؤامرات التي تحاك للأمة الإسلامية والعربية. وتصوَّر شابًّا مثلي وسط هذا كلِّه يبحث عن الحقيقة، يلحُّ عليه السؤال: من أنا علىٰ وجه التحديد؟

أضف إلىٰ هذا الإذلال الذي لاقيناه في التعليم، لغتنا العربية كانت محتقرة، واللغة الإنجليزية في مكانة أعزّ.

إنني لا أتحدَّث عن جيلنا وكأنه جيلٌ كامل، علىٰ العكس، لقد كان في جيلنا من زيَّف الأشياء، واشترك في مؤامرات فكرية علىٰ أمتنا، سواءً بالتعمُّد أو بالتغرير، وفي جيلنا من ادَّعىٰ لنفسه ما ليس له.

---

(١) مجلة الفيصل، السنة الثالثة، العدد ٢٨، شوال ١٣٩٩ - سبتمبر ١٩٧٩، إعداد مندوب المجلة. ومن الواضح أنه كان حوارًا مسجَّلًا، لا مكتوبًا.
وقد نقل الدكتور عبد العظيم الديب فقرات من كلام الأستاذ محمود شاكر في هذا الحوار، في محاضرة له بعنوان «نحو خطة واعية لإحياء التراث الإسلامي» نُشِر مجملها في «مجلة الأمة»، العدد الثالث والأربعون، السنة الرابعة، رجب ١٤٠٤، إبريل ١٩٨٤.

■ **كيف بدأت رحلتك مع شرح وتحقيق تراثنا العربي والإسلامي؟**

بدايةً أرفض إطلاق لفظة «التحقيق» علىٰ ما أفعل، عملي يُطلَق عليه بالدِّقَّة «القراءة والشرح»، تحديد الخطأ والصواب فيما أقرأ من قديم الكتب[1].

وهكذا بدأت رحلتي مع «القراءة والشرح».

كان لديَّ كتابٌ قديمٌ هو النسخة الوحيدة، الكتاب هو «طبقات فحول الشعراء» لابن سلَّام الجمحي، ويعتبر صاحب هذا الكتاب أول من عُنِي بالنقد الأدبي في زمانه، وقد قرأتُ الكتاب وشرحته، فنشرته دار المعارف عام ١٩٥١م، ثم خطر لي بعدها أن أقرأ وأشرح «تفسير الطبري»، وكان أن نشرت دار المعارف منه ستة عشر جزءًا، وما زال في «الطبري» بقيَّة لم تنشر بعد، وذلك لخلافاتٍ قامت بيني وبين دار المعارف[2].

■ **حين سألته ما هو التراث؟ وهل كل قديم يعتبر تراثًا؟ وماذا نترك من هذا التراث وماذا «نقرأ ونشرح»؟**

أجاب علىٰ الفور:

إن لفظة «تراث» في حدِّ ذاتها أرفضها؛ لأنها أصبحت علامةً علىٰ شيء منفصل عن أمتنا[3]. إن تاريخنا متصل، كلُّ ما سبق ومضىٰ هو تاريخنا، ومن هنا فإن البعض ممن ينادون «بغربلة» هذا التاريخ مضلِّلون لنا. إن الأمم لا تفقد ماضيها، ومن هذا

---

(١) بسط هذا في برنامج «طبقات فحول الشعراء» (١٥٧ - ١٥٨)، وأشار إليه في آخر حياته في حدَيثه عن ذكرياته مع المخطوطات «جمهرة المقالات» (٢/ ١٢٣٠).

(٢) سيأتي تعليقٌ نادر لمحمود شاكر على هذا الخلاف في رسالة منه إلى ناصر الدين الأسد.

(٣) إنما رفض استعمالها هنا في سياق التزهيد فيما كتبه الأسلاف والدعوة إلى «غربلته»، وإلا فقد استعملها في هذا الحوار في مواضع، وفي كثير مما كتب من قبل، كما في تقديمه لديوان ابن الدمينة وغيره.

المنطلق فكلُّ قديم يعتبر «تراثًا» إذا جاز لنا أن نستخدم الكلمة. والمكتبة العربية لو وُضِع ما فيها إلىٰ جوار تاريخ الإنسانية كلها لرجحت كفَّة مكتبتنا. ومن هنا فلا يملك أحدٌ أن يقول: هذا نتركه وهذا نهتمُّ به.

▪ قلت: هل نستطيع أن نحدِّد موقف الأمة العربية حاليًّا من التراث العربي الإسلامي؟

قال: إن الذين يلهثون اليوم وراء حضارة الغرب واهمون؛ لأنهم يسعون نحو ما هو منفصلٌ عنهم تمامًا. وإذا كانت أوروبا قد أخذت عنَّا أفلا يكفينا الأصل وهو لدينا؟! لقد تعرَّضت الأمة العربية الإسلامية لمؤامرة غاية في البشاعة والشراسة؛ لأن العالم كله يعرف مبلغ قوتنا في وحدة إسلامية، وهم لا يستطيعون تجاهل القوة الهائلة الكامنة في قرآنٍ كريم يجمع شمل هذه الأمة.

ومن هنا استمرَّت المؤامرات في حلقاتٍ متصلة، وكان التركيز علىٰ تخريب العقل في أمتنا، وزعموا أننا متخلفون، فخلاصنا الوحيد في تبعيَّتنا الكلية لحضارتهم، وللأسف فقد صدَّق البعض منَّا هذا وروَّج له، وبدلًا من أن نبحث عن أنفسنا ونكشف عن أصالتنا وقعنا في الفخِّ الذي نصبوه لنا.

أعرف أن البحث في تراثنا كلِّه عمليةٌ مستحيلة، خاصَّة وأن طبيعة التأليف في زمان أجدادنا تختلف عن طبيعة النشر والتأليف في زماننا، آلاف بل وملايين الكتب من تراثنا ضاعت بالحروب والنهب والحرق والسرقة، وما بقي لدينا لا يُعَدُّ شيئًا بالقياس إلىٰ ما ضاع، لنا تراثٌ في الهند وأمريكا والعالم كله، المدائنيُّ مثلًا له تسعون كتابًا، ولم يبق في أيدينا منها إلا قطعةٌ من كتاب، الخليل بن أحمد مؤسِّس علمي العروض والنحو لم يبق من كتبه الخمسة أي كتاب، لولاه مثلًا ما عرف العالم علمَ أصول المعاجم، لولاه ما عرف العالم ضبط أنغام اللغة.

إن علىٰ الأمة العربية والإسلامية اليوم أن تبذل جهودًا كبيرة في جمع تراثها، قراءته قراءة جيدة وشرحه، وأن تختار من المؤلفات ما له قيمةٌ ولا يتشابه مع غيره، أعرف أن هذا أمرٌ بالغ الصعوبة، ولكنَّ علينا أن نفعل.

إن تراثنا بالغ الضخامة، يكفي أن أقول لك إن فهرس ابن النديم وحده هائل، وقد كتبه في القرن الرابع مشيرًا إلىٰ ما اطلع عليه في عهده فقط.

هل تتصوَّر حالة العالم لولا فضل العرب وأبي بكر الصديق الذي أوصىٰ بكتابة القرآن الكريم؟ لولاه ما عرف واحدٌ من البشر حرفًا مكتوبًا، من أول الصين حتىٰ هنا، فكيف يأتي البعض اليوم ممَّن لا يفهمون ويشيرون إلىٰ هذا كله علىٰ أنه «تراث» انفصلت عنه الأمَّة وأصبح لدينا ما يشغلها عنه؟!

■ إلىٰ أي حدٍّ خدم المستشرقون قضية تحقيق تراثنا؟

تسألني عن هؤلاء! إنهم لم يخدموا إلا أنفسهم، لم يتركوا لنا فرصةً لمعرفة تراثنا.

لقد سبق أن قلت في أكثر من موضع، وفي كتابي «أباطيل وأسمار»[1]، قلت: إن الاستشراق والسياسة[2] والتبشير وجوهٌ لعملة واحدة.

إن رسالة المستشرقين تبشيرية، وهم يتظاهرون بالعلم، مع أنهم أضعف خلق الله في المعرفة. المستشرق إنسانٌ فَشِل في أن يكون شيئًا ظاهرًا في أمته! إنسانٌ يئس من أن يكون أديبًا. من هم هؤلاء حتىٰ يقدِّموا لي تاريخ أمتي؟! إنهم لم يكونوا أكثر من مِوظفين في وزارة الاستعمار البريطانية والفرنسية، إنهم لا يعرفون لغتنا العربية، فكيف يشرحون لنا تراثنا؟!

---

(١) ذكر فيه (٢١٥، ٢١٩) أن الاستعمار والتبشير والاستشراق أسماء متباينة لحقيقة واحدة لها هدفٌ واحد.

(٢) يريد بها الاستعمار.

■ **هل تعتقد أن جامعاتنا العربية قد قامت بواجبها في الاهتمام بتراثنا؟**

لا، بالطبع، لم تقم هذه الجامعات بواجبها، خاصَّة وأن هذه الجامعات لا تفرد أقسامًا متخصِّصة لشرح التراث وقراءته، بل والبحث عنه وجمعه.

إن الأمر ما زال في يد جهود فردية قليلُها دؤوبٌ يعرِف، وأكثرها لا يعرِف. والتراث -كما تعلم- هو آلاف العلوم، تراثنا تناول كلَّ شيء، وأصبح يحتاج إلىٰ متخصِّصين في كثير من الفروع، ولكن لا بدَّ لهؤلاء جميعًا من معرفة واسعة بلغتنا العربية.

إن هذا التراث -كما قلت لك- بالغ الضخامة؛ إذ كتب أجدادنا في كلِّ شيء، الديانة الهندية لا تجد وثائقها إلا في كتبنا عند البِيروني.

■ **سألته عن رأيه في «تفسير القرطبي» الذي صدر أخيرًا في القاهرة لتوفيق الحكيم.**

فأجاب في اختصار: أنا لم أقرأ هذا «التفسير»؛ لأنني أعرف توفيق الحكيم، أعرفه جيدًا. إن مجال قراءة التراث وشرحه قد دخله كثيرون، وللأسف فإن الناشرين يلهثون وراء الأسماء الكبيرة بالمنطق التجاري، وأنَّىٰ لهم أن يميِّزوا!

■ **حول ترجمة القرآن الكريم إلىٰ لغات أجنبية كان سؤالي، هل يعتقد بأن هذا صواب؟**

قال وهو يشير بيده علامةً علىٰ الرفض: كلام الله لا يترجَم، اللغات الأجنبية قاصرةٌ عن بلوغ معانيه، المعجزة في القرآن أن يتبيَّن الناسُ أنه كلام الله، أن يعرف الناسُ أن كلام القرآن الكريم غير كلامهم.

وعلىٰ كل من يؤمن ويُسْلِم أن يعرف القرآن بلغته العربية، ولا بدَّ أن يفهمه بلغته، ويوم عاش الإسلام في الأندلس والصِّين كان مفهومًا بلغته العربية.

إن إعجاز القرآن الكريم في بيانه العربي، وكيف يقتنع غير المسلم بما في القرآن ما دام لم يعرفه بلغته العربية؟!

أممٌ مختلفة الأجناس والألوان والألسنة، من قلب روسيا وإلىٰ الصين، إلىٰ الهند، إلىٰ جزائر الهند، إلىٰ فارس، إلىٰ تركيا، إلىٰ بلاد العرب، إلىٰ شمال إفريقيا، إلىٰ قلب القارة الإفريقية وسواحلها، إلىٰ قلب أوروبا نفسها، تلَوا كتابًا واحدًا يجمعها هو القرآن الكريم، يقرؤه مَن لسانه العربية، ومن لسانه غير العربية، وتحفظه جمهرةٌ كبيرة منهم عن ظهر قلب، عَرفت لغة العرب أم لم تعرفها، ومن لم يحفظ جميعَه حفظ بعضه ليقيم به صلاته، وتداخلت لغته في اللغات، وتحوَّلت خطوط الأمم إلىٰ الخطِّ الذي يُكتَب به هذا الكتاب، كالهند وجزائر الهند وفارس وسائر من دان بالإسلام.

فكان عجبًا أن لا يكون[1] في الأرض كتابٌ كانت له هذه القوة الخارقة في تحويل البشر إلىٰ اتجاه واحد منسَّق علىٰ اختلاف الأجناس والألوان والألسنة!

■ **في نهاية لقائنا سألته عن جهده الحالي، ماذا يكتب؟**

أكتب كتابًا عن «مداخل الإعجاز في القرآن»، وأفكِّر في استكمال أجزاء كتابي الذي قرأته وشرحته وصدر منه الجزء الأول فقط كتاب «جمهرة نسب قريش» للزبير بن بكَّار. هذا ما أفعله الآن.

(١) كذا في الأصل. ولعل الصواب: أن يكون.

رِسَالَات

رسالة إلى الشيخ عبد الحي الكتاني[1]

أستاذنا ووالدنا الجليل.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وعلىٰ الأخ العزيز عبد الكبير، والأخ أبي بكر، والأخ إدريس، والأخ أحمد، هكذا في سمطٍ واحد.

وبعد، فما أظنُّ ولا ظننتُ يومًا أن يكون لأحدٍ من الناس من الأثر في نفسي وخلقي مثل الذي كان لكم فيه، وما ظننتني يومًا مشغولًا بأحدٍ من خلق الله مثل شُغلي بكم، وقد كان ليوم الفراق في نفسي حزَّةٌ كحزَّة السَّيف لا يبرأ أثرها حتىٰ تعود إلينا سالمًا مبرور الحج متقبَّله فتبرئها أنت.

---

(١) بتاريخ ٢٩ مارس ١٩٣٣، وأصلها محفوظ بمكتبة الشيخ عبد الحي الكتاني في الخزانة العامة بالرباط، المجلد الثالث، ضمن مجموعة رسائل، ونشرها د. إبراهيم الكوفحي في جريدة الرأي الأردنية ٢٠/ ٨/ ١٩٩٩، ثم في كتابه «مرايا وظلال»، وزارة الثقافة، عمَّان، ٢٠٠٥، ص ٣١- ٣٣، وعن كتابه أصدر.

والشيخ عبد الحي الكتاني من كبار علماء الحديث لعصره، ولد وتعلم بفاس، وتوفي بباريس سنة ١٣٨٢- ١٩٦٢. وكان قد زار مصر سنة ١٣٥١- ١٩٣٣، ودوَّن بعض أخبار زيارته هذه وسفره إلى طنطا ولقائه الرافعيَّ صحبة الأستاذ محمود شاكر وأخيه الشيخ أحمد شاكر في كتابه «الإفادات والإنشادات» (٤٣٤- ٤٣٧)، قال: «فلما دخلتُ مصر عام ١٣٥١ بحثتُ عنه [يعني الرافعي] فوجدتُ خبره اليقين عند أحبابه أنجال المجاز منَّا فقيد مصر والأزهر الشيخ محمد شاكر وكيل مشيخة الأزهر سابقًا، وهم: العلامة المحدث القاضي أبو الأشبال السيد أحمد، **والشاعر الكاتب الرَّزين المهذَّب السيد محمود**، وكلاهما من أهل الأثر والدين وخلاصة أهل وُدِّنا، فلما أظهرتُ لهما حرصي على لقائه أعلماه مكاتبةً من مصر إلى طندتا، وصحباني لها ...»، وذكر لقاءه ثم قال: «وكان في كلامه معنا كلما صدرت منه درَّةٌ أمرتُ **السيد محمود شاكر أن يقيِّدها لنا** في ورقة من بريد الإرسال» وساق نبذًا من كلامه. وكان محمود شاكر يومئذ في نحو الرابعة والعشرين من عمره.

وقد كان الحياء يوم وداعك يمنعني أن أقول كلمةً كنت أودُّ أن أبوح بها، هي أني ما قبَّلتُ يد أحدٍ بعد والدي غير يدك؛ لأن الثورة التي كانت في نفسي طغت عليَّ طغيان السَّيل، فما عرفتُ لنفسي قَبيلًا من دَبير، ولا أزال إلىٰ هذا اليوم أذكرك وأذكر تلك اليد الرفيقة التي وقعت عليها شفتاي، وأضاءت بها نفسي، كأنما ولَدتها قُبلة اليد ولادةً جديدة.

ولا أحبُّ أن أمتدحك في كتاب أرسله إليك، فلذلك فإني أقف في كتابي هذا عند هذه الجملة.

نشر «المقتطف» كلمتي فيك[1]، وقد أرسلتُ لكم أربعة أعدادٍ منه بعنوان السيد محمد نصيف بجدة، وسألته أن يرسلها لكم في أقرب فرصة، فلعلها تصلكم مع كتابي هذا، وإلا فأخبروا السيد نصيف ليرسلها لكم إن كانت قد وصلته.

وقد قرأ هذه الكلمة إخوانٌ كانوا معنا في «المقتطف» وأعجبوا بها، وقد أخذها بعضهم ليحفظها عن ظهر قلبٍ (كما يقول)، وأشهد الله أني كتبتها وأنا لا أشعر حتىٰ فرغتُ منها، وخفتُ بعد ذلك أن أعيد النظر فيها لئلا تكون سخيفة، ومن عادتي أني لا أستطيع أن أقرأ ما أكتب إلا بعد مضيِّ زمنٍ طويل حتىٰ أقدِّر ما كتبتُ قدره الذي يستحقُّه غير ملتفتٍ إلىٰ قول الناس وتزيُّدهم في تقدير الأشياء.

وقد أرسل لي «المقطم» بعد سفركم لأكتب له عنكم كلمة، ولكني اكتفيت بكلمتي في «المقتطف».

---

(١) الجزء الرابع، المجلد الثاني والثمانين، ٦ ذي الحجة ١٣٥١- ١ إبريل ١٩٣٣، وقدَّم لها محرَر «المقتطف» بقوله: «جاءتنا هذه الرسالة البليغة في وصف الشريف الكتاني الذي زار مصر في طريقه إلى الحجاز لتأدية فريضة الحج، من حيث هو عالم من أكبر علماء الفقه الإسلامي وأديب واسع الاطلاع عميق الفهم، جمع خزانة من أنفس المخطوطات العربية وأثمنها في داره بفاس، فنشرناها شاكرين»، وهي في «جمهرة مقالات محمود شاكر» (٢/ ٦٣٠- ٦٣٤).

ونشر أحمد ربيع المصري حديثه معكم في «المقطم» بتاريخ هذا اليوم (٢٩ مارس سنة ١٩٣٣)، وهو محفوظٌ عندي، ولعله وصلكم أيضًا، وكلمتي فيما أتخيَّل محبوكةٌ فيها معانٍ غامضة ومرامٍ بعيدة لا يفهمها إلا من دقَّق ورجع إلىٰ الأصل كما يقول المؤلفون، ولا أدري كيف يكون وقعها عندكم؟ فإن ارتضيتموها فهي كلمة إخلاصٍ وودٍّ ومحبةٍ ثابتة إن شاء الله، وإلا فمعذرة للضعيف، وأنت أهل المعذرة.

أرجو أن لا تنسوني من الدعاء لي بالتوفيق والهدىٰ والرحمة، ولو كنتَ تعلم سرَّ قلبي وما انطوىٰ عليه من القلق إلىٰ الخروج من هذا البلد الممتلئ بالمآثم والمخازي لجهدتَ في دعائك لي، واجتهدتَ اجتهاد من لا غاية له إلا ما يدعو وما يسأل، واذكرني كما أذكُرك، ولا تؤاخذني في مخاطبتك بهذا؛ فإني أعتقد أن الفارق الذي يفرِّق بين الناس قد زال فيما بيننا، فإن كنتُ واهمًا في هذا أيضًا فلك الرأي.

لعلك رأيتَ الحجاز بالعين المبصرة التي لا تترك صغيرةً ولا كبيرة، وعرفتَ ما انطوت عليه البلاد واضطمَرت[1]، وأرجو أن تكون أيامك كلها فيه مشرقاتٍ كرَأْدِ الضحىٰ، منعشاتٍ كرُوَيْحَة الفجر، مباركاتٍ كساعات الصَّلاة.

والله يتولاكم ويتولانا بلطفه الخفيِّ.

والسلام عليك ورحمة الله وبركاته، وسلامي إلىٰ العصبة المباركة التي تليك صغيرهم وكبيرهم.

---

(١) كذا في الأصل. واضطمر اللؤلؤ: انضمَّ وسطه بعض الانضمام.

رسالة إلى الشيخ أبي الحسن الندوي[1]

يا أخي أبا الحسن

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

لم يزل فضلك غامرًا بهداياك حتىٰ أعجزتني عن شكرك، ولولا أني قليل الحركة، مقيَّد الخطىٰ، مصروفٌ عن الخير، لكنتُ أسرع شيء إليك، ولستُ أزعم عذرًا أمهِّده يتغمَّد تقصيري، ولكنه فيما أرىٰ هو الحق.

وقد قرأتُ هذه الكلمات عن شاعرنا العبقريِّ محمد إقبال[2]، فتعلمتُ منها أن من البلاء علىٰ المرء أن يعيش غافلًا عن حقيقة حياته، وأن ينسىٰ مصائب أمته، وما نزل بدينه وأهل دينه من البلاء، وكان أعظم ما أدهشني رفضُ إقبال أن يدخل

(١) «رسائل الأعلام إلى العلامة أبي الحسن الندوي» (ص ١٦٨)، تحقيق وتعليق: سيد عبد الماجد الغوري، إخراج وتقديم: الشيخ محمد الرابع السني الندوي، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الأولى ١٤٢٥- ٢٠٠٤.

(٢) يشير إلى كتاب «شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال» لأبي الحسن الندوي، وكان قد نشره بالقاهرة سنة ١٩٥١ بمطبعة دار الكتاب العربي.

وقد زار الشيخ أبو الحسن مصر سنة ١٩٥١ والتقى أبا فهر أول مرة في حفلة جمعية الشبان المسلمين يوم الاثنين ٢٧ جمادى الأولى ١٣٧٠ - ٥ مارس ١٩٥١، ثم دعاه إلى بيته فأجاب، يقول في كتابه «مذكرات سائح في الشرق العربي» (١٢٤): «كنت أريد الاجتماع بالأستاذ محمود محمد شاكر؛ لما سمعت من دراسته واشتغاله بالمطالعة وتحقيقه، وأودُّ أن أزوره وأهدي إليه نسخة من كتاب «ماذا خسر العالم»، فقدَّر الله الاجتماع به على غير ميعاد، وانبسط وأنس بي، وذكر أنه قرأ الكتاب وأعجب به، وكان إعجابه بالباب الأول «العصر الجاهلي» أكثر، واقترح أن أفرد لهذا الموضوع كتابًا خاصًا، ولما علم بقصدنا لتركيا دعاني لمقابلة الأستاذ يحيى حقي مستشار السفارة المصرية في تركيا الذي هو ضيفٌ عنده».

مسجد باريس، ومقالته: «إن هذا المسجد ثمنٌ رخيصٌ لتدمير دمشق»[1]، فلولا أن الرجل كان يعيش في حقيقة صريحة، وفي ذكرٍ دائم لا ينقطع لِمَا نزل بنا وطمَّ، لما خطر له هذا الخاطر. وكم من غافلٍ ساهٍ منَّا ومن قومنا يَعْرِض له أن يحيي تاريخ نفسه وتاريخ دينه بمثل هذه الكلمة، ثم لا تراه إلا حيث يكره الله من الذلِّ والضَّعَة والعبودية والفتنة بما زيَّن له أعداء الله وأعداء رسوله.

هذه كلمةٌ عاجلةٌ لولا صديقٌ عزيزٌ ذكَّرني بما لك عليَّ -أنا صاحب الدار وأنت الضيف- لما وصلتك. هذا صريح الحق، وإن كان الحقُّ ثقيلًا علىٰ سامعه، مثقلًا لقائله.

وهذا هو الصديق عبد الحفيظ الصيفي، سوف يستودع هذه الكلمات صندوق البريد، وكان حقها أن تكون سعيًا إليك حيث كنت.

فتقبَّل من أخيك مودَّة لا تبلىٰ ولا تنقطع.

محمود محمد شاكر

مصر الجديدة

١٥ شعبان ١٣٧٠هـ

٢١ مايو ١٩٥١م

---

(١) «شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال» (١٣).

رسالة إلى ناصر الدين الأسد [١][1]

الثلاثاء ٢٣ جمادىٰ الآخرة سنة ١٣٧٩	مصر الجديدة
٢٤ نوفمبر سنة ١٩٥٩	شارع الشيخ حسين المرصفي/ ٣

أخي ناصر

السلام عليك ورحمة الله، وعلىٰ عواطف ويحيىٰ[2] والأولاد جميعًا.

وبعد، فاعذرني، فقد حبسني عن الكتابة إليك من فوري ذاك حابسان لا حيلة لي في الامتناع علىٰ سطوتهما:

أما الأول، فحيرةٌ آخذةٌ بالمُخَنَّق، لم تزل تنداحُ في حياتي وفي نفسي إلىٰ هذه الساعة، كلَّما حاولتُها من جانبٍ راوغتني إلىٰ جانبٍ كنتُ أحسبه مطمئنًّا ممتنعًا. وجعلت تتطاول بي وبها هذه المراوغة، حتىٰ أورثتني مللًا وسآمةً وضجرًا وضيقًا بالحياة أكتِّمه، رضًا بالله وصبرًا علىٰ ما يمتحنني به من مكروه هذه الدنيا. ولم أخْلُ مع هذه الحيرة من تجربةٍ للناس ترضيني عن بعضٍ قليل، وتسخطني علىٰ أكثرهم.

وحسبك أن تعلم أنَّ أكثرهم يتجنَّب لقائي وزيارتي كأنني مطليٌّ به القارُ

---

(١) «تحقيق سبع رسائل مخطوطة لأبي فهر محمود محمد شاكر»، للدكتور إبراهيم محمد الكوفحي، مجلة «دراسات، العلوم الإنسانية والاجتماعية»، الجامعة الأردنية، المجلد ٤١، العدد ٣، ٢٠١٤. وكان قد ناوله إياها والرسالة الآتية الدكتور ناصر الدين الأسد في ١٣ أغسطس ٢٠٠٩.

(٢) عواطف زوج الدكتور ناصر الدين الأسد. ويحيى الرفاعي نائب رئيس محكمة النقض، وهو عديل الأسد كما ذكر د. الكوفحي.

أجربُ[1]، كما قال صاحبك كثيِّر عزَّة[2]. وأشدُّهم تجنُّبًا من كان أقربهم مودَّةً، وأنصَفهم نسبًا، وأظهرهم حفاوة.

ومن أعجب ما لقيتُ في الأسبوع الماضي أن أستاذًا لك كنتَ تعلم كيف يلقاني، وكيف أكسبتني مودَّاتُه في المشهد والمغيب إحساسًا بالشكر له، فقرَّب ذلك ما كان بيننا متباعدًا، زارني هو وبعض زملائه في الجامعة، فلم أقصِّر في نسيان المَعْتبة عليه، وبقي معي وقتًا ثمَّ انصرف. ثمَّ جاء عبد الله[3] في اليوم التالي وأنبأني بالخبر الذي يسرُّ كلَّ من عرفك، فطلبتُه بعد ذلك بالتليفون، أبشِّره بما نال تلميذُه وخِرِّيجه من المنزلة، فلقيتُ صوتًا متجهِّمًا، وهو مع تجهُّمه مقرورُ النبرات، ولولا الحياء، فيما أظنُّ، لنهرني عن فعلةٍ ارتكبتُها في حقِّه، ولأغلق في وجهي بابَ الصوت الذي وَصَلَ بيني وبينه. فحاولتُ أن أكشفَ عنه شيئًا مما يجد، فألفيتُه أشدَّ بردًا مما كان، فشكرتُه وحفظتُ في نفسي جِراحةً لا تندمِل.

هذا بابٌ لا أريد أن أفتحه؛ فإنَّ الحديثَ عنه ثقيلٌ علىٰ النفس، ثمَّ هو حديثٌ لا ينتهي، وتفسيري لما تنطوي عليه نفوسُ الناس أشدُّ إزعاجًا لي ولك مما تتوقَّع. ولولا أنَّ الله قد أخلصَ بعض النفوس من خَبَثٍ، ونقَّاها من كدرٍ، وأنعم عليها بِنُبْلٍ لا يفنيه إلحاحُ الخِسَّة المتلاطمة من حولها، لَداخَل المرء يأسٌ لا ينقشع، ولأخذه علىٰ الناس غِمرٌ لا تخفُّ وطأته.

أما الحابسُ الثاني عن الكتابة إليك، فأنتَ حابسي. قرأتُ رسالةً تتدفق نَفْسُ

---

(١) وذلك بعد خروجه من السجن، فقد بقي فيه تسعة أشهر من فبراير إلى أكتوبر لهذه السنة ١٩٥٩.

(٢) لم أجده لكثيِّر، والمشهور في هذا بيت النابغة في بائيته الاعتذارية السائرة.

(٣) القائد والمجاهد والمفكر الأردني أبو المنتصر عبد الله التل، وسيأتي له ذكرٌ في آخر الرسالة الثانية. وليس هو د. عبد الله بن يوسف الغنيم، كما ظنه د. إبراهيم الكوفحي، فقد كان صغيرًا يومئذ وإنما حضر مجلس محمود شاكر بعد ذلك بسنوات.

كاتبها في نفسي، قرأتُها وأقرأتُها، وسمعتُها تُقرأ علينا جميعًا يوم الأحد في درس كتاب «الكامل» للمبرِّد[1]، لعلك لم تكن تتوقَّع وأنت تكتبها أن تنزل من نفسي وقلبي وفكري هذا المنزل. ولكنَّها حَمَلتكَ إليَّ طيفًا أثار كوامنَ نفسي، وأغراني بك، وجعلني أجدُ في كلِّ جانب من نفسي شوقًا يهزُّني إليك، وحنينًا يغتال صبري عنك. فكان ذلك ناهيًا عن الإسراع إليك؛ لأني لا أطيق أكتبُ وأنا في فورة الشُّعور إلا في الشاذِّ النادر.

ولو شئتُ أن أضيف إلىٰ هذا ما نحن جميعًا مقرُّون به إقرارَ الغريزة، وإقرار الحجَّة، وإقرار العَجز، من هذه اليعربيَّة التي توارثتَها من سَباسب الأردنِّ، وقفار البلقاء، وبرابيع بصرىٰ، وحيَّات عمَّان، والتي تحدَّرت إليك من غيب القرون التي عجز التاريخ عن تدوينها، والتي شقَّت إلىٰ الوجود غياهبَ الظلماء، حتىٰ ألقت في ألسنة أسلافنا نحن -لا أنت- بصيصًا من أنوار الفصاحة، وقبسًا من روائع الإعجاز، لأضفتُ هذا غير ملوم، ولا معاتَب، ولا ممازح أيضًا.

فلمَّا انفلق عليَّ فجرٌ من بيانك، شُدِه القولُ علىٰ لساني، وخَرِقت المعاني في نفسي، أما القلمُ فقد جفَّ مدادُه، وانطبقت فِلْقتا سِنِّه، وعجز هو الآخر عن أن يعينني في هذه المحنة التي ضربت عليَّ بالأسداد. فأيُّ حابسٍ هو أعظم سطوةً وسلطانًا، وأبقىٰ قبضةً وإمساكًا، من روعةٍ لا تطيقُها قوىٰ الفصحاء، ولا تجد المهربَ منها بلاغة البلغاء؟! فكفاني هذا وحده عذرًا يقطعني عنك كاتبًا، وإن لم يقطعني ذاكرًا لك.

---

(١) عقد محمود شاكر لأصحابه في تلك السنوات مجالس في بيته لمدارسة الشعر وكتب التراث، ومما قرأه معهم بعض كتاب «الكامل» للمبرد وقصائد من «الأصمعيات»، وقد نشر جملة مما أملاه عليهم فيها الدكتور يعقوب يوسف الغنيم في كتابيه «قراءة في دفتر قديم» و«قراءة أخرى في دفتر قديم» ونشرتهما دار الغرب الإسلامي.

وأدع لك المزاح؛ فالحقيقة هي أني لم أقرأ من زمنٍ طويل رسالةً أحسن كاتبُها في أداء ما يريد أداءه مثل رسالتك إليَّ، كنتَ علىٰ سجيَّتك، وكنت تنتقل من بابٍ إلىٰ باب غير متكلِّفٍ ولا متعمِّل ولا متجمِّل، فدلَّتني علىٰ ما أتوقَّعه فيك من القدرة، وآسفتني علىٰ طول إهمالك لنفسك، وتلمُّسك لها الأعذار المريضة في ترك المواظبة علىٰ العمل والجِدِّ والكَدّ، فأضعتَ ذخيرةً أخشىٰ أن يتطاول عليك إضاعتها، حتىٰ إذا ما افتقدتَ منها شيئًا لم تجده. فأتقدَّم إليك أن لا تدع الكتابة ليلةً واحدةً، طالبًا الإبانة عن نفسك علىٰ صورة من الصُّور؛ فإنَّ هذا خليقٌ أن يشحذ ما كَلَّ من بيانك، وأن يصقُل ما أخذه الصَّدأ من نفسك، وأن يحيي ما هَمَدَ من نار همَّتك، فافعلْ غير متطلِّبٍ عن غايتك عذرًا.

ولقد أجَّلتُ أن أبثَّك ما وجدتُ لخبر اختيارك عميدًا لكليَّة الآداب[1]؛ لأني أحبُّ أن تعدَّه أنت أقلَّ مما تطمحُ إليه، وإن كنتُ أسيء بك الظنَّ أحيانًا؛ فأعدُّك ممَّن يختار أسماء الدولة التي تُلقىٰ علىٰ أصحابها، لا ممَّن يختار المنزلة لنفسه يريدها ويسعىٰ إليها ويبلغها، وإن عميتْ عنها أبصارُ الناس. وأنت تعلم أنَّ الدولة قد ألبست ناسًا ثيابًا، وخلعت عليهم خِلَعًا، كانوا فيها كالذي قال جريرٌ للفرزدق[2]:

لبســتُ ســلاحي والفرزدقُ لعبةٌ عليــه وِشــاحَا كُــرَّجٍ وجَلاجِلُهْ

هذه واحدة، وأخرىٰ أني أخشىٰ عليك أن تنتفخ أوداجُك علىٰ من حولك، وأن تركبك عنجهيَّة أعرابيَّتك الخالدة؛ فإني أعلم أنك سوف تلقىٰ ممَّن حولك ما يحملك أحيانًا كثيرةً علىٰ أن تلتمس تثبيتَ هيبة المنزلة التي نزلتها بنفخ الأوداج، ونفش العنجهيَّة.

---

(١) كلية الآداب والتربية في الجامعة الليبية في بنغازي.

(٢) ديوانه (٢/ ٩٦٩).

فاعلم أن أسماء بن خارجة الفزاريَّ دخل علىٰ عبد الملك بن مروان فقال له: يا أسماء، لقد بلغتني عنك خصالٌ كريمة، فأخبرني بهنَّ. فقال: هو من غيري أحسنُ يا أمير المؤمنين! قال: أقسمتُ عليك لتقولنَّ. قال: أما إذ أقسمتَ عليَّ فأنا أخبرك، والله ما مددتُ رجلي أمام جليسٍ لي قطُّ؛ مخافة أن يرىٰ ذلك استطالةً مني عليه، ولا دعوتُ أحدًا إلىٰ طعام فأجابني إلا رأيتُ له الفضلَ عليَّ. فقال عبد الملك: حُقَّ لك أن تسود وتشرف[1].

فأنت الآن قد وَلِيتَ منزلةً لم تكن لتبلغها في مكانٍ آخر إلا بعد أن تلقىٰ الأمرَّين. نعم، أنا أعلم أنك أهلٌ لها منذ اليوم، ولكنَّ التجارب الطوال كانت خليقةً أن تكفكفَ غَرْبَ حدَّتك، وأن تفتح لك آفاقًا من النَّظر، وأن تعلِّمك ضروبًا من الصَّبر.

فأما إذ أكرمك الله وعجَّل لك ما أنت به قَمِنٌ، فاشكر الله بالجدِّ في عملك، والمراقبة لنفسك، وبأن تتجرَّع الصَّابَ والعلقم، لا يتقبَّض لك وجهٌ، ولا تتقلَّص لك شفة، بل كن كأنك قد أُتحِفتَ بلذائذ الحلوىٰ وطيباتها، أو كأنك مترشِّفٌ كأسًا علىٰ ظمأ.

واعلم أنَّ هذا الموقفَ هو أخوف ما أخافه عليك، أما سائر أمرك فأنا علىٰ ثقةٍ منه، وأنت قادرٌ علىٰ أن تبلغ فيه الغاية التي ترضينا عنك، وترضيك عن نفسك، ما احترزتَ من الغرور؛ فإنه آفة كلِّ عمل.

وأنا لا أدري علىٰ وجه التحقيق ما هي مهمَّة عميد الكلِّية؛ فإنَّ الخلط الذي عاشت فيه جامعاتنا قد أفسد معاني الأشياء كلَّها. ولستُ أدري ماذا يفهم مَن عندك عن اختصاص العميد، ولكنِّي لا أشكُّ أنك الآن قادرٌ علىٰ أن تضع أساسًا صحيحًا للدراسات في مثل هذه الكلية. وأظنُّك قد اكتسبتَ من الخبرة بالداء الذي ينخر في

(١) «تاريخ دمشق» (٩/ ٥٣)، و«المنتظم» (٦/ ٢٣٥).

الجامعة هنا وفي بعض الجامعات الأخرىٰ ما يعينك علىٰ أن تجنّب هذه الجامعة سيئةً من السيِّئات الماحقة؛ فإنك إن فعلتَ وأتيح لك من الوقت ما يكفل لك إرساء القواعد -أو تقعيد القواعد كما تحبُّ أن تقول بقافاتك المشهورة- فلستُ أستبعد أن تصبح الجامعة الليبية بعد أعوامٍ قدوةً يمكن أن تقتدي بها جامعاتٌ أقدمُ منها وأعرق.

وأنا أقول لك هذا وأنا، كما تعلم، في شكٍّ كبيرٍ من الوسائل التي أنشئت بها مثل هذه الجامعة! وافهمْ ما أعني يا سيد ناصر، ومع ذلك فعلينا أن نفعل ما نطيق، فإن لم يكن الذي نريد كما نريد فمثل هذا خليقٌ أن يدفع بعض الشرِّ، ولأن تكون المقاليد في يدٍ حريصةٍ مثل يدك خيرٌ من أن تكون في يدٍ مفرِّطةٍ شرِّيرة كالذي تعلم.

وإن استطعتَ مع هذا كلِّه أن تطالب بوضع الأسس الصحيحة منذ السنين الأولىٰ في التعليم فافعل؛ فإن التعليم الأوَّل هو التمهيد للجامعة. وأنت تعلم أن برامجنا التي فرضناها علىٰ الناس من حولنا برامج فيها آفاتٌ قديمة، وتنطوي علىٰ أهدافٍ بعيدة الأثر في تكويننا، كما شهدتَ وعلمت. وأظنُّ أنَّ ما فَرَط من أحاديثنا، علىٰ إبهامها، عونٌ لك علىٰ أن تتحرَّىٰ ما استطعتَ وجه الصَّواب والإصلاح حيثُ أطقت.

وأنا مستعدٌّ لكلِّ سؤالٍ توجِّهه إليَّ، فلا تتردَّد في أن تكشف لي عن خبايا ما تعرف أو تستنبط أو تلاحظ؛ فإني أحبُّ أن يحقق الله علىٰ يديك خيرًا كثيرًا نحن في حاجة إليه اليوم؛ فإن الدنيا تدور بنا دورةً عجبًا كما ينبغي أن تعلم، والموجُ يكتنفنا من كلِّ مكان، والأحداث سوف تنشقُّ عن نُذُر، بل هي قد انشقَّت بلا ريب، فإذا لم تجد من الشجاعة ما يكفي، ومن التنبُّه ما يغني، ومن الهمَّة ما يحفز، ومن الجلادة والصَّبر ما يعين، فإن مستقبل العرب قد تقرَّر، وهو الضياع والبوار.

وعسىٰ أن يكون ربُّك قد اختارك هناك لتؤدِّي حقَّه عليك، وحقَّ الأمَّة التي تدَّعي أنك جرثومتها! والعياذ بالله[1].

* * *

السبت ٢٧ جماديٰ الآخرة سنة ١٣٧٩
٢٨ نوفمبر سنة ١٩٥٩

الأمر كما ترىٰ، كتبتُ صدر هذه الرسالة وأنا جالسٌ في جروبي بمصر[2]، ثمَّ عدتُ بعد أن فرغتُ من زياراتي يومئذ، وجاء مجلسي إلىٰ جوار شبَّاكٍ في الأتوبيس المزدحم استعصىٰ علىٰ الإغلاق، فما كدتُ أصل إلىٰ البيت حتىٰ بدأ البردُ والزُّكام والأوجاع، والحمد لله الذي عافىٰ وشفىٰ.

افتقدتُ كتابًا هو «تاريخ هيرودوتس» مترجمًا إلىٰ العربية، فهل تعلم من أخذه مني؟ هذا سؤالٌ علىٰ هامش الرسالة أخشىٰ أن يضيع مني فعجَّلتُ به إليك.

أحمد[3] لم يعد بعدُ من دمشق، وسيتأخَّر أيامًا، وربَّما عاد في أواخر شهر ديسمبر.

لم يصلني من محمَّد نجم ولا من إحسان[4] لا رسالةٌ ولا كتابٌ ممَّا يطبعان!

---

(١) هذا من مزاح أبي فهر، وفي رسائله منه مواضع لا تخفى.
(٢) مقهى عريق بميدان طلعت حرب بالقاهرة أسسه في أواخر القرن التاسع عشر السويسري جاكومو جروبي Giacomo Groppi، وكانت القاهرة تسمى مصر، وأبو فهر يسكن مصر الجديدة.
(٣) العلامة أحمد راتب النفاخ.
(٤) الدكتور محمد يوسف نجم، والدكتور إحسان عباس، وكلاهما من خاصة صحبه العارفين بفضله، يقول الأول في مقدمة تحقيقه لديوان عبيد الله بن قيس الرقيَّات سنة ١٩٥٨: «أما أخي وأستاذي محمود محمد شاكر فإنني لا أطمع في أن أفيه حقَّه من الشكر والتقدير -وأنا أعلم علم اليقين أنه راغبٌ عن ذلك كارهٌ له- في مقدمة موجزة كهذه، ولكن ليسمح لي أن=

هل تحبُّ أن أعلِّق علىٰ شيءٍ من أفعالهما؟ وهما، علىٰ ما أعرف من إخلاصهما، فيهما من ضروب الأخلاق ما يزيدني عجبًا من تناقض ما أجرِّب منهما.

ماذا فعلتَ بقيس بن الخطيم[1]؟ هل تمَّ أم بقي منه شيء؟

لا أدري كيف أتِمُّ الحديثَ الذي بدأته منذ أيام[2]، وعسىٰ أن أكتبَ لك قريبًا فأستأنف الكلام؛ فإنَّ إتمام القول المبتور أشقُّ شيءٍ وأعسرُه.

وكنتَ سألتني عن حالي، فلعلَّك لم تنسَ بعدُ أن الذي بيني وبين المعارف[3]

=أبرَّه، وقد أدَّبني بهذا الأدب، فأقول: إن الفضل الأول في توجيهي إلى دراسة تراثنا القديم والتفرغ له بعد انصرافي إلى دراسة الأدب الحديث يعود إليه، وقد كانت دروسه ومجالسه وأماليه المدرسة الأولى التي نهلتُ من فيض علمها فشقَّت غرسي وطلعت، كما كان لي من أخوَّته الصادقة ووِدِّه المصفَّى وحدبه الدائم خير مشجِّع وأفضل حافز على المضيِّ في هذا السبيل الشائك والضرب في هذا المَهْمَه الغائل، وفضله هناك لا يدانيه سوى فضله هنا في هذا الديوان، فقد تعهَّده طفلًا، وتفضل بقراءته والتعليق عليه وتصويبه حين أخذ سبيله إلى المطبعة ...»، وكلام الثاني مشهور في حواراته وفي سيرته الذاتية «غربة الراعي».

(١) ديوان قيس بن الخطيم، وقد حققه الدكتور ناصر الدين الأسد ونشره في دار العروبة سنة ١٩٦٢، وكتب في مقدمته كلمة باذخة تُحفظ في مكارم الأخلاق بذلًا للعلم واعترافًا بالفضل، قال: «أما بعد، فإن صاحب الفضل في صدور هذا الديوان هو العلامة الجليل الأستاذ محمود محمد شاكر، فهو الذي بدأ بحثِّي على العمل فيه، وأخذ يتعهَّد عملي بالتشجيع والرعاية والتوجيه، لا يضنُّ في ذلك بجهد ولا بوقت، وسمح لي بالاطلاع على نسخته من الطبعة الأوروبية للديوان وعليها كثيرٌ من التعليقات والتخريجات التي دوَّنها بخطه على هوامشها، ثم أباح لي مكتبته الزاخرة بكتب مطبوعة ومخطوطة كان يتعذر عليَّ الرجوع إلى بعضها لو لم يبذلها لي، فإن كنت عاجزًا عن بيان فضله كله، وعن شكره الشكر الذي ينبغي له، فإني أسأل الله أن يجزيه عني خير الجزاء».

(٢) يقصد الجزء المتقدم من الرسالة.

(٣) يشير إلى الخلاف بينه وبين دار المعارف في نشر تفسير أبي جعفر بن جرير الطبري، وقد طبع منه ١٦ جزءًا ثم توقف لخلافٍ في حقوقه المالية، وسيتحدث عنه في الرسالة الآتية حديثًا فيه صدقٌ وشجًا.

كان قد وقفَ علىٰ شفًا، فلمَّا لقيتُ عادلًا كان شفيق غائبًا في أوربة[1]، ودار الحديث دورةً فيها من إخلاص الصَّداقة ومراوغة التجارة ما أنت به عليم، ولكنِّي آبىٰ أن أسلِّم مهما ساءت أحوالي، ولما عاد شفيقٌ منذ ثلاثة أيام سافر عادلٌ إلىٰ حلب.

والأمور أشدُّ ممَّا تتصوَّر والحمد لله، ولو كنتَ إلىٰ جواري اليوم لكان علمك بالأمر أوضحَ منه اليوم عن طريق الرسائل.

واعلم أني حين بدأتُ هذه الرسالة كنت أريد أن أطيعك فأبسط لك أمري بسطًا يرضيك، ولكنَّ مجيء هذه الفترة من الأذىٰ والتوعُّك تصرفني اليوم عن البسط، فدع هذا إلىٰ الرسالة القريبة القادمة؛ فإنَّ عقابيل الزُّكام لا تزال تصدُّني عن التبسُّط، وقد عزمتُ أن أرسل لك هذه الرسالة الآن، فلا تَعُقني عن أداء هذا الواجب، وعجِّل أنت بالكتابة إليَّ، وسيكون ردُّ كتابك كافيًا شافيًا إن شاء الله.

وسأستنُّ بما زعمتَ أني سننتُه لك، فأختم لك هذه الرسالة بأبيات البحتريِّ[2]:

عيشٌ لنا بالأبرقين تأبَّدتْ ... أيامُه وتَجدَّدَت ذكراهُ

والعيشُ ما فارقتَه فذكرتَه ... لَهَفًا، وليس العيشُ ما تنساهُ

لو أنني أوفي التجاربَ حقَّها ... فيما أرَتْ، لرجوتُ ما أخشاهُ

والشَّيء تُمْنَعُه يكونُ بفَوْتِه ... أجدىٰ من الشيء الذي تُعْطاهُ

خفِّضْ أسًىٰ عمَّا شآك طِلَابُه ... ما كلُّ شائم بارقٍ يُسْقَاهُ

وقد أراد الله أنْ أخرجَ مخرجي هذا[3] لأفقد حياةً كنتُ أحياها، فلا أنت، ولا

---

(١) شفيق متري صاحب دار المعارف، وعادل الغضبان مديرها.

(٢) في ديوانه (٤/ ٢٤٠٢).

(٣) يعني من السجن.

أحمد النفَّاخ، وانتثر العقد، وتبدَّد الشمل، وأصبحتُ وحيدًا في مسالك النفس، والدنيا من حولي كلُّها دار غربةٍ أنا فيها متلدِّدٌ مخطوفُ البصر، مبعثَر الإرادة، حسبي وحسبك الآن.

سلامي إلىٰ عواطفَ والأولاد جميعًا، ثم إلىٰ يحيىٰ، وسائر من تعرف ومن لا تعرف، وأنا متوقِّعٌ وصول رسالتك برَجْع هذه الرسالة، والسَّلام.

أخوك

محمود محمد شاكر

يسلِّم عليك أحمد بن مانع[1] سلامًا كثيرًا ويهنِّئك، وسأتعشَّىٰ معه الليلة أنا وعبد الله.

---

(١) أحمد بن الشيخ محمد بن عبد العزيز المانع، الملحق الثقافي السعودي في القاهرة.

رسالة إلى ناصر الدين الأسد [٢][١]

السبت ١٥ محرم سنة ١٣٨٠ — مصر الجديدة

٩ يوليه سنة ١٩٦٠ — شارع الشيخ حسين المرصفي/ ٣

أخي ناصر

السَّلام عليك ورحمة الله، وسلامي إلىٰ عواطف خاصَّة، وإلىٰ بِشْر[٢] وأتباعه من مواليد العروبة الأولىٰ، أستغفر الله، بل أعني الجاهليَّة الأولىٰ علىٰ عهد عادٍ وثمود وطَسْم وجَديس وما كان عند الله علمُه من عيالِم العربية.

وبعد، فقد كنت أظنُّ يوم ودَّعتنا أني لن أكفَّ عن الكتابة إليك، وغفر الله لابن مقبل، فقد علَّمني شيئًا نسيته علىٰ تطاول الأيام، إذ يقول[٣]:

سأتركُ للظَّنِّ ما بعده ... ومن يَكُ ذا ريبةٍ يَسْتَبِنْ
فلا تَتْبَعِ الظَّنَّ إنَّ الظنو ... نَ تُريكَ من الأمرِ ما لم يَكُنْ

فأراني ظنِّي أني مقلعٌ عن عادة سوءٍ تعوَّدتُها، وذلك شيءٌ لم يكن ولا يكون، وحسبي الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ومع ذلك، فأنت عاذري إن شاء الله إذا علمتَ السَّبب الذي أخذني عنك أخذًا رابيًا؛ فإنك لم تكد تسافر حتىٰ عدتُ أنظر في دخيلة نفسي، وفي الذي مرَّ بي من

---

(١) «تحقيق سبع رسائل مخطوطة لأبي فهر محمود محمد شاكر»، للدكتور إبراهيم محمد الكوفحي، مجلة «دراسات، العلوم الإنسانية والاجتماعية»، الجامعة الأردنية، المجلد ٤١، العدد ٣، ٢٠١٤.

(٢) ابن الدكتور ناصر الدين الأسد.

(٣) ديوانه (٢١٣).

الخواطر منذ أعتقني الله من السِّجن، فوجدتني سخيفًا لا عقلَ له، وأعتذر إليك أن أزاحمَك في مثل هذه الصِّفات العبقرية! وإذا أنا أهجم نفسي علىٰ ما لا يليق بي، وإذا أنا قد آذيتك يوم ذهبنا إلىٰ عادل[1] في بيته، بإعراضي عن نصيحتك التي مَحَضتنيها (اقرأ الكلمة بأناتك النابعة من فصاحتك يا أخي)، وبخذلاني لك في موقفٍ كنتَ فيه المشفِق الحَذِر.

ولم تلبث طوائفُ الملامة حتىٰ جاءتني وحفَّت بي حتىٰ قرعتُ لك السنَّ من ندم، فانتبهتُ علىٰ ما أنا فيه من اللجاجة والعناد، وعلىٰ ما ابتليتُ به من فساد الأصل الذي بنيتُ عليه اعتقادي في نفسي، وعلىٰ حقارة ما حرصتُ عليه من أمورٍ قدَّرتها وفرضتُها علىٰ حياتي فرضًا فترةً من الزمن. وطال تأمُّلي حتىٰ وجدتُني أحبُّ أن أكرم نفسي وأشرِّفها بالإقلاع عما أدمنتُه من الفكر في سفساف هذه الأمور.

وتمَّ عزمي من يومئذٍ أن أذهب إلىٰ عادل، فأخبرته أني قد تنازلتُ عن كلِّ مطلب طلبتُه، حتىٰ ما كان وافقني عليه، وشرحتُ له ما وجدتُه في نفسي من المهانة بعد طول التوهُّم في إعزازها.

ثم حملتُ العبء مرَّة أخرىٰ، وعدتُ إلىٰ عملي أعملُه كما بدأتُه خالصًا لله، غير طامع في شيء، ولا مريدٍ لجزاء، ونزَّهتُ لساني تنزيهًا عن الحديث في شأن المال.

وتعسَّر العمل؛ إذ بدأته مرةً أخرىٰ بعد طول انقطاع[2].

---

(١) عادل الغضبان مدير دار المعارف.

(٢) قال في مقدمة هذا الجزء، وهو آخر ما صدر من الكتاب: «وبعد، فهذا الجزء السادس عشر مَن تفسير أبي جعفر الطبري رحمه الله، وقد مضى على صدور هذا الجزء الخامس عشر ثمان سنواتٍ طوال منذ سنة ١٣٧٩ من الهجرة (سنة ١٩٦٠ للميلاد)، حالت دون إتمامه وصدوره حوائلُ جمَّة، منها ما أملكه ومنها ما لا ملك لي به، وأنى لامرئ أن يملك طوارق المقادير في الظُّلم السُّود، ولكني أسأل الله جلت قدرته وتعالى سلطانه أن يدفع عني شرور نفسي التي بين جنبيَّ، وأن يكفَّ عني غوائل عباده وخطاطيف خلقه بما شاء من لطفه ورحمته ...».

ثم لم أكد أوغل فيه حتىٰ جاء راتبٌ[1] بعد غيبةٍ طالت، وشوقٍ غَلَب، وكان في حالةٍ لا تسرُّني، كان ضعيفًا بعد مرضٍ قَطَعه عن المضيِّ في رسالته، فشُغِلتُ به، وأحطته بقلبي، وبقي معي في البيت أكثر من شهرين، أداوره وأحاوره وأليِّن من قساوة طبعه وصلابة عناده، وقَبِل العلاجَ الذي أمره به الطبيب، إلىٰ بيروت[2]، ثم عاد لوداع راتب، فسافر راتبٌ وبقي إحسان[3] معي أيضًا، ولكنه لا يزال متنقِّلاً بين القاهرة والإسكندرية، وسيحضر غدًا أو بعد غدٍ في طريقه إلىٰ السودان في يوم ١٣ يوليه، أما سائر أولاده غير إياسٍ فسيبقون في الإسكندرية شهرًا آخر، ثمَّ يوافونه بعدئذ.

وكنتُ لا أزال أعملُ شيئًا بعد شيء في التفسير، حتىٰ كدتُ أفرغ من الجزء السادس عشر، وفي أواخره وقعتُ علىٰ خبر غريب من تفسير أبي جعفر[4] لم أجد لي مخرجًا من التعليق عليه تعليقًا أخشىٰ أن يتجاوز مئة صفحة؛ فلذلك آثرتُ أن أجعل هذا التعليق مقدمةً للجزء السَّادس عشر.

وخلاصة أمر هذا الخبر أنَّ ظاهره يوهم طعنًا في القرآن، مع صحَّة إسناده، ورأيتُ علماء الحديث قد تجنَّبوه في كتبهم، وفرَّ منه ابن كثيرٍ في تفسيره، كأنه لم يقرأه في تفسير أبي جعفر، مع أنه يتعقَّب أحاديثَه إما ناقلًا وإما ناقدًا، هذا مع ما لا شكَّ فيه من معرفته بما فعله سائر المفسرين، إذ نقلوا الخبر بغير لفظه في التفسير، ثمَّ قالوا فيه ما قالوا، حتىٰ قال أبو حيَّان في تفسيره: «هذه كلمة زنديقٍ ملحد»[5]، مع أنَّ قائله هو ابن عباس!

---

(١) العلامة أحمد راتب النفاخ.

(٢) كذا في الأصل. ويبدو أنه سقط قبل هذه الجملة شيء لعله: «وسافر إحسان».

(٣) الدكتور إحسان عباس.

(٤) (١٦/ ٤٥٢، رقم ٢٠٤١٠).

(٥) «البحر المحيط» (١٦/ ٤١٢).

فاقتضاني هذا أن أُنعِمَ النَّظر في الخبر إنعامًا حتىٰ عرفتُ جليَّته، فعزمتُ علىٰ أن أكتب ما فتح الله به عليَّ، فكتبتُ عن إسناده كتابةً مستفيضة، ثمَّ عن لفظه، ثمَّ فتحتُ بابًا عجيبًا في جمع القرآن، وكتابة المصحف، وفي الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن، وفي معنىٰ القراءات المختلفة التي رُوِيَت عن الصَّحابة مخالفةً لرسم المصحف، ثمَّ في رسم المصحف ما هو؟ وكيف كان؟

فأرجو أن يكون ما كتبتُه ردًّا بليغًا لكلِّ الشُّبه التي يتلقَّطها المستشرقون وأذنابهم للطَّعن في كتابِ الله.

ولا أطيل عليك بشرح هذا، فاقنع بهذا؛ فإنك قارئه إن شاء الله في مقدِّمة الجزء السَّادس عشر[1].

هذه بعض شواغلي التي قطعتني عنك، وأمسكتني عن الانطلاق بأشواقي إليك، ولكن يبقىٰ العجبُ منك؛ فلِمَ لم تكتب رسالةً قصيرةً تلومني فيها علىٰ تقصيري وانقطاعي عنك؟!

أنا أعلمُ أنه كان واجبًا عليَّ أن أرسل إلىٰ عواطفَ رسالةً خاصَّة[2]، وأعلمُ أني

---

(١) لم يتهيأ له رحمه الله إدراج ما كتب في مقدمة هذا الجزء كما كان يريد أن يفعل، فإنه لما أوغل في المدارسة والتثبت نحو ثلاث سنين، وبدأ يكتب، اتسع القول وتشعَّب، واحتاج الأمر إلى الفحص والتغيير والتبديل، حتى صارت المقدمة كتابًا قائمًا برأسه لا يمكن نشره في أول الجزء، فآثر أن يفرده كتابًا يطبع على حِدَته، ولم يُنْشَر ما كتبه في هذا الباب حتى يوم الناس هذا، وإنما نشر بعض الباحثين دراسة عنه.
- وقد كان محمود شاكر يومئذ يقرأ بعض ما كتب منه على أصحابه، التماسًا لتصحيح الرأي إن زاغ، ولم يكن يتوهم «أن أمانة المجالس قد رُفِعت»، فتلقَّط بعضهم (وهو الدكتور عبد الصبور شاهين) بعض ما سمعه من قوله ونشره في كتاب عن «تاريخ القرآن»، «وليته أحسن إذ فعَل ما فعَل، وكنت أتمنى له غير الذي اختار لنفسه، وهكذا زماننا، أجد الناس اليوم يختارون شرَّ الطريقين» كما قال أبو فهر.

(٢) للإصلاح بينهما.

لم أفعل، وأعلمُ أنَّ ذلك قد نكَت في قلبك نكتة، ولكنَّ الذي أجده حين أهمُّ بكتابة هذا الضرب من الرسائل هو من أكبر القواطع لي. ولقد هممتُ بل كتبت، ثمَّ آثرتُ أن أكفَّ عن ذلك، وأنا علىٰ ثقةٍ أنك تفهم هذا حقَّ الفهم، ولكنك أحيانًا تخضع للخاطر الأول، فبقي في نفسك شيء، فلا تفعل؛ فإني لا أستطيع يا ناصر أن أكتب إليها شيئًا أرضىٰ عنه، فاعذرني ولا تحرجني، ولم يكن كلامي مغنيًا شيئًا، وإسراعُك يومئذٍ إليها كان أجدىٰ من كل رسالة لا تزيد علىٰ أن تنكأ جرحًا أولىٰ به أن يترك حتىٰ يندمل ويبرأ.

هذا وقد أبلغني عبد الله أبو المنتصر[1] أنك قد آثرتَ أن تستدعي سائر الأسرة لتقضي الصَّيف في مصايف ليبيا، فنِعْمَ ما فعلت، وبارك الله لك في نفسك ومالك وولدك، وفتح لك من أبواب الخير ما أنت خليقٌ به، وأعانك علىٰ أن تؤدِّي حقَّ المروءة في زمن شحَبت فيه وجوه المروءات.

وأبلغني أيضًا أنك سوف تحضر بعد قليل، ولكن جاءني الخبر من ناسٍ آخرين نقلًا عن بعض الأساتذة المنتدَبين أنك لن تحضر، فلا أدري أيُّ الخبرين أحقُّ بالتصديق؟!

وعسىٰ أن يتاح لك المجيء؛ فإني مشتاقٌ إليك، وذكرُك لا يفارقني، وبغيرك لم يكن لاجتماعنا أنا وراتبٌ وإحسان معنًىٰ كالمعنىٰ الذي احتسينا لذَّاته حسوةً فيما غَبَر من أيامٍ لا تُنسىٰ نشواتُها.

---

(١) عبد الله التل، كما تقدَّم.

رسالة إلى شاكر الفحام[1]

الثلاثاء ١٢ شعبان سنة ١٣٩٥	مصر الجديدة
٩ أغسطس سنة ١٩٧٥	شارع الشيخ حسين المرصفي/ ٣

أخي شاكر

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وسلامي وسلام أم فهر إلىٰ السيدة الفاضلة وإلىٰ الوَلَدِ جميعًا.

وبعد، فأراك لم تقدِّم ولم تؤخِّر في مسألة أحمد راتب[2]، وتركته علىٰ حاله راتبًا لا يتحلحل.

أما أنا، فإني غاية من التأثر المُخْزِي، فقد كنت أظنُّ، كما ظنَّ الناس، أن منزلتي عنده قادرةٌ علىٰ تحريك سواكنه، ولكن خاب ظنِّي وظنُّهم، ولم أحاول أن أعيد عليه الكرَّة إلا في رسالة كتبتها إليه منذ أيام، وأشرتُ له إشارة خاطفة إلىٰ ما أجده في نفسي عنه، وإنه ليحزنني أن يكون أحمد قد تغيَّر كما يتغيَّر سائر الناس مما[3] عرفنا ومن سوف نعرف، ويحزنني أن أجعله بمنزلتهم، فأقبله علىٰ عِلَّاته، فإذا استطعت أنت أن تنقل إليه هذا الذي أجدُ فافعل، فإني أحبُّ أن أستردَّ أحمد كما عرفته من سنين، وكما هو في حقيقة نفسه التي غطَّت عليها حوادث الأيام.

---

(١) من مكتبة الدكتور شاكر الفحام (ت: ١٤٢٩ - ٢٠٠٨) الخاصة التي آلت إلى مكتبة الأسد بدمشق، تفضَّل بتزويدي صورة عنها أخي الأستاذ عبد الرحيم يوسفان.

(٢) العلامة أحمد راتب النفاخ، وكان من خلصاء محمود شاكر وذوي ودِّه، وقد مضى له ذكرٌ رقيق في رسائله لناصر الدين الأسد، ويظهر من هذه الرسالة أنه وقع بينه وبين أبي فهر جفاءٌ ومعتبةٌ في ذلك الحين، وكلاهما كان حادَّ المزاج سريع البادرة.

(٣) كذا في الأصل. ولعله سبق قلم، أراد: ممن.

قرأتُ مقالتك الأولىٰ عن كتاب «الدلائل»، في الجزء الأول من المجلة الخمسين[1]، ولا أدري هل أُرْسِلَت إليَّ الأعداد التالية فضاعت، أم اختلطت بالكتب المكدَّسة المربوطة اليوم، الملقاة حتىٰ يأذن الله بفكِّ إسارها، وذلك لأني كنت شُغِلت بالسَّفر إلىٰ السعودية في شهر إبريل الماضي، ثم بمجيء الأولاد إلىٰ العُمرة بعد ذلك، ثم بما كان في هذه السَّفرة من مرض فِهْر بالحصبة في مدينة رسول الله ﷺ، ثم بعد عودتنا في يونيه شُغِلت بإجراء جراحة (اللِّوز) لفِهر وزلفىٰ، ثم بعد ذلك بإتمام دهان البيت وبياضه، ثم شُغِلت الآن بالعودة إلىٰ كتاب «الشِّعر»[2]، ثم طبع كتاب «المتنبي» (ولم أبدأ الطبع بعد)، ثم بإعداد بعض محاضراتٍ لدعوة جاءتني من جامعة بغداد[3]، حين مرَّ علينا الدكتور إبراهيم السامرائي، ثم دعوةٌ أخرىٰ إلىٰ محاضراتٍ في جامعة الإمام محمد بن سعود في الرياض[4]، والله المستعان.

وقد كان بدا لي بعض القول في مقالتك، ولكني لم أستطع، وأنا أكتب هذه الرسالة، أن أعود إلىٰ ما كنت أحبُّ أن أقوله لك إلا ما صحَّحته علىٰ العدد نفسه عند ذكر «أبي بكر الحسين بن عياش الباجدائي الرقي الجزري» بالدال (ص: ٧٩)، والذي رأيته في كتاب «تاريخ الرقة ومن نزلها» لأبي علي محمد بن سعيد بن عبد الرحمن القشيري الحراني الحافظ (توفي ٣٣٤) ص ١٤٥ أنه «حسين بن عياش بن حازم، يتولىٰ بني سليم، كنيته أبو بكر، سمعت أبا عمرو هلالًا يقول: مات سنة أربع ومئتين بباجرىٰ» بالراء[5]، وأخطأ ناشر الكتاب فظن أن صوابها «باجرمىٰ»، وأنا أرجح أن

---

(١) «كتاب الدلائل في غريب الحديث لأبي محمد قاسم بن ثابت العوفي السرقسطي»، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، الجزء الأول، المجلد الخمسون، محرم ١٣٩٥-يناير ١٩٧٥.

(٢) من كتبه التي لم يتهيأ له إكمالها ونشرها.

(٣) لم يقدَّر له تلبية دعوتها فيما أعلم.

(٤) عن «قضية الشعر الجاهلي في كتاب ابن سلام»، وقد ألقاها في أواخر ذلك العام ١٣٩٥، ونشرتها مجلة العرب، الجزء الخامس والسادس ١٣٩٥- ١٩٧٥، ثم نشرها ابنه فهر في كتاب مفرد سنة ١٤١٨- ١٩٩٧.

(٥) كذا في نشرة العلامة النعساني. وفي طبعة الأستاذ إبراهيم صالح (١٦١) بالدال.

هذا هو الصواب، مع ما تجده في «معجم البلدان» و«المشترك وضعًا» لياقوت من أن «باجدًّا» أيضًا قرية كبيرة بين رأس عين والرقة = وذكر أيضًا أن «باجرَّىٰ» من قرىٰ الجزيرة أيضًا، وراجع كتب «الأنساب» للسمعاني و«تبصير المنتبه»[1] وسائر الكتب الأخرىٰ، فلعلك واجدٌ ما يدلك علىٰ حاقِّ الصَّواب إن شاء الله.

هذا، وقد ذكر[2] كتابًا لجيرار لكونت عن ابن قتيبة (المعهد الفرنسي بدمشق)[3]، فمتىٰ إذن تصلني كتب هذا المعهد؟ وما معنىٰ أن أهدي إليه عن طريقك نسخة من «طبقات الشعراء»، وأنا لا أهدي إلىٰ هذا الصنف من البشر شيئًا أبدًا؟!

وأخرىٰ أن ذكرت في ص ١٠٠ من الهامش أن لكونت نفسه قد تولىٰ تحقيق كتاب «إصلاح غلط أبي عبيد» لابن قتيبة، وأنه نشر في مجلة جامعة القديس يوسف بيروت سنة ١٩٦٨[4] = وأنا كنت رأيت نسخةً مصوَّرة من الكتاب، وظننت أنه كتاب مطبوع، وسألت عنه شرقًا وغربًا، فلم أظفر بشيء إلا ما هديتني أنت الآن إليه، فعليك أن تصوِّر لي نسخة دقيقة من الكتاب وترسلها إليَّ[5] بأسرع ما تستطيع، ومعها إن شاء الله كتب ذاك المعهد الفرنسي.

---

(١) «الأنساب» (٢/ ١٢)، و«تبصير المنتبه» (١/ ١١٨).

(٢) كذا في الأصل، ولعل الصواب: ذكرت.

(٣) «ابن قتيبة حياته وآراؤه وآثاره» للمستشرق الفرنسي جيرار لكونت الأستاذ في مدرسة اللغات الشرقية بباريس، نشر في المعهد الفرنسي بدمشق سنة ١٩٦٥، ثم نشرته مترجمًا وزارة الثقافة السورية سنة ٢٠٠٦، وهو كتاب مهم يضاهي كتاب «الجاحظ» لشارل بلا، ووصفه الدكتور شاكر الفحام في مقالته هذه (ص: ٩٤) بالجامع الوافي وأنه من أجود الدراسات التي صدرت عن ابن قتيبة.

(٤) وهي كما يقول الأستاذ عبد الله الجبوري الذي أعاد تحقيق الكتاب ونشرته دار الغرب الإسلامي سنة ١٤٠٣- ١٩٨٣ طبعة سقيمة يشيع فيها التصحيف ويكثر فيها التحريف على الرغم من الجهد الذي بذله فيها.

(٥) في الأصل: إليه. سبق قلم.

أما كتب مجمع دمشق، فمنذ جاء شيخنا شكري[1]؛ فإنه صار فيصلاً في الأمر كلِّه = أن لا تصلني الكتب كالعادة قديمًا، إلا بعد الطلب. وأنا منذ كنت عندكم، فإنه قد طبعت بعض كتب سمعتُ عنها، ولم يصلني منها شيء، ولا أستطيع أن أذكر الآن ما هي، فعلىٰ شيخنا الجليل أن يحسب الوقت الذي كنت فيه عندكم ويراجع ما أخذته من الكتب لمَّا كنت هناك، ثم يتفضل بأن يودع ما طبع بعد ذلك في ذمَّة أخينا ناصر[2] لتصلني علىٰ وجه السُّرعة وبطنها وسائر أعضائها الموفَّرة كالجناح وما إليه.

وندع كلَّ هذا، فقد كان اشتياقي إلىٰ رؤية الشام مرَّة أخرىٰ عظيمًا، ولكني لم أجد ما يحملني إليكم هذه السَّنة، فإن جولة النفس في المرَّة السالفة كانت عظيمة، ولكنها كانت أيضًا خاطفة، لم يبق منها إلا هذا الشوق وحده، وأسال الله أن يعينني حتىٰ أطفئ هذا الشوق بشوق جديد إلىٰ رؤية الأرض والناس والوجوه، علىٰ ما في ذلك كله مما يكدِّر أحيانًا صفو النفس.

وأسأل الله أيضًا أن يمتِّعكم جميعًا بالصحَّة والعافية، وأن يديم علينا نعمه ظاهرة وباطنة.

وسلامي إلىٰ جميع الأهل والأحباب والسلام.

أخوك

محمود شاكر

---

(١) الدكتور شكري فيصل.

(٢) الدكتور ناصر الدين الأسد.

رسالة إلى الشيخ محمد حسين نصيف[1]

الثلاثاء ٢٣ من شوال سنة ١٣٨٢ ‏ مصر الجديدة

١٩ مارس ١٩٦٣ ‏ شارع الشيخ حسين المرصفي/ ٣

إلىٰ السيِّد الوالد الأجلّ

السلام عليكم ورحمة الله، وعلىٰ كلِّ من يَلُوذ بجنابكم من شيوخنا وأصحابنا وأحبابنا سلامًا محفوفًا بالشوق إليكم وإليهم، في زمانٍ انفردنا فيه كما تنفرد القاصية.

وبعد، فقد وافاني الأخ الفاضل السيد علي المدني بكتاب «درر الفوائد المنظمة»[2]، وكنتم قد كتبتم قبلُ إلىٰ الأخ إسماعيل تقترحون أن أتولىٰ تصحيح الكتاب وتحقيقه. وأنا لا أكاد أملك لأمركم إلا الطاعة والاستجابة الحاضرة، بيد أني لمَّا أخذت الكتاب وتصفحته وجدته سوف يعوقني عن عملين جليلين لا أستطيع

---

(١) وثائق الشيخ محمد نصيف، والرسالة بخط أبي فهر.

(٢) «دُرَر الفوائد المنظَّمة في أخبار الحاجِّ وطريق مكة المعظَّمة» لعبد القادر بن محمد الجزيري. ولم يتم الاتفاق بين أبي فهر والشيخ محمد نصيف على نشر الكتاب، فنُشِر سنة (١٣٨٤- ١٩٦٣) في المطبعة السلفية بالقاهرة ناقصًا «على نفقة جماعة من أهل الحجاز»، ثم نشره الشيخ حمد الجاسر سنة ١٩٨٣ في دار اليمامة كاملًا، وقال في مقدمته: «ولقد أدرك بعض علماء عصرنا قيمة هذا الكتاب، فأشاروا على شيخ السلفيين ومحب العلماء الشيخ محمد حسين نصيف (١٣٠٠- ١٣٩١) لكي ينشره، فنسخ نسخة عن مخطوطة في مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت في المدينة المنورة، ثم عهد بقراءتها وتصحيحها إلى الأساتذة: عبد الرزاق حمزة، وأحمد ياسين الخياري، وإبراهيم حمدي الخربوطي، وسليمان الصنيع رحمهم الله، والأستاذ محمد سعيد العامودي حفظه الله، ثم بعث الشيخ محمد تلك النسخة للطبع إلى الأستاذ محب الدين الخطيب صاحب المطبعة السلفية في مصر لطبع الكتاب»، ثم ذكر مقابلة الخطيب لها على نسخة الأزهر، وأشار إلى ما في تلك الطبعة من النقص والتحريف.

التخلي عنهما، وهما «تفسير الطبري» و«جمهرة نسب قريش» للزبير بن بكار، وبخاصة في هذا الوقت؛ فإني قد تأخرت في إصدار الجزء السادس عشر[١] من جرَّاء انشغالي نحوًا من سنة كاملة ببحث الأحرف السبعة التي نزل عليها القرآن، وكتابة المصحف في عهد أبي بكر وعمر، ثم علىٰ عهد عثمان رضي الله عنهما[٢]، فقطعتُ العمل في «التفسير» وفي «جمهرة النسب»، ولا بدَّ لي من العودة إليهما معًا وفي وقتٍ واحد بعد الفراغ من كتابة هذا البحث[٣].

فبيِّنٌ كما ترون أني لا أستطيع أن أجمع بين ثلاثة كتب كبار، هذا فضلًا عن أني التزمتُ منذ قديم أن لا أخلط عملًا بعمل؛ لما تعلمون بالتجربة القديمة من أن ذلك مفضٍ إلىٰ تعويق الأعمال كلها وتركها مبتورة، وأن «المنبتَّ لا أرضًا قَطَع ولا ظهرًا أبقىٰ»[٤]، وأن «شرَّ السَّير الحَقْحَقَة»[٥].

ولكني لا أحبُّ أن أتخلىٰ بتَّةً عما تفضلتم بإسناده إليَّ، فلذلك آثرتُ أن أختار ممن أثق بهم رجلًا يتولىٰ هو تحقيقه، وأكون أنا ملازمًا له في العمل، ناظرًا في كلِّ ما يعمل، فاخترتُ صديقنا العالم الفاضل الشيخ عبد الغني عبد الخالق، فأنا أثق بدقَّته في مراجعة الأصول، وحرصه علىٰ الاستقصاء، وما زاد عن ذلك مما عسىٰ أن يُنْكَر عليه[٦] فإني كفيلٌ به إن شاء الله.

---

(١) من تفسير الطبري.

(٢) كذا في الأصل. وهو سهو، والوجه أن تكون: رضي الله عنهم.

(٣) مضت الإشارة إلى خبر هذا في الرسالة الثانية إلى ناصر الدين الأسد.

(٤) أخرجه البيهقي (٥/ ٣٩٨) وغيره مرفوعًا من وجوه ضعيفة، والأشبه أنه مرسل. انظر: «المقاصد الحسنة» (٢١٤)، و«السلسلة الضعيفة» (٢٤٨٠).

(٥) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٣٦٠٥) وغيره عن مطرف بن عبد الله بن الشخير وغيره، ويروى مرفوعًا، ولا يصح. وهو والقول السابق مشهوران في كتب اللغة والأدب.

(٦) يشير لميله إلى الكوثري ودفاعه عنه، كما تراه في مقدمته لكتاب «آداب الشافعي ومناقبه» لابن أبي حاتم، وما يدل عليه ذلك من مسلكه الذي لا يرضاه الشيخ نصيف.

وقد عهدتُ إليه، فذهب إلىٰ المكتبة الأزهرية، فرأىٰ النسخة الأخرىٰ المحفوظة بها من الكتاب، وهي هناك باسم «دُرَر الفوائد المنظَّمة في أخبار الحجِّ (لا الحاجِّ) وطريق مكة المعظمة»، وهي أقدم من نسخة مكتبة شيخ الإسلام بالمدينة، بل لعلها هي نسخة المؤلف.

أما الذيل الذي أشرتم إليه في ذيل الصحيفة الأولىٰ، وأشرتم بضمِّه إلىٰ «الدرر»، فأرجو أن أعرف اسمه علىٰ وجه التحقيق لكي نطلع عليه.

هذا وقد رأيتُ علىٰ نسختكم تصحيحات كثيرة، لا أدري أهي مجرَّد مراجعة علىٰ الأصل أم هي تصحيحات من مدير المكتبة المحمودية والشيخ محمد عبد الرزاق حمزة؟ ولا أستطيع أن أقطع بشيء حتىٰ تُراجَع هذه النسخة حرفًا حرفًا علىٰ الأصل المحفوظ بالمكتبة الأزهرية.

ورأيت أيضًا في مواضع ضربًا شديدًا علىٰ أسطر متتابعة من كلام المؤلف، لا أعلم لحذفها حكمة، **ولا أرىٰ لأحدٍ حقًّا في نفي شيء من كلام مؤلِّفٍ في كتابه مهما كان الأمر الداعي إلىٰ حذفه.**

وأنا أرىٰ أنه لا بدَّ من تصوير نسخة المكتبة الأزهرية؛ لأنه لا يتيسَّر للمحقق ولا لي أن نضيع الوقت في الانتقال إلىٰ مكتبة الأزهر ساعاتٍ من كل يوم في أوقاتٍ لا توافق أحدًا، فلذلك أرجو أن تأمروا بذلك إذا أقررتم ما اقترحته عليكم في كتابي هذا.

وقد أبلغني السيد علي المدني أنكم أردتم أن تطبعوا الكتاب علىٰ ورقٍ زنة ٦٠[1]، وأنا لا أوافق علىٰ هذا، بل الأجود أن يكون علىٰ زنة ٧٠؛ لأنه أوفق منه وأبقىٰ، ولا داعي إلىٰ جعله زنة ٨٠، وسيأتي معه لكم بأنواع هذه الأوزان. فإن رأيتم صواب رأيي فذاك منكم فضلٌ علىٰ فضل.

---

(١) أي ٦٠ جرام.

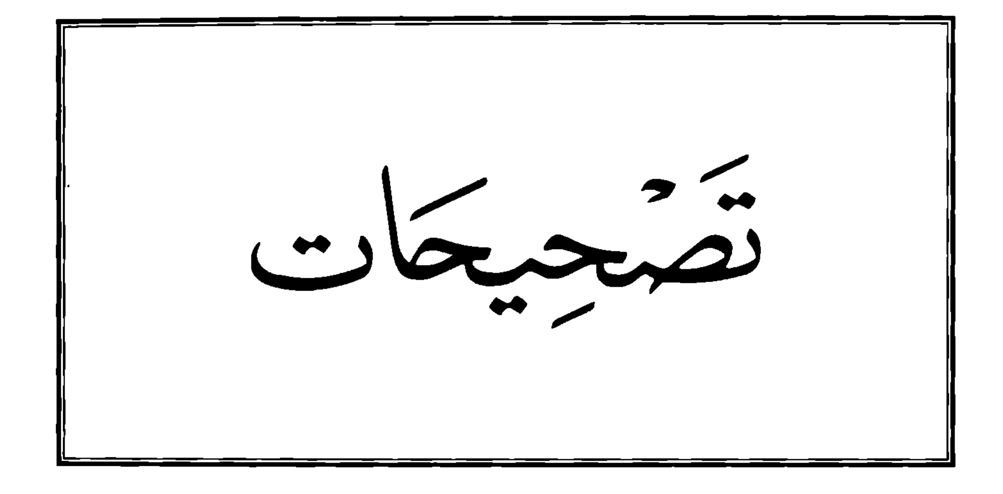
وأبلغني أيضًا أنكم تريدون طبع ألفٍ واحدة من الكتاب، وأنا أظنُّ أن الأوفق أن يُطْبَع منه ألفان؛ لأن ذلك يخفِّض تكاليف كل نسخة منه، والكتاب مع ذلك خليقٌ بالرواج. فإذا رأيت ذلك حسنًا -وهو حسنٌ إن شاء الله- فذلك فضلٌ آخر وتوفيقٌ إن شاء الله.

هذا مع المحافظة علىٰ الشرط الذي شرطتموه أن لا يُطْبَع منه زيادةٌ علىٰ ما تأمرون بطبعه، ألفًا أو ألفين، أيَّ ذلك كان.

وأما أجرُ التحقيق، فإني قد علمتُ من السيد علي أنكم تطبعون الكتاب علىٰ نفقة بعض أهل العلم والفضل، وأنكم تريدون بعض التوفير من المصاريف، وأنا أرىٰ أنه مهما كان الأمر فإن تحميل نفقات التحقيق علىٰ ثمن الكتاب لا يكاد يزيد في ثمن النسخة إلا القروش، والقارئ يستطيع أن يتحمَّل في سبيل العلم الذي يطلبه بعض ما يتحمَّل المحقق الذي يعالج الكتاب حرفًا حرفًا وكلمةً كلمة، فيضني بدنه، ويُذْهِب نور عينيه، ويعتاده من القلق علىٰ بعض ما يحققه ما كان في غنًىٰ عنه لو أهمل وتهاون واختصر الطريق كما يفعلُ أكثر من ينشر الكتبَ في زماننا، هذا فضلًا عما يحتاجه ...[1].

---

(١) آخر الورقة وهو آخر ما وجدته من الرسالة.


تَصْحِيحَات

سِرُّ الفصاحة لابن سنان الخفاجي[1]

استدراكاتٌ وتصحيحات

ص	س	
٣	١٣	(ونقدِه) صوابها: ونقْدُهُ
٤	٣	(فالمَعْجز) صوابها: فالْمُعجِزُ
٤	١١	(ونعلم) صوابها: ويَعلَم
٤	١٧	(ثم نذكُرُ تقطُّعها...): لتتبين معنىٰ هذه الكلمة اقرأ ص ١٥ س٣ وما بعده

(١) تحقيق علي فودة، المطبعة الرحمانية بمصر، الطبعة الأولى على نفقة مكتبة الخانجي ١٣٥٠- ١٩٣٢، وكتب محمد أمين الخانجي في آخر الكتاب (ص: ٢٩٠): «تمَّ ولله الحمد طبع كتاب سر الفصاحة، وكنت حين اعتزمت على طبعه كلفت الأستاذ علي أفندي فودة أن يباشر تصحيحه على النسختين المحفوظتين بدار الكتب المصرية، ... وأتمَّ الأستاذ فودة أفندي إلى آخر الملزمة الخامسة وتراخى الأمر عن طبعه إلى أوائل هذا العام المبارك سنة ١٣٥٣ فقمت بتصحيحه بنفسي، ... ثم أضيف إلى هذا المجهود أن **عرضتُ النسخة قبل تسليمها إلى القراء الكرام على صديقي الفاضل المحترم الأستاذ محمود محمد شاكر، فقرأها قراءة إمعان وكتب ما عنَّ له من الاستدراك وصواب ما وجده من الأخطاء**، وذلك من صفحة (٢٧٧ - ٢٨٨)، ثم تقدَّم إليَّ بفائدة جليلة وهو أن ألحق به اعتراضات الكاتب الأديب ضياء أبي الفتح نصر الله بن الأثير الجزري في كتابه المثل السائر ...». وأبو فهر يومئذ في نحو الثالثة والعشرين من عمره.

وقد انتفع بهذه التصحيحات طابعو الكتاب بعده، وإن كان الشيخ عبد المتعال الصعيدي لم يحسن صنعًا حين كان يذكر في بعض هوامش نشرته للكتاب: «وصححه بعضهم»، وكان عليه أن يذكر أن هذا التصحيح من عمل الأستاذ محمود شاكر كما قال د. النبوي شعلان في مقدمة تحقيقه للكتاب (ص: ٢٠).

ص	س	
٦	٢	(صايت) صوابها: صائت
٦	٦	(حُجّ): رواهُ صاحبُ «اللسان» بكسر الحاء، ثم قال: هكذا أنشده ابن دريد بكسر الحاء. والحِجُّ الحُجّاج.
٦	٨	(الدِّجاج) روايته بفتح الدَّال أفْصَح كما نصَّ أصحابُ اللغة
٧	١	وتتمة حديث أبي عمرو أنه قال: فقُلْتُ لَهُ: ما اللَّغُوبُ؟ قال: الأحمق. «اللسان» مادة (كتب) وغيره
٨	١٦	(ويلتبس) الأوفق أن تكون: ولا يلتبس
٩	٧	(إنّما يجوّز) صوابها: رُبَّما يُجوِّز
٩	٩	(ما الدليل) صوابها: أمَّا...
١١	١	(علىٰ القطع..) صوابها: عن...
١٣	١١	(مُنع) صوابها: مَنَعَ
١٣	١٢	(تكونا) صوابها: يكون
١٨	١٤	(بالنادي) صوابها: بالنَّاي
١٨	١٥	(بينهما) صوابها: بَيْنَهَا
١٩	١٠	(مرض) صوابها: مَرْضِيّ
١٩	١٣	(أن واضع الخط ولاي أتىٰ): أراد الحروف، الواو واللام ألف والياء. والصواب أن توضع هكذا - و، لا، ي - وهي حروف العلة: الواو والألف والياء
٢٠	١	(وقد توصلوا) صوابها: قد...

ص	س	
٢٢	١٠	(ثم من أقصىٰ اللسان مخرجُ القاف)، الكلام ناقص، فإن مخرج القاف من أقصىٰ اللسان مما يلي الحلق وما فوقه من الحنَكَ الأعلىٰ. وقال شريح: إن مخرجها من اللهاةِ ممَّا يَلي الحلق ومخرجَ الخاء.. وقول شريح هو أشبهُ بالصواب عندنا
٢٧	٧	(وكونهُ مفيدًا) صوابها: كَوْنُه...، ثم قوله: (ومضىٰ في بعض كلام أبي هاشم) جملة غامضة فإنه لم يمض في الكتاب إشارة إلىٰ شيء من ذلك، ولعل الصواب: ومثله في بعض كلام...
٢٧	٩	قوله (والمهمل ما لم يوضع...) جملة ركيكة مضطربة، ولعل صوابها: والمهمل ما لم يُوضَعْ -في اللغة التي أضيف إليها أنَّهُ مهمل فيها- لشيء من المعاني والفوائد. ومثل هذا النص الذي أثبتناه قد وردَ في ص٣٧ س١٨ وما بعده مع قليل من الاختلاف.
٢٩	٦	(ويقالُ لأصل الدين...) صوابها: ويقال لأَهلِ ...
٣١	٣	(واستطرف) لعل الصواب واستكْرَهَ...
٣٦	٥ و ٦	(فيظُنّ أنّها أنّ) لعل الصواب: فيظنُّ لَـهَا أنّ...
٣٦	٨	(بحسن قول...) صوابها: بجنس قول...
٣٧	٨	(ويكون نحن...) صوابها: ونكون ...
٣٧	٨ و ٩	(ومن شأن ما ينفصل ... إلخ) صوابها: ومن شأن ما ينفصل عن الحيّ أن لا يوجب لَهُ حالًا، لأنّ...
٣٧	١٦	(أمرًا به) صوابها: أمرًا لَهُ
٣٨	٩	(لا يخرج) صوابها: لا تخرجُ
٣٨	١٠	(والتشبيه) صوابها: والتنبيه...
٣٨	١٩	(أو الذي) صوابها: والذي...

ص	س	
٤٠	٦	(الصدأ) صوابها: الصدىٰ. وأتىٰ بعد ذلك (الصدا) وصوابه ما ذكرناه
٤١	١٦	(والصوت فلا شبهة) صوابها: وأمَّا الصوت...
٤٢	١	(الاستفادة بعقد...) صوابها: كالاستفادة...
٤٣	١٨	(أولغت) صوابها: أولعت. بالعين المهملة
٤٥	١٢	(يُبيِّن) صوابها: يَبِينُ
٤٥	١٤	(كثيرة) صوابها: كبيرة
٥٠	٩	(يدلُّكَ) صوابها: تدُلُّكَ
٥١	١٢	(بنَسعةٍ) صوابها: بِنِسْعَةٍ. وهي سَيْرٌ من الأَدَم المضفور
٥٢	٨	(وفوائده الانتصار) صوابها: وفوائده في الانتصار.
٥٥	١٠	صوابُ هذا السطر: وسمّىٰ الكلام الفصيح فصيحًا - كما أنّهم سَموَّه بيانًا - لإعرابه ... إلخ
٥٦	٧	(الحقّ) صوابها: الحدّ
٥٨	١٦	(وليست تستقىٰ فيها) والصواب: وليستْ يُسْتَقَىٰ فيها. أو: ولسْت تَسْتَقِي فيها
٥٩	٨	(الممارات) وصوابها: المماراة
٦٠	٨	(قَرَحَةَ) وصوابها: قُرْحَة. وهي بياضٌ يسيرٌ في وجه الفرس بقدر الدرهم وهي دون الغُرَّة، والأدهمُ الأسودُ من الخيل
٦٥	١	(وأسما) صوابها: وأسماءُ
٦٥	٧ و ٨	(يُوَنّىٰ) صوابها: بَوَنَّىٰ. ويروىٰ: دَير بَوَنىٰ، وهو بجانب غوطة دمشق في أنزه مكان، وهو من أقدم أبنية النصارىٰ يقال: إنّه بني علىٰ عَهْد المسيح عليه السلام أو بعده بقليل... «معجم البلدان» وغيره

ص	س	
٦٦	١	(المرود) صوابها: البُرُودَ
٦٦	١٣ و ١٤	(عيسطوس) صوابها: عَسَّطُوس
٦٩	١٦	(عفافة) صوابها: عَفَافَةُ
٧٣	٣	(زَفاف) صوابها: زِفاف. بالكسر
٧٦	١١	صوابُ إنشاده: وَمَنْهَلٍ ليسَ بِهِ حَوَازِقُ ولِضَفَادِي جَمِّه نقانِقُ وشرح بالهامش «حوازق» وليس الصوابُ فيما تأوّلَهُ كاتبه علىٰ نسخة الأصل، فالحازِقَةُ والحزّاقة في اللغة: العِير، وهي كلمة طائية.
٧٧	٩	(ولا فقر...) صوابها: فلا...
٧٨	٣	(الكلكل) صوابها: الكَلْكَل
٧٨	٥	(الأضخما) صوابها: الأضخمَّا
٧٩	٣	(لأنّه موافق) صوابها: إلا أنَّه...
٨١	٣	(عَبرةٍ) صوابها: عِبْرَةٍ
٨٢	٥	(رونحهُ) صوابها: رُوَيْحَةُ
٨٢	٩	(وميضهُ) صوابها: وُمَيْضَةٌ
٨٤	٥	(فقد) صوابها: قَدْ
٨٦	٢	(التعمُّد) صوابها: التغَمُّد. بالغين المعجمة
٨٦	٨	(أجهد) لعلها: جَهِد
٨٧	١٧	(وكون) صوابها: كون. بغير واو

ص	س	
٩١	٣	(ويعتبر) صوابها: ويُخْتَبَرُ
٩١	١٨	(ذلك ذلك) صوابها: ذلك. واحدة حسب.
٩٩	١٨	(- جع) صوابها: يرجعُ
١٠١	١٠	(بالنحم) صوابها: بالنَّجْم. وقال السكري في شرح هذا البيت: إنه أراد: يا فتاتان.
١٠٢	٢	(يكون متكلما) صوابها: أن يكون
١٠٥	١٦	(دليل) صوابها: دلائل
١٠٦	١٠	رواية «اللسان»: وتركبُ خيلًا لاَ هَوادة بينهَا وتَشْقىٰ الرماحُ بالضياطرة الحُمْرِ وقال ابن سيده: يجوز أن يكون عَنَىٰ أن الرماح تشقىٰ بِهِمْ، أي أنهم لا يحسنون حملها ولا الطعن بها؛ ويجوز أن يكون علىٰ القلب أي تشقىٰ الضياطرة الحُمُر بالرماح يعني أنهم يقتلون بها. والضياطرة هم الضخام الأجسام الذين لا غَنَاء عندهم
١٠٧	٨	(كيف يموت من يعشق؟) وصوابها: كيف لا يموت
١١٣	١	(والتروح) صوابها: والترويح
١٢٧	١١	(في غير) صوابها: هِي غير
١٣٠	٨	(نُحز) صوابها: نَحُزُّ
١٣٠	١١	(الكبرياء الكبر) صوابها: ... من الكِبْر
١٤١	١٧	(بسادًا) صوابها: فَسَادًا
١٤٣	١٩	(كنتُ) صوابها: كنتَ
١٤٨	١	(وأرجنا) صوابها: وأرحُلِنا. بالحاء المهملة
١٥٠	١٢	(أبا الله) صوابها: أَبَىٰ اللهُ

ص	س	
١٥٠	١٤	(مَن) صوابها: مِنْ
١٥٣	١٥	(أتئ) صوابها: أَتّي. وفي رواية: آتِي
	١٧	(أنَّىٰ) صوابها: أنّي
١٥٤	١٨	(جعت) صوابها: جُعِلْتُ
١٥٥	١٥	(حريث بن عقاب) صوابها: حُرَيْث بن عَنَّاب. بفتح العين والنون المشددة وهو من شعراء طيء، إسلامي من شعراء الدولة الأموية، هاجَىٰ جريرًا
١٥٨	١٢	(إنّ علىٰ) صوابها: إنِّي
١٥٨	١٦	(كأنّ) صوابها: كانَ
١٥٩	٥	(وَمَنْ) صوابها: وَمِنْ
١٦٠	٢	(ـه ياءَيْ) صوابها: لَهُ
١٦٠	٤	(تفرِّي) صوابها: تَفرَّىٰ
١٦٤	١	(يتخيل لأجله) صوابها: يتخيَّلُ أنه لأجله
١٦٥	١	(تُتبع) صوابها: تَتْبَعُ
١٦٥	٦	(يأتىٰ) صوابها: يأتي
١٧٢	٨	رواية ديوان البحتري بيتان فقط وهما: تذكرتُ أقوامًا ملكتَ بُعَيدهم ... ولم يلبسُوا دنياك حين استجدَّتِ ولا علِموا أن المكارمَ أبديت ... جــداعًا ولا أن المظالم رُدّت ولم نوفق إلىٰ صواب رواية البيت الثاني؛ إذ لم نتبيَّن معنىٰ قوله: «جداعًا» بالدال المهملة في الديوان، ولا قوله: «جذاعًا» بالذال المعجمة في هذا الكتاب
١٧٣	٢	(يُطير) صوابها: تُطيرُ

ص	س	
١٧٣	٥	(فأسفىٰ) صوابها: فأسعف
١٧٤	١٢	(محتمل) يعني بذلك: يحتمل معاني مما يسُوءُ السامع. وذكر بعد قول ذي الرّمة «ما بال عينك منها الماء ينسكبُ»، فقال له هشام: بل عينك، وذلك أن عين عبد الملك كانت تدمع دائمًا فتوهَّم أنه عَرَّض به
١٧٥	١٩	(حتىٰ) صوابها: حَيٍّ. ورواية ديوانه: لَهُ الويْلُ من لَيْل بطَاءٍ أَوَاخِرُهْ وشك نَوَىٰ حَيٍّ تُزَمُّ أباعره
١٧٦	٥	(ووقّيت) صوابها: وَوُقِيتَ. بغير تشديد
١٧٦	١٧	(معنا) صوابها: مَعْنَىٰ
١٧٧	٣	(فقد) صوابها: وقد
١٧٨	١٦	(مبنىٰ) صوابها: يُنْبِئُ. ونص قدامة في نقد الشعر: مُتَهَيِئ لأن تكون...
١٨١	١	(طَفَل) صوابها: طَفْلَ
١٨٣	٦	(إذا أقل وإذا أكثر) صوابها: إذا قَلَّ، وإذا كَثُرَ
١٨٤	٨	رواية ديوانه: ذي الغَضْبة
١٨٤	١٩	(للوم) صوابها: لِلُّؤْم
١٨٧	٢	(عددتُ) صوابها: عَدَدْتِ
١٨٨	٩	(وكان) صوابها: وكأنّ
١٩٠	٩	(فكأن) صوابها: فَكَانَ
١٩١	١٥	(وباسطِ) صوابها: وباسطَ
١٩١	١٦	(عبد الله بن الزُّبير) صواب اسمه: عبد الله بن الزَّبِير. بفتح الزاي وكسر الباء بعدها ياءٌ

ص	س	
١٩٢	٢	(دونهما) صوابها: دونها
١٩٣	١٦	(قولُهم) صوابها: قَوْلَهُمْ
١٩٧	١٦	(المتقاطع) صوابها: التقاطع
١٩٨	١٩	(أنفُسُكم) صوابها: أَنْفُسِكُمْ
٢٠٠	٨	(يحد) صوابها: نَحُدّ
٢٠٠	٩	(الروماني) صوابها: الرُّمَّانِيّ. قالوا هو أبو الحسن علي بن عيسىٰ ونسبته إلىٰ قصر الرُّمّان بلدة بواسط في العراق، مولده سنة ٢٩٦ وتوفي ليلة الأحد ١١ جمادىٰ الأولىٰ سنة ٣٨٤
٢٠١	٢	(مفكرًا) صوابها: مُفَكِّرًا
٢٠١	٥	(البِغْية) الأفصح: البُغْيَة. بالضم
٢٠١	١٠	(أعطيّاتهم) صوابها: أُعْطِيَاتهم. بغير تشديد
٢٠٣	١٠	(كُلَّ) صوابها: كُلُّ
٢٠٤	٧	(حُرِمَ) صوابها: حَرُمَ
٢٠٤	١٢	(الرايث) صوابها: الرائث
٢٠٥	٩	(أُحُدُ) صوابها: أَحَدُ
٢٠٥	١٥	(أُذْرُع) صوابها: أَذْرُعُ
٢٠٦	٢	(الحميمّ) صوابها: الحَمِيمَ
٢٠٩	٥ و ٦	(تمكّن) صوابها: تُمْكِنُ
٢٠٩	١٧	(الكلامُ) صوابها: الكلامَ

ص	س	
٢١٠	١٨	(فُرُوعَ) صوابها: فروعِ
٢١١	٤ و ٥	(الصدا) صوابها: الصَّدَىٰ
٢١١	١٩	(أعلا) صوابها: أعْلَىٰ
٢١٢	١٨	(وتأتي) صوابها: وَيأْبىٰ
٢١٤	٢	(أحسُنُ) صوابها: أَحْسَنُ
٢١٤	٤ و ٥	(والانجيلُ.. والزبورُ) صوابها: والإنجيلِ و ... والزَّبُورِ
٢١٥	١٠	(يحسنَ ... التناقضْ) صوابهما: يَحْسُنُ ... التناقُضِ
٢٢٤	١١	(مطوب) صوابها: مطلوب
٢٢٤	١٥	(فيدفع) صوابها: فيندفع
٢٢٤	١٦	(أطعنوا) صوابها: اطَّعنُوا
٢٢٥	١	لعلَّ صواب إنشاده: فلا كَمَدِي يَفْنىٰ ولا لك رَحمةٌ وقوله «رَحْمةٌ» هذا ما ورد في «المنتخل» للثعالبي صفحة ١٢٢ ورواها لبشار
٢٢٥	١٢	(قبولَها) صوابها: قَبُولِها
٢٢٦	١١	(قدّمتُ) صوابها: قدّمتَ
٢٢٦	١٢	(أساءت) صوابها: أَسَأْتَ
٢٢٩	١٤	(فأقصروا) صوابها: فَاقْصُرُوا
٢٣٠	٨	(وكلًّا) صوابها: وكَلَّا
٢٣١	١	(فلولَها... بَدُوّ) صوابها: فُلُولَها... بُدُوُّ

ص	س	
٢٣٢	١	(يشبّه) صوابها: يُشْبهَ
٢٣٢	١٨	(نِداك) صوابها: نَدَاكَ
٢٣٤	١١	(وتلك واحد) هذه زيادة لا معنىٰ لَهَا ولم نهتد لصوابها حين عُدّتْ من كلام المؤلف
٢٣٦	١٦ و١٨	(المريّ) صوابها: المَرِيء. وهو مجرىٰ الطعام والشراب من الحلق
٢٣٧	١٧	(قِدْح) صوابها: قَدْح
٢٣٩	١	(الأبنوسىٰ) صوابها: الآبنوسِيَّ
٢٣٩	١٦	(مَشِىٰ) صوابها: مَشْيَ
٢٣٩	١٨	(وانتقبنا... والتفتنا) صوابهما: وانْتَقَبْنَ... والْتَفَتْنَ
٢٤٣	٤	(النَّسَيب) صوابها: النَّسيب
٢٤٣	٥	(العزَّال) صوابها: العُذال
٢٤٣	١٣	(هجُرت) صوابها: هُجِرَتْ
٢٤٤	٤	(أبو ذوئيب) صوابها: أبو ذُؤَيْب
٢٤٥	٢	(سَلَّام) صوابها: سَلَامَ. يعني سلامة القَسّ صاحبته
٢٤٥	١٦	(تغلبة) صوابها: تغلب
٢٤٦	٣	(جَذْبُ) صوابها: جَذْبِ
٢٤٦	٨	(النِّدىٰ) صوابها: النَّدَىٰ
٢٤٨	٣	(إنَّا ... وإِنَّا) صوابهما: أَنَّا... وأَنَّا
٢٥٠	١٨	(القاسمُ) صوابها: القاسمِ

ص	س	
٢٥٢	١٣	(ورفيعُ) صوابها: ورَفِيعَ
٢٥٢	١٤	(الانهياض) صوابها: الانتهاض
٢٥٤	١٥	(وقَتْلُهم) صوابها: وقَتْلِهم
٢٥٨	٧	(يا دارُ) صوابها: يا دارَ
٢٥٩	٤	(أَكللُنا) صوابها: أَكلُنا
٢٥٩	٥	(سُخُف) صوابها: سُخْفٌ
٢٥٩	١٨	(أُنف) صوابها: أَنفُ
٢٦٢	٤	(لأحقابهم) صوابها: لأعقابهم
٢٦٢	١٤	(خَرَّق...) صوابها: «خَرِّقْ» علىٰ صيغة الأمر
٢٦٢	١٦	(فيروّ) صوابها: فَيُرَوَّىٰ
٢٦٣	١٤ و ١٦	(ابن حذام) صوابها: ابن خِذام

جمع الجواهر للحُصْرِي[1]

المستدرك

حرَّره بعد طبع الكتاب النابغة الفاضل محمود محمد شاكر

ص	س		
١	٥	زائقُهْ	صوابها: ذائقُهْ
١	٩	ما أصلع حمله وأضلع نقله	صوابها: ما أضلع حمله، وأضلع ثقله
١	١١ ١٢	بسقىٰ.. برعىٰ (كذا)	صوابها: بسقي.. برمي. وهما سحابتان عظيمتا الوقع عليهما ينمو النبت ويزكو

(١) ذيل زهر الآداب أو جمع الجواهر في الملح والنوادر لأبي إسحاق الحُصْرِي، المطبعة الرحمانية بمصر، الطبعة الأولى على نفقة مكتبة الخانجي ١٣٥٣- ١٩٣٥، وكتب أمين الخانجي في صدر هذا التصحيح (ص: ٣٠٥): «المستدرك، حرَّره بعد طبع الكتاب النابغة الفاضل محمود محمد شاكر»، كما كتب في أول الكتاب بخط عريض: «انظر في آخره المستدرك بقلم الأديب الفاضل البحاثة الأستاذ محمود محمد شاكر»، وفي مقدمته (ص: د): «وكان صديقي الأديب الفاضل البحاثة الأستاذ محمود محمد شاكر يودُّ أن يُعنى بما أنشره من الكتب الممتعة، فسألته قراءة الكتاب بعد طبعه، فتفضل بذلك، وأرسل إليَّ المستدرك الذي يهمُّ كل أديب استدراكُه، فجعلته تتمة للأصل». وقد انتفع بكثير من هذه التصحيحات الأستاذ علي محمد البجاوي في طبعته للكتاب في دار إحياء الكتب العربية سنة ١٩٥٣ دون أن يشير إلى ذلك.

ص	س		
٢	٣	حادثوا هذه القلوب... إلخ	صوابها: حادثوا هذه القلوب فإنها سريعة الدثور، واقدعوا هذه الأنفس فإنها طلعة، وإنكم إلا تزعوها تنزع.. إلخ، وذلك أنهم يقولون: دثر السيف دثورًا إذا صدئ لبعد عهده بالصقال، وحادث سيفه إذا جلاه وشحذه، وقوله: اقدعوا.. أي كفّوها عما تتطلع إليه من شهواتها.
٢	٥	أزدشير بن بابك	صوابها: أردشير بن بابك
٢	٥	إن للقلوب.. إلخ (كذا)[1]	صوابها: إن للآذان مجّة، وللنفوس ملّا، ففرقوا بين الحكمتين.. أما قوله: «للقلوب» فلا معنىٰ لها مع ذكر النفوس.
٢	١٠	زلات	صوابها: ذلات
٣	٨	الأفحوان (كذا)	صوابها: الأفعوان
٣	٩	الشرقي (القطامي)	صوابها: الشرقي بن القطامي، هو لقب غلب عليه، واسمه: الوليد بن حصين الجعفي، والقطامي لقب أبيه.
٣	١٨	ومنها المعاد.. إلخ (كذا)	صوابها: وفيها المعاد والمقام إلىٰ الحشر. هذه هي الرواية الصحيحة.
٣	٢٢	إذ أنا	صوابها رواية ابن دريد في المجتنىٰ: «أن أرىٰ منصتًا»، وهي أوفق.
٤	١٩	مستثنىٰ	صوابها: مستثنيًا.

(١) كلمة «كذا» نريد بها أنها هكذا في النسخة المخطوطة. (شاكر)

		س	ص
صوابها: «نصر بن شبث بكيسوم»، وذلك أن نصر بن شبث العقيلي كان قد خرج علىٰ المأمون بعد مقتل الأمين وتحصَّن بحصن علىٰ تلعة بكيسوم في شمال حلب وحاز ما جاورها وتبعه خلق كثير حتىٰ عظم أمره فوجه إليه المأمون عبد الله بن طاهر فظفر به وأسره وأنفذه إلىٰ المأمون ثم هدم كيسوم وخربها وذلك سنة ٢٠٩.	نصر بن شبيب بن كيسوم (كذا)	٢	٥
صوابها: إذ كانت	إن كانت	١١	٦
صوابها: إذا خُصي	إن أخصي	١٧	٦
صوابها: سيل الفتنة	سبل القنة	٢٠	٦
صوابها: وكتاب الطلاق	كتاب الطلاق	٢	٧
صوابها: وأنت كذاك تعنِّي النفو سَ تعنيه الفاتر الخاثر	وأنت كذاك.. إلخ	١٠	٧
في «تاج العروس» مادة زبد (بالباء الموحدة) مزبِّد كمحدِّث اسم رجل صاحبِ النوادر، وضبطه عبد الغني وابن ماكولا كمعظَّم، وكذا وجد بخط الشرف الدمياطي وقال: إنه وجده بخط الوزير المغربي، قال الحافظ: ووجد بخط الذهبي ساكن الزاي مكسور الموحدة اهـ وسيمر بك ذكره كثيرًا، ونكتفي بالإشارة إليه هنا وحسب.	مزيد المدني	١٠	٨

ص	س		
٨	١٠	خبز نقي.. إلخ	رواية ابن قتيبة في عيون الأخبار ج١ ص م: قيل له «قي»: ما أقي، أقي نقًا ولحم جدي؟ والله لو وجدت هذا قيًا لأكلته.
٩	١	ودعواته.. إلخ (كذا)	لم يتبين لنا وجه الصواب
٩	١١	بلغنا	صوابها: بلغتنا
٩	١٦	إلا أبايع العنقر	صوابها: هذه لا معنىٰ لها. والصوابُ ممَّا خفي علينا. وقوله: «تتعرض بي» صوابها: تتمرض بي
١٠	١٧	محفف	صوابها: محفٍ. من أحفىٰ في السؤال إذا استقصىٰ وأجهد.
١٠	١٨	عند حاجتك	صوابها: عن ....
١٠	٢١	واعلم للذكرىٰ	صوابها: واعلم أن للذكرىٰ
١١	٤	المعمورين	صوابها: المغمورين
١٢	٤	فألح عليه	صوابها: فألط عليه، أي ماطله ودافعه
١٣	١٤	أخامقه	صوابها: أحامقه، من الحمق
١٣	١٨	تترىٰ	صوابها: تنزّىٰ
١٤	١	لم	صوابها: لم
١٤	٤	سقع	صوابها: سفع، بالفاء
١٤	٥	فلما.. إلخ (كذا)	صوابها: فلما دهىٰ طول التعمُّم لمَّتي فأزرىٰ بها بعد الجَثَالة والفَرَعْ

ص	س		
١٤	٧	القرع	صوابها: الفزع
١٤	٨	وأعجب شيء إلخ (كذا) علىٰ عهد	صوابها: وأعجب بشيء... صوابها: علىٰ عمد
١٤	١٧	ابن السباط المصري	صوابها: «ابن أسباط المصري»، وهو (أحمد بن محمد بن أسباط) ولعله كان من كبار عمال الخراج في مصر علىٰ عهد المعتصم ومن قبله، وقد جاء في تاريخ الطبري ج١١ص٢٩ قال: «فذكر عن ابن أبي داود وأبي الوزير أنهما قالا: هو (يعنيان محمد بن عبد الملك الزيات) أول من أمر بعمل ذلك (أي التنور) فعذب به ابن أسباط المصري حتىٰ استخرج جميع ما عنده..»، وجاء في تاريخ ابن الأثير مثل ذلك ج٧ ص١٣ (حوادث سنة ٢٣٣)، وفيه: «ابن أسماط المصري» بالميم، وهو خطأ. وقد ورد ذكر «ابن أسباط» هذا في «قضاة مصر وولاتها» للكندي ص٤٤٤-٤٤٥ وفي ص٥٠٢ في الملحق به من كتاب «رفع الإصر عن قضاة مصر» لابن حجر، ولم يقصَّ الكندي ولا ابن حجر أمر تعذيبه إلا أن في حديثهما ما يدل علىٰ اتهامه باحتجان المال وسيرة الغشم والظلم.
١٥	٦	فأخذه	صوابها: فأخذ
١٩	٣	وأوتيت	صوابها: وأُتِيتْ
٢٠	١٧	لقدمه	صوابها: لقومه

ص	س		
٢١	٣	وغم	لعلها: وخف
٢٢	١٤	المناحاة	صوابها: المناحات
٢٢	٢٠	بالبخور	صوابها: بالنُّحُور
٢٢	٢٢	فأمكنه.. إلخ (كذا)	صوابها: فأمكنَّه مما يريد وبعضهم شقيٌّ لدىٰ خيراتهنّ نطيحُ والنطيح: المشؤوم
٢٢	٢٣	نقصته	صوابها: نفعته
٢٣	٢٢	عيا دون الناس	لعلها: أعيي الناس
٢٤	١	ضايق	لعلها: طابق
٢٤	٢٠	حكاية	صوابها: عكابة
٢٤	٢٢	الأيارج	لم نهتد لصوابها
٢٤	٢٣	عكابة بن غيلة	في البيان والتبيين ج٢ ص١٩٢: عكابة بن نميلة النميري
٢٨	٢	فداك	صوابها: فداءك
٢٨	١٤	القبيجة	صوابها: القبيحة، بالمهملة
٢٩	١٥	من رواتهم	صوابها: في مروءاتهم
٢٩	٢٠	زاهر بن حزام	صوابها: زاهر بن حرام، بالراء المهملة
٣٢	٩	الكلاب	صوابها: الكلب
٣٢	٢٠	الفرع	صوابها: القَذِع، وهو الفاحش

ص	س		
٣٢	٢٢	بداهنّك	صوابها: بداهنْكَ، وسكنت النون للضرورة
٣٣	١٣	أسرارهم	صوابها: أستارهم
٣٤	١	لم يقو	صوابها: لم يقر
٣٤	٩	سد	صوابها: شد
٣٤	٢٢	عمرو بن لحي (كذا)	صوابها: عمر بن لجأ
٣٥	٦	غطاه	صوابها: غطاءه
٣٥	١٧	عليه منه (كذا)	صوابها: علي منه
٣٥	١٨	وتعمد الحجد في إقراره	صوابها: يتعمد الجحد في إقرارٍ
٣٧	٩	سليمة المشاوية	لم أهتد لصواب النسبة
٣٨	٢٠	كما هواك	صوابها: هواك كما
٣٩	١١	لأدنين (كذا)	صوابها: لأدنون
٤٠	٢	غيرها	صوابها: عندها
٤٠	٩	وإحزاني	صوابها: وأحزاني
٤٠	١٢	لعلةِ	صوابها: بعلة
٤٠	٢١	ابن جعدية	صوابها: ابن جعدبة، بالباء الموحدة، وهو يزيد بن عياض بن جعدبة الليثي أبو الحكم
٤١	١٥	أشدا	صوابها: أشدُّ
٤١	٢١	ينمىٰ	الرواية المشهورة: «يسمو»

ص	س		
٤٢	٢	فإن قليل أن لا... إلخ	صوابها: فإن قليله أن تسألا
٤٢	٣	فسآتها	رواية الديوان: «وتهنئها»
٤٢	٤	إن بان	صوابها: إن بات
٤٢	٧	بعتمة	صوابها: بعثمة
٤٣	٤	إذا فقدت	صوابها: إذا ما فقدت
٤٣	٥	إن هفت	صوابها: أزهقت
٤٣	٧	ومني	صوابها: وهي
٤٣	١٦	يتقصبا	صوابها: يتقضبا
٤٤	٢٤	غيري	صوابها: «غبري» بالباء الموحدة التحتية، والتغبير ضرب من الغناء اتخذته المتصوفة يتواجدون علىٰ أنغامه، ومنه سمي قوم منهم بالمغبرة قالوا: «وهم قوم يغبرون بذكر الله أي يهللون ويرددون بالقراءة وغيرها»، وسموا بذلك لأنهم كانوا يرغبون الناس بذلك الضرب من الغناء في الغابرة أي الآخرة
٤٤	٢٣	وما أنسها (كذا)	صوابها: وما أنسَ مِ الأشياء
٤٦	١٥	عرق النساء	صوابها: عرق النسا
٤٧	٨	وبالحسب.. إلخ (كذا)	صوابها: وفي الحسب المكنون صافٍ نجارها
٤٧	١٨	ذاك	صوابها: زاك
٥٠	١٤	وغنىٰ	صوابها: وغنٍّ

ص	س		
٥٠	١٧	ورد	صوابها: وردا
٥٠	١٨	مالك بن الذئب (كذا)	صوابها: مالك بن الريب
٥١	٢	الخندريس	صوابها: بالخندريس
٥١	١٤	يعشو.. إلخ (كذا)	صوابها: يعشو إليها وهو يجلو مقلتي بازٍ ويغفـل وهو غير مغفل
٥٣	١٧	الحب (كذا)	صوابها: الصب
٥٣	١٨	عين ربها	صوابها: عين دئبها
٥٤	٧	ركانة وإصالة	صوابها: زكانة وأصالة
٥٧	١٩	أبغي (كذا)	صوابها: ابغني
٥٨	٤	الأخوص	صوابها: الأحوص. وسيمر بك بعد فأثبت صوابه
٥٨	٥	أتغرل	صوابها: أتعزل
٥٨	١٧	لأحبب (كذا)	صوابها: لأجنب
٥٨	١٩	إليك (كذا)	صوابها: لديك
٥٨	٢٠	لو يتجنب (كذا)	لعلها: لو يتقرب
٥٨	٢١	كلاكما	صوابها: طلاكم، يقال: قضي من الأمر طلاه أي لذته وهواه
٥٨	٢٢	فيهيجني	صوابها: فتهيجني
٥٩	١	تظل وتحسب	صوابها: تطل وتخصب

ص	س		
٥٩	٣	وأرئ	صوابها: وأرئ العدو يودكم فأوده إن كان ينبئ عنــك أو يتنسب
٥٩	٤	وأخالف.. ذوب	صوابها: أحالف.. دُوّب
٥٩	٥	قضبت.. يقضب	صوابها: غضبت... يغضب
٥٩	٢٠	أزوره	صوابها: لعلها «أوَدُّه»
٦٠	١	إن كذبوا	صوابها: إذ كذبوا
٦٠	٢	أخلقت	صوابها: أخلفت، بالفاء
٦٠	٣	أؤملوا	صوابها: أؤمل
٦٠	١١	ورده	صوابها: ورد
٦٠	١٢	سدابة.. سداب	لم أجده، والصواب: سذابة، وسذاب. وذلك لأن السذاب بقلٌ عندهم
٦١	١٩	نجد	صوابها: يحل أو يجذ
٦١	٢١	وخطيان	صوابها: وخطبان، بباء موحدة، والماذي: العسل، والخطبان: جمع خطابة وهي الحنظلة، والخطبان أيضًا نبات شديد المرارة
٦١	٢٢	يكسو عداه	صوابها: يكسو عراة
٦١	٢٣	العد	صوابها: القد
٦٢	٢	رقة	صوابها: دقة
٦٢	٥	شخص	صوابها: شخصًا

		س	ص
صوابها: إثرها؛ لأن قبله: كالحلي إلا أنه أحرفٌ بيض المعاني وهي سودان	إثره	٦	٦٢
صوابها: سما	سيما	٧	٦٢
صوابها: دَهْي، من الدهاء	وهي	٢٠	٦٤
صوابها: بفنائهم... كنقط	بغنائهم.. كخط	٧	٦٥
هذه أبيات لم أجدها إلا في كتاب البخلاء للجاحظ مطبوعة أوروبا ص٢٤٨، وقد جهدت في تصحيحها، فأنا أذكرها هنا جميعها، وأعلق عليها لاعتياصها: وبوَّأتُ قِدْرِي موضعًا فوضَعْتُها برابيةٍ ما بين مِيثٍ وأجْرُعِ جعلتُ لها هَضْبَ الرِّجام وطِخفَةَ وغَوْلًا أثَافِي دُونَها لم تُنَزَّعِ لِقِدْرٍ كأنَّ الليل سُحْمَة قعْرِها ترىٰ الفِيل فيها طَافيًا لم يُقَطَّعِ يُعَجِّلُ للأضياف وَارِي سَدِيفِها ومَنْ يَأْتِها من سائر الناسِ يَشْبَعِ هضبُ الرّجام وطخفة وغوْل: جبال لبني ضَبَّة، والسخمة: السواد، من السخام، وهو سواد القدر. والسديف: شحم السنام. والواري: الشَّحِم السمين	وبوأت.. إلخ	١٠	٦٥
صوابها: غداء	غذاء	١٦	٦٥

ص	س		
٦٥	٢١	ابن المفتاب القاضي	كذا ولم أقف عليه
٦٧	٢	ليس.. إلخ	الرواية: ليس لي مال سوي كرمي فبه أقوىٰ علىٰ العدم
٦٧	٦	فإذا... إلخ	الرواية: فإذا ما الدهر ضعضعني لم يجدني كافر النعم
٦٨	٣	مشتهرا	صوابها: مستهترًا
٦٩	٦	والفارا	صوابها: والغارا، وهو نبات طيب الريح علىٰ الوقود
٦٩	١٤	وأتبعن بالظفر	لعلها «وأتلعن للضفر»، والبيت الذي يليه بيت عزيز لم أجده إلا في «اللسان» مادة (عقل) وفي «المخصص» لابن سيده ج١ ص٦٧.
٦٩	١٦	الوحف البشام	صوابها: الوحف التام، يعني من الشعر. وقوله: «ميلا» حال من قوله: «ميلا» جمع مَيلاء وهي المشطة الميلاء مشطة البغايا
٧٢	١	فهو خطأ	صوابها: بحذف «فهو»
٧٢	٢	السير	صوابها: الكبير
٧٣	١٣	طرناباذ	رأيت في أربعة مواضع من الطبري هذا اللفظ «طرنايا»، ولم أجده في ياقوت ولا غيره، وفي ياقوت: قرية من قرىٰ جرجان سماها «طرخاباذ»، ولا أدري ما الصواب، انظر: الطبري ج١٠ ص١٦٨و ١٨٥و ٢٤٨و ٢٥٠.

ص	س		
٧٤	٤	فأشرأ بينا	صوابها: فاشرأبنا؛ أي رفعنا رؤوسنا لننظر إليه
٧٥	١٨	خريب	صوابها: حريب، أي مسلوب
٧٩	٢	سعيد بن ...	صوابها: سعد بن ناشب
٧٩	٣	بذات كريم (كذا)	صوابها: تراث كريم
٧٩	٦	أحبس	صوابها: أخيس من خاس إذا فزع وارتد جبنًا
٧٩	١٢	عمر بن عامر	صوابها: عمرو
٧٩	١٥	وقولي.. إلخ (كذا)	صوابها: أقول لها إذا جشأت وجاشت
٨٠	٦	بن جري	صوابها: بن حَرِّي
٨٠	١٣	كره	صوابها: أكره
٨١	١٦	تلتزم (كذا)	صوابها: تلتدم؛ من التدام النساء، وهو ضربهن صدورهن ووجوههن في النياحة
٨٢	٤	كي تبيع (كذا)	صوابها: كي تبغّىٰ؛ من قولهم تبغّىٰ الشيء أي طلبه
٨٢	١٣	أملاؤها	صوابها: املأها
٨٣	٢	تائمة (كذا)	صوابها: أيمة، وهي التي لا زوج لها
٨٤	٣	له لحظات إلخ (كذا)	صوابها: له لحظات عن حفافي سريره. والحفافان: الجانبان
٨٦	١٨	تخاليفه (كذا)	صوابها: تكاليفه، أي علىٰ ما تتكلف من الجهد والمشقة
٨٧	١٤	من البلاد (كذا)	صوابها: عن البلاد

ص	س		
٨٧	١٥	وهولا (كذا)	صوابها: وعولا
٨٨	٢	حدا	صوابها: أحدًا
٨٨	١٧	إن حضرت	صوابها: إني حضرت
٨٩	٨	إذا تشرق	صوابها: إذا تشرف، أي بدا
٩٠	١٧	لا يخطب إنكاره (كذا)	صوابها: لا تُخطب أبكاره
٩٤	٥	سبأ	صوابها: سِبَاءٌ
٩٤	٨	مليح النغمة والشادة (كذا)	مليح النصبة والشارة
٩٥	٥	لا تني جانبًا (كذا)	لعلها: لا تنأ جانبًا
٩٥	١٤	الدعا (كذا)	صوابها: الوَحَىٰ
٩٥	١٦	لم تقل (كذا)	صوابها: لم أقل أو لم أُبَل
٩٦	٥	نمشة.. إلخ	صوابه: نمشَةٌ فوق صفرة فتراه كونيم الذباب في اللفاح ونيم الذباب: سلحه. واللفاح: نبات عندهم أصفر طيب الرائحة. وهذا البيت لا نسب بينه وبين الذي قبله، واختلط الأمر علىٰ الحصري؛ لأن البيت الأول فيه ذكر القرد مع أنه في آخر القصيدة، والأبيات الذي قبل هذا البيت فيها ذكره أيضًا، وهذا البيت في صفة خد أنمش.

ص	س		
٩٦	١٦	يعرف بابن غراب (كذا)	صوابه: يعرف بابن عذاب، صحة البيتين: أقول قولًا بلا احتشام يَعْقِلُه كل من يَعِيهِ ابن عذابٍ إذا تغنَّـىٰ فإنني منه في أبيهِ (أي في عذاب)
٩٨	٣	عقيل بن علقمة (كذا)	صوابها: عقيل بن علفة
٩٩	٣	فسيعذل	صوابها: فسيعزل
١٠١	١٦	يحيي ويعطي	صوابها: يحبىٰ ويعطىٰ
١٠٢	٦	خصراء (كذا)	صوابها: حميراء
١٠٣	١٦	فعدا (كذا)	صوابها: قوراء
١٠٣	١٩	مخالية (كذا)	صوابها: خالية
١٠٥	٣	فاتباع	صوابها: فابتاع
١٠٥	١١	رقود (كذا)	صوابها: وفود
١٠٥	١٣	واجهت (كذا)	صوابها: وجهت
١٠٦	١	وبقاع (كذا)	صوابها: ويفاع
١٠٧	٤	حلف	صوابها: حلق
١٠٧	٥	لازمًا للعود	صوابها: لازمًا للعمود، يريد عمود الغناء

ص	س		
١٠٧	٩	غنت .. إلخ كذا	لعل صواب إنشاده: غنَّت فظِلتُ إخَالُني طَربًا أسمو إلىٰ الأفلاك أو أرقىٰ
١٠٨	٢	لقد جاد.. إلخ (كذا)	صوابها: لقد جاد من عابثٍ ضربها
١٠٨	١٧	تشدوا.. إلخ	صوابها: تشدو فنرقُصُ بالرؤوس لها ونَزْمِرُ بالكؤوس
١٠٨	٣٠	كالدعاء	صوابها: كالبرء
١٠٨	٢١	تعيره	لعله: تَعبدُها الراح فهي ما صدحت أبريفنا ساجدًا إلىٰ القدح
١١٠	١٠	وتستفز	صواب إنشاده فيما أحفظ: وتستفزُّ حشا الرائي بإرعادِ
١١٠	١٣	فمن (كذا)	صوابها: فممَّن
١١٠	١٦	سأل	صوابها: سال
١١٠	١٨	يتنحرق	صوابها: يخترق
١١١	٢	الوافية التكسر (كذا)	صوابها: الوانية التكسُّر
١١١	٦	النياب.. جيد	صوابها: الشباب.. حبل
١١١	٢٠	وثاب	صوابها: وقال، فإن الشعر لابن الرومي

ص	س		
١١٢	٩	فالعين.. إلخ	هذه أبيات جليلة نذكرها من ديوانه المخطوط: فالعين لا تنفَك منْ نظَرِ والقَلْبُ لا ينفَكُّ من وَطَرِ ومحاسن الأشياء فيكَ معًا فمَلَالَتيكَ مَلَالَتي بصَرِي مُتعَات وجهك في بديهتها جُدُدٌ وفي أعقابها الأُخَر فكأنَّ وجهك مِن تجدُّده مُتنَقَّلٌ للعين في صُوَرِ
١١٢	١٨	ورق السرور	صوابها: ورْدِ السرور
١١٥	٣	دائر	صوابها: واتِرِ
١١٥	٧	حونة	صوابها: جَوْنَةَ
١١٥	١٢	النائي	صوابها: النَّأْي
١١٧[١]	١	مكحل رجل	صوابها: أكحل رجل
١١٧	٦	لسقراط	صوابها: ببقراط...
١١٩	١٥	الدرداي	صوابها: الدردي
١١٩	٢٢	شبيه الفالوذج	صوابها: يا شبيه الفالوذ

(١) من ص ١١٦ تبدأ رسالة الجاحظ ولم نتعرض لكثير من ألفاظها لضيق الوقت واعتياص تصحيحها. (شاكر)

ص	س		
١٢٠	١٣	بلاغة الجاحظ	هذه جملة محرفة، وننقلها هنا على صوابها من مقامات البديع: «إن الجاحظ في أحد شِقّي البلاغة يقطف وفي الآخر يقف، والبليغ من لم يقصّر نظمه عن نثره، ولم يزر كلامه بشعره... نثره، فهو بعيد الإشارات، قليل الاستعارات، قريب العبارات، ينقادُ لعُرْيان الكلام يستعمله، نفور من مُعْتَاصه يهْمِله...».
١٢٣	٢٠	يختاره لليوم	صوابها: يحتار لليوم
١٢٦	٦	الثعلبي	صوابها: التغلبي
١٢٦	١٦	تم أنصاب	صوابها: ثُمَّتَ أنصَاتَ
١٢٦	١٧	بذلت	صوابها: بزُلَتْ، بالزاي، من بزل الخمر وابتزلها: ثقب إنائها ثم صفاها بالمبزل وهو المصفاة
١٢٦	٢٠	للمزاج	صوابها: بالمزاج
١٢٧	١٢	يريد النسب إليه	صوابها: يريد، أنتسبُ إليه...
١٢٨	٤	هنيم	صوابها: هميم، أي دبيب
١٢٨	٢٠	منازلهم	لعلها «وأولهم»
١٣٠	١٧	للسؤال	صوابها: للسئول
١٣١	١	ضرب.. إلخ	صواب إنشاده: ضربَ الأصمعيُّ فيهم أم الأحمَرُ أم لُقِّحوا بأيْر الخليل
١٣١	٦	أحنوا	لعلها «أَمِنُوا»

ص	س		
١٣٦	١	وتخطت	صوابها: وانحطت
١٣٧	١٠	باطني	صوابها: «باطلي»
١٣٧	١٥	ترىٰ أبدًا	صوابها: «تَرَ أُثْرًا»؛ والأُثْر أَثَرُ الجرح أو غيره في الجسد
١٣٧	٢١	نام الثقاة	صوابها: «نام التُّقَاة»
١٣٨	٤	لا آذوق	صوابها: لا أذوق
١٣٨	٥	ما أرىٰ	صوابها: ما أرىٰ لي خلافَه
١٣٨	٧	أُزَيِّنُ	صوابها: أُزَيِّنُ
١٤٠	٦	يركب	صوابها: يُمْكِنُ
١٤٠	١٤	انتشر	صوابها: انتثر
١٤٠	١٦	مستقر	صوابها: مُسْتَعِر
١٤١	٤	وإن أبىٰ	صوابها: وإذا أبىٰ
١٤١	٩	وأيا وفيته	صوابها: وَأْيًا وَأَيْتُه، ومعناه: وعدًا وعدته
١٤١	٢٠	زلَّت	صوابها: ذلَّت بالذال المعجمة
١٤١	٢٢	سبقت.. إلخ	صوابها: سبقْتَ بالسَّيْب مَسِيل السَّحَاب
١٤٢	٦	إن رائىٰ	صوابها: إن دائي
١٤٣	١١	تعتيلها	صوابها: تعتليها
١٤٣	١٥	ما ألقاها	صوابها: ما ألفاه
١٤٥	٩	للحاجة ليس بشعر.. إلخ	صوابها: للحاجة ليس لشعر، وما عُصِي...

ص	س		
١٤٥	١٥	فيردها	صوابها: فيرده
١٤٥	١٨	ما يطبن عليها	صوابها: أما يتطير عليها
١٤٥	٢١	ما ليلي.. إلىٰ الغداة	صوابها: بالبُلَيِّ... لِيَ الغداة
١٤٥	٢٢	هل أراك	صوابها: آهِلٌ أراك
١٤٥	٢٣	بديلًا	صوابها: سبيلًا
١٤٦	٣	علي بن الصباح وأرق..	صوابها: علي بن الصباح وراق أبي مُحَلِّم
١٤٦	١٧	جُدَّته	صوابها: جِدَّته
١٤٦	٢٠	ضيق	صوابها: صيف، وفيما حفظته قديمًا: «دارٍ»
١٤٧	١٧	قال لي أبو العباس إلخ (كذا)	يحيىٰ المذكور أولًا هو ولد ثعلب النحوي المشهور، فصواب العبارة «يحيىٰ بن أحمد بن يحيىٰ ثعلب» بحذف (بن)
١٤٨	١١	الموضوع	صوابها: الموضع
١٥١	١٠	وإن لام.. (كذا)	صوابه: وإن لام فيه ذو الشَّنَان وفنّدا
١٥١	١٣	بهذا الوضع	صوابه: بهذا الموضع
١٥١	١٦	أجلس مجلسي (كذا)	صوابه: أَجْلَلْنَ مَجْلِسي
١٥١	١٩	إلا بجوره (كذا)	صوابه: إلا محُورة، والمحُورة جواب السؤال
١٥١	٢٠	بسترة (كذا)	صوابه: يَسُرُّه

ص	س		
١٥١	٢٣	كلانا به عدو	صوابه: كلانا به عُرٌّ، والعُرُّ داء يأخذ الإبل فيتمعَّطُ عنها وبَرها حتىٰ يبدو الجلدُ، وهو كالجرب للإنسان
١٥٢	٣	لقد أردت في الشنعاء (كذا)	صوابها: لقد أردتَ بي الشقاء
١٥٢	٥	عر منها	صوابها: غُرَّ منها
١٥٢	٢٠	لما تحتجم (كذا)	لِمَ تحتجم؟
١٥٣	٦	خرج مهزم بن الفرج..(كذا)	هذه قصة لم أجدها بعد، وأرىٰ أن طاهرًا المذكور هنا هو طاهر بن الحسين الذي نصر به المأمون علىٰ الأمين ووجه إلىٰ فتح خراسان ومرو الشاهجان، وإذا كان ذلك كذلك فمهزم هذا هو «مهزم بن الفزر العبقسي» من بني عبد القيس كان من قواد أبي جعفر المنصور ذكره ابن دريد في الاشتقاق ص١٩٧.
١٥٣	١٨	يطوىٰ ما (كذا)	صوابها: يطوىٰ بما
١٥٤	١٠	محمد بن...	صوابها: محمد بن أبي الأزهر
١٥٥	٥	مشبهًا	صوابها: مشيهًا
١٥٥	٨	قرىٰ.. إلخ (كذا)	صوابها: قَرَىٰ الخطبَ رأيًا
١٥٦	٥	عوفت (كذا)	صوابها: عَزَفَت
١٥٧	٨	حرارات (كذا)	صوابها: حزَزَات
١٥٧	١٦ و١٧	ما عدالكم (كذا)	صوابها: ما بالكم

ص	س		
١٥٩	١٤	محيي ميت (كذا)	صوابها: محيِ لميتٍ
١٦١	٢١	لمنادمية	صوابها: لمنادميه
١٦٣	٢٠	نار (كذا)	صوابها: نارًا
١٦٣	٢٣	وأرىٰ صنيعك.. إلخ (كذا)	هذا بيت ملفق، والرواية: وأرىٰ صنيعك في القلوب صنيعها بسَيَالها وأراكِها وعَرَادِها شركتك في كل الأمور بفعلها وضيائها وصلاحها وفسادِها
١٦٤	٨	المزني (كذا)	صوابها: المازني
١٦٤	١١	فضلًا (كذا)	صوابها: وصلًا
١٦٥	٦	فأديت (كذا)	صوابها: فأدت
١٦٥	١٥	تأبىٰ صروفه	صوابها: تأتي صروفُه
١٦٥	١٨	بعض أسبابي (كذا)	صوابها: بعض أحبابي
١٦٥	٢٠	تنشر عنه (كذا)	صوابها: تُنْشَرُ عنده
١٦٦	٩	لرشد (كذا)	صوابها: لرِشْدَة، وولد الرِّشْدَة الذي لم يخالط مولده زنا أو سفاح
١٦٩	٤	فرحانشاه	صوابها: فَرْخان شاه، بالخاء المعجمة

ص	س		
١٦٩	٦	أحمد بن أبي الأصبع	صوابها: ابن أبي الأصبغ، بالغين المعجمة
١٦٩	١٠	جعفر بن الفضل الجرجراي (كذا)	لعل الصواب أنه «أبو جعفر محمد بن الفضل الجرجراي» الذي وزر للمتوكل
١٦٩	٢٠	مقفرّ	صوابها: مُقْفِر
١٧٠	٦	كان النداء	صوابها: كان البذاء
١٧٠	٧	لا يعي.. إلخ (كذا)	صوابها: لا يمشي إليه حرٌّ وإن مسه الضر
١٧٠	١٢	قاهر الجملة (كذا)	صوابها: قاهر الحملة (بالحاء المهملة)
١٧٤	٩	بحور ابن جلاء (كذا)	صوابها: يَحُوز ابن خلَّاد
١٧٤	١٤	لدّة	صوابها: لِدَة
١٧٥	٦	خليلي.. إلخ (كذا)	صوابها إنشاده: خليليّ داويتما ظاهرًا ورواية الأغاني ج١٢ ص٩٢: طبيبيَّ
١٧٥	٢٣	الأماء	صوابها: الإماء بكسر أوله وهن الجواري
١٧٦	٣	فهل أنت من لصوص (كذا)	صوابها: فهل أنت إلا من لصوص. وهذه القصة رواها ابن قتيبة في عيون الأخبار ج١ ص١٦٧-١٦٨ فنحن نعتمد روايته في أكثر تصحيحنا
١٧٦	٤	في نفسك منتك نفسك (كذا)	صوابها: في رأسك.. إلخ
١٧٦	٤	دروبني	صوابها: دور بني

ص	س		
١٧٦	١٠	واطمأنيت	صوابها: واطمأننتُ
١٧٦	١٢	قرصتان.. إلخ (كذا)	صواب العبارة: وعندي قَوْصَرتان أهداهما إليَّ ابن اختي البَرُّ الوصول، فخذ إحداهما فانتبذها.. إلخ
١٧٦	١٥	تقلب...إلخ (كذا)	صواب العبارة: أقلِّب البيضاء والصفراء فتُصِيخ وتُطْرِق
١٧٦	٢١	عول أبي علي (كذا)	صوابها: عوّل أبو علي
١٧٦	٢٢	وأتىٰ فيها مليحة (كذا)	صوابها: وأتىٰ فيها بكل مليحة
١٧٧	٦	تناسب .. إلخ (كذا)	العبارة غير واضحة، ولم أهتد لتصحيحها بعد
١٧٧	١١	تسويد جنان (كذا)	صوابها: تسويل جنان
١٧٧	١٨	من أهاضيب فرق (كذا)	صوابها: من أهاضيب فوّق. والأهاضيب جمع أهضُوبة وهي جَلَبَاتُ القطر بعد القطر، وفوَّق من قولهم: فاقت الناقة بدِرَّتها إذا أرسلتها فُوَاقًا (وهي مقدار ما بين الحلبتين)، والأبيات التي بعده فيها خطأ لم أهتد بعد إلىٰ صوابه.
١٧٨	٢	بعد امتناع	صوابها: بعد امتتاع (بتاءين) من قولهم: مَتَع النهار وامتتع إذا ارتفع.
١٧٨	٣	بخرطوم العراق (كذا)	لعلها: بخرطوم العقار، أو بخرطوم المدام

ص	س		
١٧٨	٤	نجدراه رداح (كذا)	صوابها: بخَنْدَاةٍ رَدَاح، والبخنداة: الممتلئة من النساء، والرداح: العظيمة الأرداف
١٧٨	٦	شرقت بدار.. إلخ (كذا)	لعل صوابه: «شرقتُ بداريِّ المُدَام المعتَّقِ» وداريّ نسبة إلىٰ دارين، وهي فرضة بالبحرين، يقول الفرزدق: كأن تريكةً من ماء مُزنٍ وداريِّ الذكيِّ من المُدام
١٧٨	٢٠	ذلك الأملاك (كذا)	صوابها: مالك الأملاك
١٧٩	٧	وهل قعب حصباؤها (كذا)	صوابها: «وهل ثَغَبٌ حصباؤه..»، والثغب بتحريك الوسط وسكونه هو بقية من ماء السيل يغادرها في أخدود من الأرض فتصفقه الريح فيصفو ويبرد، فليس شيء أصفىٰ منه ولا أعذب
١٧٩	٩	من النوم.. إلخ (كذا)	الذي أحفظه: «من النوم، بل تزداد طيبًا وتعطر»
١٧٩	١٧	المخ (كذا)	صوابها: المحّ، بالحاء المهملة وهو فصّ البيضة الأصفر
١٨٠	٢١	أومرَّ (كذا)	صوابها: البيت لا يستقيم، ولعله: «أو مرَّ مجنونٌ فزنّانا» أي سبَّهم فقال: يا أولاد ....، هذا علىٰ الرسم، ويليق أن يكون «فغنَّانا»

ص	س		
١٨١	١٠	خبيصة	الأبيات في كتاب المسعودي مروج الذهب ج٢ص٣٩٤: خبيصةٌ تُعْقَدُ مـن سُكَّـرة وبُرْمة تطبـــخ في قنبـــرة عند فتىً أسمح من حاتم يَطبخ قدرين علىٰ مِجْمَرة وليس ذا فـي كـــل أيامه لكنه في الدعوةِ المُنْكَـــرة في يوم لهوٍ فَظِـــع هائل ومجمَع اللّذَّات والقَرقَـرة يقول للآكل من خبـــزه تَعْسًا لهذا البَطنِ ما أكـبره
١٨٣	٧	يعرين	صوابها: يَعْرِبْن
١٨٤	١٥	طفج	صوابها: طغج بالغين المعجمة (ابن جُفّ)
١٨٥	١	يا أيها الأستاذ.. إلخ	هذه القصيدة أجلنا تصحيحها لضيق الوقت
١٨٥	١٣	أبو الفضل بن حنزابة	هو أبو الفضل جعفر بن الفضل بن جعفر بن محمد بن الحسن بن الفرات المعروف بابن حنزابة بكسر الحاء المهملة وسكون النون وآخره هاء ساكنة، وحنزابة هي أم الفضل بن جعفر.
١٨٥	١٦	بعُرسه	صوابها: بعِرسه بكسر العين المهملة
١٨٥	٢١	يرميها (كذا)	صوابها: يمر بها

ص	س		
١٨٦	١٧	فجعلت تمونني إلخ (كذا)	صواب العبارة: فجعلت تمونني وتحسن التدبير في المال وتوفيره علي إلىٰ أن بلغتُ...
١٨٧	٢١	وإن بين.. إلخ (كذا)	هذه عبارة مستبهمة ولم أتبين صوابها
١٨٨	٣	ولا تبذلها (كذا)	صوابها: ولم تبتذلها
١٩٠	٢	إلىٰ الأوال (كذا)	صوابها: إلىٰ الأبوال
١٩٠	١١	لمته (كذا)	لعل صوابها: «ألفيتُه»
١٩٠	١٩	نصب	صوابها: نصِبتْ
١٩١	١	دائرة (كذا)	صوابها: دائبة
١٩١	١٢	يحشىٰ	صوابها: يخشىٰ
١٩١	١٤	حين تبغىٰ (كذا)	صوابها: حيث تُبْغَىٰ
١٩١	١٧	في ورف	صوابها: في وارف
١٩٢	١٢	عتابه	صوابها: عتَّابة يريد عتبة صاحبته
١٩٣	١٣و١٧	زكرة (كذا)	صوابها: «رِكْوَة» بالراء وهي إناء من جلد.
١٩٣	١٦	ألبسبله (كذا)	إما أن تكون «بالرملة»، أو «أرسلته» وهي أقرب إلىٰ الرسم
١٩٤	١٤	رءي	صوابها: رُؤىٰ
١٩٧	٢	وأقبل آخر.. إلخ (كذا)	العبارة مبهمة، والذي يظهر لي أنه يريد أن يصف راقصًا دخل يرقص، وذلك لقوله: مجنون ورب الكعبة

ص	س		
١٩٧	٨	علي بن عيسىٰ (كذا)	الصواب أنه علي بن يحيىٰ الأرمني، والأبيات في ديوانه: وأكثرتُ غشيان المقابر زائرًا عَلِيَّ بن يحيىٰ جار أهلِ المقابرِ فإلَّا يَكُنْ ميتَ الحُشَاشَةِ في الذي يُرىٰ فهو مَيْتُ الجود مَيْتُ المآثر ولا فضلَ عند الأرمنِي يَعُدُّه سوىٰ أنه ثَوْرٌ سَمِينٌ لجازِر سرقت سِهَام المسلمين ولم تكن لهم يوم زحف المشركين بحاضِر وكان علي بن يحيىٰ هذا من كبار قواد المتوكل، وكان علىٰ الثغور الشامية ثم صرف عنها وعقد له علىٰ أرمينية وأذربيجان في شهر رمضان سنة ٢٤٨، ثم قتل بالثغور الجزرية سنة ٢٤٩ في حرب الروم، ويقول الطبري عنه وعن عمر بن عبيد الله الأقطع: «كانا نابين من أنياب المسلمين شديدًا بأسهما، عظيمًا غناؤهما في الثغور التي هما بها»، وهذه شهادة عظيمة تأكل هجاء البحتري.
١٩٧	١٩	نفيلك.. إلخ (كذا)	لعل الصواب: نَفِيُّك من البُؤس
١٩٨	٤	جزاك.. حباك	صوابها: جزاءَك.. حِباءَك
١٩٨	١٨	أخص	صوابها: خَصَّ
١٩٨	٢١	مشتكا	صوابها: مُشتَكىٰ
١٩٩	٥	النكك	صوابها: لنكك

ص	س		
١٩٩	٧	تبصر (كذا)	صوابها: لنصرٍ، يعني الخبزأرزي
١٩٩	٨	من السقف.. إلخ	صوابها: من السَّعَف المُدَخِّن للثياب. وهذه الأبيات رواها الخطيب البغدادي في تاريخه ج١٣ ص ٢٩٩ وذكر جواب الخبزأرزي عنها بأبياته الظريفة التي أولها: منحت أبا الحسين صميم ودي فداعبني بألفاظ عِذاب أتىٰ وثيابُه كقتــــير شيــــــب فعدن له كريعان الشباب
١٩٩	٢٠	التأني	صوابها: التأتي (بتاءين) من قولهم: تأتيت للأمر إذا تهيأت أو ترفقت لإدراكه بوجه من الحيلة
١٩٩	٢٢	فلا يزال أخ.. إلخ (كذا)	هذه عبارة مضطربة لم أهتد إلىٰ صوابها
٢٠٠	١	بطبائعها.. إلخ (كذا)	لعل صواب العبارة: «بطيء معها صلاح القلوب، قليل بها بقاء المودة»
٢٠٠	٣	وكنت لا أزال.. إلخ (كذا)	لعل صوابها «وكنت لا أزال (أرد) ما يرد منها» وفي هذه الرسالة خطأ كثير لم نوفق لتصحيحه بعد
٢٠٠	٢٢	تأبت.. كما تأبىٰ (كذا)	صوابه: تأنت.. إلخ كما تتأنىٰ
٢٠١	٢	علىٰ بأسها (كذا)	صوابها: علىٰ يأسها، بالياء التحتية المثناة
٢٠١	٤	الثقاة (كذا)	صوابها: الثقاف

ص	س		
٢٠٧	٢٠	علىٰ العجب (كذا)	صوابه: علىٰ العَجْبِ كنتُ علىٰ الغارب، والعَجْب بفتح العينَ عظم في أسفل صلب الإنسان عند العَجُز، وإنما أراد العسيب، وهو من الدابة بمنزلة العَجْب من الإنسان، فاستعمل هذا مكانه
٢٠٨	٤	يوقي المكاره (كذا)	صوابه: له في المكاره
٢٢٣	١٩	ورقته	صوابها: ودقَّتِه
٢٢٦	١٤	فحلاته (كذا)	لعلها: نخلاته
٢٢٦	٢٠	في شيء (كذا)	صوابها: في هِبَتي
٢٢٨	٤	هاتم (كذا)	صوابي: «هلمَّ» أي هات أو أعطني
٢٢٨	١١	ولقد رأيتك (كذا)	صواب إنشاده: ولقد رأيتُك في النساء فسؤتني وأبا بَنِيك فساءني في المجلس وهذا البيت في هجاء أبيه وأمه معًا.
٢٢٩	٤	أخت شمس الضحىٰ.. (كذا)	هذا البيت غير مستقيم، وفي القصيدة ألفاظ لا تتجه مع المعاني، ولم تقع إليَّ قبل اليوم فاترك تصحيحها لمن عنده نسخة من ديوان هذا الشاعر البليغ المجيد
٢٢٩	١٣	مبيني لي (كذا)	في هذا تحريف لم أهتد لصوابه
٢٢٩	١٥	لها أذن.. إلخ (كذا)	صوابه: «لها أذنٌ حَشْرٌ..»، يصف ناقته التي سمَّاها صيدحًا، والحشر: الدقيقة الطرف

ص	س		
٢٣٠	٥	ليت يثمر	لعلها: ليست تثمر
٢٣٠	١٠	ذلة (كذا)	صوابها: دالة
٢٣١	٢	ما عنا	صوابه: ما عنىٰ، من قولهم: عنَىٰ عناء أي تعب
٢٣١	٢٣	شاء	صوابها: مشَّاء
٢٣٢	١	الجنس	صوابها: الجِبْس، وهو الثقيل الدنيء الفدم من الرجال
٢٣٢	٦	دينا أو دينا	صوابها: دينًا أو دنيا
٢٣٤	١٠	قائمة	صوابها: قاتمة
٢٣٦	١	منعّما	صوابها: مُنْعِمًا
٢٣٦	٩	حذور	إن تبعنا الرسم كان أوفق لفظ «حَزْوَر» وهو الفتىٰ الشاب، والذي في ديوانه المطبوع: «جؤذر»
٢٣٧	١١	دقة خرسائه	صوابها: رِقَّة خِرْشَائه، وهو الجلدة التي تعلوه وأصلها جَلدة البيضة الداخلة، وهي أيضًا سلخ الحية وجلدها
٢٣٧	١٩	تلقاكم	صوابها: تلقاءكم
٢٣٨	١٠	ستة	صوابها: سِتَّته
٢٣٩	١٣	عليهم	صوابها: عليه
٢٣٩	٢١	فقلّ	صوابها: فَقُلْ
٢٤٠	٧	قُرَط	صوابها: قَرَّط

ص	س		
٢٤٠	٨	بلا مزيد	صوابها: بلا فريد، والفريد جمع فريدة وهي الشذر من الفضة شبه اللؤلؤة.
٢٤٠	١٢	للدزور	صوابها: للذَّرور، وهو الشروق. وفي بقية أبياته أخطاء كثيرة
٢٤١	١٣	أرىٰ من (كذا)	صوابها: أر ابن روميّك
٢٤٨	٨	يمنع من... (كذا)	صوابها: يمنع من أن أؤدبك...
٢٤٩	١٨	وعن قليل (كذا)	صوابها: وَعْرٍ قليل الأنيس
٢٥٠	٣	لأبدلنك (كذا)	لعلها علىٰ الرسم: لأنزلنّك
٢٥١	٢١	وذلك أنه.. إلخ (كذا)	عندي أن صواب العبارة: «وذلك أنه كان كاتب بختيار بن معز الدولة أحمد بن بويه الديلمي ابن عمه، وبين أبي شجاع وبين بختيار منافسة بالرياسة...»، فإن فناخسرو وهو ولد ركن الدولة الحسن بن بويه الديلمي أخي أحمد بن بويه معز الدولة، وقد كان الصابي يكتب إلىٰ عضد الدولة فناخسرو ما يؤلمه فحقد عليه لذلك.
٢٥٢	٢	أربع وستين وثلثمائة	كانت ولاية الطائع سنة ٣٦٣ وأول ما ولي خلع علىٰ سبكتكين خلع السلطنة، فجرت بينه وبين بختيار حوادث، فقدم عضد الدولة فناخسرو إلىٰ بغداد لينصر ابن عمه بختيار علىٰ سبكتكين، فأعجبته بغداد فملكها واستمال الجند وأفسدهم علىٰ بختيار، وكان قدوم فناخسرو إلىٰ بغداد سنة ٣٦٤ وهو التاريخ المذكور هنا، وجرت الوقائع بين بختيار وفناخسرو حتىٰ انتهت بالتقاء الجيوش وقتل يوم ذاك بختيار يوم الأربعاء ثامن عشر شوال سنة ٣٦٧.

ص	س		
٢٥٢	١٣	أشتام (كذا)	صوابها: أستام، بالسين المهملة
٢٥٢	١٤	شفَت قرمًا (كذا)	رواية اليتيمة: شَفَت كمدًا
٢٥٢	١٥	السادة (كذا)	صوابها: السارق
٢٥٢	١٧	من المنسر... إلخ (كذا)	قبل هذا البيت: كذا الكُرَّز اللَّمَّاح ينجو بنفسه إذا عاين الأشرك تنصَب للقَنَصْ ونص اللغة: أن الكرَّز هو البازي، ومن الطير: الذي قد أتىٰ عليه حَوْلٌ، وقوله: «من المنسر الأشفي» في اليتيمة: «الأشغىٰ» بالغين، ولم أوفق لتحقيق المعنىٰ بعد
٢٥٢	١٨	الريق.. مغص (كذا)	صوابها: الدِّبق. وهو حمل شجر في جوفه كالغراء لازق، يلزق بجناح الطائر فيصاد به، وقوله: «مغص» صوابه «قَعَص».
٢٥٢	٢١	تمم (كذا)	صوابها: يمّم
٢٥٣	١	تقنصت انصافي. (كذا)	رواية اليتيمة: تقنصت بالألطاف شكري ولم أكن
٢٥٤	٨	جنبيها	صوابها: جنينها
٢٥٤	١٤	صديق	صوابها: صديقًا
٢٥٦	١٠	لا تدفعوا إلىٰ (كذا)	صوابها: لم تدفعوا إلي

ص	س		
٢٥٧	٦	وممّادها	صوابها: وممّا دهىٰ
٢٥٨	١٤	بالمرء يزري (كذا)	صوابها: بالمرء قد يزري
٢٥٨	١٧	حليم جهول... (كذا)	لم أجد الأبيات، وفيها تحريف
٢٦١	١٧	بتحسين الخط.. (كذا)	لعلها: يبخس الحظ من...
٢٦١	١٨	يزيد... (كذا)	صوابه: يزيد بن مزيد، وهو الشيباني
٢٦٢	١٠	عكاشة القمي (كذا)	صوابه: عُكَّاشة بن الصمد العَمِّي، منسوب إلىٰ بني العَمِّ، وكانوا قد نزلوا ببني تميم بالبصرة زمن عمر بن الخطاب، فأسلموا وغزوا مع المسلمين وحسن بلاؤهم، فقال الناس: أنتم وإن لم تكونوا من العرب إخواننا وأهلنا وأنتم الأنصار والإخوان وبنو العم، فلقبوا بذلك، وأقحموا في العرب.
٢٦٢	١٥	أبادره (كذا)	صوابها: أبادر
٢٦٣	١	يمجج	صوابها: يمجمج
٢٦٣	٢	في النقد.. إلخ (كذا)	صواب إنشاده: في النَّقرِ ينفي بَهرجًا وزُيوفًا

ص	س		
٢٦٣	٣	أبي شجرة..	هو أبو شجرة عمرو بن عبد العزىٰ السلمي ولد الخنساء الشاعرة، وكان أسلم في بني سليم بن منصور ثم ارتد عن الإسلام فيمن ارتد منهم، ثم عاد بعد القتال فأسلم، وقدم المدينة زمان عمر بن الخطاب فأدركه وهو يعطي المساكين من الصدقة ويقسمها بين فقراء المسلمين، فقال: يا أمير المؤمنين، أعطني فإني ذو حاجة، قال: ومن أنت؟ قال أبو شجرة بن عبد العزىٰ السلمي، قال: أبو شجرة! أي عدو الله! ألست الذي تقول: فروَّيتُ رمحي من كتيبة خالد وإني لأرجو بعدها أن أُعَمّرا ثم جعل يعلوه بالدرة في رأسه حتىٰ سبقه عَدْوًا، فرجع إلىٰ ناقته فارتحلها، ثم أسندها في حَرَّة شَوْران (وهي من أرض قومه) راجعًا إلىٰ بني سليم، فقال: ضنَّ علينا أبو حفصٍ بنائله وكلُّ مختبطٍ يومًا له وَرَقُ الأبيات (الطبري ج٣ص٢٣٦)، ورواية البيت الذي هنا: تطيرُ مَرْوُ أبانٍ عن مَنَاسِمِها كما تُنُوقِد عن الجِهْبِذ الوَرِقُ من قولهم: نقد الدراهم وتنقَّدها وهو نفيُ الزيف منها، والوَرق الدراهم المضروبة، وفي رواية «كما يُنَقَّد»، أما الرواية التي هنا فلم أرها، ولعل صوابها: يطير عنها حَصَا الصَّوَّان مِن نَفَذٍ كما تنقَّد عند الجِهْبِذ الوَرِق وهذا هو تشبيههم، ألا ترىٰ قول شاعرهم: تَنْفِي يداها الحَصَا في كلِّ هاجرةٍ نفيَ الدراهيم تنقادُ الصياريف

ص	س		
٢٦٣	٦	كأن صليل .. إلخ (كذا)	صواب إنشاده: كأنَّ صليلَ المَرْوِ حين تطيرُه صليل زُيُوف يُنتَقدْن بعَبْقَرا
٢٦٣	٨	كأن أيديهن.. إلخ (كذا)	صواب إنشاده: كأنَّ أيديهنَّ بالقَاع القَرِقْ أيدي نِسَاءٍ يَتَعَاطين الوَرِقْ وفي رواية «أيدي جوار»، والقرِق: المستوي
٢٦٣	١٥	مطولات (كذا)	صوابها: مُطْفِلَاتِ
٢٦٣	١٧	منعمات (كذا)	صوابها: مفعمات
٢٦٣	١٩	أمة.. إلخ	صواب إنشاده: أمُّه -دَهْرَها- تُتَرْجِمُ عنهُ وهو بادي الغِنَىٰ عن التَّرجمانِ
٢٦٤	١	ليس.. إلخ (كذا)	لعل صواب إنشاده: ليس بالسائل الضعيف إذا ما رَاض نَعْمَا، ولا الشنيع الجَهيرِ
٢٦٥	٣	عدني (كذا)	صوابها: عُذْنَ
٢٦٥	٥	دعوت (كذا)	صوابها: دعَوْنَ
٢٧٠	٣	أزكىٰ	صوابها: أذكىٰ، أي أوقد
٢٧١	١	علىٰ تبعيتهم (كذا)	لعلها: علىٰ طبقاتهم

ص	س		
٢٧٢	١	متنحل	صوابها: مُتَنَخَّل
٢٧٢	٦	بالنذر	صوابها: بالنَّزْر
٢٧٢	٨	نسور صعاد (كذا)	هذا لفظ محرف
٢٧٣	١	تتحرب	لعلها: تتحزَّب
٢٧٣	٢	ولا استعرضوا (كذا)	الصواب: ولا اسْتُصْرِخُوا
٢٧٣	٥	ملحب (كذا)	الصواب: مُنْجِبُ
٢٧٣	١١	بدر (كذا)	الصواب: شمس، يشير إلىٰ قول النابغة في النعمان: فإنك شمسٌ والملوك كواكبٌ إذا طلعت لم يبدُ منهنَّ كوكبُ
٢٧٤	١٦	ذباذب	صوابها: زبازب، بالزاي جمع زبزب، وهو ضربٌ من السفن صغار
٢٧٦	١	فإنها حين (كذا)	لعلها: فإنها كانت
٢٧٦	١٨	الأرمنتي (كذا)	لعلها: الأرمني
٢٧٦	١٩	أجنابه (كذا)	صوابها: أجناسه
٢٧٧	١٣	الفراة	صوابها: الفرات
٢٧٧	١٥	الذيارب (كذا)	صوابها: الزبازب، وقد مضىٰ تفسيرها
٢٧٨	١	الشرب (كذا)	صوابها: السَّرَق، وهو ضرب من الحرير يقولون: هو معرّب «سره»

ص	س		
٢٧٨	١٣	خصيص	صوابها: خصيصًا
٢٨١	٤	أبو دراج (كذا)	صوابها: ابن دراج وهو أبو سعيد عثمان بن دراج الطفيلي صاحب نوادر في التطفيل عجيبة
٢٨١	١٢	ينخمس (كذا)	صوابها: يخمّس
٢٨٢	١	كاسب (كذا)	صوابها: كاسبًا
٢٨٢	٥	منه (كذا)	صوابها: معه
٢٨٣	٣	جدير (كذا)	هذه كلمة محرفة، ويريد بها نباتًا كالفقع والكمأة مما يوصف بالحقارة
٢٨٦	٢٠	أسنانا	صوابها: إنسانًا
٢٨٦	٢١	يعزل (كذا)	صوابها: يعذُل، بالذال
٢٨٧	٥	واحدة (كذا)	صوابها: واجدةً، بالجيم
٢٨٧	١١	دفاريك	صوابها: ذَفَاريك، بالذال المعجمة، جمع ذِفْرة وهي من الإنسان من لَدُن المَقَذِّ إلىٰ نصف القذال
٢٨٧	٢٠	أتطنز.. إلخ (كذا)	صواب العبارة: أأتطيَّر-علىٰ من أحِبُّ- بالخرس
٢٨٨	١٥	دواء العذارىٰ (كذا)	الصواب: دَوَار العَذارىٰ، ودَوَار صنمٌ كان من نسك الجاهلية ينصبونه ويطوفون حوله، يقول بشار: هي للعذارىٰ كهذا الصنم عند نساء الجاهلية إكرامًا وعزة. ويقول امرؤ القيس: فعنَّ لنا سَرْبٌ كأنَّ نِعَاجَه عَذَارىٰ دوَارٍ في مُلاءٍ مُذَيَّلِ

ص	س		
٢٨٨	١٦	عمرو بن العلاء (كذا)	صوابها: عمر بن العلاء
٢٨٨	١٨	بِسَم (كذا)	صوابها: بِدَمْ
٢٨٩	٣	كالمضرجي الفدم (كذا)	صوابها: كالمُضْرَحِيِّ القَرِم، بالحاء في الأولىٰ، والقاف بعدها راء في الثانية. والمضرحي: ما طال جناحاه من النسور وكان كريمًا عتيق النِّجار، والقَرِمُ من قولهم: قرم إلىٰ اللحم قَرَمًا اشتدت به شهوته.
٢٨٩	١٣	شجاعًا (كذا)	لعل الصفة التي يجب أن تقع هنا «شاعرًا»؛ فإن بشارًا عرف بالشعر قبل المنثور والمزدوج وغيره.
٢٨٩	١٦	ثم عدا	صوابها: ثم غدا، بالغين المعجمة
٢٨٩	١٩	بدت بخد (كذا)	الرواية: صَدَّت بِخَدٍّ
٢٨٩	٢٠	وساحب.. إلخ (كذا)	صواب إنشاده: وصاحب كالدُّمَّل المُمِدِّ
٢٨٩	٢١	وما درىٰ.. إلخ (كذا)	في البيان والتبيين: وما وراء رغبتي من زهد
٢٩٠	٢	أبا المكد	صوابها: أبا المِلَدِّ، باللام
٢٩٠	١٣	خرج من مكة (كذا)	الصواب: «خرج إلىٰ مكة» يعني للحج، فكيف يضحِّي عندهم ببغداد وقد عزم الحج
٢٩٠	١٨	زهقت (كذا)	الصواب: زَلقت
٢٩١	١	إليك	الصواب: لك

ص	س		
٢٩٢	١٣	مساعدًا	الصواب: مساعد
٢٩٢	١٤	حباقة.. إلخ	لعل صواب العبارة: «حُبَاقَة مَقْرُون بنُثَالِه، فلو أمسك لترجّيتُ، ولو أفردَ لتعَزّيت»، والحُبَاق ضُرَاط الدّوابّ، ونَثَل الفرسُ وغيره يَنْثُل راثَ، ولم يذكر أصحاب اللغة الاسم منه، وعندي أنه يدخل في قولهم: بَصق يبصق فهو البُصَاق، وتَفَل يَتْفُل فهو التفال، وغيرها كثير
٢٩٢	١٦	داؤه (كذا)	الصواب: دَاوِه
٢٩٣	١	يسب (كذا)	الصواب: يَسْلُب
٢٩٥	١	نضا... نبذوا (كذا)	صوابها: نِضْوًا.. شَدُّوا
٢٩٥	٤	متأخر .. متقدم	صوابها: متأخِّرٌ.. مُتَقدَّم
٢٩٥	٢٠	بأبي.. إلخ (كذا)	لعل صوابه: بأبي مَنْ بكفِّهِ بُرءُ دائي من الدَّنَفْ
٢٩٦	٣	مجنّبا	صوابها: مَحنَّبا، بالحاء، من الحَنب والتحنيب وهو احديدابٌ واعوجاج غير بيّنٍ في وظيفَيْ الفرس، وهو من صفة الفرس الشديد
٢٩٦	٥	قوله مهاوش (كذا)	لعلها: حوله تَهارُشٌ
٢٩٦	٧	إذ حللته (كذا)	الصواب: إذ جَلّلْته. وهذه القصيدة فيها تحريف وتصحيف، ولم نجدها بعد
٢٩٩	٢	لولا أخاف.. (كذا)	صواب العبارة: لولا أني أخاف أن أشقَّ...

ص	س		
٢٩٩	١٤	فأتاه جماعة من القبائل (كذا)	صواب العبارة: فأتىٰ بجماعة من القبائل
٢٩٩	٢٠	الوصيدة.. إلخ	هذه لفظة مصحفة، ولعله يعني القديمة البالية. وقوله: «فأتاه رجلي» الصواب «رَجُلٌ»
٣٠١	٣	نمام (كذا)	لعلها: ثمام، وهو نبت دقيق
٣٠١	٤	وضلوع السلو.. إلخ	لعلها: الشلْو، وهو الجسد أو بقيته. وقوله: «نبع وثمام» صوابه: نبع وبَشام، وذلك لأنه يذكر الضلوع وهي أعواد من عظم، فذكر النَّبع وهو الشجر الذي تتخذ منه القسِّي، ثم يذكر البَشام وهو شجرٌ طيب الريح تتخذ أعوادُه مساويك
٣٠١	٥	نعام	لعل الصواب: ثَغَام، وهو نبات جُمَّاحَتُه بيضاء مثل هامة الشيخ، وهو من نبات البادية، ويكثر بنجد. والبيت الخامس من هذه القصيدة يتعلق بأبيات حذفها الحصري ولا بد؛ فإن العطف لا يستقيم علىٰ ما قبله.
٣٠١	١٣	محمد بن البعيث	هذا من غلط الحصري؛ فإن الأبيات لكميت بن زيد يمدح بها محمد بن سليمان الهاشمي

ص	س		
٣٠١	١٧	ألفي.. إلخ	صواب إنشاده: تلقي الأمان علىٰ حياص محمّد ثَولاءُ مخْرَفَةٌ وذئبٌ أطلَسُ لاذي تخافُ ولا لهذا جُرأةٌ تُهْدَىٰ الرّعيّةُ ما استقام الرَّيسُ والثولاء: النعجة التي بها ثوَل، وهو جنونٌ يصيب الشاة فلا تتبع الغنم وتستدبر في مرتعها، والمخرفة: التي معها خروف يتبعها. وقوله «لاذي» إشارة إلىٰ الثولاء، «ولا لهذا» إشارة إلىٰ الذئب، أي ليس له جرأة علىٰ أكلها مع شدة جوعه، ضرب ذلك مثلًا لعدله وإنصافه وإخافته الظالم ونصرته المظلوم، حتىٰ إنه ليشرب الذئب والشاة من ماء واحد، وقوله: «تُهدىٰ الرعية ما استقام الرَّيس» أي إذا استقام رئيسهم المدبر لأمورهم صلحت أحوالهم باقتدائهم به. هذا من كلام ابن برّي «لسان» مادة (رأس).
٣٠١	٢٢	متملق (كذا)	لعل صواب إنشاده: لا العاتقُ التّيّاح يمنَعُ هاربًا في البُعد منك ولا البِنَاء الأشوَسُ والعاتق: الفرس السابِق الجواد، والتّياح: الذي يعترض في جريته نشاطًا، والأشوس من الناس: الطويل والمتكبر. وهو متقول. ولم أجد البيت في مصدر من المصادر

ص	س		
٣٠٢	٣	الكلىٰ (كذا)	صوابها: الطُّلَىٰ، وهي الأعناق
٣٠٢	٦	خاذل (كذا)	لعلها: حارب؛ للمقابلة بينها وبين قوله: سالمة
٣٠٢	١٠	خدي لي... إلخ (كذا)	صواب إنشاده: خِدِي بي ابتلاك الله بالشوق والهوىٰ وشاقَك تَحْنَانُ الحمام المُغَرِّدِ
٣٠٢	٢٣	لا تقوىٰ	صوابها: تغوىٰ
٣٠٣	٩	تبدو	صوابها: يبدو
٣٠٣	١٠	عليها.. (كذا)	صواب إنشاده: عليها كَرَدْعِ الزعفران يشبّه. والرَّدْع: أثرُ الزعفران أو الخَلُوق علىٰ الجسد، وهذه أبياتٌ جيدة فيها تصحيف، وأنا أذكرها، ولكني أنسيت مكانها من كتبي
٣٠٤	٢	البلغم..؟ (كذا)	لعلها: التعلم يُنشئهم وهم يعلنوني
٣٠٩	٩	كلف	صوابها: كلبٌ
٣٠٩	١٩	إذا هزل.. إلخ	لعل صواب العبارة: الذي إذا هزل أغرب، وإذا جَدَّ أطرب

آخر المستدرك

«لباب الآداب» لأسامة بن منقذ[1]

١ - أبيات عامر بن الطفيل[2].

قال عامر بن الطفيل[3]:

سَلِ الخَيْلَ عَنِّي: هَلْ عَلاهَا إذَا عَدَتْ ... إلىٰ الرَّوْعِ بِالأبطَالِ مِنْ فَارِسٍ مِثْلي؟[4]

وهَـلْ كَرَّهَـا كَـرِّي إذَا هِـيَ أَقْبَلَـتْ ... تَوَاخَـطُ بالأبطَالِ فِي الْحَلَقِ الْجَدْلِ؟[5]

---

(١) الطبعة الأولى سنة ١٣٥٤ - ١٩٣٥، مكتبة لويس سركيس، المطبعة الرحمانية. وقد شارك الأستاذ محمود شاكر في تصحيح وشرح طائفة كبيرة من أبيات الكتاب، ونسبها إليه محققه أخوه الشيخ أحمد شاكر، وقال في مقدمته (ص ٥): «وأعانني في تصحيحه شقيقي الأصغر السيد محمود محمد شاكر، وكثيرًا ما سهر الليالي في تحقيق بيت شعر أو تصويب جملة»، وكان عمره يومئذ نحو ست وعشرين سنة.

(٢) «لباب الآداب» (٢٠٠ - ٢٠١). قال الشيخ أحمد شاكر: «وأبيات عامر الآتية صحَّحها وشرحها أخي السيد محمود محمد شاكر». وقد أثبتُّ حواشيها كما وردت في الأصل، وضبطتُ الأبيات كما ضُبِطت فيه.

(٣) هذه الأبيات لم نجد لها أصلاً في ديوان عامر بن الطفيل المطبوع في أوربا ولا في غيره من الكتب، وقد اجتهدنا في ضبطها وتصحيحها وردِّ تصحيفها إلى صواب الرأي، ولذلك عمدنا إلى شرح كثير من ألفاظها.

(٤) في الأصل: «غدت» بالمعجمة، وفي (ح): «عدت» بالمهملة، وهو الصواب.

(٥) في الأصلين: «نواحط» بالحاء المهملة، ولعل الصواب ما أثبتناه. ونصُّ اللغة: يقال في السير: وخط يخط إذا أسرع. و«الحلق» بفتحتين: جمع حلقة، وهي ما ينسج منها الدرع. وفي الأصلين: «الجزل» بالزاي، وهو خطأ. يقال: درع جدلاء ومجدولة وجدلٌ محكمة النسج. وهذا البيت خيرٌ في الاستشهاد من بيت أبي ذؤيب الذي استشهد به أصحاب اللغة لهذا المعنى، وهو قوله:

فهنَّ كعقبان الشريح جَوَانِحٌ ... وهم فوقها مُسْتَلِئِمُو حَلَقَ الجَدْلِ

إِذَا حَالَ مِنهَا عَارِضٌ دُونَ عَارِضٍ كثيفٍ وَأبْدَتْ حَدَّ أَنْيَابِهَا الْعُصْلِ[1]

كَشَفْتُ قِنَاعَ المَوْتِ بَيْني و بَيْنَهَا وأشْلَيْتُهَا حَتَّىٰ تَقُومَ علىٰ رِجْلِ[2]

وَأَبْسَسْتُ إبْسَاسًا بِها وَامْتَرَيْتُهَا فَدَرَّتْ غِزَارًا بالتَّلِيلِ وَبالنَّبْلِ[3]

وَكَانَ الذي يَلْقَىٰ الرَّدَىٰ مَنْ لَقِيتُهُ وَمَا أَشْبَهَ الآجَالَ مِنْ فَارِسٍ قبْلي

أَلَسْتُ بِفَيْفِ الرِّيحِ أوَّلَ مُقْدِمٍ عَلَىٰ رَحَيَيْ مَوْتٍ مَرَاجِلُهَا تَغْلِي؟![4]

هَتَكْتُ بِنَصْلِ السَّيْفِ أَقْرَابَ مُسْهِرٍ ولا شَيءَ أَسْنَىٰ بالْكِرَامِ مِنَ الْقَتْلِ[5]

* * *

---

(١) في (ح): «العضل» بالمعجمة، وهو خطأ. «العارض» هنا ما سدَّ الأفق من الخيل لكثرته، شبَّهه بعارض السحاب والجراد. والضمير في قوله: «أبدت» يعني الحرب، شبَّهها بالوحش، ولذلك جعل لها أنيابًا عصلًا. والأعصل من الأنياب: الملتوي المعوجُّ، وهو أشدُّ الأنياب وأوثقها.

(٢) يقال: «أشلى الشاة والكلبَ وغيرهما» دعاها بأسمائها لتأتيه. واعلم أن سياق اللفظ في هذا الشعر من أحسن السياق.

(٣) هذا البيت ساقط من (ح). والإبساس أن يقول للناقة: «بُسّ بُسّ» بالضمِّ والتشديد، وهو الصويت الذي تسكن به الناقة عند الحلب، ويقال ذلك لغير الإبلِ أيضًا. ومرى الناقة وامتراها: مسح ضرعها لتدرَّ من لبنها. والتليل: هكذا بالأصلين. ونصُّ اللغة: رمحٌ «متلٌّ» قويٌّ منتصبٌ شديد يتلُّ به أي يصرع، والتليل: الصريع، ولعله سمى الرمحَ بما يكون منه.

(٤) في الأصلين: «ثقيف الريح». و«فيف الريح» موضعٌ بالدهناء، أغار فيه على بني عامر بن صعصعة قوم عامر بن الطفيل بنو الحارث بن كعب من مذحج وقبائل من مراد وجعف وزبيد وخثعم، واقتتلوا. وفي ذلك اليوم أصيبت عين عامر بن الطفيل، وفيها يقول:

لعمري وما عمــري علــيَّ بهيِّن لقد شانَ حُرَّ الوجْه طعــنة مُسْهِرِ
فبئْس الفتى إن كنت أعور عاقرًا جَبانًا فما عُذْري لدى كلِّ مَحْضَرِ

وقوله: «رَحَيَي» مثنى رحا، ورحا الموت: معظمه، وأنا أشكُّ في هذه اللفظة.

(٥) «الأقراب»: جمع «قُرْب» بضمٍّ فسكون، وهو الخاصرة من لدن الشاكلة إلى مراقِّ البطن. و«مسهر» هو مسهر بن يزيد الحارثي الذي أصاب عين عامر يوم فيف الريح كما ذكرنا. وفي الأصلين: «أسنا».

٢ - أبيات مالك بن حريم الهمداني[١].

وقال مَالكُ بن حَرِيم الْهَمْدَاني[٢] لِعَمْرِو بن مَعْدِي [كرب][٣]:

يَا عَمْرُو لَوْ أَبْصَرْتَنِي لَرَفَوْتَنِي فِي الْخَيْلِ رَفْوَا[٤]

لَلَقِيتَ مِنِّي عِرْبَدًا يَقْطُو إِلَىٰ الْفُرْسَانِ قَطْوَا[٥]

لَمَّا رَأَيْتُ نِسَاءَنَا يَدْخُلْنَ تَحْتَ البَيْتِ حَبْوَا[٦]

وَسَمِعْتُ زَجْرَ الْخَيْلِ فِي جَوِّ الظَلَامِ هَبِي وَهَبْوَا[٧]

فِي فَيْلَقٍ مَلْمُومَةٍ تَعْطُو عَلَىٰ النَّجَدَاتِ عَطْوَا[٨]

أَقْبَلْتُ أَفْلِي بِالْحُسَامِ مَعًا رُؤُوسَ الْقَوْمِ فَلْوَا[٩]

---

(١) «لباب الآداب» (٢٠٣ - ٢٠٤). وقد أثبتُّ حواشي الأبيات كما وردت في الأصل، وضبطتُها كما ضُبِطت فيه.

(٢) حريم: بفتح الحاء المهملة وكسر الراء. والهمداني: بإسكان الميم وبالدال المهملة. وفي الأصل بالذال المعجمة، وهو خطأ. ومالك هذا من لصوص العرب.

(٣) الزيادة من (ح). وهذه الأبيات لم أجدها في شيء مما بين يدي من المصادر، وقد صححها أخي السيد محمود محمد شاكر.

(٤) هكذا بالأصل، وأظنها: «رتوتني بالخيل رتوا»، يريد: شدَّ من أمره وقوَّاه وأعانه.

(٥) العربد: الحية الخفيفة والضئيلة، وهي أخبث الحيَّات عضَّة. والقطو: تقارب الخطو من النشاط والخفة.

(٦) في الأصلين: «هبا»، والصواب ما أثبتناه، وهو زجر للفرس، أي توسعي وتباعدي. ولم نجد «هبوا»، ولعلها من هذا المعنى في زجر الخيل.

(٧) الفيلق: الكتيبة العظيمة. وفي الأصلين: «ملهومة» بالهاء، وهو خطأ، والملمومة والململمة: المجتمعة الكثيفة. والنجدات: الشدائد، جمع نجدة. وقوله: «أعطو على النجدات عطوا» لم نفهمه، ولعله «أغطو على النجدات غطوا» بالغين المعجمة، من قولهم في نصِّ اللغة: وكل شيء ارتفع وطال على شيء فقد غطا عليه، ومنه: غطا عليهم البلاء، أي: أصابهم وشملهم فغلبهم.

(٨) فلى الرأس بالسيف فليًا، وفلا فلوًا: ضربه وقطعه.

وَالْبِيضُ تَلْمَعُ بَيْنَنَا تَعْصُو بِهَا الْفُرْسَانُ عَصْوَا[1]

* * *

٣- (ص ٢٦٤ - ٢٦٩)[2].

عن الوليد بن هشام قال: وفد زيادٌ الأعجمُ علىٰ حبيب بن المهلَّب، وهو بخراسان، فبينا هو وحبيبٌ ذاتَ عشيَّةٍ يشربان، إذ سمع زيادٌ حمامةً تغنِّي علىٰ شجرة كانت في دار حبيب بن المهلب، فقال:

تَغَنَّيْ أنتِ في ذِمَمِي وجاري بأنْ لا يَذْعَرُوكِ ولن تُضَارِي[1]
إذا غنَّيتِني وطربتُ يومًا ذكرتُ أحبَّتي وذكرتُ داري
فإمّا يقتلوكِ طلبتُ ثأرًا بقتلهمُ لأنَّكِ في جِوَاري

فأخذ حبيبٌ سهمًا فرماها فأنفذها. فقال زياد: يا حبيب، قتلتَ جاري، بيني وبينك المهلَّب. فاختصما الىٰ المهلَّب، فقال المهلَّب: زيادٌ لا يُرَوَّع جارُه، قد لَزِمَتْكَ الدِّيَة، ألفُ دينار! فقال حبيبٌ: إنما كنتُ ألعبُ، فقال المهلَّب: أبو أمامة لا يُرَوَّعُ جارُه، ادفعها إليه! فدفع إليه ألفَ دينار. فقال زيادٌ:

---

(١) عصا بسيفه يعصو: أخذه أخذ العصا فضرب به رؤوس القوم وعاث فيهم عيثًا.

(٢) قال الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على «لباب الآداب» (٢٦٩): «الأشعار في هذا الفصل (في الأصل: الفصلين، سبق قلم) والفصل قبله صحَّحها وشرحها أخي السيد محمود محمد شاكر». وقد أثبتُّ الأبيات الواردة في هذين الفصلين (٢٦٤ - ٢٦٩، ٢٧٥ - ٢٧٨) وحواشيها كما وردت في الأصل، وضبطتُ الأبيات كما ضُبِطت فيه، كما فعلتُ بأبيات عامر بن الطفيل ومالك بن حريم الهمداني المتقدمة.

(٣) روى هذه القصة صاحب «الأغاني» (ج ١٤ ص ١٠٠) بما فيها من الشعر، مع خلاف كثير في الرواية لم نر للإطالة بذكره فائدة.

فلِلَّــهِ عَيْنَــا مــن رأىٰ كقَضِيَّــةٍ قضىٰ لي بها شيخُ العراقِ المُهَلَّبُ
قضــىٰ ألــفَ دينــارٍ لجــارٍ أَجَرْتُــه من الطَّيرِ حَضَّانٍ علىٰ البَيْضِ يَنْعَبُ
رمــاهُ حبيــبُ بــنُ المُهَلَّــب رميــةً فأنفذَه بالسَّهمِ والشمسُ تَغْرُبُ
فألزَمَــه عَقْــلَ القتيــلِ ابــنُ حُــرَّةٍ فقــال حبيــبٌ: «إنَّمــا كنــتُ ألعــبُ»
فقــال: «زيــادٌ لا يُــرَوَّعُ جــاره، بلىٰ! جارُهُ جارِي وَمِلْ جَارِ أقربُ»[1]

قال: فبلغت القضيةُ الحجَّاج، فقال: ما أخطأتِ العربُ حيث جَعَلَت المهلَّب رَجُلَها.

وقال مِسْكينٌ الدَّارمي:

نــارِي ونــارُ الجــارِ واحــدةٌ وإليــه قبلــي يُنْــزَلُ القِــدْرُ[2]
مــا ضَــرَّ جــارًا لــي أُجَــاوِرُه ألَّا يكـــونَ لِبَابِــه سِــتْرُ
أعمــىٰ إذا مــا جــارتي خَرَجَــتْ حتَّــىٰ يُــوَارِي جــارتي الخِــدْرُ

وقال مروانُ بن أبي حفصة:

بَنُــو مطــرٍ يــومَ اللِّقــاءِ كأنَّهــم أُسُــودٌ لهــا في بَطْــنِ خَفَّــانَ أَشْــبُلُ
هُــمُ يمنعــونَ الجــارَ حتَّــىٰ كأنَّمــا لجارِهِــمُ بيــن السِّــمَاكَيْنِ مَنْــزِلُ
لَهَامِيمُ في الإسلام سَادُوا ولـم يكـن كأَوَّلِهِــمْ فـي الجاهليَّــةِ أَوَّلُ

(١) هكذا بالأصل، أصلها «ومن الجار». ورواية «الأغاني» لهذا الشطر: «وجارة جاري مثل جاري وأقرب»، وهي أوفق.
(٢) روى هذه الأبيات الخرائطي في «مكارم الأخلاق» (ص ٤٢)، ونسبها لحاتم، وليس يصح. وروى القصيدة الشريف في أماليه (ج ٢ص ١٢٢-١٢٣). وروى الأبيات ابن قتيبة في «الشعر والشعراء» (ص ٣٤٨) (أوربا).

وقال حاتم الطَّائي -وجاور في بني بدر زمن احْتَرَبَتْ جديلة وسعد، وكان ذلك في زمان الفساد-:

إنْ كنــتِ لا تَرْضَيْــنَ عِيشَــتَنا ... هــاتي فَحُلِّــي في بَنــي بَــدْرِ[1]

جاوَرْتُهُــمْ زمــنَ الفَسَــاد فنِعْــ ... ـمَ الحَـيُّ في العَوْصَـاءِ واليُسْـرِ[2]

فَسُــقِيتُ بالمــاءِ النَّميـرِ وَلَــمْ ... أُتْــرَكْ أُلَاطِـمْ حَمْــأَةَ الجَفْــرِ[3]

وَدُعِيــتُ في أُولــىٰ النَّـدِيِّ وَلَـمْ ... يُنْظَــرْ إلــيَّ بِأَعْيُــنٍ خُــزْرِ

الخَالِطِيــنَ نَحِيتَهُــمْ بنُضَارِهِــمْ ... وذَوي الغِنىٰ مِنهـمْ بِذِي الفَقْرِ[4]

وقال مسكين الدارمي وجاور في بني حَمَّان:

إذا كنتُ في حَمَّـانَ في عُقْـرِ دارِهِمْ ... فَلَسْـتُ أبالـي مَنْ أَبَـرَّ ومَنْ فَجَرْ[5]

إذا بـاتَ جـارُ القـومِ عنـدَ مَضِيعَـةٍ ... فَجَـارُ بني حَمَّـانَ بَـاتَ مـعَ القَمَرْ

تبيتُ رِمَـاحُ الخَـطِّ حَـوْلَ بُيوتِهمْ ... كأنَّ الوُعُـولَ ثَـمَّ بِتْـنَ مـعَ البَقَـرْ

إذا فَزِعُـوا جَـاءوا بهـا غيـرَ عُـزَّلٍ ... فَــلا أَجَــلٌ وَاقٍ وكُلُّ دَمٍ هَــدَرْ

---

(١) هذه الأبيات في ديوان حاتم (أوربا) (ص ٣٦)، وفي «أمالي القالي» (ج ٢ص ١٦٩) مع اختلاف يسير في الرواية.

(٢) «زمن الفساد»: حربٌ كانت لهم. و«العوصاء»: الشدة.

(٣) رواية الديوان: «أواطس»، ورواية «الأمالي» عن أبي حاتم: «ألاطس»، ومعناهما: ألاطم. والجفر: البئر التي لم تبن ولم يتم طيها.

(٤) قبل هذا البيت:

الضَّارِبينَ لدى أعنَّتِهِمْ ... والطَّاعنينَ وخيلُهُمْ تَجْرِي

«والخالطين ...» إلخ. و«النحيت»: الخامل الذكر. و«النضار»: الرفيع. وقال أبو علي القالي: «إن الاشتقاق يوجب أن يكون النحيت الذي ينال ماله وعرضه كل أحد؛ لأنه لا دفاع عنده، فكأنه منحوت».

(٥) حمان: قبيلة.

وإنْ قُتِلُوا طابُوا وطابَتْ قبورُهم وإنْ ظَفِرُوا فالجِدُّ عادتُه الظَّفَرْ

وقال حاتم الطائي:

وإنِّي لَأَقْرِي الضَّيفَ قبلَ سُؤالِه وأَطْعنُ قُدْمًا وَالأسِنَّةُ تَرْعُفُ[1]

وإنِّي لَأخْزَىٰ أنْ تُرَىٰ بيَ بِطْنَةٌ وجَارَاتُ بيتي طَاوِياتٌ وعُجَّفُ[2]

وقالت الخنساءُ في أخيها:

مثلُ الرُّدَيْنِيِّ لَمْ تَنفَدْ شَبِيبَتُهُ كأنَّه تحتَ طَيِّ البَرْدِ أُسْوَارُ[3]

لَمْ تَرَهُ[4] جارةٌ يَمْشِي بِسَاحَتِها لِرِيبَةٍ حِينَ يُخْلِي بيتَه الجَارُ

وقال رجل من بني عمرو بن حمزة الأسلمي:

إذا افْتَقَرتْ نَفْسِي رَدَدْتُ افتِقَارَها عليها فلا يَبْدُو لها أبدًا عُسْرُ

وأُغْضِي إذَا ما أَبْرَزَ الخِدْرُ جَارَتِي لِحَاجَتِها حتَّىٰ يُوَارِيَها الخِدْرُ

وقال الفَرَزْدَق:

إنَّ النَّدىٰ في بني ذِبْيَانَ قد عَلِمُوا والمجدُ في آلِ مَنْظُورِ بنِ سَيَّارِ

---

(١) الشعر في ديوانه (ص ٤١). وقوله: «قدمًا» أصلها بضمتين، يقال في الحرب: «مشى قُدُمًا» إذا مضى وتقدم وطاعن. «ترعف»: تقطر دمًا.

(٢) رواية الديوان: «ونحف». وقوله: «عجف» لم تنص عليه كتب اللغة التي بيدنا، وهو من قولهم: «عجفاء» أي مهزولة، وجمعها «عجاف»، وأما «عجَّف» فكأنه جمع «عاجف» كراكع وركَّع. ورواية الديوان التي فيها «نحَّف» لم ترد في كتب اللغة، ولعلها جمع «نحيفة» كقولهم «خريدة وخرَّد» على غير قياس.

(٣) ديوان الخنساء (ص ٨٢). «الأسوار»: من حلي المرأة، وتريد أنه نحيف ضامر، وذلك مما كانوا يتمدحون به.

(٤) في (ح): «لم تلقه»، وما هنا هو الموافق للديوان.

المَاطِرِينَ بأيديهمْ نَدًىٰ ودَمًا ... وكُلُّ غيثٍ مِنَ الوَسْمِيِّ جَرَّارِ
تَزُورُ جَارَاتِهِم وَهْنًا هَدِيَّتُهُمْ ... ومَا فَتَاهُمْ لهَا وَهْنًا بِزَوَّارِ
تَرْضَىٰ قُرَيْشٌ بهِمْ صِهْرًا لِأنفُسِهِمْ ... وَهُمْ رِضَىٰ لِبَنِي أُخْتٍ وأَصْهَارِ

وقال آخر:

إنِّي حَمِدْتُ بَنِي شَيْبَانَ إذ خَمَدَتْ ... نِيرانُ قَوْمِي فشَبَّتْ فِيهِمُ النَّارُ
وَمِنْ تكَرُّمِهِمْ في المَحْلِ أَنَّهُمُ ... لا يَعْلَمُ الجارُ فيهِمُ أَنَّه جارُ
حتىٰ يكونَ عزيزًا في نُفُوسِهِمُ ... أو أنْ يَبِينَ حَمِيدًا وَهْوَ مُخْتَارُ

وقال الحطيئة[1]:

لَعَمْرُكَ مَا زِيدَتْ لَبُونِي وَلَا قَلَتْ[2] ... مَسَاكِنُها مِنْ نَهْشَلٍ إذْ تَوَلَّتِ
لَهَا ما اسْتَحَبَّتْ مِن مَسَاكِنِ نَهْشَلٍ ... وتَسْرَحُ في حَافَاتِهَا حيثُ حَلَّتِ
ويَمْنَعُهَا مِن أَنْ تُضَامَ فَوَارِسٌ ... كِرَامٌ إذا الأُخْرَىٰ مِن الرَّوْعِ شُلَّتِ
ولو بَلَغَتْ فوقَ السِّمَاكِ قَبِيلَةٌ ... لَزَادَتْ عليها نَهْشَلٌ وتَعَلَّتِ

وقال مربع بن وعوعة[3] الكِلَابي، وجَاوَرَ كُلَيْبَ بنَ يَرْبُوعٍ:

جزىٰ اللهُ خيرًا -والجزاءُ بِكَفِّه- ... كُلَيْبَ بنَ يَرْبُوعٍ وزَادَهُمُ حَمْدَا
هُمُ خَلَطُونَا بالنُّفُوسِ وأَلْجَمُوا ... إلىٰ نَصْرِ مَوْلاهُمْ مُسَوَّمَةً جُرْدَا
علىٰ حِينِ خَلَّتْنَا سُلَيْمٌ وعامرٌ ... بِجَرْدَاءَ زادَتْنا علىٰ جُهْدِنَا جُهْدَا

(١) لم أجد الأبيات في ديوان الحطيئة من رواية السكري.
(٢) بفتح القاف واللام. وضبطت في الأصل بتشديد اللام، وهو خطأ.
(٣) لم أجد الشاعر فيما بين يدي من الكتب.

وقال عُبَيْد بنُ حُصَين الراعي، وجاوَرَ بني عَدِيّ بن جُنْدبٍ فأَحْمَدَهُمْ:

إذا كنتَ مُجْتَازًا تَمِيمًا لِذِمَّةٍ فَمَسِّكْ بِحَبْلٍ مِنْ عَدِيٍّ بنِ جُنْدَبِ

هُمُ كاهِلُ الدَّهْرِ الذي تتَّقِي بهِ وَمِنْكَبُـه المَرْجُـوُّ أكـرمُ منِكَـبِ

إذَا مَنَعُوا لم يُرْجَ شيءٌ وراءهُمْ وإنْ رَكِبَتْ حَرْبٌ بِهِمْ كُلَّ مَرْكَبِ

وقال أيضًا فيهم:

إذا انْسَلَخَ الشَّهْرُ الحَرامُ فوَدِّعِي بلادَ تَمِيمٍ وانْصُرِي أرضَ عَامرِ[1]

وأَثْنِي علىٰ الحَيَّيْنِ عَمرٍو ومالكٍ ثنـاءً يُوَافِيهـمْ بنَجْـدٍ وغَائـرِ

كِرَامٌ إذا تَلْقَاهُمُ عَن جَنَابَةٍ أَعِفَّاءُ عَن بَيْتِ الغَرِيبِ المُجَاوِرِ[2]

وقال آخر[3]:

جزىٰ اللهُ عنَّا جعفرًا حينَ أَزْلَقَتْ بِنَـا نَعْلُنَـا في الوَاطِئِيـنَ فَزَلَّـتِ

هُمُ خَلَطُونَا بالنُّفُوسِ وأَرْفَؤُوا إلـىٰ حُجُرَاتٍ أَدْفَأَتْ وأَكَنَّـتِ[4]

أَبَوْا أَنْ يَمَلُّونَا وَلَوْ أَنَّ أُمَّنَا تُلاقِي الـذي يَلْقَـوْنَ مِنَّا لَمَلَّتِ[5]

* * *

---

(١) هكذا ورد، ولعل صواب الرواية «وانظري» بالظاء المعجمة، يعني التوجه والقصد بعد النظر.

(٢) «الجنابة» ضد القرابة، يريد عن بعد وغربة. وفي الأصلين: «جناية» بالياء المثناة، وهو تصحيف.

(٣) الشعر لطفيل الغنوي (ديوانه ص ٥٧)، وكتاب «الأم» للشافعي (ج ١ ص ١٤٤).

(٤) الرواية المشهورة: «وألجؤوا» ومعنى قوله: «أرفؤوا» من رفأه يرفؤه: سكنه وهدأه.

(٥) الأشعار في هذا الفصل (في الأصل: الفصلين، سبق قلم) والفصل قبله صحَّحها وشرحها أخي السيد محمود محمد شاكر. (وُضِع رقمُ الحاشية في الأصل هنا، وحقه أن يوضع على كلمة «اللسان» من عنوان الفصل في السطر الذي يليه).

٤- (ص: ٢٧٥ - ٢٧٨).

وقال الشاعر:

واحْذَرْ لسانَكَ لا تقولُ فتبْتَلىٰ ... إنَّ البَلاءَ مُوَكَّلٌ بالمَنْطِقِ

وقال إبراهيمُ بن هَرْمَة[1]:

أَرَىٰ النَّاسَ في أمرٍ سَحِيلٍ فَلا تَزَلْ ... علىٰ حذرٍ حتَّىٰ ترىٰ الأمرَ مُبْرَمَا[2]

فإنَّك لا تستطيعُ رَدَّ الذي مضىٰ ... إذا القولُ عن زَلَّاتِه فارَقَ الفَمَا

فكائِنْ ترىٰ مِن وافِرِ العِرْضِ صامتًا ... وآخَرَ أَرْدَىٰ نفسَه إن تكَلَّمَا

وقال آخر:

إن كنتَ تَبْغِي الذي أصبحتَ تُظْهِرُهُ ... فاحْفَظْ لسانَكَ واخْشَ القَالَ والقِيلَا

ما بالُ عبدٍ سِهَامُ الموتِ تَرْشُقُهُ ... يكونُ عن ربِّه بالنَّاسِ مشغولا

كان بكرُ بن عبد الله المُزَنِيُّ رحمه الله يُطِيل الصمتَ ويُنْشِدُ:

لسانُ الفتىٰ سَبْعٌ، عليه شَذَاتُه ... فإلَّا يَزَعْ مِنْ غَرْبِه فَهْوَ آكِلُهْ[3]

ومـا الغِـيُّ إلا منطـقٌ مُتَتَـرِّعٌ ... سـواءٌ عليـهِ حَـقُّ أمـرٍ وباطلُـهْ[1]

---

(١) أبوه هَرْمة -بفتح الهاء وسكون الراء-، وهو من مخضرمي شعراء الدولتين. ويقول أصحاب اللغة: إنه آخر الشعراء الذين يحتج بشعرهم في العربية. وهذه الأبيات قالها حين انصرف عن المدينة، حين خرج محمد بن عبد الله بن حسن، يوصي بها أحد اصحابه من بني مخزوم. «أمالي الزجاجي» (ص ٥).

(٢) «الحبل السحل والسحيل»: الذي يفتل على قوة واحدة، وهذا حبل ضعيف. «والمبرم»: هو الحبل الذي جمع بين مفتولين ففتلا حبلًا واحدًا.

(٣) يقال: «إني لأخشى شذاة فلان» أي شره وشدته وجرأته، وأصله القوة والحدَّة. وقوله: «يزع» من قولهم: «وَزَع الرجل عن هواه» كفَّه، و«الغرب»: الحدَّة، يقال: «في لسانه غرب» أي حدَّة وسفه.

وقال آخر:

سَامِحِ النّاسَ وَدَعْ عِرْ ... ضَكَ وقفًا لِلسَّبيلْ
وأَعِرْ سَمْعَكَ وَقْرًا ... عندَ إكثارِ العَذُولْ
والْزَمِ الصَّمتَ إذا خِفْـ ... ـتَ غيَّاتِ الفُضُولْ[2]
فلُزُومُ الصَّمتِ خيرٌ ... لكَ مِن قَالٍ وقِيلْ

وقال أبو نُواسٍ[3]:

خَلِّ جَنْبَيْكَ لِرَامِ ... وامْضِ عنهُ بسَلامِ
مُتْ بِدَاءِ الصَّمتِ خيرٌ ... لكَ مِن داءِ الكَلَامِ

وقال أبو العتاهية، وتُروىٰ لابنه محمَّد:

قد أفلحَ السَّاكتُ الصَّمُوتُ ... كَلامُ رَاعِي الكَلامِ قُوتُ
ما كلُّ نُطْقٍ له جوابٌ ... جَوابُ ما تَكْرَهُ السُّكوتُ

وقال آخر:

اِنْطقْ مصيبًا بخيرٍ لا تَكُن هَذِرًا ... عَيَّابةً ناطقًا بالفُحْشِ والرِّيَبِ[1]
وكُنْ رَزِينًا طويلَ الصَّمتِ ذا فِكَرٍ ... فإن نطقتَ فلا تُكْثِرْ من الخُطَبِ

---

(١) في الأصل: «متبرع» بالباء الموحدة، والصواب ما أثبتناه. يقال: «تترع إلى الشيء» تسرع، وتترع إلى الناس بالشر، والمترع: الشرير المتسرع إلى ما لا ينبغي له.

(٢) هكذا بالأصل، ولعلها «مغبَّات» جمع مغبَّة وهي عاقبة الشيء. وفي (ح): «بنيات»، ولعلها بالضم ثم الفتح ثم الياء المشددة المفتوحة، وأصلها الطرق المتشعبة عن الجادة، يقال: «ذهبوا في بنيَّات الطريق» يريدون الضلال.

(٣) البيتان مضيا في (ص ٢٧٤)، ولم يذكرا في (ح).

ولا تُجِبْ سائلًا مِن غير تَرْوِيَةٍ ... وبالذي عنهُ لم تُسْأَلْ فلا تُجِبِ[2]

وقال أبو العتاهية[3]:

لا خيـرَ في حَشْـوِ الـكَلا ... مِ إذا اهتديـتَ إلـىٰ عُيُونِـهْ

والصَّمـتُ أجمـلُ بالفتـىٰ ... مِـن منطـقٍ في غيـرِ حِينِـهْ

وقال أُحَيْحَةُ بن الجُلَاح:

والصَّمـتُ أجمـلُ بالفتـىٰ ... مـا لـم يكـن عِـيٌّ يَشِـينُهْ

والقـولُ ذُو خَطَـلٍ إذا ... مـا لـم يكـن لُـبٌّ يُعِينُـهْ

وقال آخر:

تَعَهَّـدْ لسـانَكَ إنَّ اللِّسـانَ ... سـريعٌ إلـىٰ المـرءِ في قَتْلِـهِ

وهـذا اللِّسـانُ بَرِيـدُ الفـؤادِ ... يـدلُّ الرِّجـالَ علـىٰ عَقْلِـهِ

وقال آخر:

أُسْتُرِ العِيَّ ما استطعتَ بصمتٍ ... إنَّ في الصَّمتِ راحةٌ للصَّمُوتِ

واجعلِ الصَّمتَ إن عَيِيتَ جوابًا ... رُبَّ قولٍ جوابُه في السُّكوتِ

وقال آخر:

---

(١) في الأصلين: «هيابة» بالهاء في أوله، ولا معنى له، وما أثبتناه هو سياق الكلام.

(٢) يقال: «روَّيت في الأمر وروَّأت فيه» يهمز ولا يهمز، نظرت فيه وتعقبته وتفكرت فيه متريثًا. والمصدر منها: «تروية وتروئة» ومن هذا «الرَّوِيَّة».

(٣) هي في ديوانه (ص ٢٨٢)، وقد نسبها البحتري في حماسته لصالح بن عبد القدوس، وهو عندنا أوثق، (الحماسة ص ٢٢٩ مطبوعة اليسوعيين). ورواية البيت الأول فيها:

لا تُكْثِرَنْ حَشْوَ الكلا ... مِ إذا اهتديتَ إلى عيونِهْ

متىٰ تُطْبِقْ علىٰ شَفتيكَ تَسْلَمْ   وإنْ تَفْتَحْهُمـا فقُـلِ الصَّوابـا

فما أحدٌ يُطِيلُ الصَّمتَ إلا   سـيأمَنُ أن يُـذَمَّ وأن يُعَابـا

فَقُلْ خيرًا أو اسْكُتْ عن كثيرٍ   مـن القـولِ المُحِـلِّ بـكَ العِقَابا

وقال عبد الله بن معاوية بن جعفر رحمهم الله:

أيُّها المرءُ لا تقولنَّ قولًا   لستَ تدري ماذا يَعِيبُكَ منهُ[1]

والْزَمِ الصَّمتَ إنَّ في الصَّمتِ حُكْمًا   وإذا أنتَ قلتَ قولًا فَزِنْهُ

وإذا القومُ ألغَطُوا في كلامٍ   ليسَ تُعْنَىٰ بشأنِه فَالْهُ عنهُ

وقال آخر:

إن السُّكوتَ سلامةٌ ولربَّما   زَرَعَ الكلامُ عداوةً وضِرَارا

فلئِنْ نَدِمْتَ علىٰ سُكوتِكَ مرَّةً   فلتندمنَّ علىٰ الكلامِ مِرارا

* * *

(١) في الأصل: «ما يعيبك»، وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه من رواية (ح).

٥- (ص: ٣٢١ - ٣٢٥)[1].

وقال حاتم الطائي[2]:

تَحَلَّمْ عن الأَدْنَيْنِ واستَبْقِ وُدَّهُمْ	ولـن تستطيعَ الحِلْـمَ حتَّىٰ تَحَلَّمـا
وعَوْراءَ قد أعرضتُ عنها فلم تَضِرْ	وذِي أَوَدٍ قَوَّمتُـه فتَقوَّمـا
وأغفرُ عوراءَ الكريمِ اصطِنَاعَهُ	وأُعْـرِضُ عـن ذاتِ اللَّئيـمِ تكَرُّما[3]

وقال آخر[4]:

وإني علىٰ أشياءَ منكَ تَرِيبُني	قديمًا لَذُو صَفْحٍ علىٰ ذاكَ مُجْمِلُ
إذا سُؤْتَني يومًا صَفَحْتُ إلىٰ غدٍ	ليُعْقِبَ يومًا[5] منكَ آخَرُ مُقْبِلُ

وقال آخر:

سأتركُ ما بيني وبينكَ واقفًا	علىٰ حالِه[6] بينَ المَوَدَّة والهَجْرِ
وأنتَحِلُ الصَّبر الجميلَ تَجَلُّدًا	وإن كنتُ محرومًا نصيبي من الأجرِ

---

(١) قال الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على «لباب الآداب» (٣٢٥): «والأبيات في هذا الفصل صححها وشرحها أخي السيد محمود محمد شاكر». وقد أثبتُّ الأبيات الواردة في هذا الفصل وحواشيها كما وردت في الأصل، وضبطتُ الأبيات كما ضُبِطت فيه.

(٢) هذه أبيات من قصيدة جليلة في ديوانه (ص ٢٤)، و«نوادر» أبي زيد الأنصاري (ص ١٠٩ - ١١١).

(٣) رواية الديوان: «وأصفح من شتم اللئيم تكرمًا»، ورواية أبي زيد: «وأصفح عن شتم».

(٤) هو معن بن أوس، والبيتان من قصيدة له مشهورة في ديوانه (ص ٣٦)، و«شرح الحماسة» للتبريزي (ج ٣ص ٧٨ - ٨٠)، والبيت الثاني قبل البيت الأول بأبيات في الروايتين.

(٥) في الأصل: «يوم» بالرفع كرواية الديوان، وفي «الحماسة» على النصب.

(٦) في (ح): «حالة».

وقال آخر:

إذا مـا أخـي يومًـا تولَّـىٰ بـوُدِّه ... وأنكرتُ منهُ بعضَ ما كنتُ أعرِفُ

عطفــتُ عليــهِ بالمَــودَّة إنَّنــي ... علىٰ مُدْبِرِ الإخوانِ بالوُدِّ أعْطِفُ

وإغضاؤُكَ العَينينِ عن عَيْبِ صاحبٍ ... لَعَمْرُكَ أبقىٰ للوِدَادِ وأَشْرَفُ[1]

وقال آخر:

وهُجْرِ عَـدُوٍّ كَاشِـحٍ قـد سـمعتُه ... فكنتُ كَمَنْ أغضىٰ بعينٍ علىٰ قَذَىٰ

تصامَمْتُ عنه واغتفَرْتُ مكانَه ... فلم يَعْتَلِقْ بالجسم مِن قِيلِه أذَىٰ

وقال آخر:

ألـم تَـر أنِّـي إذا مـا زَوَىٰ ... صديقـي مودَّتَـه جانبـا

وقــد كنــتُ أرعــىٰ لــه حقَّــهُ ... وأطلــبُ مرضاتَــه دائبـا

وإن قــال هَــزْلًا تحمَّلتُــه ... وإن جَــدَّ أنزلتُــه لاعِبـا

صَفَحْتُ وأعرضتُ حتَّىٰ يَؤو ... بَ مـا كان مِـن حِلْمِـهِ عَازِبـا

وحتَّــىٰ يعــودَ لإحســانِه ... ويسعىٰ لِمَرضاتِنا[2] طالِبا

وألتَمِــسُ العُــذْرَ جُهْــدِي لــه ... وأجعــلُ ظنِّــي بــه كاذِبـا

وقال آخر:

لقـد أسمعُ القولَ الـذي كاد كلَّما ... تُذَكِّرُنيـهِ النَّفـسُ قلبـي يُصَـدَّعُ

---

(١) لم أعثر على الأبيات على معرفتي بها. وفي الأصل: «لغيرك»، والذي أحفظه هو ما أثبته، وبه يستقيم الكلام. وهذه الأبيات مؤخرة في (ح) بعد الأبيات التي آخرها «وأجعل ظني به كاذبا».

(٢) في (ح): «لمرضاته»، وهو خطأ.

فأُبْدِي -لِمَنْ أبداه- منِّي بشاشةً كأنِّـيَ مسـرورٌ بمـا مِنْـهُ أسـمَعُ

ومـا ذاكَ مِن عُجْبٍ به غيرَ أنَّني أرىٰ أنَّ تركَ الشَّـرِّ للشَّرِّ أقطَعُ[1]

وقال آخر[2]:

وعَـوْراءَ جـاءت مـن أخٍ فردَدْتُهـا مُسَـالِمَةً للمـرء طَالِبَـةً عُـذْرا[3]

ولـو أنَّـه إذ قـال قلـتُ بمثلِهـا ولم أَعْفُ عنها أورثَتْ بيننا غِمْرا

وقال آخر:

وعَـوْراءَ جـاءت مـن أخٍ فنبذتُهـا ورائي وعندي -لو أشاءُ- نكِيرُ

صبرتُ لها والصَّبْرُ منِّي سَجِيَّةٌ وإنِّي علىٰ ما نابني لَصَبُورُ

ومـا أنـا ممَّـن يَقْسِـمُ الهـمُّ أمـرَهُ ويَسْأَلُ مَن يَلْقَاهُ كيفَ يَسِيرُ[4]

ولكنَّني كالدَّهرِ أَشْفِي وأَشْتَفِي وأَقضِي ولا يَقْضِي عليَّ أميرُ

وقال سعيدُ بن حُمَيْد:

وكم مِن قائلٍ قد قال: دَعْهُ فلم يَكُ وُدُّهُ لك بالسَّليمِ

فقلتُ: إذا جَزَيْتُ الغدرَ غدرًا فما فضلُ الكريمِ علىٰ اللَّئيمِ؟!

---

(١) رواها أبو حيان في كتاب «الصداقة والصديق» (ص ٦٦)، وفي الأصل: «من عي»، والصواب ما أثبتناه. «والعُجْب» بضم فسكون: السرور والزهو.

(٢) هذان من أبيات رواها القالي (ج ٣ص ٦٢) بسنده عن أبي البلاد التغلبي لحاتم طي، وليست في ديوانه، والصحيح أنها من أبيات للأعور الشني، ورواها البحتري في حماسته (ص ١٧١).

(٣) اتفقت الرواية على أنها: «بسالمة العينين ...».

(٤) في الأصلين: «تلقاه» بالتاء المثناة المكسورة، وهو تصحيف خطأ.

وأينَ الإلْفُ يَعْطِفُني عليه ... وأين رِعَايةُ الحَقِّ القَدِيمِ؟![1]

وقال الزِّيَادِيُّ:

لِخليلـي علـيَّ منِّـي ثـلاثٌ ... واجبـاتٌ أُتِيحُهـا إخـواني:

حِفْظُه بالمَغِيب إن غـاب عنِّي ... ولقـاءٌ بالبِشْـرِ إن لاقـاني

ثـمَّ بَذْلِـي لِمَـا حَوَتْـهُ يمينـي ... مُسْعِدًا في الخُطوبِ أنَّىٰ دَعَاني[2]

هــذه حالــةُ الصَّديـق، فـإن ... حالَ فعِندي عوائدُ الإحسانِ

وقال سعيدُ بن حُمَيْد:

أشـكو إلـىٰ الله جفـاءَ امـرئٍ ... ما كان بالجَافي ولا بالمَلُولْ

كان وَصُـولًا دائمًـا عهـدُه ... خيرُ الأخِلَّاءِ الكريمُ الوَصُولْ

ثـمَّ ثَنَـاهُ الدَّهـرُ عـن رأيِـه ... فحَـالَ والدَّهـرُ بقـومٍ يَحُـولْ

فـإنْ يَعُـدْ أشْـكُرْ لـه وُدَّهُ ... وإنْ يُطِلْ هَجْرًا فصَبْرٌ جَمِيلْ[3]

وقال حاتم الطائي:

وما مِن شِيمَتِي شَتْمُ ابنِ عَمِّي ... ومَا أنا مُخْلِفٌ مَنْ يَرْتَجِيني

وكِلْمَـةُ حاسـدٍ مِنْ غيـرِ جُـرْمٍ ... سَمِعْتُ فقلتُ: مُرِّي فانْفُذِيني

غَبِيـتُ بهـا كأنْ قِيلَـتْ لِغَيْـرِي ... ولم يَعْرَقْ مَخَافتَها جَبِيني[4]

---

(١) في الأصلين: «وإن رعاية» إلخ، وهو خطأ.

(٢) رسمت «أنى» في الأصلين بالألف.

(٣) في الأصل: «فصبرا» بالنصب، وهو خطأ.

(٤) البيت في ديوانه ص (٢٣):

وعابُوها عليَّ فلم تَعِبْني ** ولم يَعْرَقْ لها يومًا جَبِيني

وفي الأصل: «غبيت» غير منقوطة، والذي أثبتناه أقرب ما وقع لنا، وإن لم ترد في رواية نعرفها. يقال: «غبي عن الأمر» إذا خفي عليه. والمراد هنا: «تغابى عنها وتغافل».

وقال أبو الجارود:

وعَوْرَاءَ مِن عندِ امرئٍ ذي قَرابةٍ ... تَصَامَمْتُ عنها أو طَوَيْتُ لها كَشْحِي
ودَاوَيْتُ منهُ الضِّغْنَ حتَّىٰ رَدَدْتُه ... دواءَ الشَّمُوسِ بالتَّذلُّلِ والمَسْحِ

وقال آخر:

لن يُدْرِكَ المجدَ أقوامٌ وإن كَرُمُوا ... حتَّىٰ يَذِلُّوا -وإن عَزُّوا- لأقوامِ[1]
ويُشْتَمُوا فترىٰ الألوانَ مُسْفِرَةً ... لا صَفْحَ ذُلٍّ ولكنْ صَفْحَ[2] أحلامِ

وقال عُبيد بن غاضِرة العَنْبَريّ:

إنَّا وإن كنَّا أسِنَّةَ قَوْمِنا ... وكان لنا فيهمْ مَقَامٌ مُقَدَّمُ
لَنَصْفَحُ عن أشياءَ منهم تَرِيبُنا ... ونَصْدِفُ عن ذي الجهلِ منهمْ ونَحْلُمُ
ونَمْنَحُ منهمْ معشرًا يَحْسُدُونَنا ... هَنِيَّ عطاءٍ ليسَ فيهِ تَنَدُّمُ
ونَكْلَؤُهُم بالغيبِ منَّا حَفِيظَةً ... وأكبادُنا وَجْدًا عليهم تَضَرَّمُ
فليسَ بمحمودٍ لدىٰ النَّاسِ مَن جَزَىٰ ... بسَيِّءٍ ما يأتي المُسِيءُ المُلَوَّمُ[3]
سَأحمِلُ عن قومي جميعَ كُلُومِهِمْ ... وأدفَعُ عنهمْ كلَّ غُرْمٍ وأَغْرَمُ

* * *

(١) البيتان في «الأمالي» (ج ٢ص ٤١)، و«عيون الأخبار» (ج ١ ص ٢٨٧) على اختلافٍ يسير في الرواية.

(٢) يجوز فيه النصب والرفع، انظر: تفسير البحر لأبي حيان (ج ٧ص ٢٣٦).

(٣) في الأصلين: «ما بات»، والصواب ما أثبتناه. والأبيات في هذا الفصل صححها وشرحها أخي السيد محمود محمد شاكر.

٦- تصحيحاتٌ وتعليقاتٌ متفرقة[1].

ص ٢٧:

وقد قال الشاعر[2]:

وقـارِنْ إذا قارنـتَ حـرًّا؛ فإنمـا ... يَزِيــنُ ويُــزرِي بالفتــىٰ قُرنَــاؤُهُ

ص ٢٨:

ولـن يهلـك الانسـان إلا إذا أتىٰ ... من الأمر [ما لم يَرْضَهُ نُصَحَاؤُهُ][3]

ص ١٢٠:

وقال أعرابيٌّ من بني أسد:

يقولون: «ثَمِّرْ ما استطعتَ» وإنما ... لوارثِهِ ما ثمَّر المالَ كاسِبُهْ

فكُلْهُ وأطعمْهُ وخالِسْهُ وارثًا ... شحيحًا ودهرًا تعتريه نوائبُهْ[4]

---

(١) جمعت في هذا الموضع التصحيحات والتعليقات المتفرقة التي كتبها الأستاذ محمود شاكر أو نسبها له أخوه الشيخ أحمد شاكر في تحقيقه لكتاب «لباب الآداب»، وجعلتها في الحواشي كما وردت في الأصل.

(٢) حقق أخي السيد محمود محمد شاكر أن هذه الأبيات لصالح بن عبد القدوس. وله ترجمة مطولة في تاريخ بغداد للخطيب (ج ٩ ص ٣٠٣) وفي لسان الميزان للحافظ ابن حجر.

(٣) ما بين القوسين موضعه في الأصل بياض، ويظهر أن المؤلف كتب بعض البيت ولم يذكر باقيه فأرجأه حتى يذكره، ثم بقي في الكتاب من غير إتمام. وقد وجد أخي السيد محمود محمد شاكر تتمة البيت في تهذيب تاريخ ابن عساكر (٦: ٣٧٦) منسوبًا لصالح بن عبد القدوس، وفي كتاب «الأدب والمروءة» المطبوع في مجموعة «رسائل البلغاء» (ص ٣١٤)، والكتاب منسوب لصالح بن جناح، وقد نسب مؤلفه البيت لنفسه، وهذا مما يؤيد ما يظن بعض أهل العلم أن صالح بن جناح هو صالح بن عبد القدوس، ولعله أخفى نفسه بهذا الاسم في بعض الأوقات خوف الطلب. والله أعلم.

(٤) لم أجد نسبة هذين البيتين. ولكن وجد أخي السيد محمود محمد شاكر بيتين آخرين لهما=

ص ١٤٢:

إن تقتليـه[١] وتذهبـي بفـؤادِه فَبِحُسْنِ وجهكِ لا بِحُسْنِ صنيعِكِ

ص ٢١٤:

أَلَّا تنصفني يأبا ثور؟ أنا كما ترىٰ أعزل [أَمْيَلُ] عُوَّارة[٢]

=بهذين شبه، نقلهما الراغب الأصبهاني في «محاضرات الأدباء» (ج ١ص ٢٥٢) ونسبهما لأبي الشيص محمد بن عبد الله بن رزين، وقيل: محمد بن رزين، وهما:

يقول الفتى ثمرت مالي وإنما لوارثه ما ثمر المال كاسبه

يحاسب فيه نفسه بحياته ويتركه نهبًا لمن لا يحاسبه

(١) هكذا هو هنا وفي «الأغاني»، ورأى أخي السيد محمود محمد شاكر أن الوجه أن يكون الصواب: «إن تفتنيه» من الفتنة؛ ليكون القول متسقًا مع باقي البيت. وهو رأيٌ جيد. وذكر «الأغاني» الشطر الأول في أثناء القصة بلفظ «إن سمته أن تذهبي بفؤاده».

(٢) في «الأغاني»: «أعزل أميل عوَّارة، والعوَّارة التي لا ترى معه»، وفي هذا الشرح تحريفٌ وتبديل، ولعل الصواب: «والعُوَّارة الذي لا ترس معه»، وبذلك يستقيم الكلام. و«العُوَّارة» من الألفاظ التي لم يثبتها أصحاب المعاجم التي بين أيدينا، وذكروا «العُوَّار» بضم العين وتشديد الواو، قالوا: وهو الضعيف الجبان السريع الفرار، وجمعه «عواوير»، واستشهدوا ببيت الأعشى:

غيرُ مِيلٍ ولا عَوَاوِيرَ في الهَيْـ ـجَا ولا عُزَّلٍ وَلَا أَكْفَالِ

ونحن نرى أن تفسير صاحب «الأغاني» أحرى بالإثبات في معاجم اللغة مما ذهبوا إليه. وذلك أن «الأميل» الذي لا سيف معه فيما ذهب إليه ابن السكيت، و«الأعزل» الذي لا سلاح معه، وخصَّ به بعضهم من لا رمح معه، فتمام هذين أن يذكر الذي لا ترس معه وهو «الأكشف» كما في كتب اللغة، «والعُوَّارة» كما ذهب إليه صاحب «الأغاني». ولعل التاء التي في قوله «عُوَّارة» للمبالغة، كما قالوا: علَّامة ونسَّابة؛ فإن صيغة «فُعَّال» بضم الفاء وتشديد العين من صيغ المبالغة التي يقاس عليها، يقال: رجلٌ حُسَّان ووُضَّاء وكُرَّام وطُوَّال، أي: حسنٌ ووضيءٌ وكريمٌ وطويل. كتبه محمود محمد شاكر.

ص ٢١٩:

قال: لا والله، ما أنت من المتكورين على[1] ظهور الخيل!

ص ٢٢٠:

وأَرْوِي سِنَانِي مِن دماءٍ عزيزةٍ على أهلها إذْ لا يُرَجَّىٰ الأَنَاصِرُ[2]

ص ٢٢٢:

كيف الهجاءُ ولا تنفكُّ صالحةٌ من آلِ لأْمٍ[3] بظهرِ الغيبِ تأتينَا

ص ٣٢٧:

يا من غدا جبلُ[4] الجوديِّ يحجبُه ليس التذكُّرُ عن قلبي بمحجوبِ

---

(١) في الأصلين: «المكرزين في» وهو فيما نرى خطأ وتصحيف، وصوابه ما أثبتناه من رواية «الأغاني». يقال: «كور العمامة تكويرًا» لفها وجمعها. وكان من عادة فرسانهم أن يميزوا أنفسهم في الحرب بشيء، فكان حمزة رضي الله عنه يوم بدر معلمًا بريشة نعامة حمراء، والزبير معلمًا بعصابة صفراء، وكان لا يفعل ذلك إلا خاصة الفرسان، ولذلك قال عامر: «ما أنت من المتكورين على ظهور الخيل»؛ فلما علم أنه زيد الخيل سيد الفرسان في الجاهلية ثم من خيرهم في الاسلام خنع له حتى جزَّ ناصيته، وهو من أكبر العار عندهم. كتبه محمود محمد شاكر.

(٢) في الأصلين: «الأباصر» بالباء الموحدة، وفي «الأغاني»: «الأياصر» بالياء المثناة، وكلاهما لا معنى له، ولعل الصواب ما أثبتناه، بالنون، على أن هذا اللفظ لم يرد في كتب اللغة، والرأي عندنا فيه أنه جمع الجمع من قولهم: رجلٌ ناصر من قوم نَصْر ثم أنصار ثم أناصر، كما قالوا: قَوم وأقوام وأقاوم، وبَجر وأبجار وأباجر، ورَذل وأرذال وأراذل. كتبه محمود محمد شاكر.

(٣) في الأصلين: «أذى كريم»، ولم نتبينها. ورواية «الأغاني» ما أثبتناه، وليست في ديوانه، والذي ورد في ديوانه ص ٨٣: «من آل لأي بظهر الغيب تأتيني» والقافية مكسورة، وليس فيها البيت الثاني، ولعل البيت الثاني من شعر غيره ودخل على صاحب «الأغاني» في روايته. وآل لَأْم هم بنو لَأْم بن عمرو بن طريف. أما لأي فخطأ. كتبه محمود محمد شاكر.

(٤) في الأصل: «حبك»، ولعل الصواب ما توهمناه. كتبه محمود محمد شاكر.

ص ٣٩٤:

فما كان فيكم من مدَّ ذراعًا، ولا أشالَ[١] باعًا

ص ٤٠٢:

إن يحلفوا لكَ تَسْمَعْ قولَهم وترىٰ — أجسامَ قومٍ فإنَّا بَعْدَهم أَفِنُوا[٢]

ص ٤٠٣:

إذا تَوارَيْتُ أَدْلَوْا فِيَّ أَلْسُنَهُمْ — ولا يُبَالُونَ لي باللهِ ما مَتَنُوا[٣]

ص ٤١٤:

أَرَيْتَكَ إنْ نَجْدًا أَلَظَّ بأرضِه — وَحَرَّتِه العُلْيَا الغُيُوثُ الرَّواجِسُ[٤]

---

(١) في الأصلين: «أشاك»، ولعل الصواب ما أثبتناه، من قولهم: «شال السائل يديه» إذا رفعهما، و «أشال الحجر» إذا رفعه. كتبه محمود شاكر.

(٢) هكذا بالأصلين، ولم نجد البيت، ولعل صواب إنشاده: «فإمَّا تَعْدُهُمْ أَفِنُوا»، ويريد أنك حين تخاطبهم تجدهم أولي صدقٍ وعقل وأجسام تغر، فاذا عدوتهم وتجاوزتهم عادوا إلى الأَفَن، وهو الحمق وضعف العقل. كتبه محمود شاكر.

(٣) بحاشية الأصل ما نصه: «متنوا: حلفوا»، وهذا معنى لم نجد ما يؤيده في كتب اللغة. ولعل صواب إنشاده: «ولا يبالون بي، للهِ ما مَتَنُوا» من قولهم: «مَتَنه» أي ضرب مَتْنَه وهو ظهره، ويريد قعنب: ما آذوه به بعد ما ولَّاهم ظهره. فجعل كلامهم واغتيابهم ضربًا يصيب متنَه. ولم نجد البيت في كتاب مما بين أيدينا. كتبه محمود شاكر.

(٤) هذا البيت رسم في الأصل بدون نقط تقريبًا. و«نجدا» رسمت هكذا «تحذا». وقد رجح أخي السيد محمود محمد شاكر أن يكون صواب قراءته كما كتب هنا، وشرحَه هو على ما رأى، فقال: ألظَّ المطر: دام وألحَّ .... وفي عالية نجد ثلاث حِرار مشهورات: حرة سليم وحرة شوران وحرة ليلى، وهي التي يريدها هذا الكلابي، فقد نقل ياقوت عن السكري أن «حرة ليلى» معروفة في بلاد بني كلاب.

ص ٤١٦:

ومـا بـيَ إلّا أن تَجُـودِي بنَائـلٍ لغيري ويبقىٰ لي عليكِ الذَّمَائِمُ[١]

فما بينَ تَفْريقِ النَّوىٰ بين مَنْ ترىٰ بذي المِيْثِ إلّا أن تَهِبَّ السَّمَائِمُ[٢]

ص ٤٥٥:

إذا استشارك عدوُّكَ فجرِّدْهُ النصيحة[٣]

ص ٤٥٦:

أفضل الملوك ...[٤] بالعدل ذكره

---

(١) «الذمائم» جمع «ذِمامة» بكسر أوله، وهي الذمة والحرمة والعهد، وهذا الجمع من باب جمعهم كِنانة على كنائن وغِرارة على غرائر.

(٢) في الأصل: «بذا الغيث»، ولعل الصواب ما كتبناه، و«المِيث» بكسر أوله: جمع ميثاء، وهي: الأرض اللينة السهلة تمطر فتلين وتبرد، و«السمائم» جمع سَموم وهي الريح الحارة تنشف الأحساء من الماء التي تغور تحت الرمل وتؤذي النبات والكلأ. وهذان البيتان لم أجدهما في شيء من المصادر التي عندي، وقد شرحهما أخي السيد محمود محمد شاكر بما رآه صوابًا فيهما.

(٣) كذا في الأصل. وأصل التجريد: القشر، وكل شيء قشرته عن شيء فقد جرَّدته. والمراد به إظهار الشيء، ولكنه يتعدى لمفعول واحد، وهنا استعمله متعديًا لمفعولين، ولم أجد ما يؤيده في كتب اللغة. ولعل صواب العبارة: «فجوِّد النصيحة» أي اخترها جيدة، فاذا جعلتها «جوِّده النصيحة» فعدَّيته لمفعولين حسن، حملًا لهذا على الفعل المستعمل في ذلك وهو «محضته النصيحة». كتبه محمود شاكر.

(٤) لم يمكن قراءة ما بقي من أثر هذا الموضع. وقال أخي محمود أفندي شاكر: أحسبها فيما قرأت «أفضل الملوك من سار بالعدل ذكره».

«فصل المقال في شرح كتاب الأمثال»

لأبي عبيد البكري[1]

ص ٣١١:

كرام ينال الماء قبل شفاههم   لهم عارضات الورد شم المناخر

- وعلق عليه الأستاذ محمود شاكر بقوله: «وأظنه مصحفًا، بل هو «غارضات الورد». قال: وأما «شم المناخر» فأظنه سبق قلم من الناسخ.

ص ٣٢٤:

... أبلغوا أهل ضابئ أنه شاعر حيث يقول:

لكل جديد لذة غير أنني   وجدت جديد الموت غير لذيذ

- ويقال إن الشعر للحطيئة كما في ديوانه: ١٢٠ وبعده:

له خطبة في الحلق ليس بسكر   ولا طعم راح يشتهي ونبيذ

قاله الأستاذ محمود محمد شاكر.

---

(١) قال إحسان عباس في مقدمة الطبعة الثانية للكتاب (بيروت ٤ ذي الحجة ١٣٩٠ - ٣٠ كانون الثاني يناير ١٩٧١): «شكر وتقدير: حين أصدرنا الطبعة الأولى من هذا الكتاب (سنة ١٩٥٨) كان لجامعة الخرطوم الفضل الكبير في طبعه على نفقتها، تشجيعًا منها لإحياء التراث العربي، وتقديرًا لعمل أستاذين من أساتذتها (إحسان عباس وعبد المجيد عابدين)، وأظن أن كرور الأيام لن ينسينا الاعتراف بالجميل لتلك الجامعة، ولما أدته في خدمة العلم. وقد حرصت الجامعة يومئذ أن يكون عملنا مسددًا بإرشاد عالم طويل الباع في ميدان التحقيق وفي سعة الاطلاع، وذلك هو صديقنا الأستاذ محمود شاكر الذي قرأ الكتاب قبل دفعه للمطبعة، وأرسل إلينا بتعليقات كثيرة مفيدة، أثبتنا ما يحتاج إليه القارئ منها في هوامش الكتاب».

ص ٣٢٨:

قال النابغة الذبياني، فجمع ثلاثة أمثال في بيت:

الرفـق يمـن والأنـاة سـعادة   فاسـتأن في رفـق تـلاق نجاحـا

- ليس في ديوانه ولا في العقد الثمين، وأورده العمدة ١: ١٩٢، والصدر في اللسان (أنىٰ)، وانظره في لباب الآداب: ٣٥٨ والمجتنىٰ: ٧٩ وابن عساكر ٥: ٤٢٨ والأساس (أنىٰ) وفي كلها ينسب للنابغة، **ولعله من رواية الكوفيين فيما يرجحه الأستاذ محمود شاكر.**

ص ٣٥٧:

ورمي هودج عائشة رضي الله عنها بالسهام حتىٰ صار كالفرخ المقضب.

- جاء في تاريخ الطبري ٥: ٢١٩ «وكأن هودجها فرخ مقضب»، والمقضب: المقطع، وفي المصادر الأخرىٰ شبه الهودج بالقنفذ، **قاله الأستاذ محمود شاكر.**

ص ٤٧٨:

وكانت بجيلة الخلق.

- وكان **الأستاذ محمود محمد شاكر** قد اقترح أن تقرأ «جبلة الخلق»، وهي ما أثبتناه في الطبعة الأولىٰ، وربما قرئت «مجبلة» الخلق. وفي هامش النقائض: امرأة خليقة أي عظيمة الخلق. قلت: وقد التزمنا بما في س ط بعد الاطلاع عليهما، والبجيلة: العظيمة الغليظة.

ص ٥٠٤:

فشدت علىٰ النحيين كفًّا شحيحة.

- في الروايات كما أثبتناه وهو كذلك في الأصول، **وقال الأستاذ محمود شاكر**: صوابه «كفي شحيحة»، وهو أدق، والأول جائز.

رسائل ابن حزم[1]

توجيهات وقراءات تتعلق بالجزء الأول من رسائل ابن حزم

قال الدكتور إحسان عباس: تفضل أخي وأستاذي العلامة الكبير محمود محمد شاكر، فزوَّدني بهذه القراءات لنصِّ الجزء الأول من رسائل ابن حزم (وبخاصة طوق الحمامة)، فأنا أثبتها لفائدة القراء، واعترافًا بفضل الأستاذ الكريم:

ص ١٠٩/ س: ١٣ قران وأنداد: قران وأبداد (قلت: أقترح علىٰ أخي أن تقرأ: قران وأفذاذ، فذلك أدقّ).

١١٠/ ١٢	وأشاطه: ظني أن صوابه «واستشاطه».
١١٣/ ١٢	التعديد: صوابه «التعربد».
١١٦/ ٤	وتخيل الفكر: الصواب «وتخييل».
١٢٦/ ١	قراءة برشيه «غربها وانتقاصها» هي الصواب؛ لأن «الغَرْب» هو الذهاب والتنحي عن الناس، وهو أيضًا النوىٰ والبعد، ومنه «غَرْبة النوىٰ».
١٢٧/ ٣ - ٤	اقرأ: أما نفس الحب فما في المبتلىٰ به فضل.
١٢٧/ ٧	اقرأ: ولا أحدثَ الأمورَ اثنان.
١٢٩/ ١٣ - ١٤	اقرأ: أفضل منها في الخلقة.
١٣٤/ ١٣ - ١٥	اقرأ: فإن انتظاره ... لموقف ... لأنه إشراف.

(١) (٢/ ٢٤٥- ٢٤٧)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٨٧.

١٣٥/ ١	بالتغرير: صوابه «بالتورية».
١٣٥/ ٩	علىٰ ما لا يجمل: صوابه «يَحِلّ».
١٣٩/ ٨	ويمتحي: الأجود «ويمّحي».
١٤٠/ ١٤	كتاب المحب: الصواب: كتابًا لمحبٍّ.
١٤١/ ٧	ويُحْسِن: وَيُحَسِّن.
١٤١/ ٩	ومن تعدىٰ هذه: الصواب «ومن تعرَّىٰ من هذه».
١٤٥/ ٢٠ - ٢١	فقطع كلامه المتكلم معه قلقًا واسترعىٰ ... أظن الصواب: «فقطع كلامه المتكلم معه، فانكفأ واستدعىٰ ما كان فيه....»، ويدل علىٰ هذا ما بعده.
١٥٠/ ١	فَلُمَّ بها: لعل الصواب «فتام بها» أو «فتيِّم بها».
١٥١/ ١٣	متراجعًا: الصواب «مضاغة» (قراءة برشيه) (وهي جيدة جدًا).
١٥٢/ ٥	بقية [من عقل]: لا معنىٰ لزيادة «من عقل»، يقال: في فلان بقية، وفي كتاب الله (فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد) أي فهم وحسن نظر؛ ويكون الذي بعده «أو ثَبيتِ مُسْكةٍ»، هكذا الصواب إن شاء الله.
١٥٥/ ٥	الصواب في البيت الثاني «المستبصر»، وهو الذي يتبين ما يأتيه من خير أو شرّ.
١٥٩/ ٧ - ٨	اقرأ: وتركك لقاءَه اختيارٌ.... وإدخالك الحَيْفَ عليها.
١٥٩/ ٤ - ٨	اقرأ: أسقطتَ مؤونةَ.... وهو بين الحضّ والنهي ... وتقوية لطيفة لها غَوْصٌ وعمل.... إلىٰ ما يورده من المعاني بلطفه.

١٦٤/ ١٤	اقرأ: لم يَفِضْ منها شيء باللسان (فاض صدره بسره امتلأ ولم يطق كتمه فباح به).
١٦٩/ ١	كأن له في قلبه ريبة ترىٰ: سأنظر فيها حتىٰ أهتدي إلىٰ حق صوابها.
١٦٩/ - ٨	وامتنع المناما، صوابه: إذ مُنِعَ المناما.
١٦٩/ ١٨	ولا يخلي الغير أن يعتلف: غريب جدًا ولعلها «العَيْر».
١٧١/ ٦	صوابه: وَحُدِّثَ في حُبٍّ لم يكن.
١٧٦/ ٣	الصواب: التي ينظر بها إلىٰ الكلب.
١٧٩/ ١٢	والتوبيش: صوابه بلا ريب «التقريش».
١٨٣/ ٢٠	إلىٰ أن جذت جملتها: الصواب بلا ريب «جَذَّت حبليهما».
١٩١/ ٧	مُعَرّضًا بمعرض: صوابه «مُعْرِضًا كمعَرِّض».
١٩٥/ ١١	اقرأ: وبدأ نَقْضُ الهجر (والسياق دالٌّ عليه).
٩٩/ ٣	اقرأ: وبالضدِّ انقلابهم.
١٩٩/ ٢٠	اقرأ: إلا للنظرة منه.
٢٠٨/ ١٧	أظن أنه: «وتلمّأت عليه الصفائح»
٢١٣/ ١٣	الشجاع المستقل: صوابه «المشمعلّ»، أما «المستقل» فمتكلَّف غير جيد.
٢٢٥/ ٢٠	آخر شعر في هذه الصفحة من المضارع (وليس من المتقارب).
٢٣٧/ ٥	أساورها: أرجح أن الصواب «تناويرها»، أما ما كتبت في التعليق فاحذفه، لا خير فيه.

١٨/٢٧١	«وايقاع المزح» غير مفهوم، والصواب فيما أظن «وإيقاع المرح» وإن كنت في شك من «إيقاع».
١٦/٢٧٧	مسكا: شرحه غريب، لعله «حسكا».
١٩/٢٧٧	قلَّ فلم: قَدْكَ فلم.
١٦/٢٨٩	صوابه: ففضَّت كبده.
١٨/٣٠٠	اقرأ: وبصّرنا وجه طلبها.
٩ /٣١١	قد مُحَّتْ: صواب ضبطه قد مَحَّتْ.
١ /٣١٢	كأن لم تَغْنَ بالأمس.

«الطبقات» لابن سعد[1]

(١/ ١١):

«قال: إذًا تُكْتَبُ وتُخْتَمُ ولا تُبَدَّلُ».

- وردت الأفعال «تكتب» و«تختم» و«لا تبدل» منصوبة في (ل)، **وقد علق عليها الأستاذ محمود شاكر** بقوله: «الرفع هو الصحيح عندي هنا؛ لأن ما بعد (إذن) ليس جوابًا وجزاءًا، ولا يشبه ما بعد (إذن) ما قبلها، وليس مخاطبًا به آدم، بل خوطبت به الكتبة الذين يكتبون آجال بني آدم».

(١/ ١٢):

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف:١٧٢].

- متن (ل): «ذرياتهم»، وبهامشها: وفي طبعة فليجل: «ذريتهم»، وبالمثل صيغة الجمع «ذرياتهم»، والرواية التي وصلتنا تتفق مع ما ورد بجميع مخطوطات ابن سعد التي لدينا. انظر: البيضاوي في هذا الصدد (تحقيق فليشر Fleischer ج ١ ص ٣٠١) حيث ورد: «وقرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر ويعقوب: ذرياتهم». **وقد علق الأستاذ محمود شاكر** على ذلك بقوله: «قرأ ابن كثير والكوفيون بغير ألف على التوحيد في المواضع الثلاثة (هنا وفي الطور ويس)، ووافقهم أبو عمرو على حرف يس، وقرأ الباقون بالألف على الجمع مع كسر التاء في المواضع الثلاثة (فرش الحروف في كتاب النشر ج ٢ ص ٢٦٣).

---

(١) والتصحيح للجزء الأول منه فحسب، استخرجته مما أثبته الأستاذ علي محمد عمر في تحقيقه للكتاب طبعة مكتبة الخانجي، الطبعة الأولى ١٤٢١ - ٢٠٠١، وقد قال في مقدمته (١/ ٣٩): «هذا ومما تجدر الإشارة إليه أن الأستاذ محمود شاكر قام ببعض حواشي للجزء الأول، وقد أثبتها عند موضعها في هذا الكتاب».

(١/ ١٤):

... قال: يا رب الليل أعجل قد جاء الليل، قال الله: وخلق الإنسان عجولا.

- كذا بجميع مخطوطات ابن سعد التي لدينا، وهو من معنىٰ الآية وليس بنصها، **وقد علق الأستاذ محمود شاكر** علىٰ ذلك بقوله: «ما في الأصل دالٌّ علىٰ أنه من قول الله تعالىٰ عنه، قال آدم ما قال، ولم يرده انتزاعًا من آية سورة الإسراء، وهذا مستساغ وموجود مثله».

(١/ ٢٠):

ثم أخذ قابيل بيد أخته.

- (ل): «أخيه»، والمثبت من (م) والطبري. **وعلق عليه الأستاذ شاكر** بقوله: «الصواب ما في المخطوطة (أخته)، فهو بلا شك أخذ الجميلة توأمته (لبود)؛ لأنه كان سخط القسمة حين زوَّجه آدم إقليما (القبيحة) أخت أخيه هابيل».

(١/ ٩١):

حتىٰ أراه حامل الكِلال.

- كذا في (م) وبهذا الضبط. وفي (ل): «الحِلال»، وقد **علق الأستاذ محمود شاكر** علىٰ ذلك بقوله: «كِلال -بالكسر- جمع كَلّ، وما كان علىٰ (فَعْل) في المضاعف فالأغلب في جمعه: فُعول وفِعال، نحو صَكّ وصُكوك وصِكاك. و(كَلال) بالفتح كأنه جمع كَلالة، وهم الإخوة والأعمام وبنو الأعمام (وفي الحديث: تحملُ الكَلَّ). و(الحلال) صَوابٌ أيضًا.

(١/ ١٣٧):

وهذا مكتوبٌ يقتلهم ويبير أحبارَهم.

- كذا في (م) وقد وضعت فيها علامة الإهمال تحت الراء في «يبير» والحاء في «أحبارهم». وفي (ل): «ويبز أخبارهم». **وفي تعليق الأستاذ محمود شاكر**: «نص المخطوطة هو الصواب». [والمخطوطة هي نسخة (م)، و(ل) طبعة ليدن].

(١/ ١٩٨):

وهل يستوي ضلَّال قوم تسكَّعوا.

- كذا في (م). وفي (ل): «تسلعوا». **وعلق عليه الأستاذ محمود شاكر** بقوله: «ما في المطبوعة محض خطأ، والصواب ما في المخطوطة، وهو في كتب اللغة «سكع» شاهدًا.

(١/ ٢٤٤):

من محمد رسول الله إلىٰ لُكَيز بن عبد القيس.

- رواية (ل): «الأكبر بن عبد القيس». وفي (م): «الأكثر»، والمثبت **قراءة الأستاذ محمود شاكر**.

(١/ ٣٠١):

قال: أخبرنا هشام بن محمد، حدثنا مولىٰ لبني هاشم.

- في (ل): «أخبرنا هشام بن محمد، مولىٰ لبني هاشم»، خطأ صوابه من (م). **وعلق عليه الأستاذ محمود شاكر** بقوله: «هشام بن محمد (الذي يرویٰ عنه ابن سعد) هو ابن السائب الكلبي، وهو يروي عنه في مواضع كثيرة من كتابه، وهو ليس من موالي بني هاشم؛ فالأرجح جدًّا أن يكون ما في المخطوطة هو الصواب المحض: حدثنا مولىٰ لبني هاشم. بل لا شك أن هذا هو الصواب؛ لأني وجدت بعد ذلك في كتاب البرصان للجاحظ ص ٢٧٤ ما يأتي: «ابن الكلبي، عن مولىٰ لبني هاشم عن أبي عبيدة من ولد عمار بن ياسر ...» وساق نص خبر ابن سعد، ولكنه محرَّف تحريفًا قبيحًا جدًّا».

تحرير بيت ورد في حديث في «مسند أحمد»

أورد الشيخ عبد الفتاح أبو غدة في تعليقه علىٰ كتاب «المنار المنيف» للإمام ابن القيم المطبوع سنة ١٣٩٠- ١٩٧٠ (ص ١١٩) حديث أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه في «مسند أحمد» (٤/ ٤٢١) قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فسمع رجلين يتغنَّيان، وأحدهما يجيب الآخر وهو يقول:

لا يزال حواريٌّ تلوح عظامُه زوىٰ الحرب عنه أن يجنَّ فيقبرا

فقال النبي ﷺ: «انظروا من هما؟» قال: فقالوا: فلان وفلان. قال: فقال النبي ﷺ: «اللهمَّ اركُسْهُما ركسًا، ودُعَّهما إلىٰ النار دعًّا».

ثم قال الشيخ عبد الفتاح: ووقع في البيت المذكور تحريفٌ في «مجمع الزوائد» و«اللآلئ المصنوعة»[1]، فكتبتُ به إلىٰ الصَّديق العلامة المحقق الأديب الأستاذ محمود شاكر، فتفضَّل فكتب إليَّ بتصويب البيت وضبطه وشرحه مشكورًا، كما تراه في «الاستدراك» في آخر الكتاب في ص ٢٠٠ - ٢٠١.

وقال في ص ٢٠٠- ٢٠١:

ذكرتُ تعليقًا في الصفحة ١١٩ أن البيت الوارد في ص ١١٨ توقَّفتُ في صحة وزنه وسلامته من التحريف، وأن تصويبه وضبطه وشرح معناه تفضَّل به عليَّ الصديق

---

(١) في «مجمع الزوائد» (٨/ ١٢١ ط. القدسي):

يزال حواري تلوح عظامه روىٰ الحرب عنه أن يحن فيقبرا

وفي «اللآلئ المصنوعة» (١/ ٤٢٧ ط. الحسينية):

ولا يزال جوادي تلوح عظامه ذوىٰ الحرب عنه أن يجن فيقبرا

وتحرف في مصادر أخرىٰ علىٰ أنحاء مختلفة.

العلامة المحقق والأديب الكبير الأستاذ محمود شاكر حفظه الله تعالىٰ. وهذا نصُّ ما كتب به إليَّ، جزاه الله خيرًا عن العلم والدين:

«... والبيت الذي سألتم عنه أظنه بيتًا مفردًا لم تُعْرَف القصيدة التي هو منها. وصواب إنشاده:

يزالُ حَوَارِيٌّ تَلُوحُ عظامُه زَوَىٰ الحَرْبُ عنه أن يُجَنَّ ويُقْبَرا

والذي جاء في «المسند» صحيحٌ أيضًا: «لا يزال حواريٌّ»[1]، وهو «الخَزْم» أي زيادة حرفٍ إلىٰ أربعة أحرف في أول البيت، وهذا معروفٌ مشهورٌ في علم العروض[2].

وزاد هنا (لا) لكراهيته حذفَ حرف النفي، هذا مع جواز حذفه من «لا يزال»، وله شواهد.

وقوله: «حواري» يعني «أنصاري». وأنصار الأنبياء هم الحواريُّون.

وقوله: «تَلُوح عظامُه» أي تلمَع في ضوء الشمس. والعظمُ البالي يبيضُّ، فإذا ألقت عليه الشمسُ شعاعها لَمَع.

وقوله: «زوىٰ الحربُ عنه»، فالحرب مؤنثة، وقد تُذَكَّر، وهذا البيت شاهدٌ علىٰ ذلك، إلىٰ غيره من الشواهد. و«زوىٰ عنه كذا» أي نحَّاه وعدله وصرفه، يقول: منعته شدَّة القتال أن يجد من يدفنه.

---

(١) أخرجه كذلك بزيادة (لا): ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٨٨٧٥). وكذلك ابن قانع في «معجم الصحابة» (٢/ ٢٣)، والطبراني في «الكبير» (١١/ ٣٨) و«الأوسط» (٧٠٨٠) من غير حديثَ أبي برزة.

(٢) قال محققو «المسند» ط. مؤسسة الرسالة (٣٣/ ٢٤): «هكذا في نسخنا الخطية: «لا يزال»، والبيت عليه مكسور، ويستقيم وزنه بحذف «لا»، وهي رواية أبي يعلى في مسنده». ولو سكت من لا يعلم لقلَّ الخلاف. ووقع في مطبوعة مسند أبي يعلى (١٣/ ٤٣٠): «يزول حوار ما تزول عظامه»، وكرواية أحمد في «المقصد العلي في زوائد أبي يعلى الموصلي» للهيثمي (٤/ ٣٩٤).

وأما ما جاء في «مجمع الزوائد» و«اللآلئ المصنوعة» فكله تحريفٌ وتصحيف.

وليس في وزن البيت اختلال بزيادة (لا)، إنما هو الخَزْم كما قلتُ لكم، وهو فاشٍ كثير، ولا سيما في التغنِّي وفي المساجلة ...».

رَسِيسُ الهوىٰ

بقيةُ تراثِ شيخِ العربيةِ محمود محمد شاكر

إذا غيَّر النَّأيُ المُحِبِّينَ لم يَكَدْ   رَسِيسُ الهوىٰ مِن حُبِّ مَيَّةَ يَبْرَحُ

ذو الرُّمة

وإذا صدع البينُ شملَ المحبِّين، فنأيُ أبي فهرٍ وشغلي بغيره لا يذهبان بما له في القلب من ودٍّ قديم وهوًىٰ لا يبلىٰ.

وقد قالوا إن «الرَّسِيسَ» أصلُ الحب، وقالوا هو ابتداء الهوىٰ وآخره، وهو بقيته في القلب ودفينُه، وهو مسُّه وحنينُه، ولعمري إن لي ولهذا الكتاب من كل أولئك نسبًا عند أبي فهرٍ وصهرًا.

وفي الكتاب بقية ما لم يُنْشَر من تراث شيخ العربية محمود شاكر مجموعًا من قبلُ في كتاب، من بواكير حياته إلىٰ خريف عمره، كمقدماته لتآليف غيره، ومقالاته التي خلت منها «جمهرة مقالاته» وهي سبع عشرة مقالة، ومترجماته الأدبية لبضعة نصوص عالمية، وما لخَّصه أيام دراسته بالجامعة من محاضرات أستاذه المستشرق الإيطالي نلِّينو، وحوار صحفي نادر نشر في مجلة الفيصل، ونخبة من رسائله الخاصة إلىٰ بعض شيوخه وأصحابه، ثم تصحيحاته المفردة لبعض الكتب التراثية المطبوعة مما يغفل عنه كثيرٌ من القراء والباحثين.

عملٌ غرسَه الحبُّ، وروَّاه رسيسُه التالدُ في القلب، ورعاه الوفاء المستحقُّ، والبرُّ الواجب، والاعترافُ بالفضل لعلم من أعلام هذه الأمة الكبار، وحارس من حَرَس لغتها الأمناء، وشهاب من شُهُبها الثواقب، ليبقىٰ من بعدُ كما قال هو في شيخه من قبلُ «ميراثًا نتوارثُه، وأدبًا نتدارسُه، وحنانًا نأوي إليه»، وتلك الأيام نداولها بين الناس.




٢٧

مطابع الفسطاط الحديثة sales@al-fostat.com



ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٩١٥٣٨-١-٨

المملكة العربية السعودية - الرياض - الرمز البريدي: ١٢٢٧٤
سجل تجاري: ١٠١٠٢٥٨٨٣٨ هاتف: ٩٦٦١١٢٢٥٥٤٧٣+ فاكس: ٩٦٦١١٢٢٥٠١٦٧+
www.afaqpub.com sales@afaqpub.com